هدايات دعوية معاصرة

حضرة الشيخ الدكتور سعدالله احمد عارف البرزنجي

١٤٤٦هـ ٢٠٢٤م

المقدمة

الحمد لله تعالى رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا ﷴ إمام الدعاة والمهتدين، وآله وصحبه الغر الميامين، ومن أهتدى بهديهم وسار على نهجهم مُحسنًا إلى يوم الدين، وبعد

فهذه هدايات في طريق الدعوة إلى الله تعالى استقيتها من رحيق القرآن الكريم، وعبق السُنة المُطهرة، على صاحبها وآله وصحبه أفضل الصلاة والتسليم، ومن ندى تشرفي بصحبة السادة المرشدين رضي الله تعالى عنهم أجمعين، ونفعنا بعلومهم الشريفة في الدنيا والآخرة، أضعها بين يدي اخواني وأبنائي الدعاة إلى هذا الدين ليزدادوا همة وبركة ونورًا بإذنه تعالى وهو المنعم الوهاب الكريم.

ولما رأيت أن الدعوة إلى الله ﷻ واجب كفائي مهم، يتوقف عليه نجاة الأمة وصلاحها ونهضتها، وأنها وظيفة شريفة أُنيطت بأشرف الخَلق وأسياد الناس وهم السادة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأن أعداء الإسلام ما انفكوا عن توجيه سهام الفتنة والشبهات لإضعاف الأمة وتحريف عقيدتها وتشويه أخلاقها السامية للنيل منها ونهب خيراتها أكثر فأكثر؛ وهذا يدعونا للتسلح بكل أنواع القوة لصدِ هذا الهجوم الشرس بل بأن نملك زمام المبادرة فننقل إليهم هدايات وأنوار ديننا الحنيف لنخرجهم من ظلمات الكفر والشرك والظلم إلى نور الإيمان والتوحيد والإحسان، ولا يكون ذلك إلا بهمةٍ صادقة، وقلوب قوية ذاكرة، يملكها رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع ولا دنيا زائلة عن تزكية نفوسهم وتنميتها ثم المجاهدة في خدمة الناس بدعوتهم إلى الله تبارك في علاه بالحكمة والموعظة الحسنة في ظلال الرحمة واللطف والحكمة.

ولقد كتبت ذلك من فيض دراستي لكتاب الله ﷻ، وسيرة حبيبه ومصطفاه صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم، ومن خبرة التجارب الواقعية التي عشتها فكانت هدايات لطيفة بلغة العصر، واضحة بسيطة لكنها مليئة بإذن الله تعالى بنور صدق محبة نقل الخير للغير في ظلال الشريعة الغراء، وبفهم السادة العلماء الأولياء الذين ورثوا هذا النور بالسند الصحيح

الموصول إلى منبع الصدق والصفا إمام الدعاة بالعلم والنور والرحمة سيدنا رسول الله عليه وآله وصحبه ومن والاه أفضل الصلاة والسلام.

والله تعالى أسأل أن تكون هذه السطور نورًا يهتدي به الدعاة إلى الله جل في علاه من السادة الأئمة والخطباء والتدريسين وسائر الفضلاء والفضليات ممن لهم سابقة الفضل والهمة في الدعوة إلى الله سبحانه لعلنا نُسهم في إخراج أنفسنا وغيرنا من الظلمات إلى النور، ولتعود أمتنا رائدة في ركب الحضارة والأمم، حاملة لراية الحق والنور لتتخلص البشرية من موجبات الذل والمهانة والشقاء، فلا عزة ولا كرامة ولا سعادة إلا في رياض شريعتنا الغراء.

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

إن الله تعالى أمتدح المؤمنين في قوله الكريم:

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [سورة الشورى:٣٨].

وتفعيلاً لهدايات الآية الشريفة، وتأدباً بالأدب الشرعي فيها، واستثماراً لما أنعم الله عز وجل به علينا من وسائل التواصل ينبغي أن نلتقي للتشاور، ونسأل الله جلّ جلاله أنْ يجعلنا من المُؤمنين المُخلصين[١].

ولقد أمرَ عزَّ وجلَّ حضرةَ خاتم النبيين عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه أجمعين بالتشاورِ، فقال عزّ من قائل:

﴿ــــ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ــــ﴾ [سورة آل عمران عليهم السلام: ١٥٩].

فنُريد أنْ نتشاور ونتحاور في محاور ثلاثة تخصّ حياة حضرة خاتم النبيين عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه؛ لنرى ماذا طبّقنا من هداياتها؟ وماذا يجب علينا فعله فيما غفلنا عنه؟

المحور الأوّل: حياة سيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه، منذ ولادته إلى قُبَيْل الإعلان عن نبوّته صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه.

هذه المرحلة من حياته عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه، حافلة بهدايات وإضاءات، يُمكن أنْ ينهل منها الدعاة إلى الله عزّ وجلّ، وأسأل الله جلّ وعلا أنْ يجعلنا جميعًا منهم.

---

[١]- ينبغي التأدب بآداب الشرع الشريف؛ أقول: من المُؤمنين المُخلصين لأنّنا مُؤمنون ـ الحمد لله ربّ العالمين ـ لكن هل نحن مُخلصون؟ الله جلّ ثناؤه أعلم بذلك، ونسأل الله تعالى أنْ يجعلنا من المُخلِصين المُخلَصين، إنّ ربّنا سبحانه سميعٌ مُجيب.

المحور الثاني: الأشهر الستة الأولى قبل الإعلان عن نبوته صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم إلى نزول أوّل مقطع من القرآن الكريم أو أوّل الآيات نُزولاً من القرآن العظيم.

المحور الثالث: من بدايات ما نزل من القرآن الكريم إلى هجرته صلّى الله تعالى وسلّم على ذاته وصفاته وآله وصحابته.

لماذا اخترنا هذه المحاور الثلاثة؟

لأنّ الواقع الذي نحياه الآن لا يشبه واقع حياة حضرة النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم بعد قيام دار الإسلام[1]، أي: بعد الهجرة، وإنّما يشبه ما قبل الهجرة، أمّا ما قبل البعثة فستَرَوْنَ ـ إنْ شاء الله تعالى ـ ماذا أقصد من التحاور في تلك الفترة، فالآن لا تُوجد دار للإسلام قائمة على تنفيذ شرع الله جلّ وعلا، والتشرّف بالدعوة إلى دين الله عزّ وجلّ.

هذه الفترة فيها وقائع وأحكام كثيرة جدًا، لا تُنزّل كليًا على واقعنا حقيقةً في هذا اليوم، ولا يعني أنْ نتجرّد من بعض الفرائض التي فرضها الله سبحانه بعد الهجرة، كلا، ليس هذا المقصود، وإنّما هو حصر مسؤولياتنا بوصفنا دعاة إلى الله جلّ جلاله وعمّ نواله في فترة موصوفة مُطابقة للفترة المكية، أي قبل هجرة خير البريّة عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه هداة الأنام، ولكنْ بصفتنا دعاة لابُدّ أنْ يكونَ لدينا تأمل ونظرة واعية لحياته صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم قبل الإعلان عن نبوّته[2].

---

[1] ـ دار الإسلام: الدولة (التي تتألف من الإسلام سدى ولحمة، وتطبق فيها الشريعة الغراء تطبيق شمول وعموم بحسب خواص هذه الشريعة ـ ابتداء من نظام الحكم وانتهاء بأبسط عمل من أعمال المسلمين ـ وهذه غير موجودة على وجه الارض اليوم) معالم الطريق في عمل الروحي الإسلامي للدكتور عبد الله مصطفى الهرشمي، ص ٣٥ـ٣٦.

[2] - لماذا ألتزم بقول: قبل الإعلان عن نبوّته؟ لأن نبوة الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم قديمة؛ والأدلة على ذلك كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ=

المرحلة الأولى

بصفتك داعية إلى الله عزّ وجلّ ماذا تستفيد من حياته صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم منذ أنْ وُلِدَ إلى أنْ نشأ وترعرع وصار في بداية الشهور الستة الأولى قبل الإعلان عن نبوّته؟.

الجواب: نستفيد بأننا سنجد فيها أنّ شخصية الدّاعي تَبرُز منذ نعومة أظفاره، ومعنى ذلك أنّه لابدّ أنْ تعتني بشخصيتك إذا أردْتَ أنْ تصبح داعيًا مقبولاً عنده سبحانه، وعند الناس، فالرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم بالرغم من شرف معدنه وزكاة قلبه، نجد أن رعاية الله عزّ وجلّ له كانت موجودة، وفي صور شتى منها حادثة شقّ الصدر، وأنّه لمّا أراد أنْ يحمل الحَجَر، وأشار عليه عمّه بنزع إزاره، سقط مغشيًا عليه! لأنّ هذه الأمور لا تليق بمَنْ سيكون داعيًا إلى الله جلّ ذكره.

وموضوع أمانته وصدقه، إلى درجة أنّ كلّ أهل مكّة ليس عندهم بنك مضمون لأماناتهم ـ إنْ صحّ التعبير ـ إلّا الصدق والأمانة التي عنده عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه ومَنْ والاه، بأبي هو وأمي وروحي.

= ﴿مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [سورة آل عمران عليهم السلام/الآية ٨١]. ولأنّ سيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه ومَنْ والاه، أفصح عن نفسه، وبيّن وظيفته ومكانته، فقال: (كُنْتُ نَبِيًّا وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ) الإمام الترمذي رحمه الله عزّ شأنه. إذن هو نبيّ، ولكن متى أُعلِنَ عن نبوّته؟ أُعلِن عنها عندما نزل القرآن الكريم، وقال له سيّدنا جبريل عليه السلام، كما في الحديث الشريف: (سَمِعْتُ مُنَادِيًا يُنَادِي مِنَ السَّمَاءِ يَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَأَنَا جِبْرِيلُ) الإمام البيهقي رحمه الله سبحانه.
فهذه الفترة هي التي أُعلن فيها عن نبوّته بالشكل الذي يُوجِبُ التكليف على العقلاء، ولكن قبل ذلك هو نبيّ في علم الله تعالى، وهو نبيّ في علمه المكنون صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه، وليس العلم المنشور الذي أُمِرَ أنْ يُبلِّغ به، ولو لم يعلم ذلك فكيف كان الحَجَر يُسلم على حضرته في مكة، قال صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم: (كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ) الإمام مسلم رحمه المنعم جلّ جلاله.
أي: قبل أنْ يأمرني الله تعالى بمهام النبوّة.
وعلى العموم فهذه الأمور ليست ضرورية جداً لنُدقِّق فيها ونتمسّك بها، وهي وجهات نظر يُمكن أنْ تتعدّد؛ فلا ينبغي الجدال لقوله صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم: (مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ) الإمام الترمذي رحمه الله جلّ وعلا.
والمطلوب هو معرفة وجهة نظري فقط، فمَنْ يُريد الأخذ بها فله ذلك وإلّا فلا، فليس من ثقافتنا الشرعية الإلزام الحتمي، فكلّ هذا يدور في رياض الاجتهاد، وأسأل الله تبارك اسمه أنْ يجعله صوابًا.

لا تقل إنّ عمري قد تجاوز الستين، بل عُد إلى نفسك، وتبْ إلى ربك جلّت صفاته، لترى مدى أمانتك وصدقك، خاصةً مَن ابتلي بإدارة المساجد، فالمساجد فيها ما فيها من أمانات، وأسرار المُصلين والمُصليات الذين يأتون ويكشفون لك عمّا في مكنون قلوبهم وأُسَرِهِمْ وعشائرهم، فهنا تبرز أمانتك وصدقك.

يا أحبابي هذا مما ينبغي الوقوف عنده كثيراً مع التأمّل بعمق، ودراسة فاحصة لهذه المحطات العظيمة، التي جُبِل عليها سيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، فهو بشر لكنه بمواصفات خاصة، لا تُوجد عند غيره، ولكن لا يعني هذا أنّنا نُخرجه من دائرة البشرية؛ لأنّ ذلك مُناقض لصريح النصوص من الكتاب العزيز، مثل قوله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة فصلت الآية ٦].

وكذا من السُنّة المُطهّرة، مثل قوله صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم:

(إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، وَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلاَ يَأْخُذْ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ) الإمام البخاري رحمه الله تعالى (٩، ٢٥٥).

إذن فحضرته بشر غير مُعتاد، ذو مُواصفات خاصة، ولأنّه كذلك كانت عنده دوافع بشرية، مع كلّ هذه العناية الربانية، فمثلاً: لمّا قال لأخيه في العمل:

(أَبْصِرْ لِي غَنَمِي حَتَّى أَسْمُرَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ بِمَكَّةَ كَمَا يَسْمُرُ الفِتْيَان) الإمام ابن حبّان رحمه الرحمن جلّ ذكره.

مكّة المكرمة في ذلك الوقت دولة الأصنام والظلم والتعسف، وغيرها من المفاسد الفكرية والسلوكية الموجودة عند كثير من أهلها، إلّا القليل الذين لا يُقاس عليهم، فالطابع العامّ طابع اللّهو والفجور والفسوق، فبشريته عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام دَعَتْهُ إلى ذلك،

مع أنّه قد أُزيل حظّ الشيطان من قلبه الشريف مذ كان صغيرًا، ودعنا نفهم معنى حظ الشيطان على نحو بسيط، لأني لا أريد أنْ ندخل في قضايا فلسفية؛ فهذه مباحث خاصة قد لا يُدركها كثير من الناس، ولنا هداية مُباركة من قول سيدنا علي رضي الله تعالى عنه:

(حَدِّثُوا النَّاسَ، بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ، اللَّهُ وَرَسُولُهُ) الإمام البخاري رحمه الله تعالى (١، ٣٧).

ولا تقل: إنّه صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم كان معصومًا محفوظًا، وفي رعاية الله تعالى، فتمّ له ما أراد، وأنا لستُ مثله، نعم صحيح، هنالك فرق بينك وبينه من السماء إلى الأرض، بل أبعد، ولكنّ هذا لا يعني أنْ تُطلق العنان لنفسك الأمّارة بالسوء، وإنّما ينبغي أنْ تلجمها وتُحاسبها.

لقد جعل الله جلّ في علاه الرسول صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه لك قدوة:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [سورة الأحزاب: ٢١].

فما عندنا قدوة غيره صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه، فإذا قلت: إنّه قدوتي، فأين اقتداؤك؟ كم هي نسبة اقتدائك؟

لابُدّ أنْ يكون عندك مقياس تقيس به هذه النسبة، مثلا: في العام الماضي خُنْتَ أمانةً أو كَذَبْتَ في مقولة ـ العياذ بالله تعالى ـ فما هو حالك في هذا العام؟

لابُدّ أنْ تُحاسب نفسك، وإلّا، فو الله من الأشرف لنا أنْ نعتذر للناس، ونقول لهم: نعتذر منكم، هذه مساجدكم خذوها، وسنذهب لنعمل في النجارة أو الزراعة، فهذا أسلم وأشرف لنا في الدنيا والآخرة أو أنْ نُحاسب أنفسنا، ونكون صادقين في كلّ المُداخلات.

لقد كان سيّدنا رسول الله عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه أجمعين يعلم بأنّه نبيّ، وهذه وجهة نظري الخاصة، فلستم مُلزمين بأخذها أو نشرها بين المُسلمين، فالمُسلمون ليسوا بحاجة إلى مشاكل أكثر حتى نُثير لهم مسائل من الناحية العملية، فالمُهم أن سيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم هو قدوتنا، وبالرغم من علمه بأنّه نبيّ لم يقل: طالما أنّني نبيّ فَلِمَ لا أذهب وأستعجل وأبرز نفسي، وأقول: أنا نبيّ، فاسمعوا واطيعوا؟

نستفيد من ذلك مثلا: قبل أن تأخذ إجازة في قبول السالكين لا يجوز لك أنْ تقول: أنا أتهيأ لأجل أنْ أكون مجازًا بقبول السالكين، لا يصحّ لك أنْ تفكّر بأنّك ستُصبح مُرشداً، والأفكار هذه التي تخطر على قلبك، وتعيش معها، ثمّ تتفاعل معها مرفوضة تمامًا.

لقد دخلتُ إلى الجلسة التي أجازني بها سيّدي حضرة الشيخ عبد الله قدّس الله تعالى سرّه بالإرشاد وأنا خائف أرتجف مِنْ أنْ يقول لي: أنت لم تقم بواجبك، فلا تفتح ختمًا، ولا تقبل سالكًا، وصُعِقتُ لمّا قال لي: سأجيزك بالإرشاد.

قولك: أنا سأصبح مُرشداً! أنا أُصبح كذا...إلخ! كل هذا ليس من عَمَلِنا، فهذا عمل ربّ العالمين جلّت قدرته، انظروا إلى الرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم كان يعلم بأنّه نبيّ، فقد كان الحَجَر يقول له: السلام عليك يا رسول الله، لكنه لم يعتمد على ذلك، ويبني عليه حُكمًا؛ فيأتي قومه ويُعلنها بكلّ أجهزة التواصل، وبكلّ (المجموعات)!.

إذن فهدايات الحبيب عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه قبل بعثته عميقة ودقيقة، تحتاج إلى أنْ نقف عندها وقفة تمحيص، وأنْ نفهمها ، فكأنّه يُعلّمنا قبل النبوّة أنّ هناك فطرة في النفس تدعو إلى توحيد الله عزّ وجلّ، انظروا إلى هذه الفطرة بقيت نقيّة، بل إن أنقى فطرة هي فطرة الحبيب، وقلب الحبيب عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه، لكنّها دار ابتلاء واختبار، والنوازع تعمل، وتندفع حتّى نتعلّم، فلا يقول قائل: إنّ حضرة النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم كان معصومًا، وأنا لست كذلك، فأُرخي الحبل لنفسي لترعى حيث تشاء في الشهوات والمُنكرات، ودعني آخذ هذه، وأتكلّم هكذا، وأتكلّم مع تلك على وسائل التواصل إلخ، نعوذ بالله تبارك اسمه.

فسيّدنا الرسول صلّى الله تعالى وسلّم على ذاته وصفاه وآله وصحابته، ذهب يبتغي اللهو ليُثبت الله عزّ وجلّ لنا بأنّه بشر، عنده نوازع بشرية، لكن لِمَ هذه النوازع البشرية؟

لأنّه سيكون نبيًّا، ليس لقومه فقط، ولا للأمة العربية فقط، ولا للنّاس في حياته التي عاشها فحسب، وإنّما هو نبيّ إلى آخر الزمان، فهذه الشخصية سيتولاها الله عزّ وجلّ بكلّ تأكيد، ولذا فعندما ذهب سيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه ومَنْ والاه يطلب اللهو بدافع نوازعه البشرية ضُرب على أذنه الشريفة فنام، ولم يستيقظ إلا على حرارة الشمس، ولكي نقطع الطريق أمام أنفسنا، ولا نقول إنّها صدفة؛ فالنفس دَعَتْهُ، فعاد مرّة أخرى، فحصل له مثل ما حصل في المرّة الأولى؛ لأن الله عزّ وجلّ يُريده داعيًا إليه سبحانه.

كلّ حياة سيّدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام هدايات لنا، وعندما نقول ذلك لا يعني أنّ حضرته عنده نَفْسٌ، حاشا لله عزّ وجلّ، ولكن نقول: حتّى بعد النبوة أجرى الله جلّ وعلا عليه بعض الأقدار حتّى يُعلّمنا، وهذا رأيي الشخصي، وقد ذكرته في الموقع المبارك: www.saadarif.com

فمثلاً: سهوُه صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، فالسهو لا يليق بالعبد، فالعبد يُحاول بكلّ ما أوتي من قوة ألّا يسهو، ولكن أنتَ في دار الدنيا، وبين أعداء، ومع نفس أمّارة بالسوء، فإذا لم يجعل الله سبحانه حضرة النبيِّ صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه يسهو، كيف سنتعلّم الصلاة:

(صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي)؟ الإمام الدار قطني رحمه الله تعالى.

ولأن النبي صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم رحمة للعالمين:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: ١٠٧].

وهؤلاء الأئمة الذين يتقدّمون في الصلاة هم من العَالَمِيْن أيضًا، فلو لم يسهو النبيُّ عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه، لكَثُرَ الكلام بالسوء عنهم إذا سهوا في الصلاة، فالحبيب صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم رفع عنهم الحرج، لأنّه سَهَا في صلاته فلا يستطيع أحد أنْ يتوجه إليهم باللوم والعتاب بعدئذٍ.

لقد أجرى الله سبحانه عليه السهو لِحِكَمٍ، منها: هاتان الحكمتان، ففي الأولى: تشريع، وفي الثانية: رحمة بالأئمة حفظهم الله تعالى وهداهم رُشدهم.

وفي واقعة أخرى خاصة بفعل الله عزّ وجلّ مئة بالمئة، فقد جعل الله جلّ جلاله الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه مباركًا، فبمُجرد أنْ تشرّفتْ بحضرته السيدةُ حليمةُ رضي الله تعالى عنها، أمدّها الله عزّ وجلّ بمدد يعلم به سبحانه، تجسّدَتْ في بعض المظاهر التي وَعاها النّاس، ومظاهر أخرى لم يَعِهَا إلّا السادة المُرشدون الكاملون رضي الله تعالى عنهم الذين يكشِف الله جلّ وعلا لهم بعض ما نالته هذه السيدة العظيمة من حظوظ ومواهب من سيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه، فمنها مواهب معنويّة، وأخرى ماديّة محسوسة قد ظهرت بعضها، منها: المرابع التي انقلبت إلى أرضٍ خضراء، وكثر الخير في بيت السيدة حليمة رضي الله تعالى عنها، ومن قبل لا يُوجد ضرع في بني سعد يبضّ بقطرة حليب.

فأنتِ أيّتها النفس بوصفك داعية إلى الله تقدّست أسماؤه ماذا تستفيدين من هذه الأمور؟

ستستفيدين أنّه كلّما كنتِ أطهر وأزكى كلّما كنتِ ـ إنْ شاء الله تعالى ـ أكثر جلاءً وتأثيرًا وبركةً ورحمةً لخلق الله عزّ وجلّ، ورحمة لذاتِك ولأسرتك، فأنا أحاسب نفسي، وأقول: كيف هي أسرتكِ وبيتكِ؟

أين هي بركتكِ عليهم؟ أين مُداراتكِ لهم؟ أينَ خدمتك لهم؟

وعلى العكس، فأحياناً تكون القضايا المعنوية أكثر وأكبر بكثير من القضايا المادية، فما الفائدة إنْ بنيتُ بيتًا جديدًا لأولادي وزوجتي، ولكنّي أقسو عليهم ليلًا ونهارًا، فلا احترام ولا تقدير؟ أيّ بيتٍ هذا!؟ لأنْ تجلسَ في المقبرة أفضل!

إذن هذه الوقفات ضرورية للتأمّل حتّى فيما يخصّ فعل الله تبارك اسمه، فلابُدّ أنْ نستفيد منها إنْ أردنا أنْ نكونَ دُعاة حقيقيين مُؤثرين في المجتمع، فمثلا تقف عند مُشاركة الحبيب عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم وآله وصحبه المُكرمين، في حلف الفضول الذي أنشأه سادة قريش بعد أنْ انتعشت الفطرة عندهم، ورأوا أنّ الظلم قد تفشّى وانتشر، وسار في النّاس سريانَ النار في الهشيم، فتحالفوا أنْ يكونوا مع المظلوم حتّى يردّوا إليه مظلمته، فالنبيّ صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه شارك في ذلك الحِلف، فماذا تفهم من هذا؟

لابُدّ أنْ تكون لك عناية بأمور النّاس، بشؤون الخلق قدر المُستطاع، فإذا أعطاك الله عزّ وجلّ حكمة فبُثّها في الخَلق، أدعُهم لها، وإنْ كان عندك عِلمٌ فحاول أنْ تنشره، وهكذا.

مثال آخر: الحبيب صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم اختِيْرَ لأنْ يضع الحَجَرَ الأسعد في موضعه، في قصّة بناء الكعبة الشريفة، فلماذا اختير هو بالذات؟

صحيح بإرادة الله عزّ وجلّ كان عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام أوّل داخل للحَرَم المُحترم، لكن لو دخل غيره فهل سيتفقون عليه كما اتفقوا على حضرته؟

لا أظنّ ذلك، فلو كان الداخل غيره فلا أتصور أنَّ القبائل العربية سوف ترضى به؛ لأنّهم ذكروا العلّة، قالوا: هذا الأمين، رضينا، هذا الأمين، من أين له هذه الشهرة بالأمانة؟ من أين أتى بها؟ هل أتي بها من فراغ؟

كلا ، لم يأتِ بها من فراغ، بل أتى بها من تعامله مع النّاس، ومن خبرة النّاس به.

إذن كيف أستطيع أنْ أقف على المنبر والنّاس يتهمونني، ورأوا عليَّ أشياء غير طيبة، وأنا في قرارة نفسي أعلم بها أيضًا؟

كلّكم تعرفون قصّة بداية هدايتي للمنهج الحقّ، فقد كنتُ أخطب على المنبر غافلًا، فأتى الله جلّ جلاله لي بهذا الولي الكبير قدّس الله تعالى سرّه العزيز، حضرة الشيخ الدكتور عبد الله مصطفى الهرشمي طيب الله تعالى روحه وذكره وثراه، وعطَّفَ قلبه الشريف علينا في الدنيا والبرزخ والآخرة، فأنقذني الله عزّ وجلّ به.

فالموضوع إخواني يحتاج إلى صدق وإخلاص، يحتاج إلى مُراجعة، فأريد أنْ نرجع إلى حياة الرسول الأعظم صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه في أيّ مصدر من المصادر، فالعلم ما شاء الله تعالى أصبح متاحًا، فبكبسة زرٍ تستطيع أنْ تصِل إلى أيّ معلومة تُريدها.

حاسب نفسك أيّها الإنسان المسكين، وقل هذه حياة سيّدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه، وأنا أمثّلُه، أقِف على منبره، وهذه المنابر لها سَند للنبيّ صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه، فهو مَنْ شرّع الوقوف عليها، وهو مَنْ أذِن أنْ يُصنع له المنبر، فالمنابر لحضرته، وليست لأحدٍ، فلم يأتِ بها مَلِكٌ من المُلوك أو ثريٌّ من الأثرياء، بل الحبيب صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم.

كما أنّ المساجد سندها له، على الأقل نحن نتحدّث عن زمانه عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه، وإلّا فسندها إلى الله عزّ وجلّ:

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [سورة الجنّ: ١٨]

لكنّه عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه هو مَنْ أمر ببنائها، بل وشارك في بنائها، وحثّ على طهارتها، وحماها من الأفكار الضالة التي تشتت المُسلمين، كما فعل عليه الصلاة والسلام مع مسجد ضرار؛ إذ أمر بهدمه بعد أن أتخذه المُنافقون وسيلة للتفريق بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ تعالى وَرَسُولَهُ صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم، قال ربنا سبحانه وتعالى :

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ * أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة التوبة : ١٠٧–١١٠].

وذكر ابن هشام في سيرته أن رسول الله ﷺ أمر عمار بن ياسر ، و مالك بن الدخشم مع بعض أصحابه رضي الله تعالى عنهم وقال لهم: (انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وحرقوه، ففعلوا) .

وقد روى الامام الحاكم رحمه الله تعالى أن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ كان يقول: (رأيت الدخان من مسجد الضرار حين انهار).

ليس المراد من التوجيه والمحاورة والمُشاورة كثرة المعلومات، أو إلقائها بشكل رنّان، بل المقصود منها المُحاسبة، فكفاكِ أيّتها النفس غفلة، فإلى متى نبقى غافلين، النّاس يموتون من حولنا في الأرض على نحو عام، ونسأل الله تعالى العافية؛ فماذا ننتظر؟ متى نُصحّح؟

وفي ضوء المحاسبة والمُراجعة يقول الله عزّ وجلّ:

﴿--- حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة الأحقاف: ١٥].

هذه محطة ضرورية جدًا؛ وغالبًا بعثة الأنبياء عليهم الصلاة السلام في الأربعين، وأحيانًا أُلاطف بعض الأحباب الذين بلغوا الستين، وأقول لهم: كلّنا نُحبّ الرياضة، ونُتابع أخبارها، ففي نهاية المُباراة يُعطي الحكم دقيقتين أو أكثر بدلاً عن الوقت الضائع؛ فنحن الآن في الوقت بدل الضائع، ولا ندري متى تنتهي اللعبة، لعبة الحياة الدنيا، فسألني أحدهم: الحياة لعبة؟

قلتُ له: لستُ مَنْ أقول هذا، وإنّما مَنْ خلقها قال ذلك:

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [سورة الحديد: ٢٠].

فقال: كأنّي أسمعها لأوّل مرّة.

أذنْ أرجو أنْ تأخذ منكم هذه المرحلة عناية شديدة، تجلسون سويّة، أو كلّ واحد منكم يفكّر ويتأمل بمفرده أو تَجمعون بين الحُسنَيَيْنِ، المهمّ تتفاعل مع الموضوع بقرارة نفسك، وخصوصية بحثك، وجلساتك العلمية، فهذا ضروري جدًا، وخاصة في هذه المرحلة، فالبشرية بحاجة إلى هداة، البشرية بحاجة إلى دُعاة.

وقد يقول قائل: قد فاتني القطار، وصارت عندي صفة معينة عند الناس، كلا يا أيّها الأخ الكريم، فإذا أخلصتِ أيّتها النفس لله عزّ وجلّ فإنّه سبحانه يُغيّر نظرة النّاس إليك، ويُنسيهم شخصيتك القاتمة، يُنسيهم هذه المثالب، ويُبرّز لهم ـ إنْ شاء الله تعالى ـ المحاسن والمواهب.

ومن ناحية أخرى فإذا كنتَ راضٍ بهذا القدر الذي بَنَيتَهُ، وتقول: ليس لدي قدرة أكثر من هذا، فأرجو أن تُفكّر في أحد أولادك على الأقلّ، تقول: سأحاول أنْ أربّي ابني على تجاوز

الأخطاء التي صارت في حياتي، فإنْ لم يكن عندك ولد فابنتك، فالبنت ليست قاصرة بالدعوة إلى الله عزّ وجلّ، واقرأوا سيرة النساء المُباركات مثل السيدة حليمة رضي الله سبحانه عنها هيأها الله جلّ وعلا لتكون مُرضعة للرسول عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام، وأسماء، وعائشة، وخديجة رضي الله تعالى عنهنَّ، فعندنا الكثير من الأمثلة، فابنتك اجعلها داعية، زوجتك اجعلها داعية، فإذا قلت: هؤلاء لا أقدر عليهنَّ، فالمُصلون الشباب في المسجد، حاول أنْ تختار أمْيَزَهم وأذكاهم وأفضلهم مكانة ومرتبة، واطلب منه أنْ يُحقّق هذا الهدف، أنْ يكون داعيًا إلى الله جلّ في علاه.

إن دراسة هذه المراحل من باب تحفيز عقولنا لأجل البحث والتنقيب، لا لأجل الفلسفة أو الترف الفكري، بل لإثراء الجانب التطبيقي في مجال الدعوة إلى الله تبارك وتعالى والاستعداد لها، ومن مُقتضيات هذا الاستعداد أن تسأل نفسك: كيف أربّي نفسي على هدايات هذه المواقف؟ وكيف أحاسبها حتّى أكون مُتشرّفًا فِعْلًا بهذه الصفات العظيمة الجليلة؟

كلمة الجليلة والمهيبة لا تُعطي هذه الصفات حقّها، بل حتى لو جمعنا كلّ ما عندنا من المُرادفات التي تدلّ على مرتبة ومكانة هذه الهدايات لا تكفي في بيان حقيقتها.

إذن أنت تُجاهد نفسك وتُحاسبها وتسألها: ماذا استفدت من هذه الهدايات؟ ما الدرجة التي تُعطيها لنفسك في هذا التدرّج والتشرف والتفاعل والتميّز؟

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى: فالجانب التطبيقي ليس مُقتصرًا في حدود ذاتي فقط، أي على تربية نفسي، وتقوية روحانيتي وسلوكي، وإنّما الجانب الثاني: ما المساحة التي استطعتُ أنْ أزرع فيها هذه الهدايات أو أبثّ فيها من أنوار وبركات هذه الهدايات؟

إذن البحث والتنقيب والتأمّل والتدبّر ليس للترف الفكري ـ نعوذ بالله ـ وإنّما لإثراء الجانب التطبيقي بجناحيه:

الجناح الذاتي النفسي: الذي يخصّ المُتحدّث والمُتأمّل والمتفكّر نفسَه.

والجناح الثاني: الذي يخصّ الأمّة، فكم أثّرتَ؟ وكم بنيتَ؟ وكم زرعتَ؟

لقد عمل النبي صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم في رعي الغنم، وبعد ذلك عمل في التجارة، فهنا نحتاج إلى تأمّلٍ كثيرٍ وعميق؛ لأنّنا إلى الآن لم نصل إلى مرحلة الإعلان عن نبوّته ـ عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه أجمعين ـ وتكليفه بالتبليغ، فماذا يُشكّل العمل التجاري والمادّي في حياة الدّاعية إلى الله عزّ وجلّ؟ لماذا لم يرضَ بأنْ يقول: أنا يتيم، وهناك مَنْ يتكفّلني، إذن أبقى مُرتاحاً ألهو وألعب؟ لماذا آخذ غُنيمات وأصعد بها جبال مكّة وبطحائها مُتحمّلًا المخاطر؟

لابُدَّ أنْ نفكّر في إنّ ذلك العهد يختلف عن عصرنا، فالحياة كانت على سجيّتها ـ على فِطرتها ـ فلو ذهبت خارج الدار ستجد العقارب والسباع الضواري التي لا ترحم، بل ربّما تجد الأفاعي معك داخل دارك.

ولم يكن السفر وقتئذٍ بسيّارات فارهة، بل كان على الأقدام والدواب ـ أجلكم الله تعالى ـ ولا يخفى ما في ذلك من مخاطر في تلك البيئة القاسية، ويُمكن القول بأن المُسافر أشبه بمن باع نفسه إلى أنْ يعود، فهو في خطر مُحقق غالبًا، حتّى لو كان ضمن قافلة لها حرّاس، فستبقى هناك مخاطر طبيعية وبشرية، فضلًا عن الحيوانات المُفترسة والحشرات الضارّة.

فلماذا أتحمل كلّ هذه المخاطر، وهناك مَنْ يتكفّلني ؟

فهنا كأنّ الله عزّ شأنه يقول لنا: أيّها الإنسان، أنا زرعتُ في فطرتكَ تعمير الأرض، وتعمير الأرض بالمستوى الذي تتشارك فيه كلّ المخلوقات هو الجانب المادي، ففي هذا الجانب حتّى البقرة ـ أجلّكم الله تعالى ـ تُعمّر الأرض، والنحلة تُعمر الأرض، ولكنّهم يُعمّرونها في الجانب المادي، أي إنّ وقوفهم بين يدي الله تبارك في علاه، علاقتهم بالله جلّ وعلا هي علاقة فطرية لا نفهمها نحن، فكيف الحال مع النحلة مثلاً في قوله تعالى:

﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ . . . ﴾ [سورة النحل: ٦٨].

كيف نفهم قول الله سبحانه: ﴿...سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ...﴾ [سورة الحج: ٦٥].

ما كيفية هذا التسخير؟ ما هذا الخَلق؟ ما هذه الإرادة؟ نحن غير مُكلفين أنْ نعرف كيفيتها، المهم أنْ نعلم أنّها تخدم الأرض، وأنّها مُسخرة لتعمير الأرض.

فيا أيها الإنسان، أنت مخلوق من هذه المخلوقات، ينبغي عليك فطرةً أنْ تبدأ بتعمير الأرض، وكلّ إنسان يرى في نفسه خلودًا إلى الراحة المُترفة المُتخمة التي تُؤثّر به وتجعله يُقصّر في أداء هذا الواجب الفطري فليعلم أنّه مريض، وهناك عِلّة في فطرته وتربيته.

لاحظت قبل فترة في بيت ابنتي ـ حفظها الله تعالى ـ عندها ولد صغير وبنت صغيرة ـ حفظهما الله تعالى ـ الولد ـ سبحان الله ـ عينه على الباب، فبمُجرّد أنْ يُفتحَ الباب يسعى يُريد الخروج من البيت، أمّا البنت فهي دائمًا تلهو عند خزانة الملابس؛ تبحث فيها، تذهب عند الطبّاخ، إلى المخزن، فقلت: سبحان الله، هذه بنت خلقها الله جلّ وعلا، وجعل أكثر راحتها وسعادتها أنْ تكون مُستقرة في بيتها، في مأواها، وذاك ولد خلقه الله سبحانه، وجعل ارتياحه خارج البيت، فلذلك عَيْنُهُ على الباب، فبمُجرد أنْ يغفلوا عن الباب يخرج، وهذا فيه من دوافع الفطرة السليمة، فنحن لا نضربه أو نمنعه، وإنّما نخرج معه ونُراقبه ليخرج ويرى، وليتعلّم من الطبيعة ما شاء الله تبارك وتعالى له أنْ يتعلّم.

فخروجه صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه في هذه الوظائف والواجبات دليل على تمام فطرته ونقائها وصفائها، وبالتالي يكون لنا قدوة في هذا.

وأنتَ ماذا عمِلتَ في حياتك؟

لديك قابلية ـ قدرة ـ على أنْ تُدير وظيفة، وفوقها عندك قابلية أنْ تعمل عملاً آخر، أعملتَ عملاً آخر أم لا؟

لابُدّ أنْ يُحاسب المرء نفسه، حتّى يرى ما مَدَياتِ التزامه بدوافع فطرته السليمة.

ولأنّ الله عزّ وجلّ قدّر لي أنْ أُختَبَر وأُمْتَحَن بأنْ أكون خادِمًا ـ مرشدًا ـ لكم فهذا يُوجب عليَّ أنْ أفتح لكم بعض الصفحات من تاريخ حياتي:

أذكر أنّ والدي رحمه الله تعالى كان مُتمكّنًا في حياته، لأنّه إضافة لكونه عالمًا وخطيبًا وواعظًا، ما كان يكتفي بهذا، بل كان عنده محلّ لبيع القماش، وفتح منه فرعًا آخر للخياطة، فكان يُخيط بعض الملابس، وقبل ذلك في الستّينيات حتّى بداية السبعينات كان والدي ـ رحمة الله تعالى عليه ـ عنده محلّ بالسعديّة ـ مدينة عراقية في محافظة ديالى ـ لبيع القماش، ويخيط بعضها، ويكوي الملابس أيضًا، وما زلت أتذكر تلك المُكواة التي كانت تعمل بالفحم آنذاك.

إذن والدي ـ رحمة الله تعالى عليه ـ كان مُتمكنًا، عنده بيتان، ومكاسب أخرى، ولستُ بصدد ذكر ما يملك، ولكن لأبيّن لكم، فكان يعمل في البستان بيده، ويذهب إلى المسجد يؤمّ الناس، ثمّ يذهب إلى المحلّ، وأنا صغير أذهب معه أنظر وأتعلّم، أذكر في أكثر من مرّة ذهبت معه إلى البستان أحيانًا في وقت متأخّر من الليل لأنّ دوره في السقي قد حان، فيجب أن يذهب ليَسدّ مجرى الماء عن بستان جيرانه، ويفتحه على بستانه، كنت أذهب معه وعمري آنذاك خمس سنوات أو أقلّ من ذلك، وبعد ذلك نشأت وكبُرتُ، إلى أنْ تزوجتُ فتكفّلتُ بجميع مصاريف زواجي، ولم أقبل أنْ يتكفّل والدي بها، فكلّ ما قبِلتُه منه ـ رحمة الله تعالى عليه ـ كانت هديّة الزواج فقط.

نقتبس من حياة الحبيب صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم؛ لأنّ حياته كاملة مُكمِلة من حيث الفطرة، ومن حيث العقل والروح، ومن كلّ الجوانب، حتّى قبل الإعلان عن نبوّته عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام، وهذا يجعلنا نفهم قوله عزّ شأنه:

﴿ . . . اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ . . . ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٤].

فكلّ واحد منا يُراجع نفسه ويُحاسبها، ولذلك أوجّه وأقول دائمًا: مَنْ لديه عمل وعنده إمكانية أنْ يتوسّع أكثر فليتوكّل على الله عزّ وجلّ؛ فليس من ثقافة المسلمين ـ حسب ما أعتقد ـ قول مَنْ يقول: (الدنيا جيفة، وطُلّابها كلاب)، يُمكن أنْ نفهم هذا القول على مَنْ يتوجّه إلى الدنيا فقط، وينسى كلّ شيء؛ لأنّ الكلام يحتمله، لكنّنا نبتعد عن هذا الكلام، فأقول: الدنيا مزرعة الآخرة، كما يقول الشرع الشريف، أقول ما قال الله جلّ في علاه:

﴿ . . . فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ . . . ﴾ [سورة الملك: ١٥].

وأقول ما قال سيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه ومَنْ والاه:

(لاَ حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا) الإمام البخاري رحمه الله جلّ وعلا.

وهكذا فهناك مئات النصوص في الكتاب العزيز والسُنّة المطهّرة، كلّها تُعنَى بالجانب المادّي للإنسان.

يُروى أن شيخًا مُربّيًا يسكن كوخًا صغيرًا تحت أحدى الجسور على نهر دجلة في مدينة بغداد، وكان عنده مُريد، فأراد المُريد أنْ يُسافر في حاجة إلى مغرب الأرض، فأوصاه الشيخ أن يُوصل سلامه إلى شيخٍ مُبارك هناك، فسافر التلميذ المُريد، وكان في باله أنْ يذهب ويبحث عن ذلك الشيخ تحت جسر أو في مكان مُنقطع أو ما شابه ذلك، فلمّا سأل عنه، قالوا له: إنّه يسكن العاصمة، في أرقى حيّ فيها، فتعجّب؛ وقال في نفسه: هذا الشيخ لم يكتفِ أنْ يعيش في العاصمة، وإنّما يعيش في أرقى حيّ فيها!!!

ذهب إلى المكان فإذا فيه قصور كثيرة، من أميزها قصر عالٍ، فمّا سأل قالوا له: إنّ قصر الشيخ هو أرقى قصر بين تلك القصور، فتعجّب أكثر، وظنّ أنّه مُتوهّم أو أنّه أخطأ بالاسم! كيف يكون شيخًا وعنده قصر!؟ فالقصور للمُلوك والرؤساء، أراد أنْ ينصرف لكنّ قال في نفسه: إذا سألني شيخي فماذا أقول له؟ فذهب وصعد إلى القصر، وإذا فيه حرّاس، فأراد

الرجوع ولكن الحرّاس استوقفوه وسألوه ماذا تفعل هنا؟ فقال: أنا أبحث عن الشيخ فلان، فقالوا: حيّاك الله، أهلاً وسهلاً بك، لقد وصلتَ، ولكن الشيخ عند الأمير! فزاد تعجّبه! فضيّفوه أحسن ضيافة، لكنّه ظل خائفًا قلقًا، وانتظر حتّى جاء الشيخ، وإذا به يأتي في موكب مهيب، فسلّم عليه وحيّاه وضيّفه وأكرمه، وقبل أنْ يخرج من عنده حمّله الشيخ رسالة فقال: أوصِلْ سلامي لشيخك، وقل له: إلى متى تشتغل بالدنيا؟ إلى متى يبقى قلبك مُعلّقًا بها؟ فانفجر في داخله مُتسائلاً: مَنْ يشتغل بالدنيا أنتَ أم شيخي المسكين الذي يعيش في كوخ تحت الجسر، ولا يملك إلا قطيفةً ينام عليها، وإناءً قديماً يشرب منه الماء؟

فرجع إلى بغداد، والتقى بشيخه، فقال له الشيخ: ماذا قال لك الشيخ، فقال: يا شيخي ماذا أقول لك؟ لا أدري ماذا أقول؟ فقال له شيخه: تكلّم ماذا قال لك؟ قال: إنّه يُسلّم عليك ويُعاتبك ويقول: إلى متى يبقى قلبك معلّقًا بالدنيا؟ فانفجر شيخه بالبكاء، وقال: صدَقَ، واللهِ، لقد فتح الله عزّ وجلّ له الدنيا، وما تعلّق قلبه بها، فالدنيا لا ينبغي أنْ تكون في القلب، لأنّ القلب محرابُ الربّ سبحانه، وأمّا أنا فكما ترى، لا أملك إلا هاتين الحاجتين، وقلبي مُعلّق بهما.

سواء أكانت هذه القصّة صحيحة أم من نسج الخيال؛ فذلك غير مهمّ؛ لأنّ الله جلّ وعلا أدّبنا في القرآن الكريم، فذكر لنا قصصًا كثيرة ولم يذكر أسماء وتفاصيل أصحابها؛ لأنّ ذلك ليس من جوهر القصّة، وإنّما المهم العبرة والحكمة، فالحكمة من القصة كأنّه يقول لنا: اسعَ في الدنيا وتملك منها ما ملك قارون، لا مانع، ولكن وفْقَ الشروط والضوابط الشرعية، خذه بالحلال وأدِّ حقّ الله تعالى فيه، وإيّاك إيّاك أنْ تدخل الدنيا قلبك؛ لأنّها ستُفسده أو تُمرّضه.

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [سورة الشعراء: ٨٨ - ٨٩].

فالقلب المريض لا ينجو إلّا إذا تجلّى الله تعالى عليه بالعفو، نسأل الله سبحانه أنْ يعفو عنّا جميعاً.

إذن عمل الحبيب صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم في الرّعي فيه حِكَمٌ كثيرة، لا أذكرها كلّها، ولكن سأكتفي بما ينفعنا في هذه المرحلة، والله جلّ وعلا أعلم، ثمّ نُطلق العنان لعقولكم الفَطِنَة أنْ تتأمّل وتتدبّر، فالمهم أنّ الإسلام يُريد منّا أنْ نكون أقوياء في كلّ جوانب حياتنا، ومنها الجانب المادّي، لماذا عندما أخذ عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه أجمعين، الغنم لم يضرب الله تعالى على أذنه بالنوم؟ ينام وتذهب الغنم ثمّ يقول لهم: أنا لا أصلح لهذا الشيء؟ ولماذا عندما أراد اللهو ضرب الله جلّ جلاله على أذنه ولم يسمع اللهو؟ هذا السؤال كبير يجب أنْ نسأله أنفسنا؛ لأنّ الله عزّ وجلّ يُريد أنْ يجعله مثالًا لمَنْ يُريد تعمير الأرض، فماذا عمّرنا من الأرض؟

فإذا كنت تمتلك حديقة في البيت، أو تسكن في منطقة زراعية، فازرع في بيتك وكُلْ ممّا رزقك الله تعالى، وتخلص من زحمة الأسواق، وخفّف على نفسك من الدخول إلى شرّ البقاع نعوذ بالله تبارك وتعالى، ولماذا هي شر البقاع؟

يجب أنْ نفهمها، لأنّ كثيراً من الناس يسقطون فيها، فلذلك الوقاية خير من العلاج؛ فإذا كنت تستطيع أنْ تُعمّر الأرض وتُحصّن نفسك، فلا تذهب إلى شرّ البقاع، وإن كان ولابد فاذهب ولكن انتبه إلى نفسك ألّا تقع في الشرّ.

إذنْ الرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم في موضوع الرّعي: كان من المُمكن أنْ يقوم به لوحده؛ فالرعي لا يحتاج إلى رأس مال أو إلى شريك، كلّ ما يحتاجه هو أن يتفق مع أناس يمتلكون غنيمات على أنْ يرعاها لهم، فيُعطوه أجره، ولكنّ هذا لا يكفي، فالإنسان تزداد التزاماته، ينبغي أنْ يتزوّج، فصاحب الفطرة السليمة لا يبقى دون زواج، وهذا العمل لا يكفي لنفقات زواج وإنشاء أسرة، فبدأ يُفكّر بشيء آخر، صارت فرصة للتجارة، ذهب للتجارة، وهناك فرق كبير بين التاجر والراعي، العمل بالتجارة بحاجة إلى رأس مال، يحتاج إلى تُجّار يعرفهم، فهل حماه الله عزّ وجلّ في تجارته أم منعه منها؟ كلا، بل شجّعه وحماه، فعمل بالتجارة وسافر ورآه صاحب الدّير، وصارت أخبار طيّبة مباركة.

انطلقوا مع هدايات هذه القصص الجميلة، والمحطات المُضيئة المُنيرة وفق هذا الحال، وسترون في المرحلة الثالثة كيف جاءت النصوص لتُؤكّد على كلّ هذه السيرة الطيّبة المُباركة، فعندما ضُرب على أذنه في الواقعة هناك، تبيّن أنّ هذه الأمور مُحرّمة، ومنها مكروهة، فالتي أعانه الله سبحانه عليها، وهيّأ له أسبابها تبيّن أنّها فرائض أو ترقى إلى الفرائض، فريضةٌ إذا قمت بها أُجِرْتَ، وإذا قصّرت فيها عُوتبتَ وعُوقبتَ نعوذ بالله تبارك وتعالى، فهذه محطة يجب أنْ نتزوّد منها الكثير والكثير.

بعد ذلك تقف عند زواج الحبيب صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه، وهذه مرحلة عظيمة جدًا في حياة المسلم، سواء أكان المتزوّج رجلًا أم امرأة؛ لأنّها مرحلة جديدة، فيها قواسم مُشتركة مع المرحلة السابقة، ولكن فيها واجبات ومسؤوليات كبيرة، فكان عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه الأنموذج الأكمل والأتمّ والمُكمّل والمُتمِّم لحياة الإنسانية جميعًا، فبُنِيَ هذا المشروع على المحبّة والتوقير، بغضّ النظر عن الحاجات الجسدية، نعم لها نسبة في قلبه صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، ولكن الأعلى أنّ هذا الزوّاج مشروعٌ، لا أعني بالمشروع أي إنه حلالٌ، كلا، بل مشروع بمعنى أن فيه تفاصيلَ وأحداثًا ومقاصدَ قد يغفل عنها كثير من المسلمين بسبب ضعف ثقافتهم، وانسياقهم مع الأعراف الماشية، ففي يومنا الحاضر يصبح عمر الولد عشرين سنة أو أكثر فيبدأ أبواه التفكير بتزويجه، فيتكلمون مع الولد، ويُشجّعونه فيُوافق دون أنْ يفكّر ما الزواج؟ ما المسؤوليات المُترتبة عليه؟ كلّ ما يعرفه هو أنْ يذهب أبوه مع مجموعة رجال لخطبة فتاة، فإذا وافق أهل البنت، يبدأ عقد الزواج، إلى آخره، لكن ما المطلوب بعد ذلك؟ لا يعلم، بينما هو مشروع عملاق عظيم، جاءت نصوص الكتاب الكريم والسُنّة المطهّرة لترعاه وتكلؤه، فالزواج ليس اجتماعَ رجل بامرأة فقط، نعم هذا مقصود، ولكن هناك أهدافًا كبيرة جدًا، قال تعالى:

﴿ . . . وَٱبۡتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ. . . ﴾ [سورة البقرة: ١٨٧].

ماذا كتب الله لكم؟، فـ (ما) من ألفاظ العموم، لم يقل ابتغوا الإنجاب مثلاً، لا، ﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾ بمعنى شَرَّع، (كَتَبَ) تأتي بمعنى الإخبار عمّا قدّر سبحانه مُستقبلًا، (كَتَبَ) تأتي بمعنى فَرَضَ عليكم كما في قوله جلّ جلاله:

﴿... كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ...﴾ [سورة البقرة: ١٨٣].

فهناك جوانب لابُدّ من مراعاتها، لأنّك سوف تندم، تقول أنا تزوّجت زواجًا تقليديًا ـ لنُسمّيه هكذا ـ هذه ابنة عمّك يجب أن تتزوجها، فتقول: إذن نتوكّل على الله تعالى أو هذه بنت طيبة في المنطقة، أهلها جيّدون، فتقول: إذن نتوكّل على الله جلّ وعلا، هل كان في بالك أنّك ستُنجب أطفالاً؟ ستحتاج إلى امرأة قويّة تستطيع تربيتهم؟

ينبغي أنْ نقف في هدايات هذه المحطة العظيمة، فمن ينوي أنْ يتزوّج أو عنده ولدٌ يُريد تزويجه أو بنت يُريد تزويجها فلابُدّ أنْ ينظر إلى هذه الجوانب، فالرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم بنقاء فطرته وصفائها رأى أنّ زواجه من السيّدة خديجة الكبرى رضي الله تعالى عنها يُحقّق أهدافًا طيبةً، فهذا الزواج إذن مشروعٌ، علما بأنه لم يُعلن بعد عن نبوته عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام، لماذا؟

لأنّه في الاصل طاقة بالوفاء والحب والمودّة، بل هو ينبوعها الوحيد الأتمّ الأعظم، والبقيّة دونه وأقلّ منه، فهو الرأس والقمة في كلّ هذه الصفات عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه، قال جلّ جلاله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة القلم: ٤].

وأروي لكم عن سيّدي حضرة الشيخ عبد الله طيّب الله تعالى روحه وذكره وثراه فهمه الشريف لقوله جلّ وعلا: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة القلم: ٤].

أي هو أعلى من الخُلق العظيم، فالخُلق العظيم لا يقوده بل هو الذي يقود الخُلق العظيم، وهناك فرق بين القائد والمَقُوْد، أي هو الذي يُسيّر الأخلاق إلى حيث رُقيها وعلوها بل وكمالها، قال ﷺ :

(إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ) [رواه الامام البيهقي رحمه الله تعالى في السنن الكبرى]

كما تقول: فلان على الفرس، أي: هو مَنْ يقود الفرس، وليس العكس.

إذن رأى في هذا المشروع محبّة ومودّة ورحمة وسكنًا، وهذه كلّها جاءت وصفًا للزواج في القرآن الكريم، إضافة إلى الجانب المادّي، فبعض المُفسرين يقولون صراحة في قوله سبحانه: ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾ [سورة الضحى: ٨].

أي أغناه بمال السيّدة خديجة رضي الله تعالى عنها يا سلام! أين نساؤنا المُتمكّنات؟ أين هنّ النساء اللواتي بارك الله تعالى لهنّ في أرزاقهنّ؟ أين الأُسَر الغنية التي عندها بنات؟

ليذهبوا إلى الشاب الفقير ـ الذي ليست لديه قدرة مادية على الزواج ـ فيقولوا له: تعالَ على العين والرأس ـ بحكمة وبدون أي إذلال، بل بتكريم وتقدير ـ حتّى يُزاوجوا بين القدرات.

الرسول الأعظم عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه، يُمثّل القمّة، بل هو من يقود القمم كلّها، القمّة في المودّة والرحمة والعطف وإنشاء الأسرة وتربية الجيل والأمّة، ولأن الدنيا لا تساوي شيئًا عند الله سبحانه، فستأتي راغمةً للصادقين والمُخلصين الذين همّهم الآخرة تصديقًا لقوله عليه الصلاة والسلام:

(مَنْ كَانَ هَمُّهُ الْآخِرَةَ، أَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ) الإمام أحمد رحمه الله تعالى.

وهنا لابُدّ أنْ نقف وقفة المُتأمّل المُتدبّر، فكثير منّا آباء وعندنا أبناء وبنات؛ فينبغي علينا أنْ نُخطِّط ونُفكّر؛ لا أنْ نبقى عبيدًا للأعراف، فهذا فقير كيف أعطيه ابنتي؟! نحن بيت فلان، يُضرب بنا المَثل بالتجارات والمُؤسسات والشركات، كيف نُزوّج ابنتنا من فقير؟!

هذا يعني أنّنا نزلنا في حضيض الدنيا نعوذ بالله تعالى، مع احترامي لِمَا ورد في الفقه الإسلامي في مسألة الكفاءة؛ فمراعاتها تكون في الأحوال الاعتيادية، أما الآن فكلّ أحوالنا غير اعتيادية.

شابٌ درس الطبّ حتى ضعف بصرُهُ، ولم يجد وظيفة، ما يفعل؟ لا أزوّجه ابنتي لأنّني مُتمكّن! وشابٌ آخر يعزم على الخروج ليكسب رزقه لكن التجوّل ممنوع، ما يفعل؟ ما المانع إذا أكل لقمة معي؟ إذن ماذا فهمنا من الإسلام؟

نحن بهذه التصرفات ما زلنا مُقيّدين بالأعراف الفاسدة الباطلة؟!

هذه المرحلة فيها هدايات كثيرة جدًا، تبدأ من ولادته صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم إلى قبيل تشريفه لغار حراء بستة أشهر تقريبًا، فأرجو أنْ تقرأوا عنها، وتقفوا عند محطّاتها لتتزوّدوا منها بالوقود النافع في إكمال شخصياتكم، والاستعانة بهداياتها في تربية الأجيال التي تحت أيديكم، سواء أكانوا من المُصلّين أم من الذرية أم ممّن تلتقون بهم.

هذه المرحلة من حياة الحبيب صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم لا تخلو من الجانب الرّوحاني والارتباط بالخالق سبحانه، ولكن الجانب الأبرز فيها هي المعالم التي يعتبرها النّاس مادّية، مثل: العمل، التجارة، المشاركة في الحرب ـ حرب الفجار ـ والاشتراك في المُؤتمرات ـ حلف الفضول ـ إلى آخره، فهذه الجوانب هي الأوضح والأكثر تألّقًا من الجانب الغيبي، أي من جانب علاقته بربّه جلّ وعلا، مع أنّها موجودة على أتمّ وجه في لطائف حياته الشريفة، ولكن الأبرز فيها ـ في هذه المرحلة ـ هو الجانب المادّي، لماذا؟

لأنّنا نعيش في مرحلة حياتِنَا الدنيوية، ولابدّ من الالتفات إلى تعمير الدنيا، لابُدّ من زواج وعمل تجاري، فإنْ لم نستطع الحصول على عمل تجاري فأقلَّ من ذلك حتّى ولو كان في رعي الغنم، أي بمعنى العمل بالمهنة التي يعتبرها النّاس أبسط وظيفة، وقد يتنزه النّاس عنها، فلذلك جعل الله عزّ وجلّ كلّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يَرعون الغنم لتصحيح

مفاهيم النّاس؛ فالعمل شريفٌ سواء كان تجارة أو رعيَ غنمٍ؛ قال عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه أجمعين: (مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ وَقَدْ رَعَى غَنَماً) الإمام مالك رحمه الله عزّ وجلّ.

اللهمَّ صل على جميع الأنبياء والمرسلين وآل كلٍ وصحب كلٍ وسلم تسليمًا كثيرًا.

فلمّا سمع الصحابة الكرام هذا القول الشريف قالوا: وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ لأنّه قال (مَا مِنْ نَبِيٍّ)، وهم عَرَبٌ، أهل الفصاحة فيعلمون أنّ (ما) تُفيد العموم، يعني تعمّ الكلّ، فأرادوا أنْ يتثبّتوا: وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فقال عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام: وَأَنَا.

الجانب الروحاني بارز في صفاته العظيمة الجليلة، كالرحمة والمودة، فكان يلتقم ثدي السيّدة حليمة رضي الله تعالى عنها الأيمن ويترك الأيسر لأخيه، شُقّ صدره الشريف وهو في مرابع السيّدة حليمة السعدية رضى الله تعالى عنها، ورأت أمه السيدة آمنة رضي الله تعالى عنها ورحمنا الله تبارك وتعالى ببركاتها حين ولدته نورًا أضاء قصور بُصْرَى من بلاد الشام، ولم يسجد لصنم قط، كذا إنكاره صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم القلبي لعبادة الأوثان والأصنام، إلى غير ذلك.

المرحلة الثانية

هذه المراحل هي مُجرّد بيان تحتاج إلى هذه التقسيمات، وهي ليست مُلزمة، فلا يقول أحدٌ: إنّ سيرة الرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم لابدّ من تقسيمها إلى هذه المراحل، كلا، فهناك مراحل أخرى لا أرى الحاجة ماسّة للحديث عنها حاليًا، وإنّما نُركّز على ما ذُكر؛ لأنّنا في وضع نحتاج فيه لهذه الهدايات أكثر من احتياجنا لهدايات أخرى.

بدأت المعادَلة والنِّسَب تختلف في المرحلة الثانية، وليس معناه أنّه صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم لا يحتاج ليد القدرة الإلهية، كلا، نعوذ بالله تبارك وتعالى من هذا، لا أقول هذا، ولا أنّه لا يحتاج إلى صفات الرجولة والذكورة مثل الشهامة والشجاعة، وإنّما النِّسب تختلف حسب مُقتضيات المرحلة، لماذا أحبّتي؟

حتى نفهم ما الذي نحتاجه في كلّ مرحلة؟ وكيف نُعِدُّ دعاةً إلى الله عزّ وجلّ؟

بمعنى: إذا فاتَتْنا الفرصة ـ مثلًا ـ فكَبِرْنا في السنّ ـ وإنْ كان هذا ليس عذرًا ـ فعلى الأقل ننوي ونعزم على أنْ نصنع دعاةً ممّا مكّننا الله جلّ في علاه فيه: من ذريّاتنا، من ذوي أرحامنا، من طلبتنا، من مساجدنا، بمعنى: أن نستثمر كل الفرص، ولا نتأخر أو نتهاون في إعداد الدعاة والداعيات على ضوء هذه المعالم، وهدايات هذه المراحل، فنحنُ بحاجة دائمًا ـ خاصة في هذه المرحلة ـ إلى إعداد الدعاة، ولا يكون ذلك إلا من خلال تهيئة الداعي أوّلًا، وتربيته على الخير، ثمّ توجيهه لطريق الحقّ، فالصادق والمُؤثّر من ينقل الخير الذي أصابه إلى غَيْره.

عندما تختار عددًا من الشباب فليس من الضروري أنْ يُصبحوا علماء كلّهم، إنّما تُمَيِّز وتأخذ مَنْ عنده فطنة وذكاء وقوّة حافظة فتُوجّهه إلى حفظ بعض النصوص، حفظ بعض سور القرآن الكريم، وتعلم بعض الأبواب في العلوم الشرعية، مثل الفقه وأصول الفقه ... إلخ، وهناك شاب آخر ليس لديه رغبة في هذه العلوم الإنسانية، وإنّما رغبته في الجانب التطبيقي، يرغبُ في العلوم التطبيقية، تُشجّعه ليكون طبيبًا، ولكن تُزوّده بالتقوى، وتُرغبه

بالقرآن الكريم، ولو بحفظ بعض المقاطع منه، وبعض الأحاديث الشريفة من سُنّة حضرة النبيّ عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام، ولكن تُؤكّد عليه بأن يفقه الجانب التطبيقي في هذه النصوص، وتدفعه ليكون طبيبًا، فكم من أحبتنا ـ حفظهم الله تعالى ـ اليوم أطبّاء، وقد نفع الله تعالى بهم البشرية فجزاهم الله سبحانه خيرًا.

في فترة الأوبئة ربّما يأتي الدعاة إلى الله جلّ ذكره بعد مرتبة الأطباء في الرّقي والسموّ، وفي إبراز قيمهم وقدرهم في المجتمع، في حين تسقط النماذج الأخرى ـ من النساء والرجال ـ التي كان الناس ينظَرُون إليها على أنّها نجوم وأبطال.

المقصود من تقسيم هذه الفترات إلى مراحل هو لمعرفة كيفية التحرك بالدعوة إلى الله عزّ شأنه، وكيف نُعالج أنفسنا، ونتعامل مع أطوار حياتنا وحياة من حولنا.

إذن في المرحلة الثانية ارتفعت النسبة في الجانب الروحاني إلى المُجاهدة والمُكابدة، فسيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه بدأ يُجاهد في القيام بعمل روحيّ، ما هذا العمل؟

إنه التحنّث، أي الخلوة والانقطاع عن المجتمع لفترة زمنية ما، وإنْ كان المجتمع في بعض جوانبه يُحقّق كلّ ما يحتاج إليه الإنسان؛ فهو بحاجة ـ مثلًا ـ للزوجة الرؤوف العطوف، فعندها السَّكَن والمودّة والرحمة، ومع وجود هذه الزوجة عند الحبيب صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم لكنّه لم يبقَ عندها في البيت.

حسناً كلّ إنسان يحتاج إلى المال فطرةً، وسيّدنا رسول الله عليه صلاة الله جلّ وعلا وسلامه وآله وأصحابه قد أغناه الله سبحانه كما هو معروف بمال السيّدة خديجة الكبرى رضي الله تعالى عنها، فإذا كان ذو مال وزوجة ممتازة، فلِمَ يذهب ويعتكف في كهف؟

ذاك لأنّ النِّسَبَ بدأتْ تختلف، فالذي سيُصبح داعيًا إلى الله عزّ وجلّ لا يكون وجود الزوجة والمال والرّاحة في حياته هو المقصد الأسنى، فإذا صار هكذا فهذا خرمٌ في شخصية الإنسان الذي أكرمه الله تعالى بروح وجسد وعقل يتفكّر ويتأمّل.

إذن النسبة الروحانية بدأتْ تزداد، وإنْ كانتْ تُؤدي إلى المخاطر والامتناع عن بعض المُشتَهيات، فليس سهلًا أنْ يكون عندك هكذا زوجة رضي الله تعالى عنها، بذلتْ كلّ أموالها وأنوثتها وعاطفتها، ثم تتركها وتذهب إلى الغار الليالي ذوات العدد، ليس ساعة أو ساعتين، أو ليلة أو ليلتين، الليالي ذوات العدد، ففي بعض الروايات أنّ الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه بقي شهرًا في غار حراء.

وعندي أنّه مكث أكثر من شهر بحسب الوضع العام والحال الذي فهمتُه من حياته الشريفة عليه الصلاة والتسليم، فقد ورد أنّه مكث شهرًا، وفي بعض الروايات أكثر من شهر، وللتوفيق بينهما أقول: الحد الأدنى كان شهرًا، والحد الأعلى ـ والله جلّ وعلا أعلم ـ ربّما كان أربعين ليلة، لأنّه يتوافق مع حال سيّدنا موسى عليه الصلاة والتسليم الذي ذكره القرآن الكريم، قال الله جلّ جلاله: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً...﴾ [سورة الأعراف: ١٤٢].

ثم قال تعالى: ﴿..وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً..﴾ [سورة الأعراف: ١٤٢].

إن تحديد العدد ليس مهمّا جدًا، لكن المهمّ أنْ نعلم أنّ هنالك مُجاهدة، وأنّ المَعلم الرّوحاني في شخصية الحبيب صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه بدأتْ نسبته تعلو في هذه المرحلة بفعل الله عزّ شأنه ثمّ بمُجاهدته صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم.

هذا كلامٌ مُكرّر، فلماذا أكرّره؟ التكرار فيه منفعة إنْ شاء الله تعالى، والإعادة فيها إفادة، فكلّنا مُحتاجون إلى مُجاهدة النفس، وهذا لا يمنع من أنْ يقوم الإنسان بواجباته الفطرية التي يحتاج إليها في الحياة الدنيوية؛ فلذلك كان الرسول الأعظم عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه أجمعين يقطع هذه الخلوة ويذهب ليتزوّد لمثلها مرّة أخرى، أيْ لليال ذوات عدد أخرى؛ فالزّاد هنا حاجة إنسانية.

قد يُشاع أحيانًا بعض القصص التي يظن بعض النّاس بأنّها دَرْوَشَة، وسامحوني على هذا القول فليس المقصود منها الانتقاص من الدروشة أو الانتقاص من الدراويش ولكن الغالب

في عُرف النّاس الآن أنّ الدروشة عبارة عن طلاسم وأمور مُبهمة وغير مفهومة، وهذا غير موجود عندنا والحمد لله جلّ في علاه؛ فنحن على المحجّة البيضاء التي تَرَكَنَا عليها سيّدُ الأنبياء عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الأتقياء، وكلّما أصاب هذه المحجّة البيضاء نوعٌ من الضبابية بفعل ابتعاد البشرية عنها جاء مَنْ يُجدّدها، فمثلًا عندي ـ وأنا مُقتنع مئة بالمئة ـ أنْ سيّدي حضرة الشيخ عبد الله طيّب الله تعالى روحه وذكره وثراه مِنْ مُجدّدي هذا العصر، فقد كتَبَ كتاب: "معالم الطريق"، وبيّن لكَ المعالم بيانًا واضحًا، فأعادك مرّة أخرى إلى المحجة البيضاء، فما هو عملنا؟ عملنا نشر هذه المعالم، وتوضيح ما يحتاج إلى توضيح لبعض العقول التي تحتاج إلى هذا البيان.

إذن اقول مرّة أخرى: نحتاج إلى أنْ نُجاهد أنفسنا؛ لأجل أنْ نُعلّي نسبة الروحانية في مُجاهداتنا، لكن لا ننسى أيضًا حاجاتنا الفطرية الإنسانية البشرية في بناء الحضارة الإنسانية، فسيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه مع أنّه كان مختليًا مُنقطعًا، لم يقل سأبقَى هنا وأنتم أحضِروا لي ما أحتاج إليه؛ كلا، لكي يُشرّع لنا بأنّ المَعلم الثاني الذي هو: مَعْلم الرجولة والشهامة والقيام بمُقتضيات الحياة واحتياجاتها لا تزال قائمة، ولا يزال هذا المَعلم ضروريًا، لكنّ نسبته تقلّ، بمعنى: الأيّام التي قضاها في الغار كان متفرغًا من مشاغل الحياة بالتأكيد؛ لأنّ غيره كان يقوم بها، بينما في المرحلة الأولى ـ عندما كان راعيًا ـ فقد كان يخرج إلى العمل كلّ يوم، إلّا اللهمَّ إذا منعه مرض أو تعب شديد أو منعته الأنواء الجوية، أمّا وظيفته فهي يومية، والله تعالى أعلم.

قلت لمّا بدأ الحبيب عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام، بهذه المُجاهدة عشِقَ هذه الخلوة؛ لدرجة أنّه عندما كان يذهب لحاجاته في البيت لا يتأخّر كثيرًا؛ لأنّه تعلّق بها، وكذا فقد بدأت روحانيته الشريفة تتفاعل مع الجانب الغيبي الذي جسّدته الرؤيا الصادقة.

أحد الصالحين رضي الله تعالى عنهم يقول: جاهدتُ نفسي على صلاة التهجّد عشرين سنة حتى أحببتها وتذوّقتها! عشرون عامًا من المُجاهدة والمُكابدة وهو يرى في صلاة التهجّد تكليفًا على نفسه، لكنّه صبر وصابر إلى أنْ تحولت هذه العبادة العظيمة من حال الكِلْفَة إلى

حال النّعمة والرحمة، فكان لا يقرّ له قرار إذا لم يُصلّ صلاة التهجّد، ولا يتذوق طعم الحياة من دونها.

وهكذا بدأت إشراقات سيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم تزداد أكثر فأكثر، وتأمّله يتعمق أكثر فأكثر، فازداد نورًا على نور.

قال تعالى: ﴿ . . . قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [سورة المائدة: ١٥].

(يعني بالنور، محمدًا ﷺ الذي أنار الله به الحقَّ، وأظهر به الإسلام، ومحق به الشرك، فهو نورٌ لمن استنار به..) تفسير الطبري(١٠، ١٤٣).

فارتقى النور على جبل النور في غار حراء، وحراء من التحرّي، ولكلمة (حِراء) معانٍ أخرى، لكنّي أركّز على المعاني التي تنفعنا.

أنت تعيش في وقت تفشت فيه أمراض كثيرة جدًا - نسأل الله تعالى العافية- سواء كانت أمراضًا جسدية أو روحية، والمفروض أن الداعي إلى الله عزّ وجلّ يُعنى أوّلًا بالرّوحية، وإنْ كانت الأمراض الجسدية لا تقلّ فتكًا في روحانية الإنسان مِنْ مرض روحه وقلبه؛ لذلك قال الحكماء: العقل السليم في الجسم السليم، فما واجبك؟

واجبك أنْ تنشط وتنهض؛ لأجل أنْ تُسعف الأمّة وتُنقذها قدر المُستطاع، وإذا حَقَّقتَ نتائج فوق المُستطاع فهذا تميّز وتوفيق من الله جلّ في علاه.

حاجتنا للمرحلة الثانية ـ في زماننا هذا ـ أكثر من المرحلة الأولى، فيجب علينا أنْ نُجاهد أنفسنا بقدر أكبر، وذلك بالالتزام بالأوراد والأخذ بأسباب الترقية، مثل الخلوة فهي وسيلة من وسائل التأمّل والتزكية النبوية الشريفة.

فمثلًا في فترة وباء كورونا ـ عافاكم الله تعالى ـ في سنة ٢٠٢٠م ـ ٢٠٢٢م حصلت أشياء إيجابية، وأخرى سلبية، وحتّى الأشياء الإيجابية فكثير من المسلمين، ومَنْ يُنسب إلى العلم

بحسب ما اطلعت على بعض المقاطع والكتابات - مع الأسف - جعلوا من الجوانب الإيجابية أشياء مُكدّرة لخاطر الداعي إلى الله عزّ وجلّ، الداعي الصادق الفطن، فمثلًا يخرج مَنْ يُنسب إلى العلم ويُعلق على رفع الأذان في ألمانيا أو في النرويج أو غيرها، ثم يقول: رغمًا عنكم!

لماذا رغمًا عنكم؟ لمَ لا تقول: الحمد لله ربّ العالمين، هؤلاء مساكين هداهم الله جلّ جلاله لِمَا فيه الخير، وها هو النداء الذي يُؤدي إلى الطمأنينة والسكينة والراحة يُرفع عندكم.

تعالوا يا أبناء وبنات المسلمين أجروا دراسات على الأصوات التي تُؤدي إلى الراحة والطمأنينة، لِمَ تتركوها لغيركم، فالعلم أصبح مشاعًا.

إذن نحتاج إلى تقوية الرّوحانية، لماذا؟ لأنّ الذي تكون روحانيته قويّة سوف تعلو همّته في نقل الخير لغيره، وانقاذه من الضياع والغفلة.

نحن بحاجة إلى أنْ نعرف واجبنا، فما تقواك في هذا الوقت؟

ليس من تقواك أنْ تضحك على النّاس في مسألة رفع الأذان، بل قل لهم: يا أخوتي في الإنسانية هناك معلومة في القرآن الكريم مفادها أنّ الله تعالى سوف يُظهر هذا الدين.

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [سورة التوبة:٣٣].

فكيف يُظهره؟ المفروض نحن من يُظهره، لأنّه واجبنا، ولكنّنا قصّرنا، فنحن نعرف معرفة حقيقية بأنّ الله عزّ وجلّ وعدَ بأنْ يُظهر هذا الدّين، ولو كان هناك مَنْ يكره ظهوره.

لكن كيف يظهر؟ بتوجيهاتنا الشرعية، فالمفروض أنْ نقوم بإنقاذكم وإسعادكم وبخدمتكم، نعم بخدمتكم؛ قُلْها، لا تخف ولا تتكبّر، قل: أنا خادم لك يا أخي الإنسان، قلها يا أخي الكريم، قُلْها يا مَنْ جعلتَ نفسك داعيًا إلى الله عزَّ وجلَّ، لكن قصّرتُ في واجبي، وربّ

العالمين جلّ جلاله أراد أنْ يُثبِت لكم أنّ خبره صادق، فجعلكم تُصدرون قرارًا برفع الحجْر عن الأذان في مُكبرات الصوت الخارجية في دولكم.

هكذا يُفترض أنْ يكون الخطاب الدعوي الذي نقوم به، لا أنْ تقول مُستهزءًا: رُفعَ الأذان واسم النبي العدنان صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم في بلدانكم رغم أنفكم، فهذه ليست دعوة إلى الله سبحانه، هذا إتباعٌ لوسوسة الشيطان والنّفس الأمّارة بالسوء- نعوذ بالله تبارك وتعالى - لأجل إثارة الفتنة، وإضاعة الفرصة على مَنْ يُريد الله عزّ شأنه هدايته؛ وهو مُدعاة لأن يُجيبوك قائلين: كما تضحكون منا فسنضحك منكم، وسنُرسل صواريخنا لقتلكم، وفيروساتٍ لتُمرضكَم.

فانظروا يا رعاكم الله إلى أين سنصل في هذه الحالة؟! قتل وقتل، فهل هذا هو الهدف؟ هل هذه هي الغاية من وجودك في الإسلام؟!

قال لي أحدهم في بداية الأزمة في بغداد قبل الاحتلال: اسمح لي أنْ أفجر محلًا لبيع الخمور، فقلت له: يا بُني، ما الفائدة إنْ فعلت ذلك؟ قال: هذا نهي عن المُنكر، قلت له: وإلى ماذا يُؤدي فعلك؟ هل درست النتائج؟ ثم قلت له: يُوجد محلّ لبيع الخمور في مشارف حيّ العدل، فلو وضعت قنبلة أمامه، وبجانبه مباشرةً أو قريبًا منه مخبز، ونحن واقفون في طابور لشراء الخبز لأطفالنا، فانفجرت القنبلة، ومات مَنْ مات، فما مصيرك عند الله سبحانه؟ هذا احتمال، والاحتمال الآخر أنْ يضعوك في السجن، فما الفائدة منك وأنت في السجن؟ أما المحل فغدًا سيُهيئونه مرّة أخرى، ويضعون عليه حراسة مُشددة.

لا أقول لك: لا تَنْهَ عن المُنكر أو لا تأمر بالمعروف، لكن الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر له ضوابط، ففي وقتها - سبحان الله - حدثت مشكلة الجزائر - ولست هنا بصدد تقييم ما حصل هناك - وكان من نتائجها أن مئات المسلمين قُتلوا وشُرّدوا وزُجّوا في السجون، وفي نهاية الحوار قلت له: يا ولدي، لا أريد أنْ تجعل من بغداد جزائر ثانية، ثم ذكرت له حديث حضرة النبيّ عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام فيما رواه سيّدنا أنس رضي الله تعالى عنه قال:

(إنَّ غُلَامًا يَهُودِيًّا كَانَ يَخْدُمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: أَسْلِمْ، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ: أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ عِنْدِهِ وَهُوَ يَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ بِي مِنَ النَّارِ) الإمام أحمد رحمه الفرد الصمد جلّ ثناؤه.

لا إله إلا الله، ما معنى ذلك؟ يعني: أنّ هذه النّفس تمّ إنقاذها من النّار.

إذن فرسالة الرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، هي إنقاذ النّاس من النّار، وليس إدخالهم فيها، وأنت لا تملك شيئًا تأمر به بالمعروف وتنهى به عن المُنكر سوى أنْ تقتل وتُفجّر!

ولما وجدَ هذا الفكر المُنحرف آذانًا صاغية ـ مع الأسف ـ صار الذين يقولون "لا إله إلّا الله، محمّد رسول الله" يدخلون إلى بعض المساجد فيقتلون روادها، ويفجرون بِنائها!

إذن فواجبك في كلّ وقت: أنْ تُخرج النّاس من الظلمات إلى النّور، وتُحافظ عليهم من السقوط في النّار، فماذا تحتاج؟

تحتاج أنْ تتأمّل في سيرة الحبيب عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام، وتفهمها.

إذن من أبرز معالم هذه المرحلة أحبّتي في الله تعالى: هي زيادة نسبة الروحانية بفعلٍ ومُجاهدةٍ من المُكلّف نفسه.

لقد استودع الله عزّ وجلّ في سيّدنا رسول الله صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه فطرة سليمة نقية، فكان من دواعيها أنّ هذا القلب الزّكي ـ حتى قبل تلقي الوحي ـ لا يستطيع أنْ يتأقلم مع ما موجود في المجتمع من ضّلال وكفر دون أنْ يمدّ يد العون والمساعدة لإنقاذ ذلك المجتمع، ولكن كيف؟ بالصمت والتأمّل، وهما عبادات عظيمتان جدًا، قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [سورة المؤمنون: ٣].

وقال حضرة النبيّ عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه:

(مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ) الإمام البخاري رحمه الله تعالى.

أما قيل وقال ومُنازعات ومُشاجرات، فهذه ليست من الإسلام، بل إمّا أنْ تقول خيرًا أو تصمتْ، فالصمت عبادة تُؤجر عليها، وهذا الصمت ينبغي أنْ يُستثمر ويُعمّر بالذكر القلبي، وباستحضار أنّ الله عزّ وجلّ شاهدي، الله جلّ وعلا ناظري، الله سبحانه معي، فتتهذّب النّفس وتتزكّى، وينمو القلب، وتُستثمر خيراته وبركاته.

عندما أخذ الحبيب عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه بهذا المنهج جاء الإعلان عن نبوّته، وهو تكريم لسيّد الخَلق صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه، ولأمّته؛ نسأل الله سبحانه أنْ يجعل هذه الأمّة رافدة، عائدة إلى منهج نبيّها صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم.

إذن دققوا في هذه المرحلة في ظلّ هذه الهداية أعني: تحمَّلَ المشاقّ، من القيام بواجب مُجاهدة النّفس، وبواجب التأمّل في كيفية إنقاذ الأمّة، كيف يُنقذ المسجد الحرام من الأوثان والأصنام؟ كيف يُنجّي الأمّة من الظلم وقطع الأرحام؟

فإذا كان صلّى الله تعالى وسلم على ذاته وصفاته وآله وصحابته قبل نبوّته مُهتمّاً بهذه القضية، فأنتَ بعد أنْ جاءتك هدايات ما أُوحيَ لسيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه، ما واجبك؟ هل تقعد وتستأنس وترتاح فقط؟ كلا، بل يجب عليك أنْ تمشي في الأرض، وتأخذ بكلّ ما هو مُتاح لإنقاذ الأمّة، وتُشجّع على استثمار الطاقات الموجودة فيها. إلى متى نسكت عن بناتنا وهنّ يُتابعنّ الأزياء، ليس لديهنّ أيّ هدف، بل مُنشغلات بسفاسف الأمور، كذا الحال مع طلبتنا الغافلين عن أهدافهم العظيمة في الحياة ؟

فهذا مُنشغل بمُشاجرة مع الخادم أو المُؤذن في المسجد، وآخر لديه مشكلة مع مُصلٍ أو عنده وهمٌ وخلط في فهم أو تطبيق فتوى! إلى متى نترك الأمور هكذا دون ضابط وتوجيه وتفكير؟ ومن أين يأتي التفكير؟

يأتي من الخلوة، من التأمّل، فالخلوةَ، الخلوةَ؛ عودوا إلى أنفسكم في هدايات سيّدكم وحبيبكم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، اخرجْ إلى بستان أو مزرعة ثم تفكّر، أين أنت من هذه الهدايات؟

إن مُحاسبة أنفسنا وإلزامها بهدي خير الأنام صورةٌ من صور الصدق في محبته عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام، فليس محبتك للرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم أنْ تبعث مديحًا أو قصيدةً لأخيك عبر وسائل التواصل! بإذن الله سبحانه فيها منافع، ولكن هنالك أصول ينبغي الحفاظ عليها، الصدق مع النفس، الصدق مع الله جلّ في علاه، الصدق مع أخيك، الصدق مع الآخر، المُسارعة في إطفاء نار الفتنة، بالله عليكم يا أحبّتي، إذا -لا قدّر الله تعالى- حدث حريق في الغرفة التي تجلسون فيها، هل تتركونه؟ وإذا تركتموه فهل هذا من الحكمة؟ هل هذا من العقل؟ أم أنّ الكلّ سيقوم لإطفاء النّار؟ فلماذا عندما تكون عندي مُشكلة في الجامع لأكثر من ستة أشهر لا أسعى لحلّها؟ أين الصدق؟.

نأخذ المُحاسبة والخلوة من هذه المرحلة من حياة سيّدنا رسول الله صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه، والعناية بهداية الخَلق، لا تقلْ: ليس من شأني، فغدًا يوم القيامة سيأتي الجارُ ليأخذ بحُجزك إلى ربّ العالمين عزّ شأنه ويقول: يا ربّ قل لهذا لِمَ لَمْ يعلّمني؟ لماذا تركني أذهب في طريق النّار؟

ألا تتحمّل المسؤولية؟

إذا أصبحنا طلبة علمٍ فمسؤوليتنا صارت أكثر، وإذا شرّفنا الله سبحانه بخدمة المساجد - فليس هناك وظيفة أشرف وأقدس منها - أم أنّنا نغفل عن كلّ هذا، ونذهب كيفما اتفق،

ونفكّر فقط لعلّ فلانًا يُصبح مُرشدًا، ولعلّ فلانًا يُصبح خليفة، وأنا كذا، ولِمَ هؤلاء لَمْ يُعطوني أهمية؟ لماذا يُحاولون إسقاطي؟ أين هذا من هذا؟!

إذن ندرس المراحل الثلاثة بقصد الإصلاح وتنمية طاقاتنا والقيام بواجباتنا ورسم الهدف الحقّ الأسنى والأسمى ، لماذا أقول لكم دائمًا: إنّ سيّدي حضرة الشيخ عبد الله طيّب الله تعالى روحه وذكره وثراه، مُجدّدٌ لهذا العصر؛ لأنّه كتب في المقصد الأسنى، واقرأوا في كتاب "الحريّة الجامعية" ما المقصد الأسنى، وما الهدف الأعظم من حياة المسلم؟

لابُدّ من هدف نُؤمن به جميعًا، من رأس الهرم - إنْ صحّ التعبير- إلى آخر واحد فينا، وذَكَرَ -قُدِّس سرّه- المُؤسسة فمِنْ مُدير المُؤسسة والقائم عليها إلى البوّاب، فلابُدّ أنْ يكون لهم مقصد أسنى يعملون لأجله.

لقد رأى سيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم أنّ القومَ ضالّون، وأنّه لا يكفي أنْ يعمل في التجارة، فيكون صادقًا أمينًا بحيث يأتون بأموالهم وثرواتهم يستأمنوه عليها، ولا يكفي أنْ يأتي بعض النّاس ليقول: إنّ حضرة النبيّ عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام قد شُوهد عند ولادته نورٌ عظيم أو جاءه اثنان فشقّوا صدره الشريف، إلى غير ذلك من الروايات المُباركة، بل ينبغي أن أذهب وأتأمّل وأفكّر، وما عندي من خير أنمّيه لكي أقوم بواجبي، وهكذا فقد كان الخير الموجود في فطرة النبي صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم السليمة النقية، وما ورثه في ذلك الوقت من بقايا الحنيفية دافعًا لكي يتأمل ويتفكر في الكون والحياة.

إذن لديك كلّ هذه البصائر والمعالم الحقّة، ولقد تُركْتَ على المحجة البيضاء، فماذا بقي لك من عذر حتّى تذهب في هذه الطرائق التي ذكرناها أو ذكرنا بعضها، فبعضُ النّاس يُفكّر كيف يُذلّ زوجته، ويُكبّر المشكلة معها، عسى أنْ تذهب وتتركه كي يذهب ويتزوّج بِمنْ بنى معها علاقة مُحرّمة - نعوذ بالله تبارك وتعالى- أو همّه كيف يتخلّص من شريكه في العمل؛ فلا داعي لكلّ هذا التوتّر، وكلّ هذه الآثام والحروب، فيُمكن أن تجلس مع شريكك فتقول له:

الله يرضى عنك: هذا لي، وهذا لك، نمشي هكذا على محبّة الله تعالى، وإنْ لم تستطع فهذا فراقٌ بيني وبينك، بكلّ سلاسة وطيبة وتقدير واحترام.

وهكذا في بقيّة المُثبّطات والمُعوّقات، ينبغي التغلّب عليها بالصّدق، فنسأل الله عزّ وجلّ أنْ يجعلنا من الصادقين، المُخلِصين، ويفتح علينا فتوح العارفين، ويستخدمنا سبحانه في خدمة هذا الدِّيْن بما يُشرّفنا في هذه الدنيا ويوم يقوم النّاس لربّ العالمين.

لا زلنا في المرحلة الثانية من مراحل سيرة خير البرية صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، التي اخترناها لأجل أنْ نستفيد منها ونتزوّد بما ينفعنا الله جلّ وعلا من هداياتها وبركاتها، ونتعلّم فقه الحياة الفانية، ونُعمى الحياة الخالدة من سيرة سيّدنا وحبيبنا محمّد عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه.

قلتُ أحبّتي الكرام فيما مضى إنّ الروحانية تترقّى في رياض عمله وأفكاره صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه فطرةً لا تكليفًا، أي أنّ هذا الترقّي كان بسبب إشراقات فطرته السليمة وقلبه الزاكي الطاهر بأبي وأمّي ونفسي هو صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، فالأوامر الشرعية لم تنزل بعد، ولم يُعلن عن نبوّته عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه في هذه الفترة التي يُمكن تحديدها على نحو تقريبي بأنها تبدأ قبل الإعلان عن نبوّته بستة أشهر، وتنتهي بعد نزول الباقة الأولى - إذا صحّ التعبير- من أزاهير وحي ربّ العالمين المُتجسّد في القرآن الكريم، جعله الله جلّ جلاله روحا لقلوبنا وبلسمًا لجروحنا، ومنهاجًا لحياتنا، إنّ ربّنا سبحانه سميع مُجيب.

إذن الترقّي يأتي من خلال إشراقات الفطرة السليمة والقلب الزاكي لسيّد الخَلق عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه، فما هي صور هذا التألّق؟

لننظر بعين الحكمة والتدبّر، ولننظر بقلب ذاكر مُتوجّه إلى الله عزّ وجلّ لنتذوّق ما أفصحتْ عنه أمّنا الجليلة السيّدة الطاهرة عائشة رضي الله تعالى عنها حينما بيّنت ذلك فقالت:

(كَانَ أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةَ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاَءُ...) الإمام البخاري رحمه الله جلّ وعلا.

فلاحظوا إذن: في هذا الحديث الشريف أنّ أمّنا رضي الله تعالى عنها وعن أبيها قالت: (ثمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الخَلَاء)، حُبِّبَ بصيغة المبني للمجهول، أي لا يُعرف الفاعل، ومن المعلوم بأنه لا يحصل شيء في هذا الكون إلا بأمر وإذْنٍ من الله سبحانه، ولكن يُبنى الفعل للمجهول لأجل أنْ تبقى الاحتمالات قائمة، ولأجل أنْ تنشط الأمّة في استثمار طاقة التأمّل والتدبّر الكائنة في الفكر – العقل – التي هي طاقة من طاقات الروح الإنسانية.

إذَن فدائرة التأويلات والتصريحات واسعة، يُعبِّر عنها هذا البناءُ للمجهول، فلو قال أحدنا مثلا: ضُرِبَ فلان، فالاحتمالات قائمة، مَن الفاعل؟ هل هم الأشرار من الأمريكان أم الرُّوس أم المسلمين؟

نعم ففي المسلمين - مع الأسف - أشرار أيضًا، ولكي نفهم من النص: (حُبِّبَ إِلَيْهِ الخَلَاءُ)، أنّ الاحتمالات قائمة، أكيد هذا التحبيب هو فعل من الله جلّ وعلا أوّلًا، وهو عناية من الله عزّ وجلّ بسيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه، كما أن هذا التحبيب تجسيدٌ للفطرة السليمة الصادقة، فهل هنالك أشياء أخرى؟

مُمكن، فكما ذكرت الاحتمالات كثيرة، والدائرة واسعة، مُمكن أنْ اقول: هل هذه الروح الزكيّة الطاهرة العظيمة كانت لها لقاءات روحانية مع روحانيين ممَّنْ سبق كالأنبياء والمُرسلين عليهم الصلاة والتسليم، أو ربّما مع بعض الملائكة الكرام عليهم السلام؟

يعني الدخول في هذه الأجواء الروحانية الكبيرة العظيمة يترك أثرًا في ترقّي الروح أكثر وأكثر، فالنصّ يحتمل كلّ هذه الاحتمالات، لذلك نحن لا نستطيع أنْ نُحدِّد، فليس لدينا دليل ثابت، لكنّنا نعرف فقط أنّ الخلوة وسيلة عظيمة من وسائل الترقية والتزكية والتأمّل.

من أين نعرف هذا؟ نعرفه من حياة وسيرة سيّدنا رسول الله صلوات ربّي وسلامه عليه وآله وصحبه، ثمّ من خلال الأدلّة الشرعية الأخرى.

إذن فالرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم ترقّى في هذه الخلوة أكثر وأكثر، وازداد نورًا على نور، والترقية والتزكية بمعنى التنمية، ومن معاني التزكية الطهارة أيضًا؛ ولا نقصد بها الطهارة هنا فيما يخصّ سيّد الخَلق عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام، فسيدنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم طَاهِرٌ مُطَهَّرٌ مُطَهِّرٌ، كَامِلٌ مُكمَّلٌ مُكمِّلٌ، والتزكية في حقّه لهذه المرحلة تنميةٌ واستثمارٌ لطاقاته الشريفة استعدادًا لإعلان نبوّته ومرتبته العظمى التي هي ختم النبوّات صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم.

فإذن الخلوة مجالٌ خصْبٌ للتأمّل، والرجوع إلى النفس، وتدبّر المعاناة التي يعاني منها الخَلق، كيف يحلّ تلك المشاكل؟ كيف يجتازها ويتغلّب عليها؟

الخلوة سببٌ ووسيلة للتأمل المُؤدي لحل تلك المشاكل، فإذا أخذ المسلم بها بأمانة وصدق وإخلاص فإنّ الله تبارك وتعالى يُكرمه بكرامات تليق بذاته الأقدس جلّ جلاله وعمّ نواله.

فالرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم حينما قام بهذا العمل العظيم ـ الخلوة ـ جاءته مكرمة الإعلان عن بعثته، فنزل عليه سيّدنا جبريل عليه السلام بقول الله جلّ جلاله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [سورة العلق:١].

فنزول سيّدنا جبريل عليه السلام تجسيد وبيان بأن كلّ مَنْ يتشرف بالخلوة مع ربه عزّ وجلّ، فأنّ الله سبحانه يُكرمه كرمًا يليق بذاته الأقدس، ويتوافق مع مُراد العبد فيما كان يتأمّل فيه أو يخلو من أجله، فمثلًا: يدخل أحدهم الخلوة فيقول: يا رب أنا عبدك المسكين، أرى نفسي مُتْعَبًا مُهْلَكًا؛ فاللهُ جلّ وعلا مُطّلِع عليه، فهو خالقه سبحانه، يعرف كلّ ما في كيانه.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[سورة تبارك:١٤].

وهو الكريم جلّ ثناؤه فيُعطيه ما يليق بذاته الأقدس.

وحتى يكون الكلام أوضح، أذكر قصّةً مع سيّدي حضرة الشيخ عبد الله الهرشمي طيّب الله تعالى روحه وذكره و ثراه، قال:

جاءني أحدُ المُريدين، فقال لي: يا سيّدي أنا مُتعب، أشعر بقسوة في قلبي، ليس عندي ذكرٌ قلبي، فأرجو أنْ تنظر في أمري، فقال رضي الله تعالى عنه: أنا عبد فقير، مُتشبّث بأذيال حضرة النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، ولا أعلم الغيب، ولكنّي أتوجّه إلى الله عزّ وجلّ أنْ يُعينني على خدمتك، يقول: أمرته أنْ يجلس في الختم الشريف على الجهة اليمنى في الخانقاه الشريفة في أربيل، فكشف الله عزّ وجلّ لي عن حاله، فتبين أن هذا المُريد كان ينام على السطح حيث الجوّ مُعتدل في نهاية الثمانينات وقد أجّل وِرْدَه بعد المغرب إلى قبيل النوم لعذر شرعي؛ وهو ذهابه بمريضٍ له إلى المشفى، فلمّا جلس لورده راودته الوساوس، لماذا يُرابط مع المُرشد؟ لِمَ لا أذكر الله جلّ وعلا مُباشرة؟ فجلس بهذا الاعتقاد الفاسد، وهذه أجلى صورة من صور نكث العهد، يقول الحق جلّ ذكره:

﴿---فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ---﴾[سورة الفتح:١٠].

ليس من صور نكث العهد الوقوع في الإثم بسبب ساعة ضعف إيماني، كلا، فهذا يجري على الكلّ، وهي أحوال ايمانية صحيّة ان رافقتها التوبة النصوح لا تنقض العهد، فكل بني آدم خطاء كما قال الرحمة المهداة صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم:

(كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ) الإمام ابن ماجة رحمه الله تعالى.

إنما ينقض العهد هو الاعتقاد الفاسد، كأنْ يقول أحدهم: لا داعي للمشيخة في الإسلام، لا داعي للوراث النبوي، نحن نتّصل بالرسول صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه

مُباشرة أو نبقى مع المُرشد الذي انتقل إلى الدار الآخرة، فهذه كلّها عقائد لا تُقبل، لأنها تُخالف نصوص الشريعة الغراء وروحها ومعقولها.

وأبسط ما يُقال لمن يقول إنّي أبقى مع المُرشد الذي انتقل إلى الدار الآخرة: يا مسكين أنت إلى الآن لا تعرف الفرق بين الدنيا والآخرة؟ فالدنيا دار تكليف ومُكابدة ومُجاهدة، والآخرة دار تشريف، وقد أتعبْتَ شيخك في الدنيا، وأثقلت ظهره وكاهله، وتُريد أنْ تُحمّله هذا التعب وهو في الدار الآخرة أيضًا!

حاشا لله جلّ في علاه أنْ يُكلّف وليّه المُرشد، وهو في دار التشريف والتكريم، فمثلًا لو أنّك جالس في حضرة الملك، فهل يُعقل أنْ يقول لك أحدهم: احمل هذه الحاجة، وانقلها هناك؟ هل يصحّ هذا في مجلس الملك؟ طبعاً لا يصحّ.

فهذا المسكين جالس في السطح واعتقد اعتقادًا فاسدًا بأنّه ليس بحاجة إلى المُرشد[1]، فأنا أذكر الله عزّ وجلّ في قلبي مُباشرة، بدون الأخذ بهذه الوسيلة الشرعية التي قامت عليها أدلّة الكتاب العزيز والسُنّة المُطهّرة، وأجمع عليها علماء الأمّة الإسلامية الربانيّون سلفًا وخلفًا.

جلس ليذكر الله سبحانه، فأخذته سِنَةٌ من النوم، ثم غرق في النوم، ولم يستيقظ إلّا بفعل حرارة الشمس، وفاتته صلاة الفجر أيضًا، بعد ذلك بدأ يشعر بأنّ قلبه كالحجر، قال حضرة الشيخ عبد الله قُدِّسَ سِرّهُ، ـ وهذا سمعته بأذُنِي ولم أنقله عن راوٍ ـ فوجدتُ على قلبه غِشاوة أو ستارة، فقلت في نفسي: سأزيل هذه الستارة بإذن الله تبارك وتعالى وقوّته، غَيْرَةً وحنانًا منه على مُريده؛ فقيل لي: اترك الأمر.

فحافظوا على قلوبكم، وإيّاكم والنكران، فهذه كرامات الأولياء ثابتة بنصوص الكتاب الكريم والسُنّة العطرة، وهذه بعض خصائص السادة المُرشدين رضي الله تعالى عنهم، بعد ذلك يقول: أتاني بعد الختم فقلت له: يا ولدي هناك غشاوة على قلبك، فقل ما السبب؟ وماذا فعلت؟ فأفصح عن نفسه وذكر ما رويتُ لكم تمامًا.

---

١ لمزيد الفائدة مراجعة باب الذكر والتزكية والسلوك في موقع حضرة الشيخ سعدالله احمد عارف البرزنجي https://saadarif.com/

انظروا إلى عقوبة النكث ـ العياذ بالله تعالى ـ فقد لا تُعطي مجالًا للعودة والتوبة، وهذا تجسيد لقوله تعالى: ﴿ ـــ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴾ [سورة الكهف: ١٧].

فدِيْنُ الله عزّ وجلّ عزيزٌ وغالٍ، والله تعالى يغار عليه، فمهما لعبتَ بنيران المعاصي فذاك هينٌ، وهذه ليست دعوة للذنوب والعياذ بالله جلّ في علاه، ولكن حتى أبيّن لك ألا تقترب من الأسس والأصول، فاحذر، فالاعتقاد من الأصول، فإياك أنْ تذهب وتُعاهد وتُبايع وبعد ذلك تقول: لا أحتاج إلى مُربٍّ، فأنا عالمٌ أقف على المنبر، وأنا أنا، إلى آخره.

فلمّا سمعتُ هذا الكلام من سيّدي حضرة الشيخ عبد الله قُدِّس سرّهُ أصبحت أمامه كالمِكْروب الذي لا يُرى، ولا أعرف ماذا حَدَثَ لي؟ فجثوتُ على رُكبتي - وحضرته جالس على أريكة- فقلتُ: دخيلكم سيّدي، فقال: قم يا ولدي، اجلس مكانك، لكنني لم أستطع، فقام قُدِّسَ سِرّهُ فأخذ بيدي، فاستجمعتُ قواي حتى لا أُتعبه رضي الله تعالى عنه، وقمتُ فجلستُ مكاني، فقال: أريد أنْ تتعلّم، وتُعلّم المُسلمين كيف يُعرضون أحوالهم على مُربّيهم ومُرشديهم، قلت: نعم سيّدي، قال: لمّا تشعر بخلل عندك فلا تذكر الخلل بل اطلب العلاج، وعدم ذكر الخلل أفضّل، فلا تُصرح كما قال الرجل إنّ قلبي كالحجارة، بل قل له: أنا مُتعب؛ وبحاجة لدعائك ونظرك.

نرى في هذه المرحلة تكريم الرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، ومن ثَمَّ تكريم الإنسانية ببركة خير البرية عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام في إعلان بعثته، فالآن حَدَثَ الإعلان، يقول الله عزّ وجلّ:

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ [سورة الضحى: ٧].

هو في قرارة نفسه يعلم أنّه نبيّ، لكن هل يقول للناس أم لا؟ وهذا بعض معاني الضلال في حقّ خير الرجال صلّى الله تعالى وسلّم وبارك عليه وآله وصحبه، فتحيّر بين هذه الأنوار التي يتمتع بها، والشفافية التي أدّت إلى الرؤيا الصادقة، والرؤيا الصادقة مرتبة روحية

ليست بالقليلة، فهل يُعلن أم لا؟ هو حائر، الحَجَر يُسلّم عليه قبل النبوّة؛ قال عليه الصلاة والسلام:

(إنّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ) الإمام مُسلم رحمه الله تعالى.

فهل يذهب إلى النّاس فيقول لهم: الحجر يقول لي: أنت رسول الله؟ هل يقول: تعالوا إنّي رسول الله؟ هذه مِنْ بعض معاني: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾.

سيّدنا جبريل عليه السلام مُتشرّف بحضرة خاتم النبيين عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه في غار حراء، على جبل النور، في أقدس مدينة في ذلك الوقت، مكّة المكرمة، في ليلة سُمّيت بليلة القدر، في شهر رمضان، وهذه نصوص الكتاب الكريم والسُنّة الشريفة، يقول الباري جلّت صفاته:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [سورة البقرة : ١٨٥].

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [سورة القدر:١] .

إذِن: بدون أيّ منازعة تستطيع أنْ تقول: إنّ القرآن المجيد نزل ليلًا، فالليل ظرف التكريم غالبًا، وسيّد الشهور شهر رمضان الذي هو ظرف البركات والخيرات والهدايات والبيّنات.

الذي حصل أنّ سيّدنا جبريل عليه السلام مُتشرّف بحضرة النبيّ صلّى الله تعالى وسلّم على ذاته وصفاته وآله وصحابته، فغطّه، والالتزام بهذا الشكل عند أهل الذوق تعبيرٌ عن المحبّة والشوق، وأيضًا فيه قطعٌ لشكوك المُشككين القائلين: احتمال هو منام، كلا، فحضرته لم يكن نائمًا بدليل قوله صلوات ربّي وسلامه عليه وآله وصحبه:

(فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ) الإمام البخاري رحمه الله عزّ وجلّ.

حتى يُبيّن للنّاس أنّه ـ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم ـ كان يقظًا مُنتبهًا، بكلّ قواه وطاقاته، يَعي ما يُقال له، ويُجيب بوعي تامٍ وعلمٍ كاملٍ بيّنٍ واضحٍ، فسيدنا جبريل عليه السلام يقول له: اقرأ، فيُجيب: ما أنا بقارئ، فالأمر الذي سمعه مسموع، وجوابه كان جوابًا صحيحًا مُطابقًا للواقع الذي هو فيه.

بعض النّاس يقول: لا تقل إنّه أمّيّ، فهذا انتقاص من حضرته عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام، كلا يا أخي فأنت الآن في رياض النبوّة، وليس في الرياض البشرية العادية، فأمّيّته صلوات الباري وسلامه عليه أعظم برهان على نبوّته؛ لأنّه لولا النبوّة لما انقلب الأمّي إلى عالم يُعلّم الأجيال من بعد اقرأ إلى قيام الساعة، وهذه مُعجزة، ولكن عندما تقول: إنّه عالم، فهذا الكلام تستطيع أنْ تقوله بعد الإعلان عن النبوّة، قال الله جلّ جلاله:

﴿ . . . وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [سورة النساء:١١٣].

وقال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة:١٥١].

وأرجو أنْ تُسلّطوا الأضواء على قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾، فهذه دائرتها واسعة، أوسع من هدايات قوله سبحانه: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾، فليس من وظائفه صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم أنْ يتلو عليكم آياتنا، ويُزكّيكم، ويُعلّمكم الكتاب والحكمة فقط، إنما: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا ﴾، فـ"ما" دائرتها واسعة مُطلقة، فهي من ألفاظ العموم، وكلّ واحد

بحسب حظّه، وفضل الله جلّ وعلا عليه، وبحسب صدقه ومُجاهداته سيأخذ من هذه الدائرة: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾، وهذه من وظائف الحبيب عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه التي غفِل عنها كثير من النّاس.

وحتى لا يُقال أيضًا إنّ سيّدنا النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم انقلب خلقًا آخر وتجاوزَ البشرية جعله الله تعالى يشعر بارتجاف وخوف، وهذه من عوارض البشرية؛ لأنّ بقاء بشريته عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام دليل على بقاء النبوّة، فإنّ الكفّار لمّا اقترحوا أنْ يُنزّل عليهم ملائكة؛ قال سبحانه:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [سورة الأنعام:٩].

فليس مُمكنًا أنْ يكون الرسول مَلَكًا، فإذن لابُدَّ أنْ تبقى عوارض البشرية تُصاحبه صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم في كلّ أطوار الترقّي والتحوّل والنقاء والطُهر، وأنا أُوْقِدُ لكم المصابيح في هذا الدرب المُنير - إذا صحّ التعبير- حتّى يكون نورًا على نور، في سبيل أنْ تتحرّك منّا العقول جميعًا للتأمّل والتدبّر.

نزل قول الله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [سورة العلق: ١ - ٥].

الرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم نزل من جبل النور ومعه هذه الآيات الخمس، أين ذهب؟ هل ذهب إلى ورقة بن نوفل رضي الله سبحانه عنه أم ذهب إلى صديقه الكبير سيّدنا أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه؟ كلا، بل أوّل مَنْ سمع بهذا الخبر، السيّدةُ خديجة الكبرى رضي الله تعالى عنها وأرضاها، وهذه هداية لنا جميعًا بأنّ

تكون علاقتنا مع الأهل شفّافة واضحة، فلا تُخْفِ عن زوجتك شيئاً، علّمْهَا، ثقّفْهَا فأنت مسؤول عنها في الدنيا والآخرة.

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم:

(كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) الإمام البخاري رحمه الله تعالى.

أتاني أحدُ السالكين يشكو زوجته قائلًا: لا أستطيع أنْ آتي إلى الختم الشريف يوم الخميس[١] لأن زوجتي تطلب مني الذهاب لبيت أهلها أو الخروج للترفيه، فماذا أفعل؟ فقلتُ له: يا بني اسمح لي أن أقول لك: أنت المُقصّر، فتعجّب! فقلتُ له: المفروض أنْ تذكر لها منذ البداية بأنّك سالكٌ، ينبغي عليك الحضور كلّ خميس أو بين خميس وآخر للختم الشريف كي تستفيد من بركات ذلك المجلس الكريم، وتُبيّن لها معنى الختم وفضائله العديدة، فإذا كانت تجهل كل هذا فمن الطبيعي ألا تعرف لذلك الوقت خصوصيته، فضلًا عن كونك تتركها الأسبوع كلّه سعيًا لطلب الرزق.

عاد الحبيب صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم إلى بيته، وعرض حاله على زوجته، وطلب أنْ يأخذ قسطًا من الراحة، زمّلوني، دثّروني، فانظر إلى السيّدة خديجة رضي الله تعالى عنها ماذا صنعت، مباشرة طَمْأنَتْهُ، فأين نساؤنا وبناتنا من هذه التربية، ومن هذا الخُلُق العظيم؟ أين مجتمعاتنا من هذه العلوم الشرعية الشريفة والمواقف الفطرية الزكية؟

أركّز على هذه المراحل؛ لأنّ فيها هدايات كثيرة، قبل نزول الأوامر الشرعية، وهذه الهدايات تكفينا إذا أخذنا بها، فكيف وقد جاء إلينا الشرع الشريف بـ (افعل ولا تفعل)!

إن استثمار الطاقات الموجودة في المجتمع، وإبراز الخصائص العظيمة فيه خُلق السلف الصالح؛ قالت أم المؤمنين سيّدتنا خديجة رضي الله تعالى عنها في الحديث الشريف:

١- السؤال رقم ١٢٣٠- saadarif.com

(كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ) الإمام البخاري رحمه الباري عزّ وجلّ.

فهذه كلّها ثوابت ومعالم في المجتمع ينبغي الأخذ بها؛ لأنّها هي التي تكون سببًا في حماية الإنسان من الخزي والكروب الشديدة التي تقضُ مضجعه، وتُعيقه عن أداء مهامّه في الحياة.

ثم اقترحت السيدة خديجة رضي الله تعالى عنها أنْ تذهب به إلى ورقة بن نوفل رضي الله تعالى عنه استثمارا لطاقاته، فهو مصدر علمي جليل.

في هذه المرحلة ـ وإنْ كانت قصيرة ـ هدايات كثيرة وجليلة، منها: عندما جاء سيّدنا جبريل عليه السلام إلى سيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه لم يُفصح له عن هويته، لم يقل له إنّي جبريل، لماذا؟

والجواب الذي في قلبي أنَّ المراتب الروحانية على قدسيتها وأهميتها لابُدَّ أنْ تأتي بالتدرّج، فحضرته إنسان أزعجته الظروف التي يحياها في مكّة المكرمة، فخرج منها ليعتكف مُتأملًا في غارٍ على جبل النور، وهنا قد لا يتحمّل ـ خاصّة في ذلك العصر ـ أن يأتيه سيّدنا جبريل عليه السلام فيقول له مباشرة: أنا جبريل.

أنت الآن مسلم ـ والحمد لله ـ وبفضل الإسلام تعرف الكثير عن سيدنا جبريل عليه السلام، لكنْ في ذلك الوقت، مَنْ يعرف عن سيّدنا جبريل عليه السلام شيئًا؟ إلّا اللهمَّ أهل الكتاب، وهؤلاء قد نُزعت منهم الأمانة العلمية، فأخبارهم لا تُصدَّق ولا تُكذَّب، كما قال الحبيب عليه أفضل صلاة وأتمّ سلام وآله صحبه الكرام:

(لا تُصَدِّقُوا أهْلَ الكِتَابِ ولا تُكَذِّبُوهُمْ، وقُولوا: ﴿آمَنَّا باللَّهِ وما أُنْزِلَ إلَيْنَا ـــ﴾، الآيَةَ) الإمام البخاري رحمه الباري سبحانه.

هكذا قيل عن أهل الكتاب بعد تشرّف البشرية بالإسلام، وقد بُثّت الثقافة الروحية في الأُمّة، فكيف قبل ذلك!

نستفيد من هذا بأنَّ المراتب الروحية لا يُكشف عنها إلا بالتدرّج، فقد يسأل أحدهم: لماذا عندنا في طريق السلوك إلى الله تعالى: مُجازٌ بفتح الختم الشريف، ومُجاز بفتح الختم الشريف وقبول السالكين، ومُجازٌ بالخلافة؟ والخلافة تجْمَعُ ما تقدم من صلاحيات، يُضاف لها جزئية جدٌّ صغيرة ـ وهي من وظائف المُرشد رضي الله تعالى عنه ـ وهو التوجّه عن قُرْبٍ، ولعدد محدود جدًّا، أمّا التوجه عن بُعْدٍ فالخليفة لا يستطيعه، وعليه فلا يقول المُرشد مُباشرة لمَنْ وصل عتبة الإرشاد من مُريديه: لقد أصبحت مُرشدًا، هكذا دون مقدمات؛ فقد لا ينجح المُريد في تحمل هذا الابتلاء؛ لأنَّ التدرّج سُنّة الله تعالى في خلقه.

الكثير من أهل العلم رضي الله تعالى عنهم، قالوا: إنَّ الله تبارك اسمه قادر على أنْ يخلق السماوات والأرض في لحظة، وهذا حقّ، فلماذا خلقها في ستة أيّام؟

ذاك لأنَّ التدرّج قانون الله عزّ وجلّ في الكون، فسبحانه يُعلّمنا التدرج والتُّؤَدَة، وأنَّ الأمور لابُدَّ أنْ تنبني مفاصلها وأركانها ركنًا بعد ركن، وهكذا فالقرآن الكريم نزل بالتدرّج ليُوافق هذه السُنّة الكونية الثابتة، أما الكفّار فتعجبوا لجهلهم ـ أو لتعنتهم ـ فقالوا: لماذا لم يُنزل جملة واحدة؟ فقال عزّ شأنه: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [سورة الفرقان: ٣٢].

إن الأحكام الشرعية إذا نزلت كلّها في يوم واحد أعجزت النّاس عن الالتزام بها، وهذا جوابٌ لما يدور في خَلَد بعض الأحباب: لماذا عندنا في المنهج هذه المراتب؟ لماذا ذكرها السادة المُرشدون رضي الله تعالى عنهم؟ أين أدلّتها من الكتاب الكريم والسُنّة العطرة؟

إن أدلة كثيرٍ من الأحكام مُستنبطة من عموميات نصوص الكتاب العزيز والسُنّة النبويّة المُطهّرة، وليس شرطًا أنّ يكون لكل ما تسأل عنه نصٌّ خاصٌ مُحددٌ بالاسم، فهذا يعني أنَّ القرآن الكريم لابُدَّ أنْ يكون ثلاثة ملايين جزءًا حتى يُغطي كل تلك الأمور.

لكن القرآن الكريم أعطاك مُولّدات أحكام، كما قال سيّدي حضرة الشيخ عبد الله طيّب الله تعالى روحه وذكره وثراه: مصادر الشريعة فيها مُولّدات أحكام، فكلّما اقتضت الحاجة عند المُكلّف في واقعة ما فسيجد أنَّ القرآن الكريم أو السُنّة النبويّة الشريفة أو القواعد المُستنبطة منهما أوجدت له حُكمًا مُناسبًا لتلك الواقعة.

وإليك هذه القصّة الواقعية: أحد الدعاة كان في الغرب فجاءه أحد مُحاربي الإسلام ليسأله، وظنّ أنَّه سيُعجزه بهذا السؤال، وسينتصر عليه فتسقط دعوته، فقال له: أنتم تقولون: إنَّ القرآن الكريم فيه كلّ شيء، قال الداعية: نعم، فقال: إذن كم رغيف خبز نصنع من كيس الطحين؟ أعطني آية من القرآن تُبين ذلك.

اتصل الداعية مباشرةً بالخبّاز، وسأله كم رغيفًا مُمكن أن نصنع من كيس الطحين؟ فأجاب الخباز: كذا، وهكذا نقل الجواب للسائل، فقال السائل: أين الآية؟ فقال إنَّ الله تعالى يقول:

﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل: ٤٣].

وأنا سألتُ أهل الذكر في هذا الشأن، وأهل الذكر في سؤالك هم الخبّازون.

انظر إلى الحكمة، فعلًا إن نصوص الشريعة الغراء هي مُولدات أحكام، فالبعض يقولون: من أين أتوا بهذا الكلام؟ هذا مُجاز بفتح الختم الشريف، وبعد ذلك أُجيز بفتح ختم شريف وقبول السالكين، وبعدها أُجيز بالخلافة، وبعدها بالإرشاد، وهذه المراحل قد مررتُ بها، فسيّدي حضرة الشيخ قُدِّسَ سرّه، أجازني بفتح الختم أولًا، وبعد فترة: أجازني بقبول السالكين نيابة عنه، وبعدها أجازني بالخلافة، والخلافة تُكتبُ، وبعدها بالإرشاد.

فليس مُنسجمًا مع سُنّة التدرّج في قدر الله تبارك تعالى، وفي حكم الله عزَّ وجلّ في هذا الكون أنْ يقول سيدنا جبريل عليه السلام مباشرة: أنا جبريل وأنت رسول الله؛ فالمُكلّف قد لا يُحافظ على توازنه، وهذا الكلام لا نقوله بحق سيّدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه - نعوذ بالله تعالى- لكنْه تقدير الله تعالى، وترسيخٌ لمنهج التربية والتعليم في الأمة.

أضرب لكم مثالًا، وأروي سماعًا من سيّدي حضرة الشيخ عبد الله قُدِّسَ سرّه، وعندي أخبار من غير هذا كثيرة، لكنْ لا أذكرها، إنما أذكر ما سمعته فقط، وفيما سمعت كفاية لأمّة الإسلام إنْ أرادت أنْ تتفقّه، وتلتزم بما قاله سيّدي حضرة الشيخ عبد الله طيّب الله تعالى روحه وذكره وثراه، وأنا أعتقد يقينًا جازمًا لا شُبْهَةَ فيه أنَّ سيّدي حضرة الشيخ عبد الله قُدِّسَ سرّه كان مُجدّدًا.

قال حضرته رضي الله تعالى عنه: أحد السالكين بلغ عندي مرتبة الإرشاد، وبعض الإشارات وَصَلَتْهُ أنَّه سيُصبح مُرشدًا، فأخذ هذه الإشارات كأنّها نصوص واضحة قطعية لا تقبل الاجتهاد، ولا تقبل الظنّ والاحتمالات، فأصيب بالعُجب ـ العياذ بالله جلّ في علاه ـ فأخرّه حضرة الشيخ رضي الله تعالى عنه.

لِمَ لمْ يُخْبِرْهُ سيّدي حضرة الشيخ عبد الله قُدِّسَ سرّه بأنَّه سيُصبِح مُرشدًا؟ لأنَّه خاف عليه من العُجب، وسبحان الله العظيم صدق ظنّه رضي الله تعالى عنه، فرجع ذلك الرجل كأنه سالكٌ في بداية الطريق، بايع المُرشد الآن ، ولم يعمل بعدُ ورده الأوّل.

كانت هناك لعبة تسمّى "حيّة ودرج"، أي الثعبان والسُلّم، وكما هو معلوم فالثعبان يبلع والسُلّم يرفع، وهذه الأفعى تُمثل العُجب، فإذا بلعتِ الأفعى أحد اللاعبين أرجعته للصفر، وهذا الرجل لمّا أصيبَ بالعُجب رجع إلى المربّع الأوّل، رجع إلى الصفر، فعاد كسالكٍ في أول الطريق.

بعضهم ينظر إلى الإرشاد بأنَّه مكاسب مادية ونفسية، يتباهى على النّاس بأنَّه صار مُرشدًا، يُقبّلون يده، ويسلكون عنده، ويأمر وينهى، هكذا يفكّر، وهذا موجودٌ في الواقع، صحيح أن من المُفترض على المُسلمين أنْ يتعاملوا هكذا مع السادة المُرشدين، ونسأل الله سبحانه أنْ يرزقنا الأدب والتوفيق والاحترام، ولكن لا ينبغي أن تكون هذه الامتيازات في بال وخاطر ومُبتغى الصادقين السالكين إلى الله تعالى رب العالمين.

إذن: لابُدَّ في كل إنسان من التدرّج في الجانب الروحي ـ كغيره من الجوانب ـ وقال لي قُدِّسَ سرّه أيضًا: أحيانًا يكون المسلم سالكًا وهو لا يعلم ـ سبحان الله- استغربتُ جدًّا! كيف يكون سالكًا وهو لا يعلم؟ ألا يحتاج السلوك إلى طلب وعهد؟ فلمّا رآني مُندهشًا، قال: يا بُني، إن ربّ العالمين جلّ جلاله جعل في الشريعة أحكامًا تُقابلها أجور أو عقوبات، فالعمل الصالح كما قال الله عزَّ شأنه:

﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[سورة الأنعام: ١٦٠].

فكلّ عمل له مُقابل، وهناك شيء اسمه فضل الله جلّ في علاه:

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[سورة الجمعة: ٤].

لماذا؟ حتّى تتربّى أيّها المسلم وتترقب فضل الله عزَّ وجلّ:

﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾[سورة النساء: ٣٢].

ولا تقل عملتُ حسنة، فيا ربّ أعطني عشر أمثالها، بل قل يا ربّ أسألك من فضلك، فهؤلاء الذين يُرقيهم الله تعالى لمرتبة السالك نالوها بقانون فضل الله عزَّ وجلّ:

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[سورة الجمعة: ٤].

قال قُدِّسَ سرّه: غالبًا هؤلاء سيأتون ويُوفّقون لطلب السلوك، فيكتمل هذا الإنسان من الناحيتين، من الناحية التكليفية، ومن ناحية فضل ربّ البرية جلَّ جلاله وعمَّ نواله.

إذن: سيّدنا جبريل عليه السلام، لم يقل له: أنا جبريل، كما جاء في الحديث الشريف:

(فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي) الإمام البخاري رحمه الباري سبحانه.

ما زلنا في الكهف مُتشرفين بالحبيب المحبوب صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه، فالضمّ سبق الكلام؛ لأنَّ المقام مقام روحانيات أكثر من كونه مقام تعليم، فلابُدَّ أنْ تُقدَّم المعالم الروحانية على المعالم العلمية، فحضارة الإسلام حضارة روحية علمية، والروحية مُقدَّمَة دائماً، ولأن الضمّ عمل روحي فلابُدَّ أنْ يسبق العمل العلمي، ولذا فالعملُ الروحي يجب أنْ يسبق التدريس، فأين أنتم يا أمّة الحبيب عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام من هذا المعنى العظيم؟!

أغلب الكُتّاب لم يذكروا شيئًا عن هذا الضمّ بهذا المعنى، أي بمعنى أنَّه عمل روحي، فإذا قام أحدنا وضمّ أخاه إلى صدره بدون أيّ كلام، فعمّا يُعبّر هذا الضم؟ ألَا يعبِّر عن المحبة والاشتياق والتآزر والتكاتف وكأنّنا جسم واحد؟ نعم والله يُعبِّر، ثمّ إذا ضمّ أحدهم الآخر تراه يُغمض عينيه فطرة - سبحان الله - وهذا جوابٌ لمَنْ يقول: لماذا تُغمضون أعينكم؟ فهذا التغميض إشارة إلى العُمْقِ الذي أكرمنا الله تعالى به في المعرفة، فاسمع إلى قول المولى جلّ وعلا: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [سورة الروم: ٧].

فالذي أغمض عينيه لا يعلم ظاهر الحياة الدنيا فحسب، بل يعلم كثيرا من حقائقها، ويُؤمن بالآخرة ويتطلع إلى معرفة حقائقها، فعلمه عميق وهمته صالحة بفضل الله عزّ وجلّ.

إذن: هذا الضمّ للحبيب صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، مَعْلَمٌ روحانيّ، يقول لنا الله سبحانه من خلاله: العمل الروحيّ يسبق عمل الجوارح دائمًا، فإذا أردت الصلاة فما أوّل عمل تبدأ به؟ هل تسجد أم تركع؟ كلا، بل تنوي، والنية عمل روحيّ.

إذا أردت أنْ تُزكي، ماذا تفعل؟ هل تحسب أموالك؟ كلا، بل تُحضّر في قلبك النيّة، فهي التي تدفعك لأداء هذه الفريضة، تُريد أنْ تحج... وهكذا.

أروي لكم أيضًا عن سيّدي حضرة الشيخ قُدِّسَ سرّه الشريف في هذا المجال ـ مجال الضمّ ـ كيف ربط بينه وبين قول الله عزَّ وجلّ:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[سورة البقرة: ٢٦٠].

الإحياء عمل يتعلّق بالروح؛ فالحياة تكون بتعلّق الروح بالجسد، والموت يكون بتبدّل هذه العلاقة، أي بانفصال الروح عن الجسد، قال قُدِّسَ سرّه، ورضي الله تعالى عنه، ونفعنا بأنفاسه وعلومه: ماذا يعني ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾؟

يعني ضُمّهنَّ إليك لحدّ الصرير، والصرير هو الصوت الذي ينبعث بسبب القوّة.

قال الحبيب صلوات ربّي وسلامه عليه وآله وصحبه أجمعين:

(فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي) الإمام البخاري رحمه الباري سبحانه.

فسيّدنا إبراهيم عليه السلام أتى بهذه الطيور، وضمّهنَّ إلى صدره الشريف، وهذا الضمّ يُعبّر عنه بالصرير؛ لأنَّ فيه نوعًا من الضغط الذي يُولّد صوتًا، فلماذا حصل هذا، وما الحكمة منه؟ لأنَّ الضمّ سيُولد علاقة ومناسبة روحية بينه وبينها.

تمعن فهنا عمل روحي أيضًا - الله أكبر- ما أجلّك أيّها العمل الروحي، ما أقدسّك أيّها العمل الروحي، ما أعظم قدرك عند الله سبحانه أيّها العمل الروحي، لماذا هذه المناسبة بينه وبين الطيور؟ قال: لأنَّه سيجعل كلّ جزء منها على جبل كما أمره الله تبارك اسمه.

انظر إلى المُجاهدة، عندما يُمسك الطيور، ويأتي بهنّ، ويعمل عمله الروحي بضمهنَّ، سيُقطعهنّ تقطيعًا؛ لأنّه لا يجوز التأخّر عن أمر الله تعالى مع وجود العاطفة والعمل الروحي؛ لأنَّ التقطيع من أمر الله عزَّ وجلَّ، وبعدها سيرتقي إلى الجبال، وهذا جهد يبذله حتى يصل إلى طمأنينة القلب، فقلبه الشريف لا يشكّ في قدرة الله جلّ وعلا، لكنَّه يُريد أنْ يرى الكيفية، كيف يُحييهم؟ وإلّا فهو مُؤمن بذلك يقينًا جازمًا، هذا ما نعتقده، ولا يجوز لنا أنْ نعتقد غيره، فالله تعالى يُحيي الموتى، وأنَّه سبحانه على كلّ شيء قدير، ويبقى النصّ عامًّا يُعالج كثيرًا من الأمور.

إن كثيرًا من النّاس عن هذه الأعماق الروحية لغافلون، فبعض النفوس الضعيفة تفهم أنَّ قلب سيّدنا إبراهيم عليه السلام غير مُطمئنّ - نعوذ بالله تعالى - لكن تنزّلًا معهم - لأنَّك لمّا تُحاور الخصم يجب أنْ تنزل معه إلى مُستواه - أقول: مع ذلك أوصله الله تعالى إلى الطمأنينة، لكنْ نحن نعتقد أنّ سيّدنا إبراهيم عليه السلام كان في زمانه هو القمّة في اليقين والطمأنينة، لكن الطمأنينة المطلوبة للكيفية، فكيف سيُحييهنّ الله جلّ في علاه؟

فإذا كنت تُريد إنْ تصل إلى الطمأنينة، فجاهد نفسك واصعد إلى الجبال من حولك: ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾، وهكذا إذا كنت تُريد أنْ تصل إلى العلم التجريبي التطبيقي فجاهد نفسك لتصل.

لقد أكّد سيّدي حضرة الشيخ قُدِّس سرّهُ على أنَّ الضمّ عمل روحي؛ لماذا؟

قال: حتى تُولد هذه المناسبة، وبعد أنْ يُحيي الله عزّ وجلّ هذه الطيور فإنها لا تطير إلى حيث صنفها أو وكرها، كلا، وإنَّما يرجعْنَ إلى سيّدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، لماذا؟

لوجود تلك العلاقة الروحية؛ فأين يذهب الطير إذا مات ثم أحياه الله جلّ وعلا؟ هل يأتي إليك وأنت مَنْ قطّعه؟ كلا، فبما وهبه الله عزّ شأنه من عقل غريزي فلن يأتي إليك وإنْ لم تُقطعه، فكيف وقد قطّعته، ولكن عندما تكون هنالك مناسبة روحية فسيعود إليك.

أيّها المُريد ابحث عن هذه المُناسبة الروحية، لا تسمح لنفسك أنْ تقول: أنا أذكرُ الله سبحانه بدون رابطة ـ كما في القصّة التي ذكرتها سابقًا ـ أين المناسبة الروحية التي بينك وبين مُرشدك؟

خادمكم مُرشد، ومع ذلك لا أجلس جلسةً للعمل الروحي إلّا وافتتحها بالرابطة مع سيّدي حضرة الشيخ قدّس سرّه، فكيف أترك هذه المناسبة الروحية المُباركة؟!

فلنفهم أيّها الأحبّة الكرام، بأن هذا الضمّ من سيّدنا جبريل عليه السلام تجسيد لهذا الأصل في الدِّين، فالعمل الروحي مُقدَّم على عمل الجوارح والعقل، وإنْ كان العقل طاقة روحية لكنَّ القلب مُقَدَّم عليه، فكم فات الناس من خير! وكم نحن مقصرون! فو اللهِ لو أنَّ كلّ واحد منّا قام من مكانه ليركض بين القرى والأرياف فيدعو الناس لهذا الخير لبقينا في دائرة التقصير.

أحبّتي في الله سبحانه، قلتُ فيما مضى بأنّي لا أريد أن أتحدّث كثيرًا عن أمور لا تُعيننا على الجانب التطبيقي في الحياة، الجانب الذي يُعنى بواقع النّاس، وبواقع أمّة سيّدنا محمّد صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، وينبغي أنْ نتذكّر بأنّني أعتبر كلّ مَنْ يعيش على الكرة الأرضية هم من أمّة خير البرية عليه أفضل الصلاة وأتمّ السلام وآله وصحبه الكرام؛ بمعنى أنّهم مدعوُّون لهذا الدِّين، دين الإسلام، فكلُّ مَنْ يعيش على الكرة الأرضية منذ بعثته صلوات ربّي وسلامه عليه وآله وصحبه، إلى آخر نسمة تحيى على هذه الأرض هم من أمّة

سيّدنا محمد عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه؛ أي أمّة الدعوة، وأرجو أنْ تنتبهوا لهذا الكلام، لأنّه ربّما يُؤوّلُ بما لا يليق بالمقام، فالذي استجاب لله جلّ في علاه ولرسوله صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه أصبح من أمّة الإجابة، أي دخل في كيانه جسمًا وروحًا، وتشرّف بأنّه منسوب إلى سيّدنا رسول الله عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه بإيمانه واستسلامه واستجابته لأمر الله عزّ وجلّ، ومَنْ بقي دون استجابة فهو من أمّة الدعوة، لأنّه لا ينتظر أنْ يأتيه نبيٌّ آخر فيدعوهُ إلى الله تعالى، وبهذا فهو لا يزال مدعواً أينما كان، ومن أيّ قوم أو ملة أو دِين كان.

هذا التقسيم يُوجب علينا أيّها الأحبّة أنْ نقصِد ونتوجّه إلى الذين لم يستجيبوا لله عزّ وجلّ ولرسوله المُبجّل صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه، لأجل أنْ نُؤكّد الدعوة إليهم؛ ولنكشف شُبَهم، ونطرد ظلام الجهل وغشاوة الافتراءات عن قلوبهم؛ لعلّهم يستجيبوا، فنكون قد تشرفنا بإنقاذهم من النّار.

هذا المفهوم الذي ندعو إليه يُوجب علينا أنْ نتحرّك بكلّ إمكاناتنا وطاقاتنا، وأنْ نتخلّى عن كثير من سيّئاتنا وتقصيرنا وانشغالنا بحوادث ومسائل لو دققنا فيها لرأيناها تجسيداً لنزغات الشياطين أو لوسوسة النّفس الأمّارة بالسوء ـ نعوذ بالله تبارك تعالى ـ أو التعلّق بهذه الدنيا الفانية، فهذه الأسباب الثلاثة التي قد نغفل عنها تُسبّب لنا الإرباكات في طريق الدعوة إلى الله سبحانه، فكيف أستطيع أنْ أفهم مثلًا إنّ إنسانًا ينشغل بخلاف بينه وبين شخص ما لمدّة أسابيع أو شهور، ويبني على هذا الخلاف فرضيّات وتوجهّات وتصرّفات وتحرّكات، فأين هذا المسكين من قوله تعالى:

﴿ ـــوَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [سورة الانفال: ٤٦].

وأين هو من قوله عزّ شأنه:

﴿ ـــ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ـــ ﴾ [سورة آل عمران عليهم السلام: ١٠٣].

انظر إلى عِظم هذه الغفلة نعوذ بالله تبارك في علاه.

إن الشيطان يُريد أنْ يُفسد بين المُسلمين وبين مَنْ سلك الطريق إلى ربّ العالمين سبحانه تحت إشراف مُربٍّ مُرشدٍ موصول اليد بحضرة خاتم النبيين عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه أجمعين، فكيف أفهم بقاء العداوة وإفرازاتها من الحقد والحسد والغيبة والنميمة، وكلّها إفرازات لهذه العداوة، فأين انتباهته لخطورة هذا التصرّف الذي يُعرقِل عجلة الدعوة إلى الله جلّ جلاله في ذاتنا وفي أسرتنا الرّوحيّة وفي واجبنا الشرعيّ؟.

ففي ذاتنا مثلًا: عندما يُبتلى زيدٌ من النّاس بهذا الابتلاء ـ نعوذ بالله تبارك اسمه ـ فما أتصوّر- والله تعالى أعلم- بأنه سيشعر بالطمأنينة في صلاته، ولا أعتقد بأنّه سينعم بفضل الله تعالى عليه؛ فهذه كلّها قد غدت خناجر في ذاته، والعياذ بالله جلّ وعلا.

في أُسْرَتِنَا الروحية: إذا كان لأحد السالكين مُشكلة مع أخيه المُسلم، وهو يعيش مع هذه المُشكلة لمدّة أسبوع، لا أقول أكثر ـ نعوذ بالله سبحانه ـ ونسأله جلّ جلاله أنْ يرزقنا الرشاد والثبات والهمّة العالية لإطفاء نيران الفتن فيما بيننا؛ فهل سيعيش هذا الأسبوع مُطمئنًّا، مُرتاحًا، مُستأنسًا مع أهله؟

هذا يخالف قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة النور: ٢١].

هذا إذا كان السبب وسوسة الشيطان، فما بالك إذا كان السبب وسوسة النّفس الأمّارة بالسوء؟ فأين مُجاهدة النّفس؟ وأقلّ مراتب مُجاهدتها أنْ تُحاصرها وتُقلّل من شرورها، كما نفعل مع الفئات المُجرمة في المجتمع، فهل نطلق لهم العنان؟

كلا، بل نُحاول أنْ نُقيّد أياديهم، ونسجنهم، ثمّ نبدأ بإصلاحهم، فإنْ أَبَوا نبدأ ببترهم أو على الأقلّ بتشديد الحِجْرِ عليهم؛ لأجل ألا يُلوّثوا ويُؤذوا الآخرين.

إذن إذا قلنا إنّ السبب هو الغفلة عن النّفس الأمّارة بالسوء ـ وهذه طامّة كبرى، خاصّة إذا كان سالكًا ـ فمعنى ذلك أنّه أطلق العنان لأعدى عدوّه، كما قال عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه أجمعين: (أَعْدَى عَدُوٍّ لَكَ نَفْسُكَ الّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ) الإمام أبو داود رحمه الله تعالى.

فإنْ كنت غافلًا عن هذا العدوّ، فماذا سيفعل بك؟ سيُفسد ويُخرّب.

وإذا كانت العلّة هي الانشغال بالدنيا، بمعنى أنّ أحدهم ليس عنده هدف - وهو سالك - سوى سعيه لتحقيق حلمه بشراء سيّارة راقية، وهذا غير ممنوع، فإنْ كنت تملك نقودًا فاذهب واشترِ سيّارة فارهة، فالسيّارة ليست هدفًا، إنّما هي وسيلة، أمّا إذا لم يكن عندك نقود فاقنع بما قدّر الله تعالى لك، حتّى لو ركبت دراجة فهذا ليس عيبًا.

والدي رحمه الله عزّ وجلّ، كان يركب الدراجة إلى أنْ فارق الحياة، وفي اليوم الذي استشهد فيه ذهب إلى المسجد على الدراجة، فلم تكن عنده سيّارة، فهل قال: أترك خدمة المسجد، والدعوة إلى الله تعالى، لأنّي لا أملك سيّارة؟! ومسجده يبعد عن بيتنا كيلومترين تقريبًا، ولم تكن هذه المسافة قليلة بالنسبة لعُمره، وقد ناهز الثمانين رحمه الله تعالى.

إذن: إذا لم ننتبه لهذه العلل الثلاث فستُؤذينا في كياننا الذاتي ـ لا قدّر الله تعالى- تُؤذيك شخصيًا، تُؤذينا في أُسَرِنَا، تُؤذينا في مجال الدعوة إلى الله سبحانه.

فما الحلّ؟ الحلّ أنْ نُكون مُنتبهين يقظِين لهؤلاء الأعداء: النّفس، الدنيا، الشيطان، وحسب رأيي أنّهم مُرتبُون بهذا الترتيب، فالنّفس أخطرهم، ولا اجتهاد في مورد النصّ، لقول سيّدنا النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم:

(أَعْدَى عَدُوٍّ لَكَ نَفْسُكَ الّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ) الإمام أبو داود رحمه المعبود جلّ ثناؤه.

لأنّها أقرب شيء لك، مُلازمة لك، وهي طاقة من طاقات روحك، وطالما روحك لها تعلّق بجسدك؛ فهذه الطاقة موجودة، يعيش معك هذا العدوّ على مدار الساعة، ثمّ طاقات النّفس الأمّارة بالسوء ـ نعوذ بالله تعالى ـ طاقات هائلة جدًا، تختلف عن طاقة الانشغال بالدنيا، وطاقات الشياطين.

ثم الدنيّا، وكم يُحذرنا القرآن الكريم من التشبث بها، ويُبيّن لنا حقيقتها؟ فهي دار الغرور، فلا تغترّ بها:

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [سورة لقمان عليه السلام: ٣٣].

فلذلك جاء التحذير والتنسيق والتوجيه في كيفية استثمار الدنيا، وكيفية التعامل معها؛ فالدنيا مطيّة للدار الآخرة.

وأخيرًا الشيطان، وهو أضعفها، ولا اجتهاد مع وجود النصّ الشريف، قال تعالى:

﴿ـــ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [سورة النساء: ٧٦].

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة الأعراف: ٢٠٠].

فإذا قلتَ بكلّ صدق: أعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم، انقطعت وسوسته واختفى.

في بدايةُ أي عمل روحي ثقلٌ وجمال، وربّما تقولون هذا كلام مُتناقض! فكيف ثقلٌ وجمال؟! كلا، فأحيانًا يكون الثقل جمالًا، يعني عندما تُحبّ مسجدك، وتُشمّر عن ساعدك لتنظّفه وترتّبه بكل مرافقه ـ حتّى محلّات الوضوء ـ في الجوّ البارد أو الحار، ففي هذا العمل ثقل جسدي ومعنوي، فكيف تُنظّف الحمامات، وأنت إمام وخطيب؟ ماذا يقول عنّي المُصلون، ربّما يزدريني وينتقصني الناس ـ قد تجد هذا التوجّه عند بعض النّاس ـ فهذا ثقل لكنّك عندما

عملتَ هذا العمل الثقيل استذكرتَ بأنَّه تشريف لك، وأنّ هذه الوظيفة امتداد لوظائف الأنبياء عليهم السلام، ولوظيفة سيّد الخَلق عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام، فأنت في جَمَال وأُنْسٍ، وإذا أصابتك ـ نعوذ بالله تعالى ـ وسوسة نفسية فقلت: إني مُرشدٌ وعالمٌ ودكتور ومُجاز بالإجازتين، فهذه النفس لابُدّ لها من تأديب.

فإذن هناك ثِقَلٌ، ولكن هذا الثقل مَشُوْبٌ بالجَمَال والكمال.

بعد ذلك اللقاء المبارك العظيم بين سيّدنا النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، وسيدنا جبريل عليه السلام فَتَرَ الوحي، فماذا فعل النبي عليه الصلاة والسلام؟

هل قال: الحمد لله ارتحتُ، لا يُوجد تكاليف، لأعود إلى تجارتي وزوجتي الحبيبة، وأنضم لأصحابي وأصدقائي فأسْمُرُ معهم؟ كلا، بل كان مُتطلّعاً لهذا الأمر، مُحبّاً له، مُتمسّكاً به مع ما يُرافقه من ثقلٍ عظيم؛ فقد عاد يرجف فؤاده عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه، وهو يقول: (زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي، فَدَثِّرُونِي) الإمام البخاري رحمه الباري سبحانه.

إن التشريع الشريف بدأ الآن، فكلّ أحواله وأنفاسه وتصرّفاته ستغدو تشريعًا، إما واجبًا أو سُنّة أو مباحًا أو مكروهًا أو مُحرّمًا.

إذن: ثقلٌ أدّى إلى أن رجف فؤاده الشريف، ولكن سرعان ما قام بعد ذلك ليتحرى ويتثبت ويُجاهد، تصحبه في كل ذلك زوجته العظيمة السيدة خديجة رضي الله تعالى عنها.

عندما ضمّ سيّدنا جبريل عليه السلام حضرة النبي صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم كانت الشحنات والمقامات الروحية مُختلفة، فالمَلَكُ مَلَكٌ، والرسول صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه بَشَرٌ، وهذه ليست منقصة ـ حاشا ـ وإنّما بيانٌ للصنف، فحضرته بشريٌ، وسيّدنا جبريل عليه السلام ملائكيٌ، إذن فالذبذبات الروحانية لكليهما مُختلفة، أمّا أيّهما أعلى وأرقى، فهذا عند الله جلّ وعلا، وهي مسائل ذوقية لسنا مُكلّفين بالبحث عنها، ولكن على ما يبدو لي بذوق أهل الذوق ـ ولا يوجد مانع من القول فهي ليست من الثوابت ـ نقول إن ذبذبات قلب الحبيب صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه أعلى، لقوله تعالى:

﴿ـــ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ـــ﴾[سورة الأنعام: ١٢٤].

﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾[سورة طه: ٤١].

فعندي روحانيته الشريفة صلوات ربّي وسلامه عليه وآله وصحبه أرقى من روحانية الملائكة، وقال جمهور العلماء رضي الله تعالى عنهم: إنّ الإنسان المُطيع أفضل من الملائكة.

هذه الرّوحانية العظيمة العالية كانت لأجل تَلَقِّي كلام رب البرية سبحانه، مع وجود صفة البشرية، وهذه هي المُشكلة؛ فالبشرية تتطلب أمورًا لا تستمر بدونها كالطعام والشراب والنكاح، أما المَلَك فليس لديه هذه المُشكلة، ليس لديه دوافع نفسية، ولا تُوجد في روحانيته طاقة تُسمّى النفس الأمّارة بالسوء، ولا أقصد بذلك وجودها عند سيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه ومَنْ والاه ـ أستغفر الله العظيم ـ ولكن لأنّه بشر تبقى هذه النوازع موجودة عنده، وقد بيّنها لنا الله جلّ وعلا في المرحلة الأولى في حالات منها عندما أراد أنْ يذهب ويسمُر مع أهل مكة أو عندما أراد أن يرفع إزاره ليحمل الحجارة.

وحتّى تتناغم وتتعشق وتتناسب هذه الذبذبات الروحية المُختلفة فإنّها تحتاج إلى هذا الضمّ، وهذه كلّها تُشعِر بثقل التكليف الذي بيّنه ربّ العالمين سبحانه بقوله:

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[سورة المزمل: ٥].

ومع وجود الثقل كان الجمال حاضرًا لأنّ الروحانية بدأت تُستثمر أكثر، وطاقاتها صارت أعلى، وبهذه الروحانية دخل في مجال الملائكية، بدأ يُشاهد المَلَك، ويشعر به، وإنْ كان لم يقطع بعد مَنْ هذا المَلَك، وهذا اختبار من الله تعالى لحضرته، فهو في دار ابتلاء واختبار،

قال ﷻ: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[سورة البقرة: ٢٨٥].

وهو مُلتزم بالتكليف، ونحن مُلزمين بالاقتداء بحضرته:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[سورة الأحزاب: ٢١].

وهذا الموضوع سوف يتّضح أكثر في المرحلة الثالثة، أعني التفاعل مع أوامر الله عزّ وجلّ، فمَنْ هو أتقى هذه الأمّة؟

إنّه سيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه ومَنْ والاه القائل:

(...إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ...) الإمام البخاري رحمه الله عزّ جاره.

فحضرته أتقى الأمة، وأكرمها، ونفهم هذا من هدايات قوله تعالى:

﴿ـــ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ـــ﴾[سورة الحجرات: ١٣].

فلا يُوجد أكرم من سيّدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام، لأنّه قال: (وَأَتْقَاكُمْ لَهُ)، وربّنا جلّ جلاله يقول: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

وجود الثقل مع الجمال يحتاجه الدّاعي، أنا معك إنّ الدعوة إلى الله جلّ في علاه فيها تكاليف، قد تُوْدِي بدنيا الداعي إلى الله عزّ وجلّ، فكم من داعٍ فاتته الدنيا بسبب الدعوة، وقد تُوْدِي بوظيفتك، وربّما قد تُوْدِي بحياة الداعي إلى الله جلّ جلاله.

وجود الثقل في الدعوة لا يتنازع فيه اثنان، لكنّ هذا الثقل طالما قائمٌ على ساق الجمال، فما أحلاه، وما أزكاه، فلذلك يندفع الداعي إلى التحرّي والتثبّت لأجل أنْ يبدأ عمله على بصيرة:

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة سيّدنا يوسف عليه السلام: ١٠٨].

فكلّ هذه المُجاهدات لسيّد السادات عليه أتمّ السلام وأفضل الصلوات وآله وصحبه ـ فيما يخصّ التثبّت ـ في هذه المرحلة تجسيدٌ لهذا الجمال.

وهنا عندي وقفة تخصّ السالكين، فكل سالك عندما يُبايع المُرشد يكون في حال روحانية هي نسبة من حال الحبيب عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم وآله وصحبه المُكرمين، يكون عنده نوع من الاحساس بالجمال، نوع من الشعور بسعة الأفق، لكن كم تدوم؟

بحسب الشحنة الروحية التي برقت من قلب المُربّي، وبحسب الصدق والإخلاص الذي كان في قلب مَنْ طلب وبايع، لِنَقُلْ: إنّها استمرت يومًا أو يومين، ثلاثة أيّام، بعد ذلك كلّنا نقول: كم كانت جميلة تلك الأيام الأولى التي تشرفت فيها بالسلوك، ولكن بعد ذلك لا نشعر بشيء، وطبعًا كلمة (ما نشعر بشيء) عليها تحفّظ، لوجود حكمة في المسألة؛ وتذكر حال الحبيب صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم في فترة انقطاع الوحي، لماذا؟

لتأكيد حقيقة أنّك في دار التكليف، وأنّك لابُدّ أنْ تُجاهد نفسك، فأين بصمتك أيّها السالك؟ أين شخصيتك؟ هل تُريد الرُّقِيّ وأنت نائم؟ تُريد من المُربّي والمُرشد أن يُرقّيك ويُعطيك، فأين موضعك أنت في دائرة التكليف؟

فإذا أحسّ السالك بعد سلوكه بنوعٍ من الفتور فهذا أمر طبيعي، فالله عزّ وجلّ يُريد أن يبتليه ليُظهر مدى صدقه وإخلاصه، وبيان حقيقة شخصيته، وقوة التزامه بقوله تعالى:

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة التوبة: ١٠٥].

بالعودة إلى الآيات الخمس التي نزلت في غار حراء، أرجو أنْ ننتبه إلى ما يأتي:

أوّلًا: شخصية الداعي، فالنصوص التي سنتشرّف بها ستُبدي لنا صورة وشخصية الداعي.

ثانيًا: معالم الدِّين الذي يدعو إليه الداعي.

ثالثًا: المُعوّقات التي يُحتمل أنْ تظهر أمام الدعاة إلى الله عزّ وجلّ.

رابعًا: الوسائل التي يُمكن أنْ نتغلّب بها على تلك المُعوقات.

خامسًا: الصورة المُتكاملة لمرحلة الحياة الدنيا إذا تحققت النقاط الأربعة السابقة.

بمعنى إذا تكاملت شخصية الداعي كما يُريد الله عزّ وجلّ من خلال هذه النصوص، وإذا ساد الدِّيْن الذي ندعو إليه ـ على الأقل في كيانك البشري أو في أُسْرَتِكَ أو في مجتمعك أو في جامعك ـ وإذا استطعنا التغلّب على أغلب المُعوّقات ـ يعني الفقرة الرابعة ـ أي بالوسائل الشرعية وليست باجتهادات مِنّا، أما إذا كانت الاجتهادات ضمن ضوابط الشرع الشريف فعلى العين والرأس، وأنت مأجور سواء كنت مُصِيبًا أو مُخطئًا، ثُمّ الصورة التي ترتسم لنا في مرحلة الحياة الدنيا إذا التزمنا بما تعلّمنا وتفقّهنا.

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [سورة العلق: ١ ـ ٥].

القراءة ترفد وتُضيء لنا النقطة الأولى وهي شخصية الداعي، فالدّاعي لابُدّ أنْ يكون قارئًا، ما معنى القارئ؟

المعنى العام لعوام الناس وطلبة العلم وبعض المُنتسبين للعلم أن القارئ هو الذي يقرأ سطورًا أمامه، ويتفاعل ويتعلّم ويستبين ما فيها من علوم، أما عند الراسخين في العلم فالمعنى لا ينحصر بما ذُكر فقط، بل يُضاف إليها المراتب والرّقي الذي تناله من بركة القراءة سواء كان هذا الرقيّ في حدّ ذاتك وكيانك الإنساني أو كان في تأثيرك بمَنْ يلونك من أهلك وأقربائك وأحبابك، ومَنْ تستطيع أنْ تصل إليهم من البشرية، على نحو تُرَقِّيْكَ وتُؤَهِّلُكَ للإمامة، فليس حال الإمام كحال أيّ مُصلٍّ عاديّ آخر؛ ولهذا قال الرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم: (يَؤُمُّكُمْ أَقْرَؤُكُمْ لِكِتَابِ اللهِ) الإمام البيهقي رحمه الله جلّ في علاه.

فليس معنى أقرؤكم هنا الذي يتلو فقط، وإنّما أراد أن يجمع كلّ مُواصفات الرُّقيّ والتقوى والإمامة في كلمة (اقرأ) وهذا هو المعنى الاصطلاحي للقُرّاء في عهد سيّد الأنبياء عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الأتقياء، أي أميز وأرقى وأتقى المُوجودين، فهذا هو القارئ، وهذا هو معنى (اقرأ) عند الراسخين في العلم وأهل الذوق رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

(اقرأ) وسيلةٌ للرُّقي، فعلى أيّ مَعْلَم تقوم؟

تقوم على معنى ومَعْلَم الصلة بالله جلّ جلاله، القائل:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [سورة العلق: ١].

أي أقرأ (بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ)، فالابتداء بـ (بسم الله) ضرورة يجب الالتزام بها، ومن هنا قلتُ: **"كُلُّ هَدَفٍ نَسْعَى إِلَيْهِ بِبِسْمِ اللهِ نُدْرِكُهُ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى طَالَتِ الفَتْرَةُ أَمْ قَصُرَتْ".**

عندما يكون الإنسان قارئًا فإنه يتبوأ مراتبَ عالية تُؤهله للإمامة:

﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ـــ﴾ [سورة البقرة: ١٢٤].

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [سورة السجدة: ٢٤].

فمن أين جاءت الإمامة؟ من الصبر واليقين بمبادئ الإيمان، وهذا هو المعنى الدقيق عند أهل التحقيق لمعنى (اقرأ).

الرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، أعلن عن بعثته لأهداف كثيرة، منها: هدف شخصي يتعلّق بحضرته، وهدف عام يتعلّق بإمّته صلوات ربّي وسلامه عليه وآله وصحبه أجمعين.

الهدف الشخصي أنْ يغدو الأمّي عالمًا مُعَلّمًا مُتمِّمًا مُكمَلًا بروحي وأبي وأمي هو عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام، وهذا قد تحقّق:

﴿ـــ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [سورة النساء: ١١٣].

﴿ـــ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٥١].

إذن هو تعلّم وأصبح مُعلّمًا لكلّ الأجيال الإنسانية منذ بعثته صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، وبدء تكليفه، بمعنى الارتقاء إلى مراتب القرّاء الذي بيّنتهُ في دار التكليف، وبدون مُنازع فلا يُوجد مُتعلّم ومُعلّم كسيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه ومَنْ والاه، فكلّ المُؤسسات والدراسات والمُؤتمرات التي تنشط حول ما قاله وبيّنه الرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، وما فعله وسَنّه ـ سواء أكانت مُؤمنة أم كافرة ـ تُؤكّد هذه الحقيقة، حقيقة أنّه لا يُوجد مَنْ هو أعلم منْ سيّدنا رسول الله عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه أجمعين.

إذن تحقق الهدف الشخصي لأنّه بدأ بـ (بسم الله)، أما الهدف العام من الإعلان عن بعثته صلوات ربّي وسلامه عليه وآله وصحبه فهو خروج جزيرة العرب من ظُلمات الشرك إلى نور الإيمان، وفعلًا فما شرّف سيّدنا رسولُ الله عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام الحياةَ الآخرة وصار في الرفيق الأعلى إلّا وقد خرجت جزيرة العرب من ظلمات الشرك ودخلت في نور الإيمان، أمّا أنْ يُقال: هناك أشخاص لم يُؤمنوا، فنقول: هؤلاء قلّة فلا يُقاس عليهم؛ أما السمة العامة فكل الأقوام في جزيرة العرب بدأوا يدخلون في دين الله تعالى أفواجًا، وهذا ما أخبر عنه ربنا عزّ جاره في سورة النصر:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [سورة النصر: ١ - ٣].

إذن القراءة بهذا المعنى الدقيق قائمة على قوّة الصلة بالله سبحانه، ومُنطلقة في ظلّ وبركة وهدايات بسم الله، مُوقنًا بأنّ الهدف لابُدّ أنْ يتحقّق، طالت الفترة أم قَصُرت، وأترك المجال لعقولكم الخصبة، وقلوبكم الذاكرة تجول مُتبرّكةً ومُتشرّفةً بنصوص الكتاب العزيز والسُنّة العطرة؛ لاستخراج الشواهد والأمثلة، قال ربّ العالمين جلّ جلاله:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

الصفة المختومة المذكورة لله جلّ في علاه في هذه الآيات الخمس هي صفة الأكرم، أما الصفة الأولى فهي صفة الخلق أي (الخالق).

وذكر صفة العلم تأكيدٌ للتعليم الأوّل، أي تأكيدٌ للقراءة التي هي من وسائل العلم، فما الصفة الأخرى التي لم تُذكر من قبل؟

إنها صفة الأكرم؛ وكأنّ الله جلّ في علاه يقول: بداية مراحلك أيها الإنسان من علق، لكن مُمكن أنْ ترقى وتأخذ من تكريم الله تعالى ما يليق بك، ولكن كيف؟

بمُجاهداتك، وبأخذك الوسائل، تنال كرم الله سبحانه، وعلى مقدار مُجاهدتك، وبما يليق بكرم الله جلّ وعلا.

إن المرحلة الثانية من مراحل تقسيم حياة خير البرية صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم تُوّجَت بالآيات الخمس الأولى نزولًا من سورة العلق، ومنها استنبطنا الفقرات الخمس التي ينبغي أن نجعلها أمام أعيننا، لنرى من خلالها ما خصائص وأوصاف الداعي إلى الله تعالى فنجعلها تحت الفقرة الأولى، وما خصائص ما ندعو إليه فنجعلها تحت الفقرة الثانية، وهكذا بقيّة الفقرات؛ لأجل أنْ نُلاحظ ماذا طبقنا، وبأي شيء تحقّقنا، وإلى أين وصلنا، وهذا يقتضي أنْ تُراجع نفسك، وتقول: هل أنا صاحب رسالة في هذه الحياة أم أعيش على هامشها؟

كلّ واحد منّا يسأل نفسه هذا السؤال، ولابُدَّ أنْ نُجيب عنه بكلّ صدق، فإذا كنت صاحب رسالة فهذا يعني أنّك مُعتقد برسالة الحبيب صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه.

ينبغي إذن أنْ نلاحظ المَعْلَمَيْنِ الأساسِيَّيْنِ في بداية سورة العلق:

الأوّل: قوة الصلة بالله عزّ وجلّ من خلال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [سورة العلق: ١].

الثاني: استجماع الوسائل وذلك من خلال اقرأ.

أي الاهتمام بالجانب الروحاني والعلمي، علما أن العلم يعود إلى الروح أيضًا، ولكنْ تجسّدات الجانب العلمي أغلبها مادية، فعندما تكون قويّ الصلة بالله سبحانه، فإنك تُجاهد نفسك لترقى بإيمانك إلى المراتب العالية من اليقين:

﴿ --- وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [سورة الأنفال: ٢].

فالإيمان يزيد وينقص، فجاهد نفسك لتصل إلى المراتب العالية من الإيمان.

هذه مسائل روحية تصف الصلة التي بينك وبين الله جلّ وعلا، وعندما تقرأ لأجل أنْ تُطبّق ستتعدّد الصور، وتتجسّد هذه القراءات بصور مُتعدّدة في جوانب الحياة، فمثلًا تقرأ عن التجارة لتُصبح تاجرًا، ستُصبح تاجرًا بإذنه تعالى، أنت أعزب تقرأ عن إنشاء أسرة، فهذا جانب آخر، تقرأ لأجل أنْ تكون خادمًا في مسجد، إمامًا، خطيبًا، مُؤذنًا، قارئًا، فهذه جوانب أخرى، تقرأ لأجل أنْ تتعلّم أساليب كسب الشباب وتحبيبهم إليك، وهكذا.

انظروا لقد تعدّدت الصور، بينما صلتك بالله تعالى عمل روحي ثابتٌ بينك وبين الله جلّ جلاله، قُصارى ما فيه من الوسائل الخارجية، إنّك تذهب في خلوة لمدّة قصيرة، نصف ساعة أو عشر دقائق أو أكثر، فهذا كلّه من هدايات هذين المَعْلَمين.

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ* خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[سورة العلق: ١-٥].

أفهم من قوله تعالى: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ صورًا مُجسّدة عديدة، فلولا هذه القراءة ما وصل العلم إلى ما هو عليه الآن من تقدم هائل في صنوف العلوم والتكنلوجيا، وتبقى هدايات قوله تعالى:

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[سورة سيّدنا يوسف عليه السلام: ٧٦].

فدائرة العلم تتوسّع، وتجسّداته وصوره تتعدّد إلى ما شاء الله عز وجل.

إذن: خمس آيات من مطلع سورة العلق تُلخّص لنا المنهج، بل إنّ آية واحدة يُمكن أن تُلخّص لنا المنهج، فمن هذه الآيات الخمس عرفنا بأن الإسلام حضارة روحية علمية، ومع أن هذه

الآيات قصيرة، قليلة الحروف، لكنّها عميقة المعنى، فيها مديات واسعة جدًّا، فالإنسان إذا تأمّل سيرى بأنّ من وسائل العلم القراءة والكتابة، ولكن نسبة القراءة أعلى من نسبة الكتابة دائمًا، والله جلّ وعلا كي يُوجّهنا إلى هذه الحقيقة كرّر القراءة مرّتين، وذكر القلم مرّة واحدة.

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [سورة العلق: ١-٥].

القراءة ذُكِرَت مرّتين؛ لأنّ نسبتها أكثر من نسبة الكتابة وهذا واقع، فأنت تقرأ أكثر ممّا تكتب، وفي كلّ العالم من شرقه إلى غربه، من شماله إلى جنوبه، تجد أن مساحة القراءة أوسع من مساحة الكتابة، وهذه من صور الإعجاز في القرآن الكريم، فهو يُغطّي كلّ مُتطلبات الحياة في كلمات مُختصرة جدًّا.

لمّا أخذ الحبيب صلوات ربّي وسلامه عليه وآله وصحبه هذه الآيات، وانطلق بها في المُجتمع ظهرت بركاتها وخيراتها في صور عدة، منها: إيمان أمّنا السيّدة خديجة رضي الله تعالى عنها، وإيمان سيّدنا عليّ رضي الله سبحانه عنه، وهو من الأحداث الذين لم يبلغوا سنّ الرُشد، ومن الرجال سيّدنا أبو بكر رضي الله تعالى عنه، ثمّ ما حصل في مكة من حديث حول هذا الدِّين، وما جاء به النبيّ المُرسل صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه الكُمَّل.

إذنْ المنهج المُنبثق من صدر سورة العلق فيه بركة واسعة، لكن لمَنْ آمن بها وعمل بها، فلا ينبغي أنْ تقعد مُنشغلًا بمشكلة أسرية أو عشائرية أو بتفاهة الحياة الدنيا، وبما مضى بينك وبين أخيك في الإسلام أو أخيك في الإنسانية، كلا، بل ينبغي أنْ تعود إلى المَعْلَم الأوّل: حُسن صلتك بالله جلّ في علاه، قِسْ هذه الصلة، كم نسبتها عندك؟ راجع نفسك فيها، ثمَّ اقفز بكلّ ثباتٍ وقوّة، وكأنّك شمس مُشرقة أو قمر مُنير، هكذا مثل انطلاق الضوء في تغيير وجه

الحياة، يكفي من قول: فلان تكلّم عليَّ، وفلان أساء إليّ، فهذا قال، وهذه قالت، فهذه الأمور قد ذهب وقتها عندما آمنّا، أمّا مَنْ يُخادع نفسه، ويظن أنه مع الرَّكْب فهو خاسرٌ لا محالة نعوذ بالله تعالى.

ما أدعو إليه هو دين الإسلام، وقد فهمتُ أن السلوك هو تطبيق الإسلام بشمولية، وليس جانبًا من جوانبه، كلا، فالسلوك هو الإسلام كلّه سُدًى ولُحْمَة، ولذا فلابُدَّ أنْ نُؤكّد على هذين المَعْلَمين، وإلّا فالعُمر سيذهب، ويُحسب عليك خسارة، نعوذ بالله تعالى، ونسأله العافية.

ينبغي التأكيد على هذين المَعْلَمَيْنِ في الجانب التطبيقي، وليس في الدعاية والنشر والإعلان والمُباهاة، لا تُعطي مجالًا للنّفس الأمّارة بالسوء، ولا لوساوس الشيطان، ولا لشهوات الدنيا أنْ تدخل إلى القلوب؛ فتُفسدها، وتجعلها مُعلّقة بها، والعياذ بالله تعالى، فمَنْ تعلّق قلبه بالدنيا، فقد تمكّن منه الوباء إلّا ما رحم ربّي.

عصرنا هذا يتطلب منكم الرجوع إلى هذه المرحلة، ربّما تكون قصيرة لكن فيها هدايات عظيمة لا غنى عنها للمُسلم على نحو عام، وللداعية على نحو خاص، وكلّ ما نزل من القرآن الكريم في العصر المكّي، وخاصّة السور الأولى فيها ما يرفد شخصية الداعي ضمن النقاط الخمس.

اختلف العلماء رضي الله تعالى في مسألة ترتيب نزول القرآن الكريم، فمنهم من يقول: نزلت سورة "نون" بعد سورة "العلق" ـ فقط بدايتها ـ وبعدها سورة "المزمّل"، بعدها سورة "المدثِّر"، ثمّ نزلت قصار السور، فالسور المكية، وهنالك مَنْ يُقدِّم ويُؤخِّر، فالروايات مُختلفة، وبحسب ما أعلم لا يُوجد إجماع على ترتيب السور نزولًا.

هناك إجماع لا خلاف فيه على ترتيب السور كما هي مكتوبة في المُصحف الشريف، وقد أجمعت الأمّة على هذا منذ زمن سيّدنا أبي بكر رضي تعالى الله عنه، وتأكّد هذا الإجماع في زمن سيّدنا عثمان رضي الله تعالى عنه، أما ترتيب الآيات والسور بحسب النزول فهذا لا إجماع فيه لاختلاف الروايات.

أريد من خلال ترتيب النزول أنْ ننظر إلى كلّ ما يُعزّز ويُقوّي المَعْلَم الأوّل، وهو حُسن الصلة بالله تبارك اسمه، فهذا نجده في السور الأولى نزولًا في القرآن الكريم، كذلك كلّ ما يُؤكّد على المَعْلَم الثاني، وهو أنْ ينتشر خيرك كسرعة الضوء، فستجد هدايات هذا المَعْلَم والجزئيات المطلوبة منه في السور الأولى نزولًا، وفيما نزل هدايات لتكوين وبناء شخصية الداعي، وهكذا مع بقية الفقرات الخمس؛ إذن فالقرآن الكريم يُغطّي ويبارك ويُعزّز ويُضيء كلّ تلك الفقرات.

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [سورة سيّدنا محمد صلّى الله تعالى عليه وسلّم: ٢٤].

أفهم من هذه الآية المباركة المَعْلَمين الأولَيْن، فذكر القلوب تأكيدٌ على حُسن الصلة بالله عزّ وجلّ، وفي التدبّر بيان لحُسن التطبيق في المسار الثاني، في المسار الأوّل بناء صلتك بالله سبحانه أيّها الإنسان، وفي المَعْلَم الثاني: توجيه لكل من دخل الإسلام بأنْ تكون له بصمات في المجتمع، لذلك تجدون السلف الصالح رضي الله تعالى عنهم عندما تشرّفوا بالإسلام سرعان من أتى هذا بأسرته، وهذا بصديقه، وهذا بعشيرته.

لذلك أَعْجَب من إنسان سالك، وبعد خمس سنوات، يبعث لي رسالة على الموقع، يسأل عن الرابطة الشريفة!!! لم يفهم الرابطة الشريفة، فهذا قصورٌ ما بعده قصور؛ فالرابطة من أركان العمل الروحي الإسلامي.

إن الدِّين الحقّ قائم على الروحانية، ونقاء الروحانية، ولا نقاء ولا ارتقاء بالشكل المُتميز إلّا بالرابطة الشريفة.

أَعْجَب لسالك لم يخطر بباله لسنوات أنْ يأتي بأحد إلى سلوك طريق التزكية المبارك، ويقود أخاه المسلم إلى هذا الخير!!! وعجبي أشدّ من سالك لا تعلم أسرته عن السلوك شيئًا، فما هدفه في الحياة!!! لماذا أؤكّدُ في البيعة على الالتزام بالشريعة الغرّاء، شريعة خير الأنبياء

عليه وعليهم الصلاة والسلام، ظاهرًا وباطنًا، وأنْ تعمل على نشر العمل الروحي أو مبادئ التزكية النبويّة الشريفة بين المسلمين قدر استطاعتك؟ لماذا تُبايع على هذين البندين العظيمين، وبعدها تُقصّر كلّ هذا التقصير، تنشغل بمفاسد مُتنوعة، فساعات على الإنترنت من غير منفعة، ضياع وقت، وليتها ضياعٌ للوقت فحسب، بل آثام وسيّئات وهدم أسر وخدش حياء، والعياذ بالله تعالى، وكاسروا وكاسرات حياء[1]، فهذه الصورة القاتمة لا تنسجم مع شخصية السالك.

إذن من هدايات الجانب التطبيقي في حياة الحبيب صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه، إن الروحانية حينما تُنَشِّطْ فالأعضاءُ تَنْشَط على الرغم من وجود الثقل؛ لذلك ترى الحبيب عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه أجمعين، مع ما أصابه من ثقل الروحانية، طَلَبَ الراحةَ، ولكنْ للحظات، ثم قام يُريد أنْ يتثبّت أكثر، وأنْ يُؤثّر أكثر، وما هي إلّا أيّام، وإذا بالسيّدة خديجة رضي الله تعالى عنها، سيّدنا عليّ، وسيّدنا أبو بكر رضي الله تعالى عنهم، وهكذا بقيّة السادة الذين آمنوا أوّلًا، كل هذا الانجاز وما زلنا في بداية الطريق.

ربما تقول: إنه أمر عادي، كلا، ليس كذلك إنّها دولة الجبروت والأصنام، والتحرّك فيها بهذه الهدايات ليس سهلًا؛ ولذلك سُرعان ما نشبت النيران وجاءت المُعوّقات.

أحيانًا أحدهم يفهم الموضوع من خلال واقعه هو، لذلك معرفة الواقع ضروري جدًا، فليس كما تتصوّر، فأجواء مكّة غير، ففي مكة تنتشر العيون، وفيها الموروث عن الآباء والأجداد، مُجتمع قاسٍ وجاهل جدًّا، مُنتكس الفطرة والسلوك، فإذا تقيس الموضوع بنسبة وتناسب، فما حصل انجازٌ عظيم جدًّا، وحضرته لا يزالُ في بداية الإعلان عن بعثته صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم.

---

[1] أنظر: معالم الطريق في عمل الروح الإسلامي، ص ١٣٢

أما نحن فنحيا في خير كثير، عندنا مجال واسع للتحرّك، نستطيع أن نُوصِل صوتنا إلى أبعد نقطة في الكرة الأرضية، وَلِمَ لا؟ فلا تقس هذه الأجواء والظروف التي تحياها الآن، كالظروف التي كان يحياها سيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه.

إذن في هذه المرحلة ينبغي أنْ نستنير بصدر سورة العلق، ونستنير بما قام به الحبيب صلوات ربّي وسلامه عليه وآله وصحبه، فنأخذ ما يُثري شخصية الداعي إلى الله جلَّ جلاله وعمَّ نواله، ونفهم الدِّين بأسسه ومعالمه وأركانه جليًّا مُختصرًا جميلًا، تستطيع أنْ تُقدّمه بكلّ دفء وصدق وحنان للعالمين؛ لأنَّه:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء عليهم السلام: ١٠٧].

لكن شريطة أنْ نحرص على حُسن الصلة بالله جلَّ ثناؤه، والحكمة في التصرّف في المَعْلَم الثاني.

نرجع الآن إلى سورة العلق، قال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [سورة العلق: ٢].

هذه الآية تتحدث عن خَلْقِ الإنسان، وأكثر علم تخصصي له علاقة بهذا الطور من أطوار خَلْقِ الإنسان، هو علم الطبّ، فحتّى يفهم إخواننا الأطباء شرف هذا العِلم، ومكانته في الإسلام، فينبغي أنْ نُبيّن لهم أنّ هذا العلم من أوائل ما تكلّم عنه القرآن الكريم؛ فلابد أنْ يُقوّي المَعلم الأوّل عند المُسلم، مَعْلَم: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [سورة العلق: ١].

وهذا هدف عظيم من أهداف مجيء الأديان بشكل عام، والإسلام بشكل خاصّ، وبالتالي مُمكن أنْ تفكّر في مشروع يتعلّق بالطبّ، فمثلا تُوجه أولادك سواء كانوا ذكورًا أو إناثًا لدراسة هذا العِلم أنْ وجدت فيهم نشاطًا وهمّةً.

كم من رجال الأعمال يُفكّرون في مركز صحيّ قائم على أسس علمية دقيقة، مبنيّ على معرفة طبيّة، من خلال الجامعات العريقة على الكرة الأرضية، قال عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام:

(الْكَلِمَةُ الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا) الإمام الترمذي رحمه الله عزّ شأنه

فبَذرُ نواةٍ لمشروع رائد وروادع مُمكن في بعض الأماكن في بلدنا العزيز، فمثلًا الشيخ عنده قوّة روحانية، فبهذه الهمّة مع الصدق والإخلاص، يتواصل مع الأخ المؤمن المُتخصّص بالطبّ، فماذا بقي عندنا؟

بقي عندنا المال، والمال ضروري، وسترى الحديث عنه في بدايات ما أُنزل، ففلان من الناس، تفضّل الله تعالى عليه بوفرة المال، وهو طيّب وكريم، لكنه غير مُهتدٍ لمُؤسسة وادعة مُؤثّرة، فاذهب إليه وقل له هذا طبيب، ونحن في هذه القرية بحاجة إلى مركز صحيّ، وإن كان صغيرًا، وأبناؤنا الذين أرسلناهم لدراسة العلوم الطبية مُمكن أنْ يأخذوا دروسًا خاصّة عند هذا الطبيب، حتى لو في المركز الصحيّ، ولا نقوم بأيّ نشاطات طبيّة سوى الأمور البسيطة، من زرق الإبر، وتضميد الجروح، إلى آخره، ولكن نُركّز على العِلم، ونفث الروح في بعض الطلبة الموجودين في المنطقة.

الجامعات الآن تدرّس، وعندها نسبة للتعليم، لكن ليست النسبة المطلوبة التي يُريدها الله جلّ وعلا، ويُريدها مَنْ يُحاول تجديد حياة الأمّة الإسلامية، تعالوا فهذا أستاذ يُدرّس في سبيل الله عزّ وجلّ، ولكن لابُدَّ للأخ الثريّ أنْ يعتني بهذا الطبيب ـ وبهذا التدريسي ـ فلا يتركه بحاجة وعَوَز، يركض خلف مركبات النقل الجماعي، فالمفروض على العالم بشرع الله عزّ شأنه، والسائر في تُوجيهات المُرشد، أن يكون له دوره وبصمته، وهذا الطبيب ينبغي أنْ يفكّر هكذا، ليس للتجارة أو التنمية، وإنّما لتجديد هذا العِلم الذي تحدّث عنه القرآن الكريم في بدايات ما أُنْزِل، وفي ثاني آية مُباركة: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [سورة العلق: ٢].

وذلك الثريّ ينبغي أنْ يتوجّه هذا التوجيه، فالله سبحانه دعم الحبيب صلوات ربّي وسلامه عليه وآله وصحبه في المرحلة الأولى بمال السيدة خديجة رضي الله تعالى عنها، وسترون أثر هذا الدعم في المرحلة الأولى والثانية وحتى في الثالثة، ففي المرحلة الأولى صار عند الحبيب عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه دارٌ، ونوع من الرفاهية والراحة، وصار عنده مجال للتجارة، وفي المرحلة الثانية نرى دور السيّدة خديجة رضي الله تعالى عنها، ونشاطاتها، فلقد أخذته إلى ورقة بن نوفل رضي الله تعالى عنه، رَمَت الخمار من على رأسها اختبارًا، هل تراه أم لا؟ تقصد المَلَك؛ وتُريد بذلك أن تُطمئِن الحبيب عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه أجمعين.

من أين جاءت بهذا الفقه؟ أكيد من ضمن الأشياء التي جعلت هذه المرأة فقيهة بالحياة كونها غنيّة، فالمال عصب الحياة، وله دوره الفاعل في الدعوة إلى الله تعالى، فلقد كان الحبيب صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم يُعِدُ الولائم كوسيلة للجلوس مع الناس ودعوتهم إلى الله تعالى، وكان هذا بالطبع من مال السيّدة خديجة رضي الله تعالى عنها.

لماذا تحدث القرآن الكريم عن هذا العِلم في بدايات ما أُنْزِل؟

لابُدَّ أنْ نفكّر في الجواب، والجواب لأنّه مثل ما ذكر العناية بالصلة الروحانية في الآية الأولى، والروح جوهر كيان الإنسان، فلابُدَّ أنْ يُعنى بعلم يعتني بالصفحة الخارجية الظاهرة من الإنسان ـ وهي صفحة الأجساد ـ في الآية الثانية، ومن ثَمّ تكون الانطلاقة لبقيّة العلوم، والروح أكسير في كلّ الجوانب، فالجوانب تتعدّد بحسب حاجة الإنسان في كلّ عصر، فلا تُوجد سيّارات في ذلك العصر، فلا يحتاجون إذن إلى فقه السيارات، أما الآن فالسيارات موجودة، فنحن بحاجة إلى فقه السيارات، والكهرباء موجودة، فنحن بحاجة إلى مهندسي كهرباء، والطبّ تطوّر بهذا الشكل، فنحتاج إلى مُتخصصين، وكلّ ذلك يرجع إلى الصفحة الظاهرة للكيان الإنساني.

كلّ هذه الجوانب والصور التي تجسّد هذه المعاني إنْ خلت من الإخلاص، ومن اسم الله جلّ جلاله، والانطلاق باسم الله سبحانه، فهي ضعيفة وخاوية، وسرعان ما تموت، وآثارها

تكون ميتة في المجتمع؛ لذلك ترى الكثير من المُؤسسات والجمعيات والجوامع ضررها أكثر من نفعها؛ لأنّ المَعْلَم الأوّل غير قائم بشكل سليم.

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [سورة العلق: ١-٥].

فكّر وهيئ الأسباب التي تُعينك على فهم خَلق الله جلّ في علاه.

فإذا قرأت وتعمقت في قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾

اقرأ مرّة أخرى، فالقراءة وسيلة بيدك، أكدّها الله تعالى: ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ لكن لا تنسَ كرم الله سبحانه، وأنت تعدّ وسائلك، تطلّع إلى رحمة الله تعالى، واسأله سبحانه من فضله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٢].

ارجع إلى تقوية الصلة بالله جلّ جلاله، لكن لا تأخذك اضطرابات الحياة ومشاكلها؛ فتنسيك المَعْلَم الأساس، وهو تقوية الصلة بالله تعالى:

﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [سورة العلق: ١-٥].

والقلم وسيلة، ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، وأراد بالإنسان، سيّدنا آدم عليه السلام، باعتباره بذرة البشرية، وأصل الإنسانية - إنْ صحّ التعبير- وكما قال سيّد البشر عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام: (النَّاسُ مِنْ آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ) الإمام أحمد رحمه الله عزّ شأنه.

بيان شرف الإنسان بالعلم، بل لم يُسجَد له سجود تكريم وعرفان إلّا بعد أنْ تعلّم؛ قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[سورة البقرة: ٣١].

كلمة صادقين في الآية المُباركة ليست بالمعنى الذي يُقابل كلمة كاذبين، لا، حاشاهم، بل ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، أي: إنْ كنتم على الرأي الصواب، بأنّه سيُفسد ويُسفك الدماء؛ ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[سورة البقرة: ٣٢].

إذنْ: الملائكة عندهم من الله سبحانه علم غريزي، لا كسبيّ، فهذا الصنف مُبرمج على هذه الوظيفة، وهذا مُبرمج على تلك الوظيفة، ولا يستطيع كل صنف أنْ يُطوّر نفسه أو أن يتحول إلى وظيفة أخرى، وهذا ليس تجاوزًا على الملائكة عليهم السلام، لكنْ هكذا خلقهم الله تعالى، فلكلٍّ تخصّصه، فهذا مُكلف بنفث الأرواح، وهذا بسلب الأرواح، وهذا من الحفظة، وهكذا.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ* قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[سورة البقرة: ٣٢، ٣٣].

بعدها مباشرة قال عزَّ شأنه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ـــ﴾[سورة البقرة: ٣٤].

لأنّ سيّدنا آدم عليه السلام لمّا نبأهم بأسمائهم استحق هذا التكريم.

إذنْ تستجمع وسائلك، وتتعلم بكرم الله تبارك وتعالى:

﴿--- وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [سورة الكهف: ٦٥]

﴿--- وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٢]

كلّ هذا من كرم الله جلّ في علاه، وإنْ كانت التقوى هي وسيلة من وسائل طلب العلم أيضًا، لكنها وسيلة روحانية غالبًا، فبالتطلّع إلى رحمة الله جلّ وعلا وكرمه، مع استجماع ما يُمكن جمعه من الوسائل، وبما قدّرك الله جلّ جلاله عليه، سيأتيك المدد الربّاني من لدنه سبحانه وبإذنه جل في علاه، وهنا تتعلّم ما لم تكن تعلم.

إذا سرنا مع السورة الكريمة ستظهر لك معالم مُمكن وضعها تحت نقطة من النقاط الخمسة.

بعد هذه الآيات الخمس مباشرةً، قال تعالى:

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ [سورة العلق: ٦ - ٧].

إذن: سيبدأ يُبيّن لك المُعوّقات، وهذه تدخل تحت نقطة المُعوقات، وهي النقطة الثالثة، فيا دعاة ستُواجهون طغيانًا من بعض النّاس، ستجدون هذا المُعوّق أمامكم، فما سبب الطغيان؟

﴿أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾؛ رأى نفسه مُستغنيًا عن هذا المنهج، وعن هذا الإيمان أو رأى نفسه لا

يحتاج إلى هؤلاء، فأنا عندي أموال كثيرة، فبدأ يطغى، والطغيان درجات، أعلاه طغيان فرعون: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [سورة النازعات: ١٧].

لماذا؟ لأنهّ ادّعى الربوبية والألوهية: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [سورة النازعات: ٢٤].

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ---﴾ [سورة القصص: ٣٨].

قَتَلَ أولاد النّاس كتجسيد للعقيدة الفاسدة، ومع ذلك، هل يُتْرَكُ من يطغى؟ قال ربنا سبحانه وتعالى: كلا، فهذا الذي قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ ، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾؛ بعثُ له نبيَّين كريمَين، رسولَين، وهما سيّدنا موسى وسيّدنا هارون عليهما الصلاة والسلام، وأوصيتهما: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [سورة طه: ٤٤].

سبحان الله العظيم، حتى لو وصل الإنسان إلى قمة الطغيان فلا تزال هناك في نفسه وذاته وكيانه بقعة يمكن أنْ تُستثمر نحو الخير، فما أفضل الوسائل التي تُزيل به هذا المُعوق؟

أفضل شيء هو التذكير بالآخرة: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ [سورة العلق: ٨].

إذا استطعنا إقناع المُقابل بأنّه راجع إلى الله سبحانه، وفهّمناه معنى الرجوع إلى الله جلّ وعلا، فقد نقضي على نسبة من الطغيان الذي أصابه.

وهكذا تظهر لك الوسائل والمُعوّقات، وتظهر لك صفات الداعي إلى الله تعالى، ومُواصفات ما ندعو إليه، وهي عقيدة الإيمان بالآخرة، وهي أساس متين من أسس العقيدة الإسلامية، وفي بدايات ما يُدرس من العلوم الشرعية في علم العقيدة مباحث: الإلهيات، النبوّات، السمعيات.

فالإلهيات كلّ ما يتعلق بإثبات وجود الخالق جلَّ جلاله وعمّ نواله، وصفاته، والنبوّات كلّ ما يتعلق بالأنبياء عليهم السلام، والسمعيّات: أي الغيبيّات التي سمعنا عنها، مثل الدار الآخرة، فأنت مهما فكّرت بعقلك فلا يُمكن أنْ تصل إلى وجود جنّة أو نار في عالم الغيب أو تعرف بأنَّ القبر روضة من رياض الجنّة.

وهكذا نسير مع الآيات، ونحن نتلمس المعالم والجزئيات التي يُمكن أنْ نضعها تحت نقطة من هذه النقاط الخمس.

مرّة أخرى أكرّر ليس هذا للترف الفكري، ولا لكتابة مقال، وإنّما أريد الجانب التطبيقي، انظر إلى هذه النقاط التي كتبتها تحت هذه الفروع والجزئيات التي أخذناها تحت النقطة الأولى، وهي شخصية الداعي، كم أخذتَ منها، كم طبّقْتَ؟ والفهم الصحيح إلى ما ندعو إليه، وهي النقطة الثانية: معالم ما ندعو إليه، فهل فهمنا الدِّين الصحيح؟

أرجو أن أرى بنتًا تفهم الحياة الزوجية، مثل ما أراد الله جلّ وعلا في شريعة خير البرية صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، أردتُ أنْ أرى أسرة قائمة على كلّ هدايات الشرع الشريف، بحيث تنطلق كسرعة الضوء في بث الشعاع، أقول: ما رأيت إلّا ما رحم ربي.

لماذا؟ لأنّهم غير مُدركين للجزئيات التي تحت النقطة الثانية.

نحن من يصنع المُعوّقات أو يَزيدها أحيانًا، وأذكر لكم صفحة من صفحات حياتي: بعد ما أكملتُ الكلية التحقت بمعسكر التاجي مُباشرة، وهناك جعلونا أفواجًا، ثم نقلوني إلى الموصل، حيث مدرسة ضُباط صف المُشاة، وصلنا قبل صلاة الظهر، فأردتُ أنْ أصلي فلم أجد مَنْ يُصلّي معي، رأيت اثنين ممن كانا معي في الجامعة، وأعلم أنّهما يُصليان، فسلّمتُ عليهما، ودعوتهما للصلاة، فقالا: لا تذكر الصلاة، لأنهم سيعتبروننا من الأحزاب ـ الأحزاب كانت مُحاربة في ذلك الوقت ـ فتركتهما وذهبتُ فتوضأتُ وصلّيتُ لوحدي في قاعة تحوي ستمائة شخصٍ تقريباً، أما صاحبيَّ فقد خرجا، هذا يُصلّي خلف شجرة، وآخر في مكان متروك، وكأنه يُثبت شُبهةً على نفسه.

بعدها أخذونا للتدريب فما رجعنا إلّا قُبيل صلاة المغرب، ما أن صلّيتُ ركعتين من العصر حتى غابت الشمس، فصلّيتُ المغرب، وفي العشاء دعوت صاحبيَّ للصلاة فرفضا خوفًا، فتركتهما وذهبت أتجوّل بحثًا عن مكان لائق للصلاة فوجدت حديقة جميلة خلف بعض الغرف، فقلتُ: هذا مكان جيّد، ولما دخل وقت الأذان في مدينة الحدباء، هذه المدينة الرائعة،

مدينة الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – والأولياء والعلماء – رضي الله تعالى عنهم وعنكم – التي خرّجت القادة والسادة، فعلًا أمّ الربيعين معنىً وروحًا ومادّةً، حيث أنك تطرب هناك لسماع الأذان الجميل بمختلف الأصوات الرخيمة.

وقفتُ على السجادة، ورفعت الأذان، فجاء مَن يُصلي معي حتى صرنا صفّين، وهكذا في الفجر، ولما خرجنا إلى ساحة التدريب، التفتُ إلى الغرف التي صلّينا خلفها، فإذا مكتوب عليها " التوجيه السياسي "، فقلتُ: الحمد لله تعالى، فنحن لم نفعل شيئًا ممنوعًا.

بعد بضعة أيّام أتى القائد، فسأل: ما حاجتكم؟ فكلّهم بصوت واحد: سيدي نحتاج إلى جامع، فقمتُ وقلتُ له: إنّ العدوّ يقول: إننا ضدّ الدِّين، ومُمكن إذا علم بأنَّه لا يُوجد جامع في معسكرٍ يُعَدُّ فيه المُدافعون عن البلد، فسيقولون: كلامنا صحيح، فقال القائد: أبشِر، سنبني مسجدًا، وبُنِي المسجد خلال أسبوعين فصلّينا فيه، بل وأقمنا فيه صلاة الجمعة.

فالمقصود يا أحبابي نحن (نَزيد الطين بِلَّة) أحيانًا، أي نَزيد الأمور تعقيدًا، ونُقيّد أنفسنا من غير معنى، فبهذا الانطلاق المُخلص المُتحرر من عُقدة الخوف بنينا مسجداً والحمد لله ر ب العالمين، وأنتم تعلمون مرتبة المساجد في الإسلام.

إن صدر سورة العلق من أوائل ما نزل من القرآن الكريم، وما بقي من السورة كما يبدو من وقائعها أنّها نزلت بعد ذلك، لما فيها من بعض التشريعات مثل الصلاة؛ فالآيات الخمس لم تشرع الصلاة.

وفي المرحلة الثانية كان سيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم يُصلّي صلاتين، صلاة في الغداة، وصلاة في العشيّ، على وجه التطوّع، وليس الإلزام، ولكن ماذا كان يقرأ فيهما، وسورة الفاتحة لم تنزل بعد؟

المهم أنّ الصلاة صلة بين العبد وربّه جلّ وعلا، فنواة الصلاة وأصلها شُرّعت في هذه المرحلة لا على وجه الوجوب وإنّما كوسيلة من وسائل القُرب من الله جلّ في علاه، لترقية روحانيته الشريفة عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام، وتُوجيه مَنْ يتبعه ويُؤمن به

إلى الوجهة الصحيحة التي هي السير إلى الله جلّ وعلا، فالصلاة بداية الصلة بالله تبارك اسمه من حيث الجانب العملي، وهدايات: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، هي بداية الصلة بالله جلّ جلاله وعمّ فضله ونواله من حيث الاعتقاد والإقرار، اعتقاد في القلب بأنّ البركة تحصل بسم الله سبحانه، ولابُدَّ للعبد أنْ يتوجّه إلى الله تعالى في هذا الاعتقاد المُعَبَّر عنه بهذه الأسماء المُباركة، وبهذه الكلمات الطيّبات المُباركات التي هي باسم ربّك، بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّ الله الرحمن الرحيم، وغيرها من الأسماء الشريفة لله عزّ شأنه التي تُعبّر عن تعلّق العبد بربّه سبحانه وتعالى؛ فلذلك نرى في هذه السورة، قوله عزّ وجلّ:

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ [سورة العلق: ٩ ـ ١٠].

حتما هذه الواقعة متأخرة قليلًا عن نزول الآيات الخمس الأولى بيوم، يومين، ثلاثة أيّام، إلى أنْ جاءه سيّدنا جبريل عليه السلام فعلّمه الصلاة أو المُراد بالصلاة مُطلق العبادة والتحنّث الذي كان يقوم به صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم في غار حراء على ملّة سيّدنا إبراهيم عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام.

هذه الأحكام تُعتبر جزئية تندرج تحت كلية حُسن الصلة بالله تبارك اسمه، فتكون هذه الصفة من خلال الانطلاق إلى الأهداف ببركة بسم الله جلّت صفاته، وهنا أذكّر نفسي والأمّة الإسلامية بضرورة العناية بقيم الألفاظ والأجساد والذوات والمعاني، فأي شيء في الإسلام له قيمة لا يُنظر إليه على أنّه مُجرّد كلمة، فلا يجوز لك أيها الإنسان أنْ تنظر إلى بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ بأنّها مُجرّد كلمات، فتذهب إلى إعرابها، وبيان أصلها واشتقاقاتها، فهذا في مجال تقوية الصلة بالله جلّ شأنه من الشكليات، فما الأصل؟

إنه الروح، القوّة الكامنة في هذه الألفاظ الشريفة، هذا هو الأصل الذي ينبغي على الأمّة الإسلامية أنْ ينتبهوا إليه، فمن هنا تنطلق.

عندما صدرتُ فتوى عدم غلق المساجد في زمن وباء كورونا – مطلع عام ٢٠٢٠م الى نهاية عام ٢٠٢١م – تقريبا، وكنت أرغبُ في التوسّع أكثر فأوجّه خطابًا للقائمين على الحرمين الشريفين بالذات، فو اللهِ إن غلقهم للحرمين الشريفين خطأ مائة في المائة، بل مليون في المائة، ولا أريد أن أصفه بوصف آخر.

هذه الدولة الكبيرة المُتمكنّة لم تستطع ترتيب الطواف! وزيارة خير الأنام صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه الكرام، ولو بالحد الأدنى!

كان بالإمكان إدخال ألف شخص ليطوفوا بالبيت العتيق ـ على الأقل من أهل البلاد ـ وإلزامهم بالقواعد الصحية والشرعية، ومن أين جاءت القواعد الصحية في الأصل؟

جاءت من القواعد الشرعية، لكن ـ مع الأسف ـ ما نظر النّاس للشريعة بالنظر الذي تستحقه، فهي شريعة أنقذ الله سبحانه بها الخليقة، وهذا الحرم المُحترم الذي ما انقطع الطوائف فيه إلّا في زمن الأشرار، لأنهم نظروا للشريعة بأنّها ديانة أو دروشة وتخلّف، إلى آخره.

كان من المُمكن أنْ يتواجد في كلّ صلاة ألف شخص، ويكون الفحص في باب واحد من الأبواب الخارجية، فلديك دولة ذات إمكانية، ثمّ إنّ الأوقاف التي أوْقِفَتْ للحرمين الشريفين تكفي الأمّة الإسلامية، وليس السعودية فقط، إنْ كانت تحت أيَادٍ أمينة وطاهرة، ومنذ أنْ وجد البيت الحرام إلى الآن وهنالك ملوك ورؤساء وأثرياء وأتقياء أوقفوا وما زالوا يُوقفون أموالًا طائلة للحرمين الشريفين، فالمفترض إذا كنّا فعلًا مُلتزمين بأحكام الوقف، وتنميته والمحافظة عليه أن نُرتب العمرة والزيارة ترتيبًا جميلًا يليق بسموّ الإسلام وطهارة المُسلمين.

المُسلم يتوضأ خمس مرّات، فهل جاءت الصحة العالمية بغير هذا؟ قالوا: اغسل يديك، نحن لا نغسل أيدينا فقط، فالله تعالى أمرنا بغسل الوجوه والأيدي إلى المرافق، وهكذا بقية أركان

وسُنن الوضوء، ولكن زهد الأمّة في النظر إلى ما أكرمها الله جلّ شأنه به، بل هو الازدراء والنظر الناقص للشريعة، جعلتهم يفرحون بما تقوله منظمة الصحة العالمية.

كان من المُمكن لهؤلاء أنْ يُحافظوا على الحدّ الأدنى من إشراقات الحرمين الشريفين، ولكن هذا يحتاج إلى توفيق، وإلّا فلا يُوجد أسهل منها، ترتيب وتنظيم، وهذا شرع الله تعالى، فبمُجرّد أن يقول الإمام أقيموا صفوفكم تجد الملايين تقف بترتيب واحد، وتصطف بانتظام.

فالنظر إلى المساجد على أنها مُجرد أبنية فحسب، خطأ فادح جدًّا، وهذا يعني أنّنا ننظر إلى بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ بأنّها مُجرّد كلمات، ولقلقة لسان، أستغفر الله العظيم، وهذا معناه أنْ يُنظر إلى شهر رمضان بأنّه شهر كباقي الشهور، وهذا يُؤدّي إلى سلخ الروحانية من الدِّين، والروحانية عمود الدين وقلبه النابض.

عندما أحصّن نفسي أقول:

(أعُوْذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ كُلِّهَا مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ) الإمام النسائي رحمه الله عزّ وجلّ.

إذا نظرنا للكلمات على أنّها ألفاظ عربية فقط، فهل تكون الحصانة بالحروف والكلمات؟

أين القوّة في الكلمات التي تُحصّنني، وأنا أقولها بيقين جازم، وأنقلها من الشرع الشريف، فيما رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى في مُسنده:

(بِسْمِ اللهِ الّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ).

(أعُوْذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ كُلِّهَا مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ).

الذي يتحصّن بذكر الله تقدّست أسماؤه بشكل مُطلق أو يتعوذ بشكل خاص بالمعوّذتين إلى آخره لا يُصيبه داء بإذن الله جلّ في علاه، وبرحمته عزّ وجلّ، ولماذا حين تأخذ قرص الدواء تُؤمن بأنّ فيه طاقاتٍ تُؤدّي لقتل الأمراض أو تقوية المناعة أو تُؤدّي إلى منافع، أما المساجد فتقولون عنها إنها مُجرد بناء، بل المساجد أقلّ شأنا حتى من الأبنية، والدليل أنه في بعض البلدان تذهب إلى البنك تجده مفتوحًا، ولكن بترتيب، فهناك مُوظّف في الباب، وتجد

الكلّ واقف بنظام، بين شخص وآخر متر ونصف، فعجبًا في مسألة تتعلّق بالدرهم والدينار تستطيع ترتيبه، أما الجامع فلا تستطيع ترتيبه، لماذا؟

لأنّنا نظرنا إلى الدرهم والدينار بمنظار أعلى وأرقى من نظرنا إلى المساجد، وحتّى تكون فتواي أوضح، فلا يجوز النظر إلى الأشياء على أنّها صور خيالية، لا تُعبّر عن معاني حقيقية، غالية، ولقد رأيتم ـ مع الأسف ـ مَنْ يحمل المُعقّمات ليُعقّم حجرة سيّد السادات عليه أتمّ السلام وأفضل الصلوات وآله وصحبه، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

إذنْ كيف كانت الصلاة؟ وماذا يُقرأ فيها؟

هذه الأمور لا أؤكّد عليها، وإنّما أؤكّد على الأمور الكليّة، ومنها حُسن الصلة بالله جلّ جلاله وعمّ نواله، وذلك من خلال الأصل الأعظم، وهو الاعتقاد، فبدون الاعتقاد لن يكون في الظاهر فرقٌ بين هذا وذاك، فكلّها تقف عند القشور، وبالتالي نصل إلى الفجور والكفر والثبور ـ نعوذ بالله تعالى ـ فمثلًا النّاس ينظرون إلى القبور، فيقولون هذا قبر لا ينفع ولا يضرّ، فيُجرّدونها من كلّ حقوقها ومعانيها، ولكنّ الشريعة قد وجهتك للذهاب إلى المقابر، وزيارة أهلها:

(السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِيْنَ) الإمام مُسلم رحمه المُنعم جلّ وعلا.

فعلى مَنْ أُسلّم؟ هل أسلّم على التراب؟ كلا، بل هناك حقائق ينبغي الانتباه لها والإفادة منها.

إذن الوقوف بعمق مع السورة المُباركة لنأخذ منها بعض الجزئيات التي تندرج تحت الكليّات الخمس؛ لأجل أنْ نهتدي لما ينفعنا في السير إلى الله سبحانه، ولتغيير وجهة الحياة في الزمان الذي نحيا فيه، فلابُدَّ أنْ نترك بصمات في صيغة الحياة التي نحياها، وأملي بالله عزّ شأنه أنّ كل شخص منّا سيكون عنده تغيير في أسرته، ومسجده، ومُحيطه قدر المُستطاع؛ ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [سورة البقرة: ٢٨٦].

كلّ شخص يستطيع أنْ يُغيّر ـ على الأقلّ بما عنده ـ وإلا فما فائدة هذا الكلام؟ هل لضياع الوقت أم للترف الفكري؟

الترف في الإسلام منبوذ مهما كان، فلابُدّ من التحرّك بنشاط لتحقيق هدف، فسيّد الخَلق وحبيب الحق صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، كان يُصلّي، بينما أبو جهل يقول:

(هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ فَقِيلَ: نَعَمْ، فَقَالَ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لَأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ، أَوْ لَأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ، فَأَتَى رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُصَلِّي، زَعَمَ لِيَطَأَ عَلَى رَقَبَتِهِ، فَمَا فَجِئَهُمْ مِنْهُ إِلَّا وَهُوَ يَنْكُصُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ، فَقِيلَ لَهُ: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوْلًا وَأَجْنِحَةً، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَوْ دَنَا مِنِّي لَاخْتَطَفَتْهُ الْمَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا) الإمام مُسلم رحمه المُنعم جلّ وعلا.

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ [سورة العلق: ٩ ـ ١٠].

أنا لا أفسّر السورة الآن لكن حتى نقف على أغوار الأمور، ونرى قوله تعالى:

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ [سورة العلق: ٦ ـ ٧].

إنّ الطغيان يُعمي الإنسان، يُعمي بصيرته ، بحيث يقف على الحقائق ولا يُصدق! فأنت يا أبا جهل ماذا تُريد بعد؟ وأنت ترى الرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم محميّاً، لم تقدر على أذيته، فمتى تُؤمن، وأنت ترى أمام عينك ما لا يراه الناظرون؟! رأى خندقًا من النار، وفي رواية أخرى رأى فحلًا يُدافع عن حضرة الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام أو ملائكة وأجنحة في روايات أخرى.

الطغيان نعوذ بالله عزّ وجلّ منه علّة عظيمة، فيجب على الإنسان أنْ يرى نسبة الطغيان عنده، فيُقلّل من هذه النسبة، يُقلّل، فإن استطاع القضاء عليها، فهو الألمعيّ والعبقريّ

والبطل الشجاع المُنتصر، ولربّما تبقى نسبة من الطغيان فعندئذٍ توجّه الوجهة الصحيحة النافعة.

فما جاء الإسلام ليقلع الجذور الفطرية، والدواعي النفسية في الإنسان، وإنّما جاء لترتيبها وتنظيمها وتُوجيهها، فمثلًا الإنسان بطبعه يغضب، فهل جاء الإسلام ليقلع جذور الغضب منك تمامًا؟ كلا، إنّما قال لك: لا تغضب، لا تغضب، لا تغضب، فإذا غضبت فاغضب لله عزّ وجلّ، أي وجّه هذه الصفة الفطرية وجهة شرعية، وكان صلوات ربّي وسلامه عليه وآله وصحبه لا يغضب لنفسه بل يغضب إذا انتهكت حُرمات الله جلّ جلاله.

إذنْ تُوجهها وتنظمها وترتبها، وذلك بالوسائل المشروعة، وفي قوله عزّ شأنه:

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى﴾ [سورة العلق: ٦ - ٧].

قلت العلاج بقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ [سورة العلق: ٨].

وفي قوله سبحانه: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ [سورة العلق: ٩ - ١٠].

يُعطيك صورة من صور الطغيان، وقد يقصد بهذه الصورة شخصًا معيّنًا، وربّما المقصود أبو جهل عمْر بن هشام، وأبو لهب عبد العزى عمّ سيدنا النبيّ عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه أجمعين: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [سورة المسد: ١].

وسواء كان هذا أو غيره، فعندنا قاعدة تقول:

(العِبْرَةُ بِعُمُوْمِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوْصِ السَّبَبِ)

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ [سورة العلق: ٩ - ١٠].

المقصود بالعبد هو سيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه ومَنْ والاه، والعبدية أعظمُ وصفٍ وُصِفَ به صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، ولكن جاءت نكرة في هذا الموضع لعلة، بينما في المواضع الأخرى نسبت العبودية لله تعالى، كما في قوله جلّ ذكره: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ـــ﴾[سورة الإسراء: ١].

وقوله جلّت قدرته: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا ـــ﴾[سورة البقرة: ٢٣].

العلة في كون:﴿عَبْدًا﴾، جاءت نكرة لأجل أنْ يعمّ كلّ مَنْ ينهى أي عبدٍ من عباد الله جلّ

وعلا، فالقرآن الكريم مُعجز، فأتى بلفظ النكرة كي لا تنحصر في سيّد الخَلق صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه أهل الذوق، فربّما تشملك فيأتي جبّار، طاغية، شيخ عشيرة ماكر أخذته نفسه، فيُؤذيك في جامعك، في بيتك، في مجلسك، أو حاكم جائر ظالم، فأنت عبد أيضًا، تُريد أن تُصلّي بالمعنى الخاص: الصلاة المشروعة أو بالمعنى العام: وهي الصلة التي بينك وبين الله تعالى، فاللفظ يحتمل المعنيين.

قوله جلّ ثناؤه: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى﴾[سورة العلق: ٩ - ١٢].

الآية الشريفة تحتمل وجهين، فقد يكون المعنى إقرارًا بأنّ الذي يُصلّي على الهدى والخير والحقّ، أو بمعنى: أرأيتَ إنْ كان الطاغي الذي ينهى عن الخير لو كان هاديًا يأمر بالتقوى؟ أين جواب السؤال؟

الجواب محذوف مُقدّر، أي: إذا كان هؤلاء الذين ينهون النّاس عن صلتهم بالله جلّ ذكره، هم الهداة أو أمروا بالتقوى فإن صبغة الحياة تتبدّل، وستكون الحياة عندئذٍ غير هذه الحياة،

و بهذا المعنى تدخل في النقطة الأخيرة من النقاط الخمس، وبالمعنى الأوّل أي بأنه طاغٍ فعلًا، وينهى الذي على الهدى، فهذا يدخل في المُعوّقات، وبيان لما يُصيبك أيها الداعي، فمن المُحتمل أنْ يمنعك أحدهم من الصلاة.

قوله جلّ جلاله: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [سورة العلق: ٩ - ١٣].

هذا الذي من المُفترض أنْ يكون على الهدى والتقى صار مُكذبًا، وهذا التكذيب والتولّي من العلل والمُعوّقات، فما علاجها؟!

علاجها قوله عزّ شأنه: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [سورة العلق: ١٤].

إذن: التداوي بالعمل الروحي؛ لأنّ العبد لا يصل إلى الله سبحانه، ويعبده كأنّه يراه إذا لم تكن عنده مُجاهدة روحانية، إذا لم يجلس ويقول: الله شاهدي، الله ناظري، الله معي، فهذا الذي يصل إلى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [سورة العلق: ١٤].

كيف تقضي على المُعوّق إن لم تنفع الموعظة؟

بالوسائل العلاجية، بالثقافة الروحية في الدعوة إلى العمل الروحي، بالدعوة إلى الارتقاء بالإيمان إلى درجة الحضور مع الرحمن سبحانه، فإنْ لم تكن تراه فإنّه يراك، فمراتب الإحسان كلّها تحتاج إلى مُجاهدة ومُصابرة ومُرابطة؛ قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سورة آل عمران عليهم السلام: ٢٠٠].

إذا كانت هذه الوسائل الوعظية والثقافية والقلبية ـ مثل توجّه السادة المُرشدين رضي الله تعالى عنهم أجمعين، ودعوة المُخلصين ودعاء الطيّبين والطيّبات ـ لم تنفع فهل نترك الشرّ يستفحل؟ كلا، وهنا يأتي منطق التهديد؛ قال عزّ وجلّ:

﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ [سورة العلق: ١٥].

كلام الله جلّ جلاله وعمّ نواله يتحدّث عن العقوبة الأخروية، لكن هذا إذنٌ لولي الأمر بتشريع عقوبات، وتقييد أهل الشرّ، تشريعات فيها اجراء شرعي وقانوني للقضاء على شرورهم ـ إنْ لم تنفع الموعظة معهم ـ فهنا نستطيع القول بإنّها تحت النقطة الثانية، وهي معالم ما ندعو إليه، فما ندعو إليه نظام ومنهج كامل فيه إرشاد وهدايات وحقائق ومواعظ، وفيه عقوبات أيضًا.

هنا بدأت معالم الشريعة القادمة بالظهور، فتمهيدٌ بأنّه ستكون هناك عقوبات، بيانٌ لخصائص ما ندعو إليه من حيث الاعتقاد لأنّ هنالك آخرة، وهناك عذاب وعقاب؛ قال جلّ وعلا: ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ [سورة العلق: ١٥].

سيُجرُ الظالم الطاغي من أشرف ما يتباهى به في الدنيا، وهي ناصيته، و (لَنَسْفَعًا) أي: لنحرقنّ تلك الناصية المُتكبرة؛ قال تعالى: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ [سورة القلم: ١٦].

الآيات المُباركات تصف صور ايذاء واحتقار واذلال الظالمين ـ نعوذ بالله تبارك وتعالى ـ لأنهم أصحاب: ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ [سورة العلق: ١٦].

فالذي ليس على الهدى، ولا يأمر بالتقوى، مُنساق إلى النفس الأمّارة بالسوء، والناصية محلها الكيان الإنساني، وهي منفذ الطاقة السلبية الخبيثة للروح الإنسانية.

فلاحظوا يا رعاكم الله تعالى إن ـ في أوائل ما أنزل ـ الله تبارك اسمه يُبيّن حقيقة أنّ النّفس الأمّارة بالسوء خطيرة؛ فينبغي الانتباه إليها، والحذر منها، والسعي لمُجاهدتها، والتعرف إلى منهج الله جلّت صفاته في إصلاحها، وتقييد شرّها.

إن حُسن الصلة بالله سبحانه، والأخذ بالوسائل ستُوصلك إذا أخذت بها إلى القرب من الله جلّ في علاه، لأنّك إذا سجدت بالمعنى الخاص للسجود فإنك ستقترب من الله عزّ وجلّ ببركة هذا السجود، وكذا الحال إذا أراد المعنى العام: أي الاستسلام والانقياد لله تعالى، كما في صورة الاستسلام عند الجمادات، قال تعالى:﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾[سورة الرحمن:٦].

إذنْ هذه القيمة والثمرة ستدخل تحت النقطة الخامسة؛ لأنّ المُجتمع الذي يُوصف بالسجود لله تعالى، مُجتمع حضاري، إسلامي، راقي، مُجتمع خالي من الظلم، فيه التعاون والإخاء والمحبّة والمودة، مُجتمع تتفجر خيراته وطاقاته وبركاته.

إن من أوجه الإعجاز في القرآن الكريم أنّه يختصر المنهج في آية أو في مجموعة آيات أو في سورة، فهذه الآيات الخمس الأولى، اختصرت منهج الإسلام، فمنهج الإسلام أو حضارة الإسلام، حضارة روحية علمية، تُعنى بصلة الإنسان بربه عزّ وجلّ وبمجتمعه، ففي مرحلة حياته الدنيوية يجب أنْ يرقى بها إلى أنْ تُوصف بكونها حياة ساجدة لله ربّ العالمين سبحانه، وإذا سجدت الحياة لله تعالى، فكلّ شيء يترتب، لماذا؟

لأنّها مُنقادة لله جلّ في علاه القائل: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[سورة فصلت: ١١].

فكل ما في الكون مُسخّر لخدمة الإنسان وفق مُراد الله تعالى في المرحلة الدنيوية.

إذن الروحانية للداعي أمر عظيم جدًّا وأساس متين، وأيُّ خللٍ فيه يُؤدي إلى هدم الحضارة الإسلامية، كذا العناية بالجانب الحركي التطبيقي في الحياة، فإيصال الخير للغير أصل

عظيم جدًّا يُجسّد المعنى الحقيقي المقبول عند الله تعالى لخلافة الإنسان عن الله سبحانه، فأنت خليفة الله جلّ وعلا في الأرض، قال تعالى:

﴿ --- هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا --- ﴾[سورة سيّدنا هود عليه السلام: ٦١].

أمرك الله تعالى بتعميرها، وتعميرها لا يكون إلّا بحُسن الصلة بالله تعالى، والأخذ بوسائل الرقيّ، ومن أعظمها القراءة ومُستلزمات العلم، فانظروا يا رعاكم الله إلى عظيم كرم الله عزّ وجلّ، فالحمد لله الذي جعلنا مسلمين، ومُمكن أنْ ترتع بقلبك الخاشع وفكرك الواعي في جزئيات هذه المرحلة من خلال قراءة سيرة الحبيب صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه، في ظل هذه الهدايات.

ما زلنا نترقّى بمعالم وبركات المرحلة الثانية من حياة سيّد السادات عليه أتمّ السلام وأفضل الصلوات وعلى آله وصحبه، وتميّزت هذه المرحلة بالجهد المبذول من سيّدنا الرسول عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه في المُجاهدة والتحرّي.

التحرّي من أصول اشتقاقات اسم "حراء"، وهذا التحرّي بدأ مُذ أنْ حُبِّبَت الخلوة للنبي صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، واستمرّ في هذه المرحلة، لأنّه سيكون مُشروعًا لهذه الأمّة، فلا ينطلق بدوافع الفطرة السليمة فقط، وإنّما ينطلق بهدايات وبركات ما أنزل عليه صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه.

ومن صور التحرّي عندما أراد أنْ يتثبّت عن الذي جاءه، وطلب منه أن يقرأ؟ فهيّأ الله تعالى أمّنا السيّدة خديجة رضي الله تعالى عنها فأخذته إلى ابن عمّها سيّدنا ورقة بن نوفل رضي الله سبحانه عنه.

كذا ما قاله سيّدنا ورقة رضي الله تعالى عنه، وما تعلّمه من الكتب السماوية السابقة، وما تعلّمه هو من تحرّيه لبعض الحقائق والأخبار التي كان يسمعها من أهل الكتاب، ومن أهل الحكمة، كما أن رجلًا بهذا المستوى من البحث عن الحقيقة غير مُستبعد أنْ يكون من أولياء

الله الصالحين في الأمم السابقة، بل من كبار الأولياء، وبالتالي فلربّما ببركة منازله الروحية كشف الله تبارك اسمه له بعض ما موجود في صفحات الغيب التي تدعمها النصوص التي كان قد تعلّمها.

ومن صور التحري أيضًا إنّ أمّنا خديجة رضي الله تعالى عنها أرادت أنْ تتثبّت عن ماهية مَن تحدث مع سيدنا النبيّ عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام ، أهو مَلَكٌ أم شيطان؟

(قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَا ابْنَ عَمِّي، هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا جَاءَكَ الَّذِي يَأْتِيكَ أَنْ تُخْبِرَنِي بِهِ؟ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: نَعَمْ يَا خَدِيجَةُ. قَالَتْ خَدِيجَةُ: فَجَاءَهُ جِبْرِيلُ ذَاتَ يَوْمٍ وَأَنَا عِنْدَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا خَدِيجَةُ هَذَا صَاحِبِي الَّذِي يَأْتِينِي قَدْ جَاءَ، فَقُلْتُ لَهُ: قُمْ فَاجْلِسْ عَلَى فَخِذِيَ الْأَيْمَنِ، فَقَامَ، فَجَلَسَ عَلَى فَخِذِي الْأَيْمَنِ، فَقُلْتُ لَهُ: هَلْ تَرَاهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقُلْتُ لَهُ: تُحَوَّلْ فَاجْلِسْ عَلَى فَخِذِي الْأَيْسَرِ، فَجَلَسَ، فَقُلْتُ: هَلْ تَرَاهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقُلْتُ لَهُ: فَتَحَوَّلَ فَاجْلِسْ فِي حِجْرِي، فَجَلَسَ، فَقَالَتْ لَهُ: هَلْ تَرَاهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَتْ خَدِيجَةُ: فَتَحَسَّرْتُ وَطَرَحْتُ خِمَارِي، وَقُلْتُ لَهُ: هَلْ تَرَاهُ؟ قَالَ: لَا، فَقُلْتُ لَهُ: هَذَا وَاللَّهِ مَلَكٌ كَرِيمٌ، لَا وَاللَّهِ مَا هَذَا شَيْطَانٌ) الإمام الطبراني رحمة الله جلّ جلاله.

فطمأنَتْهُ بفعلها وكلامها النابع من فطنة عالية، ونفس زاكية.

التحرّي من باب آخر، وهو باب أهل الفطر السليمة، أهل الأذواق الرفيعة، الذين سمعوا شيئًا ممّا ورد عن الأنبياء عليهم الصلاة والتسليم، وعن الأولياء رضي الله تعالى عنهم، ولا يخفى عليكم أنّنا نتحدّث عن مدينة فيها بيت الله جلّ وعلا، وفيها أحداث تُروى عن سيّدنا إبراهيم وسيّدنا إسماعيل، وأمّنا هاجر عليهم السلام جميعًا، فكلّ هذه المعلومات - وإنْ أصابها ما أصابها- جعلت هنالك تطلّعات لما سيحصل في مُستقبل هذه المدينة، مكة المكرمة، والمدينة المنورة - زادهما الله تعالى تشريفًا وتعظيمًا- فهؤلاء يعلمون أنّ القيم الفطرية والسماويّة تقي الإنسان من الأضرار، ومن المُضرّين، فلذلك طمأنَت النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم بذكر شمائله الشريفة:

(... كَلَّا وَاللَّهِ لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ...) الإمام البخاري رحمه الباري سبحانه.

مَعْلَم التثبّت في هذه المرحلة واضح جدًّا، ستقولون: ماذا نستفيد من هذا الكلام؟

نستفيد من هذا الكلام أحبّتي أنْ نتثبّت، وأنْ نُرسي قواعد منهجنا على التثبّت، ليس بمُجرّد أنْ يقول أحدهم: إننا قلنا كذا وكذا فامشوا هكذا، كلا، لابُدَّ أنْ تتثبّت، فهناك أناس مُغرضون، وهناك أناس جهلة وحاقدون وحاسدون، فالتثبّت أصلٌ في الدّين، أكّدَته النصوص الشريفة، قال جلّ جلاله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [سورة الحجرات: ٦].

وقال تعالى: ﴿ . . . قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . . . ﴾ [سورة البقرة: ١١١].

وهكذا فهناك نصوص كثيرة في الكتاب العزيز، والسُنّة الكريمة، أكّدت هذا الأصل الفطري، والموروث الثقافي الموجود في مكة المكرمة آنذاك، فهذه المرحلة تأسيسية من خلال التشريع، وليس من خلال النوازع الفطرية السليمة أو فعل يد القدرة الإلهية اللتين ذكرناهما في المرحلة الأولى.

ففي المرحلة الأولى رأينا كيف أن الله سبحانه يكلؤه ويحفظه صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، وقد تحدّثت عن ذلك باستفاضة مع ذكر الشواهد، وهو يُجسّد رجولته، وسلامة فطرته وحقيقة بشريته وذلك بالانصياع لتلك الدوافع الفطرية في الإنسان.

ففي الإنسان خيرٌ ما دامت فطرته سليمة، فالفطرة أصل الديانة، وهي امرٌ ربانيٌ مغروس في عمق الروح الإنسانية الزكيّة الطاهرة، قبل أنْ يبلغ الإنسان مبلغ الرجال؛ ثم تنبتَ عنده الطاقة السلبية ـ التي يُعبّر عنها بالنفس الأمّارة بالسوء ـ كما تنبت أسنانه بعد فترة من

ولادته، وكما تظهر على جسده بعض المعالم التي تدلّ على أنّه ابن كذا عام، وتظهر عنده توجّهات كذا وكذا ...إلخ.

وفي المرحلة الثانية: نجد أن النبي صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم ما عاد مُستسلمًا ليد القدرة الإلهية فقط لتكلؤه، وإنّما بدأ يدخل في عتبة القيام بالتكاليف، والاستعداد لاستقبال (افعل ولا تفعل)، مع التأكيد على حُسن الصلة بالله عزّ وجلّ، والأخذ بالوسائل لأنّنا في دار الأسباب والوسائل، ومنها: اقرأ، والقلم، وتكرار القراءة، --- إلخ.

في مرحلة التأسيس، ينبغي الانتباه إلى فعل العبد، وأن نتعلم كيف أن النبي عليه الصلاة والسلام تلقّى الوحي، وكيف استوعب قلبه الشريف الآيات الأولى، ثم بدأ يتفاعل معها، ويتحرّى ويتثبّت، وبدأت معالم التحرّي والتثبّت.

دراستنا للسور الأولى نزولًا كي نستنبط الجزيئات التي تدخل تحت الكلّيات الخمس، فكيف نرتبها؟

أواخر سورة العلق لا تتعلّق بالمرحلة الأولى، ولكن ندرسها من باب التدريب على كيفية إدخال الجزئيات تحت هذه الكلّيات، وإلّا فبدايتها تتعلّق بالمرحلة الثانية، ونهايتها تدخل بالمرحلة الثالثة الأخيرة التي اخترتُها.

كيف نرتّب ذلك، وإلى أي مرحلة ندرس سيرة الحبيب صلى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه في ظلال المرحلة الثانية؟

ندرسها إلى صدر سورة المُزمّل، وبداية نزول سورة المُدثّر، وسيكون هذا ترتيبًا منهجيًّا، وليس من باب الترتيب الإخباري، فهذا الترتيب لا يستند على الأخبار الواردة في ترتيب نزول سور القرآن الكريم؛ لأنّ الروايات كثيرة شائكة، والله أعلم ما سبب ذلك؟ هل سببه أنّ هذا الأمر ليس شيئًا أساسيًّا في الدِّين؟

فالشيء الأساس في الدِّيْن هو المُصحف المُعجز الذي بين يديك، والذي تُقدّمه للعالم وتقول بملء فيك: محمّد رسول الله صلى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه، فإنْ قيل لك: وما الدليل؟

تقول: هذا المصحف الشريف، فلابُدَّ أن يكون مُستندًا على روايات ثابتة، وأبحاث مُستقرّة، وهذا الذي حصل - والحمد لله رب العالمين- مذ بدأ الصحب الكرام رضي الله تعالى عنهم يَظهرون ويُعلنون عن منهج النبيّ صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه في جمع القرآن الكريم؛ لأنّ النبيّ عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه لم يلتحق بالرفيق الأعلى إلّا وقد كان القرآن الكريم مكتوبًا مجموعًا، ولكن على شكل أجزاء، أي لم يكن مجموعًا في مُصحف واحد، لكنّه مكتوب ومحفوظ في صدور الرجال، وعلى الأحجار أو الجلود، وعلى وسائل الكتابة البدائية التي كانت مُتوفرة في عصره صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، ثمّ جُمع في مُصحف واحد بعد ذلك.

لكن ما الضرورة المُلحّة في إثبات نبوّة الحبيب، ورسالته عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه أجمعين؟ وما الضرورة لهذا الإثبات في معرفة الآيات التي نزلت أولًا، والآيات التي نزلت آخرًا؟ وكيف نُرتبها ترتيبًا بحسب النزول؟

الحقيقة: لأنّ الترتيب بحسب النزول لا يُشكّل هذه الأهمية التي يُشكّلها الترتيب التوقيفي بوحي من الله تبارك وتعالى، لذلك لم يعتنوا كثيرًا بالروايات الكثيرة التي جاءت، مع أنّ الإجماع موجود على أنّ أوّل ما نزل هو صدر سورة العلق، وما عدا ذلك تختلف الروايات، فهل سورة المُزمّل جاءت بعد العلق أم المُدثّر أم نون والقلم أم هي سورة الفاتحة؟ --- إلخ.

فعندما أضع منهجًا، وأريد أنْ نستفيد من حياة الرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، أرتّب هكذا، فأقول:

١- الآيات الخمس الأولى من سورة العلق.

٢- ثمّ المُزمل.

٣- ثم بعد ذلك المُدثّر.

وهكذا تتابع نزول القرآن الكريم، ولكن عندي هذه السور الثلاث تُشكّل أسُسَ المنهج لمَنْ يُريد أنْ يكون داعيًا، وهذا موضوع اجتهادي، ويُمكن لأيّ شخص أنْ يكون له رأي آخر.

إذن صدر سورة العلق خمس آيات، بعد ذلك الشطر الأوّل من سورة المُزمّل أو سورة المُزمّل بكمالها وتمامها، ثمّ بعد ذلك سورة المُدثّر.

هذه الهدايات تنتمي لأيّ مرحلة؟ هل هي من المرحلة الثانية أم من المرحلة الثالثة؟ ومن أين سنبدأ في المرحلة الثالثة؟

الحقيقة الذي أراه نافعًا لنا - والله تعالى أعلم - أنّ هذه الآيات الخمس هي من المرحلة الثانية قطعًا، وسورة المُزمّل تدخل في المرحلة الثانية أيضًا، على اعتبار ماذا؟ ما العلّة التي بُني هذا الترتيب عليها؟

العلّة لوجود الإعداد أوّلًا، والانطلاق للتغيير ثانيًا.

ففي باب الإعداد، لا تستطيع أنْ تأتي بطالب ثانوية عامَّة أو مدرسة دينية، وتقول له: تعال درّس في الكلية! لأنّه غير مُعدٍّ لذلك؛ وفاقد الشيء لا يُعطيه، على الأقل حسب القوانين والأسس التي تسير عليها الجامعات الآن، فأنا لا أتحدث عن زمان سيّدنا الشافعي أو زمان الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنهما، ولا حتى عن زمان السلف الصالح رضي الله سبحانه عنهم، فيستطع أحدنا أنْ يقول بملء فيه: إنّ دار سيّدنا عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما كان بمثابة جامعة، لماذا؟

لأنّه يُدرّس النّحو في يوم، ويُدرّس الصّرف في يوم آخر، ويُدرّس التفسير في يوم ثالث، ويُدرّس القراءات في يوم رابع، فهو بمفرده جامعة، لأنه يُدرّس كلّ التخصّصات المُتعلّقة بالشريعة والعلوم الرائجة في ذلك الزّمان.

أنا لا أتحدّث عن هكذا نماذج، وهكذا عبقريّات، وإنّما أتحدّث عن هذا الزمان، فهناك أسس معيّنة، فيُقال لطالب العلم المُبتدئ: لا تستطيع أنْ تُدرّس؛ لأنّك لا تحمل شهادة، وهذا هو الحقّ، فأنا لا أستطيع أنْ آتي بمُدرّس أو مُعلّم ابتدائية، وأسلّمه زمام التدريس في الجامعة، فهذا مُستحيل، وكذلك في الأمور المعنوية والمادية.

إذا كنت تُريد أنْ تُؤسّس للتجديد والتغيير؛ فلابُدَّ من الإعداد، لابدُّ أنْ تُعدّ أئمّة الهدى في هذا الميدان، ولابُدَّ أنْ تُعدّ ذوي الحكمة والذوق، وذوي التفاني والحُبّ، ممَنْ يُحبّون تعاليم دينهم، وتعاليم ما آمنوا به، حبًّا يقضُّ مضاجعهم، شوقًا للالتزام، وشوقًا لنقل الخير للغير.

أما الشخص الذي لا يُعدّ جيدًا فلنْ أستطيع أنْ أُدخله في هذا الميدان الشائك:

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [سورة المزمّل: ٥].

إذن الآيات الخمس الأولى في المرحلة الثانية، وسورة المُزمّل من المرحلة الثانية، ولا يعني ذلك أنّه لنْ يستمر في المراحل القادمة أو في الثالثة على الأقل.

مرحلة نقل الخير إلى الآخرين بدأت معالمها تظهر في المرحلة الثانية، وأكثرها بتوفيق من الله جلّ في علاه لأناس يستحقونها، وبعضها ببيان تامّ أو مُجاهدة من الحبيب عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام.

الرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم كان يتلقى العدد المحدود ممن يدخل الإسلام، يخدمهم، ويُبيّن لهم، يُعلّمهم، يدخل دار الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله تعالى عنه وأرضاه؛ لأجل أنْ يجد مكانًا مُناسبًا لبيان ما أوحى الله تعالى إليه، علمًا بأن ما نزل من الوحي لا يزال قليلًا جدًا بالنسبة لما بقي من القرآن الكريم، وما سيُذكر من حديث النبيّ الأمين عليه الصلاة والتسليم، ولكن هذا القليل كان مُركزًا بحيث يُمثل المنهج كله.

إن دخول السيّدة خديجة الكبرى رضي الله تعالى عنها في الإسلام لم يتطلب مُجاهدة من حضرة النبي عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه، فبمُجرّد أنّ قال لها: إنّ جبريل قال لي:

كذا، آمنت به رسولًا لهذه الأمّة؛ كذلك سيّدنا ورقة بن نوفل رضي الله تعالى عنه، صحيح أنّ هناك أبحاثًا حول اسلامه ـ لا نُريد أنْ نخوض في حياة أناس أفضوا إلى ربّهم سبحانه ـ ولكن لا أشكّ بأنه كان مُؤمنًا، مُوحّدًا لله تعالى، من أهل الحنيفية على ملّة سيّدنا إبراهيم عليه الصلاة والتسليم، وقد أقسم أنّه سينصر الرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم إذا اقتضت الظروف نصرته، فقال:

(هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، وَإِنْ أَدْرَكَنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا) الإمام البخاري رحمه الله جلّ شأنه.

أليس لهذه الكلمات وزنٌ عند الله عزّ وجلّ؟ ثم يقول جاهل: لا يُعدّ مُؤمنًا بالرسول عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه العدول! سبحان الله العظيم، فمَنْ المُؤمن إذن؟

أو يقول: ليس صحابيًّا، ولا ينطبق عليه تعريف الصحابيّ! ولا أريد أنْ أخوض في مثل هذه الأبحاث التي لا تُوصلنا في منهجنا إلى شيء، فنحن نُريد معرفة ما المطلوب منّا من خلال سيرة الحبيب صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم.

إذنْ لاحظوا، إيمان السيّدة خديجة رضي الله تعالى عنها، وإيمان سيّدنا أبي بكر رضي الله سبحانه عنه، فسيّدنا أبو بكر لم يتلكأ أبدًا، فبمُجرّد أنّ الرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم قال: أنا نبيّ هذه الأمة، بايعه على الفور، وكذلك سيّدنا عليّ رضي الله تعالى عنه، الذي عاش في بيت النبي صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، وفي هذا دلالة واضحة على شهامة النبيّ عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه أجمعين، وكَرَمِ أمنّا خديجة رضي الله تعالى عنها، لأنّ النبي صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم أتى بِسيّدنا عَلِيّ من عند أبيه؛ ليُخفّف عن كاهله؛ لأنّه ذو عيال، وعنده أضياف كُثر، ويقوم بمهمات كثيرة، فخفف النبيّ صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم عنه، لماذا؟

لأنّ الله جلّ وعلا أغناه بأمّنا السيدة خديجة رضي الله سبحانه عنها، ففطرةً بذل هذا الاكرام، وصورته أنْ تعتني بأرحامك وأقاربك خاصة إذا كانوا فُقراء، وبأيِّ وسيلة من الوسائل التي يُمكن أنْ تُحقق هذا الاعتناء.

فمثلًا: الله جلّ في علاه تفضّل عليك فوهبك ولدًا صار في مرحلة الزواج، وأنتَ تُفكّر بجديّة في تزويجه، وهو يُريد الزواج أيضًا، وعندك ابن عمّ لديه بنت تراها كفوًا لابنك، عفّةً ونظافةً وطهارةً وثقافةً، لكنّه مسكين، فقير الحال، وأنت بفضل الله سبحانه تاجر مثلًا، فلا يصح أنْ تقول من هؤلاء؟ نحن تجّار، نحن رجال أعمال، نحن كذا وكذا، --- إلخ! كلا، بل ينبغي أنْ تستثمر الطاقات، وتُزاوج بينها، فالغنيّ يأخذ من الفقير؛ لأجل التخفيف على الفقير؛ ولأجل التكاتف معه، ورفعه درجة على الأقلّ في مسار المال والحاجة؛ لأنّ نبيّك صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم قام بهذا الفعل قبل الإعلان عن نبوته، فذهب وأتى بسيّدنا عليّ رضي الله تعالى عنه وربّاه عنده، فخفّف عن عمّه.

مُعظم المُسلمين الأوائل ـ في هذه الأيّام القلائل ـ آمنوا بسلاسة، فما احتاج إيمانهم إلى بحث وتنقيب وتثبّت.

إذن هذه كلّها بدأت تبرُز معالمها، مثلما نثرتَ بذور الحنطة أو بذور أيِّ نبات، وأتيتَ تنظر إليها وإذا بها للتوّ بدأت تشقّ الأرض شقًّا، خرجت للتو، فأنت ترى قسمًا منها، وقسمًا آخر لا تراه، فبدأت هذه المرحلة تظهر معالمها، ولكن كان الظهور بسلاسة بسبب فطرهم السليمة.

مع وجود بركة ونقاء وصفاء فطرة الحبيب صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، والذين آمنوا في تلك الفترة فقد احتاج الموضوع إلى الاجتماع واللقاء والاستماع والمُشاورة، فصار المجلس في دار الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله تعالى عنه.

أكثر الذين يكتبون السيرة النبوية الشريفة، ويتحدثون عن النظام الإسلامي، والسياسة في الإسلام، يقولون: هذه مرحلة سرية في الدعوة إلى الله جلّ في علاه، كلا، لا يُوجد مرحلة

سرية، فالإسلام مُعلنٌ عنه، ولكن يُوجد ترتيب وتنظيم، فأين يجلس الرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم؟ هل يجلس عند الكعبة الشريفة المليئة بالأوثان والأصنام، حيث التصفيق والتصفير من رجال ونساء عراة يطوفون بالبيت؟! هل يليق؟! وكيف يُعلّم؟! بعد ذلك يشتد الأذى، والنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم يتحمّل ويبقى في مكانه، ويُصبّر أصحابه، ويأذن لهم بالهجرة، فأين السريّة يا أخي؟!

يصعد على جبل الصفا، وينادي على بطون قريش بطنًا بطنًا:

(فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) الإمام البخاري رحمه الباري عزّ وجل.

نعم هناك ترتيب وحكمة، فمثلًا: أنت تخرج من البيت في أجواء باردة، فليس من الحكمة أنْ تخرُج بلباس خفيف، بل لابُدّ أنْ تتحصّن، كذا عندما تمشي مُعتدل القامة ثم تجد أمامك عارضة فيجب عليك الانحناء لتمرَّ من تحتها وتُكمل سيرك.

بعدما انتشر خبر سيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه، بدأت جذور المُعارضة تظهر شيئًا فشيئًا، علمًا بأنه ما زلنا في بداية المرحلة الثانية، حيث اللقاء ما زال قائمًا في دار الأرقم بن أبي الأرقم، لنتعلّم من هذا أن الحكمة أصل في إرساء قواعد المنهج؛ فنحن نُشكل لَبنة لانطلاقة التغيير في المُجتمع، لبنة في الالتفات إلى النفس أوّلًا، فكلّ واحد منّا يلتفت لنفسه، يقيس، يضع لها مُؤشراً، كأنّه يدخل في مُختبر ليقيس نفسه، أين هو في ظلّ هذه المعالم؟ في نور وهدايات هذه المعالم؟ فهذه حكمة أيضًا.

إذنْ هذه من حكمة الحبيب صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، ثمّ هو تأسيس للخيرين، تأسيس لمَنْ عنده نعمة أنّ يرفد الدعوة، ويحتضن رموزها، فهنيئًا لسيّدنا عبد مناف (الأرقم) الذي يُذكر اسمه إلى الآن، والحبيب صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه مُشرّف داره؛ فهنيئًا له على هذه الدار.

أنّ التصرّف بالحكمة من البداية يُؤدي إلى قوّة البناية؛ فمثلًا تُريد أنْ تبني بيتًا من ثلاثة أو أربعة طوابق، فإذا لم تتصرّف بحكمة مع الأرض فلن يكون بناؤك رصينًا، فينبغي عليك أن

تعرف نوعية الأرض، أهي صخرية أم رملية أم ترابية؟ كم سيكون العمق اللازم للأسس، وكم وزن كلّ طابق، إلى آخره ممّا هو عمل المهندسين، وأهل الخبرة.

إذن: المرحلة الثانية فيها تركيز على المُجاهدة ـ البناء الذاتي في حُسن الصلة بالله جلّ في علاه ـ وهذه ستتبين لك أكثر في بداية سورة المُزمّل، بمعنى أنّ:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [سورة العلق: ١-٥].

قولٌ قدسيٌ مُجمل في بيان تحسين الصلة بالله تعالى، لكي تنطلق على هدايات (بسم الله)، ولكن هل مُجرد الاعتقاد يكفي أم لابُدّ من حركة تعبّدية تُعمّق وتدقّق وتُرقّي هذه الصلة بالله تعالى؟ نعم لابُدّ من حركة تعبّدية، فجاءت أشدّ العبادات على النفس البشرية، وذلك في قوله عزّ وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمّل: ١ - ٥].

هذه هي العلّة، أنّه يُوجد في المُستقبل قول ثقيل، عمل شاقّ، وثقل لابُدَّ أنْ يقوم على أساس متين، ولا يكون الأساس المتين إلّا في شخص الداعي والإمام والخطيب، وهنا نستطيع أنْ نأخذ مثالًا عصريًّا لواقعنا، انظروا: سيّدنا الشيخ أستاذ الجيل قدّس الله تعالى سرّه العزيز، ورضي عنه، وطيّب روحه وذكره وثراه، رأى منّي خللًا وغفلة على المنبر، فكيف أكون داعيًا إلى الله سبحانه، وأنا بهذه الحال؟

فأمدّه الله تبارك اسمه بتلك الشحنة الروحانية الإيمانية المُباركة فتوجه بها إلى قلبي فأيقظه، والحمد لله ربّ العالمين، وانظروا فقد كنت غافلاً قبل تلك الشحنة، ثم أصبحت بعدها ما تعلمون: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ [سورة القيامة: ١٤].

لو أتكلّم لكم مَنْ أنا قبل تلك الشحنة فلربّما لا تُسلّمون عليَّ، وهذه حقيقة، فقد كنت شابًّا مسكينًا، لم يُوجَّه، ليس لديه مُربٍّ، يُعجبه صوته وأداءه، تُعجبه خطبته، وما يفعل العُجب؟ تذكرون مثال الحيّة والسُلّم.

فالعُجب حيّة، نسأل الله تعالى العافية، ونسأله أنْ يجعلنا مُتواضعين، وأنْ يجعلنا تُرابيين، بل ندفن أنفسنا في التراب، فلعلّها تنبت، ولعلها تتشرّف.

وأهل الذوق يقولون: جعل الله تبارك تعالى الماء طهورًا في ذاته؛ لأنّ الله عزّ وجلّ نزّله طاهرًا مُطهرًا: ﴿ . . . وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا . . . ﴾ [سورة ق: ٩].

وفي آية أخرى: ﴿ . . . وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا . . . ﴾ [سورة الفرقان: ٤٨].

إذن ماء السماء طاهر مُطهّر، ولكن تُراب الأرض كيف صار مُطهِّرًا؟ لأنّه رضي بأنْ يُداس بالأقدام، فأعلى الله جلّ وعلا له المقام، فجعله مسجدًا وطهورًا.

أذكر قصّة الشحنة الروحية لكلّ طلبة العلم الذين ألقاهم، وأقول لهم أنا صاحب القصّة، كي ينتبهوا؛ فللعلم طغيان، لا يقلّ عن طغيان المال، نعوذ بالله تبارك وتعالى.

المُحبّ لا يُريد أنْ يُغادر أيّ مَعْلَم من مَعَالم حياة سيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه إلّا بعد أنْ يتضلّع وتتشرّب روحه بما يقدّر الله سبحانه له من هداياتها وبركاتها ونورها وخيرها، ولكن هي الدنيا مُقيّدة بطاقة معينة، وبزمان مُعيّن، مُقيّدة بقيود كثيرة لأنّها دار ضيق، لذلك لمّا سُئِلَ الصحبُ الكرام رضي الله تعالى عنهم عن غاية دعوتهم إلى الله عزّ وجل، قالوا: بعثنا وابتعثنا لنُخرِجَ الناس من ضيق الدّنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

في كلّ مرحلة من المراحل التي جعلتها للبيان، والافادة في طريق السير إلى الرحمن جلّ جلاله، هدايات وبركات كثيرة، ولأن الإنسان مُكبّل في الدنيا، فلابُدّ من التقييد والاختصار، والله تبارك اسمه يتفضّل على عباده بما يشاء:

﴿ ـــ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [سورة الحديد: ٢١].

المرحلة الثانية من المراحل التي تشرّفنا بها، تبدأ تقريبًا قبيل الإعلان عن البعثة بستة أشهر أو أقلّ بقليل، وليس لها حدّ معين تنتهي به لتبدأ المرحلة الثالثة، كلا، فقد يكون هناك نوع من التداخل؛ لأنّها مراحل ضيائية، مراحل نورانية، ولا شكّ أنّ النور لا يُمكن أنْ تحجبه في مرتبة معينة دون أنْ تظهر معالمه في المرحلة المُقبلة، فهذه ليست مسائل مادّية يمكن أنْ تحجزها، فمثلًا: تقول هذا الحائط بيني وبينك يا جاري، فالذي قبل السياج لي، والذي بعده لك، فهذا حدّ فاصل واضح جدًّا، ولكن إذا جعلت مُصباحًا على هذا الحدّ فماذا يحصل؟ لابُدّ لنور المُصباح أن يذهب إلى أرض جارك، وهكذا المراحل لا نستطيع أنْ نُحددها تحديدًا جليًّا من دون أنْ يكون هناك تداخل بينها، والحقيقة أنّ هذا التداخل هو الرِّباط النوراني والرّوحاني الذي يجعل حياة سيّدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام وحدة مُتكاملة، يربط بين تلك المراحل مَنْ يتشرّفون بدراستها، والتبرّك بها، والتفاعل معها، فلذلك أرجو أنْ تكون هذه النقطة واضحة للجميع، فعندما أقول هذه المرحلة لا أقصد أنّه لا يُوجد أي تشابه بينها وبين المراحل الأخرى، كلا، ولكن أقصد المعالم البارزة.

من مقومات النجاة والفوز في الدنيا والآخرة التشرف بالسادة المُرشدين موصولي اليد بحضرة خاتم النبيين عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه، بصدق ويقين، وليس بقول مَنْ يقول قد رأيت منامًا فأنا مُرشد أو ذهبتُ إلى فلان وقدّمتُ له طلبًا لمنحي إجازة إرشاد فأعطانيها، فهذه كلّها أهواء نفسيّة نعوذ بالله تبارك وتعالى، وصورة من صور أكل الدنيا بالدّين، وإمتاع النفس بالمناصب وبأهوائها، أمّا أهل الذوق والصدق والتواضع، فلا يخطر

في بالهم هذا، فهؤلاء على الجادة والصراط المُستقيم والحق المُبين، فحين نقترب منهم ويُشرفنا الله جلّ وعلا بمعرفتهم، ثم إن وضعنا أيدينا بأيديهم فهذا هو الفوز المُبين في الدنيا والأخرة.

ففي مجلس مع حضرة الشيخ أستاذ الجيل سيّدي عبد الله طيّب الله تعالى روحه وذكره وثراه، وفي الأيّام الأولى من تشرفي بمعرفته، والسَّيْر تحت جناحه المبارك، سألني هذا السؤال فقال: عندك بيت يا بُني؟ قلت: لا يا سيّدي ما عندي.

قال: ولا قطعة أرض؟ قلت: ولا قطعة أرض.

فنظر إليّ نظرة فيها غرابة وتعجّب، بعد أنْ عرف قبل هذا السؤال بأنّي قد اشتغلت معظم الأعمال في المُجتمع، اشتغلت عاملًا وفلاحًا وعاملَ كهرباء ومُصلّح سيارات، أشتري سيّارات أصلّحها ثم أبيعها، وكنتُ مُوظفًا آنذاك كذلك، ومع كل هذه النشاطات، وكلّ هذا التعب في الحياة، من تحمّل الحرّ والبرد، وربّما يتحمّل العامل كلام النّاس الذين يُديرون العمل، فنستطيع أنْ نقول: جراحات روحية، وجراحات جسدية، وهذا حقيقي، لأنّ الإنسان حينما يدخل ويخوض هذه الأعمال لابُدّ أنْ يُصاب بالتعب وبالجراح، وقد يفقد حياته لا قدر الله تعالى، ومع كل ما تقدم لم تكن هناك ثمة ثمرة.

فنظر إليّ وقال: يجب أنْ تكون لك أرض، ولو في أطراف بغداد على الأقلّ، قلتُ له: نعم سيّدي ببركتكم، وفعلًا كانت هذه النيّة، فالله سبحانه لم يُكرمني بقطعة أرض فقط، وإنّما أكرمني بأنْ تعرّفت على سيّدي حضرة الشيخ طارق قُدِّس سرّه، وحضرة الشيخ طارق أحسن منّي في هذا المجال بكثير، فقال لي: تعال وأنا أرتّب لك شيئًا، فبِعْنَا كلّ أغراض البيت، بحيث لمّا جاء شخص لزيارتي في بيتي ـ وهو دار الجامع في حيّ العدل ـ ما وجد في البيت إلّا فراشًا بسيطًا نجلس عليه!

أذكر هذا لرفع الهمم، مثلما رفعوا هممنا رضي الله تعالى عنهم، لأنّها أسانيد كلّها، وانتبهوا إلى أين ينتهي هذا الإسناد؟ ينتهي إلى سيّدنا الأرقم رضي الله تعالى عنه.

فسيّدنا الأرقم شاب يملك دارًا في وسط مكة المكرمة، وأمام الحرم المُحترم، بمقربة من جبل الصفا، وهو بهذا الفقه والحنكة والغَيْرَة على شرع الله تبارك اسمه، وبهذا الحُبّ لسيّدنا رسول الله صلوات ربّي وسلامه عليه وآله وصحبه، يفتح له بيته، ويقول له: تفضّل هذا لك، وروحي فداك، أليست هذه مواقفَ تُدرّس في تربية الجيل، لو كنّا نفقه!!.

الآن نتشرف بمنهاج يبدأ بنهاية المرحلة الثانية مع بداية المرحلة الثالثة، المنهاج يُؤخذ من أوائل ما نزل من القرآن الكريم، فالمراحل دقيقة، والرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، نازل من الغار، لم يجلس ويسكتْ، ولم يقل هذه دعوة سريّة فدعني أرى وأفكّر، كلا، بل بعد ما تأكد وتثبت بزيارته لسيّدنا ورقة، ذهب مُباشرة لسيّدنا أبي بكر، ثمّ قال لسيّدنا عليّ رضي الله تعالى عنهم، ثمّ وَجَهَ سيدنا أبا بكر رضي الله سبحانه عنه ليأتي بأصدقائه، وهكذا انتشر الخبر في مكة المكرمة، فأين السرية؟ ثمّ لماذا السريّة؟

لكن بعد أنْ بدأت الإشكاليات مع أهل النفوس والأهواء، كان لابُدَّ من الحماية، وإعمال أدنى درجات التعقل والحكمة، لكن مع الأسف فإن كثيرًا من أهل العلم يقولون إنّ الدعوة كانت سرية بداية، فاعتمدها بعض أهل الأحزاب منهجًا حتى أنهم يصفون دار الأرقم بأنه أوّل مركز سرّي في الإسلام، كلا فالإسلام دين العلن، جاء لإخراج النّاس من الظلمات إلى النور، ولكن لكلّ مرحلة مُتطلباتها.

نأتي إلى مُرادنا من المرحلة الثالثة، وحتى ترتبط المرحلة الثالثة مع المرحلة الأولى، فقد نزل النصف الأول من سورة المُزمل ليُشير إلى المرحلة الثانية، فهي مُتعلقة بها بنسبة ٧٥ - ٨٠%، لأنّ القسم الثاني بإجماع علماء علوم القرآن الكريم نزل بعد سنة تقريبًا، أي من قول الله تعالى:﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾[سورة المزمّل: ٢٠].

حديثنا الآن عن النصف الأوّل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾[سورة المزمل: ١].

فهذه نزلت في أواخر المرحلة الثانية، بعد (اقرأ)، وصار بينهما فتور للوحي لمدة ستة أشهر على قول بعض العلماء، وبعدها عاود الوحي، فعندي: ترتيب النزول: (اقرأ)، أي: الآيات الخمسة، نزلت أوّلًا، وهذا لا خلاف عليه، فهي بداية النبوّة، ثمّ بعد ذلك سورة المُزمّل، ولا أعني به ترتيب النزول أو إنّه رأيٌ آخر يُضاف إلى الآراء الموجودة، كلا، وإنّما هذا ما أفهمه، وما أريده منهاجًا لإعداد الدعاة، فأرتبها بهذا الترتيب لأنّي أراه مُتسقًا مُتعاضدًا مُتماسكًا مع منهج الإسلام بشكل عام.

إذن فالمرحلة الثانية إلى نهايتها يظهر فيها مَعْلَم قويّ من معالم المُجاهدة، وهو إعداد الروحانية، انظروا هذه الروحانية بقيتْ معنا من المرحلة الأولى، يدُ القدرة الإلهية تصونها وتحفظها وتنمّيها، وبعد ذلك بدأت تكاليف نقاء الفطرة، حُبِّبَ إليه الخلاء، ولماذا لم تقل: حَبَّبَ الله إليه؛ لأنّ دوافعها قد تكون مُتعددة، ومنها دافع الفطرة السليمة، فليس هنالك تكليف، ولم ينزل بعدُ قرآن، ولم يُعلن عن نبوّته عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام، فدوافعها الفطرة السليمة، وبعض ما فهمه صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم من بقايا الحنيفية، من دين سيّدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والتسليم.

ثمّ بعد ذلك جاءه التكليف الرّباني لترقية هذه الروحانية أكثر وأكثر، حتى قلنا إنّ سيّدنا النبيّ صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه لم يكن بحاجة إلى هذه الترقية ولكنه مُشرّع، يرسم لنا طريق تقوية الرّوحانية، فجاء المنهاج لتقويتها بأشدّ التكاليف، لماذا؟ لأنّ الروحانية تُشكّل العمود الفقري للدّين، وهي المَعْلَم الأساسي للانطلاق لربّ العالمين سبحانه وتعالى، فهي ليست أمرًا سهلًا، فلمّا كانت كذلك فهي تحتاج إلى تكاليف ليستْ سهلة، فمثلًا قرّر أحدهم أن يكون طبيبًا بارعًا مُتخصّصًا، فهذا الهدف العظيم يحتاج إلى وسائل عظيمة، ويتطلب تكاليف جمة.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [سورة المزمّل: ١ - ٢].

نضع هذا التوجيه من الكلّيات الخمس، ضمن شخصيّة الداعي، أي: قم الليل أيّها الداعي، قم الليل أيّها المُسلم إنْ أردتَ أنْ تكون داعيًا إلى الله جلّ في علاه، اعتني بقيام الليل، جاهد نفسك على قيام الليل، حاول أنْ تُحاكي وتقترب من ساحة سيّد المُرسلين صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه الميامين في قيامه الشريف، ولو ليلة واحدة في الشهر، أمّا بقية الليالي فصلِّ حسب طاقتك، ولكن شيئًا فشيئًا حاول أنْ تزيد التكاليف على نفسك.

حينما تزيد التكليف على نفسك فبإذن الله تعالى ورحمته سترقى من مقام التكليف إلى مقام التشريف، وهنالك في مقام التشريف ينتهي الأمر، فليس هنالك ثمة قيود؛ لأنّه مقام محبة، ولا قيود بين المحبوبين، وهنا فسيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه، قام الليل بآية واحدة: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[سورة المائدة: ١١٨].

ظلّ يُكرّرها صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم إلى الفجر، وعندما تُطالعون سيرة الأئمة رضي الله تعالى عنهم فستجدون صورًا وأحوالًا شريفة عالية؛ فمنهم من قام الليل بمائة ركعة، وبألف ركعة، كيف؟ هذه افاق مرتبة المحبوبية، مرتبة التشريف، فعَنْ سَيِّدِنَا أَنَسٍ رَضِـيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ:

(أَنَّ رَجُلًا كَانَ يَلْزَمُ قِرَاءَةَ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فِي الصَّلَاةِ مَعَ كُلِّ سُورَةٍ، وَهُوَ يَؤُمُّ بِأَصْحَابِهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِ، فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّهَا، قَالَ: حُبُّهَا أَدْخَلَكَ الْجَنَّةَ) الإمام ابن حبّان رحمه الرحمن عزّ شأنه.

وقال: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ) الإمام الترمذي رحمه الله جلّ وعلا.

الله الله! انظروا إلى مقام المحبوبية، ليس فيه قيود، فلتجاهد نفسك أيّها الداعي للارتقاء إلى مقام المحبوبية، فليس معك إلا ربّ البريّة سبحانه، وهذا شرف ما بعده شرف، وليس هذا فحسب، بل بركات هذا المقام مطلوبة حتّى في علاقتك مع أحبابك، ومع النّاس:

(لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ) الإمام البخاري رحمه الباري سبحانه.

حينما نرتقي إلى هذه المرتبة العظيمة فكلّ الأشياء التي يتمسك بها النّاس تسقط، وتصبح - إنْ صحّ التعبير- دون أيّ قيمة.

وهذه تدخل تحت باب صفة الداعي، وتدخل في صفة ما ندعو إليه أيضًا، لأنّ هذا منهج ودِين، فقيام الليل في الدّين مطلوب، وهو سُنّة مُؤكّدة عن الحبيب صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه، وكانت في حقّه صلوات ربّي وسلامه عليه وآله وصحبه فرضًا واجبًا كما ذهب إلى ذلك كثير من أهل العلم؛ فاذهب أيّها الداعي وتعلّم كيف كان النبي صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم يقوم الليل، حاول أنْ تتعرّف على كلّ ما يتعلّق بهذا القيام المبارك.

إذن هذا القيام يدخل في النقطة الأولى وهي خصائص الداعي، ويدخل تحت خصائص ما ندعو إليه وهي النقطة الثانية، فمن معالم ما ندعو إليه أنّنا نُقوّي صلتنا بالله تبارك وتعالى.

فالبداية من سوره المزمّل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [سورة المزمل: ١ - ٥].

فيها الوضوح فيما يُكلّف به العبد ليتشرف، فيجب أنْ نكون واضحين، لا يُمكن أن أبايع مُريدًا وهو لا يعلم على ماذا قَدِمَ، يجب أنْ يعرف المُريد ما يفعل، وما يُراد منه؛ فلا نُغافل النّاس، فنخرج لهم مُشتهيات ما ترنو إليه النفوس، وبعد ذلك نقول شيئًا فشيئًا يجب عليكم أنْ تفعلوا كذا وكذا، بل لابد أن نكون واضحين من البداية:

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [سورة المزمل: ٥].

فهذا الأمر ليس سهلًا ـ على الأقل في بدايات التكليف ـ لكنه سيكون أسهل من السهل بإذن الله تبارك وتعالى، وبركته سبحانه، وبالإخلاص، فعندما يخلص الإنسان يُيسّر الله تعالى له:

(... وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ...) الإمام الترمذي رحمه الله عزّ شأنه.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾، تربية للناس بأنّ ما يتعلق بالدّين ليس أمرًا لا

يُؤبه له مثلما يظنّ بعض المسلمين سامحهم الله جلّ وعلا، فيقول لك: يا فضيلة الشيخ عندي سؤال صغير! مسألة بسيطة! كيف تكون بسيطة والمسألة تتعلّق بالدِّين؟ فما بعدها جنّة أو نار الجحيم - نعوذ بالله تبارك وتعالى- فكيف تُسمّيها سهلة؟

إذن يجب أنْ نُربّي النّاس، ونُربّي نفوسنا قبل النّاس على أنّ هذا الدِّين سلعة الله تبارك في علاه، على أنّ هذا الدِّين منهاج ربّ العالمين، منسوب إليه سبحانه، فلابُدّ أنْ نُعطيه قدره ومقداره، فلا نفهم الثقل فقط بأنّه يحوي تكليفًا، كلا، إنّما نفهم الثقل من حيث المرتبة، فله مكانة ومرتبة عظيمة جدًّا، فليس الدِّين من هامش الحياة والعلم، كلا، بل هو ذو مكانة ومنزلة وخطورة؛ لأنّه تترتب عليه نتائج خطيرة.

إذن: المنهج واضح، ويجب أن يكون المنهج واضحًا، وهو بهذا المعنى يأتي في النقطة الثانية: معالم ما ندعو إليه، فيجب أنْ تعلم أنّ هذا الأمر ربما يفقدك وظيفتك، ربما يفقدك حياتك، وليس هذا تخويفًا ـ نعوذ بالله تبارك وتعالى ـ ولا تثبيطًا، كلا، بل بيانًا لأجل أنْ يستعدّ الإنسان، ويرى نفسه، ومُؤهلاته للقيام بمهماته، وكلّ ما كان خاصًّا بسيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه، فلا نتدخّل في تفاصيله، وإنّما نفهم هداياته فيما ينفعنا الله عزّ وجلّ به، فلا يعنينا ما هذا القول الثقيل بالنسبة لحضرة النبيّ عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه أجمعين؛ فنحن غير مُكلّفين بطرح هذا السؤال، ولا أسمح لنفسي نهائيًا أنْ يخطر في بالي هذا السؤال، إلّا اللهمّ من باب التعليم والبيان.

يسأل أحدهم عن قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [سورة عبس: ١].

يا أخي هذا قرآن يُتلى، ولك الأجر في تلاوته، وينبغي عليك أنْ تتأدب لأنّ المقام مقام خير الأنام عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام، ولم أقرأ في يوم من الأيّام أنّ أحدًا من

الصحابة رضوان الله تعالى عليهم سأل النبيّ صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم عن هذه الآية، فهذه تُترك بين النبي صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه وبين ربّه عزّ وجلّ، لكن تمتّع بهداياتها، تفهّم وتذوّق حلاوتها، وتأدّب بآدابها.

شخص آخر يسأل عن قول النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم:

(إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ) الإمام مسلم رحمه المنعم جلَّ وعلا.

معاذ الله أنْ أدخل في هذا الموضوع؟ هل المطلوب منّي أنْ أفسّر هذا الشيء؟

كلا، لكن أقول: أنا عبدٌ مسكين تأتي الخواطر على قلبي، ولا أعرف كيف أردّها فأذهب إلى المُربّي؛ وقبل أيّام جاء شخص وسألني هذا السؤال قال: خواطر تأتي عليَّ وأنا أنزعج منها ولا أحبّها، فقلتُ له: يا عزيزي، لا تُلقي لها بالًا، فنسبة كبيرة منها طبيعية، لأنّك في دار الابتلاء والاختبار، بمعنى أنّها تأتي مثل المُعوّقات أمامك، فماذا تعمل معها؟

طالما لا تُحبّها ولا تُريد أنْ ترد على قلبك، وتُحاول أنْ تردّها فبارك الله فيك، فهذا واجبك، وخذ المسألة على نحو طبيعي؛ لأنّك في دار الدّنيا، والخواطر تأتي على قلوبنا ونفوسنا، ومن رحمة رب العالمين جلّ وعلا - إنْ لم نُترجمها إلى واقع عملي- أنه لا يُؤاخذنا بها، ولكن مع ذلك نُحاول أنْ نصون نفوسنا منها قدر المستطاع.

إذن: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾.

ماذا تستفيد منه كنصٍ؟ فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، نستفيد منه أنّ هذا الدّين عزيز، يا سلام! اشكر الله تبارك وتعالى أيّها الداعي، فالله سبحانه جعلك من خَدَمَة هذا الدّين، هذا الشيء الثمين الغالي المقبول عند الله عزّ شأنه:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [سورة المائدة:٣].

لذلك لا تَلُم أحدًا يسقط في الإثم، وآخر لا يستطيع أنْ يلتزم؛ لأنّ الموضوع ليس سهلًا، أَعِنْهُ، قِفْ معه، تعاون معه؛ لأنّ الأمر ثقيل، لكنه ثقيل من حيث التكليف، لا من حيث التشريف، وأذكر أن شخصًا نصرانيًا قال لي: ليس من السهل أنّك تُصلّي خمس مرّات في اليوم والليلة، فقلت له: وهل تعرف أنّ قبلها وبعدها سُنَنًا؟

قال: دخيلك! نحن لا نذهب إلى الكنيسة، وهي مرة واحدة في الاسبوع! فقلت له: أقول لك يا أخي في الإنسانية، ويا أخي في الديانات السماوية، فأنت تزعم بأنّ لديك دينًا سماويًا، وأنا عندي دين سماوي، والحمد لله جلّ في علاه، لكن أقول لك: إذا جئت بصدق وإخلاص فو الله إنّ هذه التكاليف ستجدها بعد فترة أحلى من السُكّر، وصورتها في قلبك أجمل من أيّ صورة رأيتها في حياتك، قال: هل أعتمد على ما تقول؟

قلت له: إنّي رجلٌ كبير في السنّ، وليس بيني وبينك أيّ مصلحة، جمعني القدر بك، لعلّ الله سبحانه يُريد هدايتك، وليس عندي أيّ مصلحة في هذا الكلام، لكنّي مُوقن بأنّ الله تبارك اسمه يلطف بالصادقين المُخلصين، فإذا أقبلت عليه بصدق وإخلاص ستجد هذه الصلوات الخمس وسُننها القبلية والبعدية أحلى من السُكّر، وأجمل من كلّ صورة رأيتها في حياتك، فتوقف قليلًا ثمّ قال: أعطني يدك فإنّي أشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ سيّدنا محمّدًا رسول الله.

يجب أنْ تكون واضحًا، ومُبيّنًا للحقائق دون تجميل: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾.

يا شاب إن جئت تسير إلى الله عزّ وجلّ، فيجب عليك أنْ تُجاهد نفسك، يجب أنْ تغض البصر، وألا تحتكر الخير الذي هُديت إليه، وتنتبه إذا جاءتك أفعى العُجب.

فهذا الثقل في حقّنا نحن، في حق المُكلّفين فما هي أمضى الوسائل المُجدية النافعة؟ يُعطيك ربّ العالمين المنهج، قال جلّ جلاله وعمّ نواله: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ ـــ﴾[سورة المزمل: ٦].

ما تُنشئه من العبادة في الليل، سواء كانت هذه العبادة قيامًا أو تلاوة للقرآن أو استغفارًا أو تأمّلًا، بل حتى إراحة البدن في بعض الأحوال، فالنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، قال: (لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ، فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ) الإمام البخاري رحمه الله جلّ ذكره.

بمعنى أنّه إذا خفّ نشاطك فلا تُحمّل نفسك فوق طاقتها؛ كي لا يُصيبك شيء من العجز التام، فلبدنك عليك حقًّا، فَدَعِ البدن يرتاح قليلًا، وَدَعِ القلب يأخذ راحته قليلًا، ثمّ قمْ بعد ذلك:

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [سورة المزمّل: ٦].

أي إنّ أنفع معالم الترقّي إلى الله تعالى هو ما يقوم به المُريد من أعمال في جوف الليل، أعمال قلبية، شعائر إيمانية، فَأَقْوَمُ قَولٍ هو ما تَقُولُهُ في الليل؛ لأنّك تقول ذلك لربّ العالمين جلّ ثناؤه، فـ (أقومُ) بصيغة أفعلُ التفضيل، أي: أفضل، أقوم، أكرم، أجلّ، أعظم، فهذه كلّها تدخل في شخصية الداعي، وقسم منها يدخل في النقطة الثانية: في معالم ما ندعو إليه، وقسم منها يدخل في المُعوقات أيضًا، فما المُعوقات؟

على قاعدة مفهوم المُخالفة فأنت إذا جئت إلى هذه النصوص وفهمتَ مفهومها المُخالف فمعنى ذلك أنّك إنْ لم تقم الليل فأنت لم تنظر إلى منهاجك على أنّه هو المنهاج الأتمّ والأكمل الذي رضيه الله عزّ وجلّ، وفي هذه الحالة ستخسر خسارة كبيرة جدًّا، وستقع في المُعوّقات التي تثبط عزمك في السير إلى ربك سبحانه.

﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا * وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [سورة المزمل: ٧ - ٨].

انظروا فكلّ ذلك من وسائل إعداد الداعي، ولذلك فالترتيب الدعوي لبناء شخصية الداعي إلى الله تعالى أن تكون سورة (المزمّل) هي السورة الثانية نزولًا في القرآن الكريم، ومرّة أخرى أبيّن رأيي، حتى يكون واضحًا، فأنا لا أعارض قول مَنْ قال: إنّ سورة المُدثر هي السورة الثانية ـ هذا ليس مجال البحث ـ بل أرى إننا بحاجة لهدايات سورة المُزمّل بعد

الآيات الخمسة الأولى التي فهمناها، على الأقل في زماننا هذا، وذلك كي نبني شخصيّتنا، ونعرف معالم ديننا.

لديك في الشريعة مجال واسع للطاعة والخير؛ فجاء بكلمة (سبحًا)، والسباحة من مُشتقات السّبح، سَبَحَ يَسبَحُ سباحة، ويقول مَنْ يعنون ببناء الأبدان: إنّ السباحة أفضل رياضة، لأنّها تُحرّك جميع المفاصل والعضلات بيسر وليونة، فيستفيد البدن قوّة ونشاطًا، وهذه من مُعجزات حضرة خاتم النبيين عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه أجمعين، حيث قال:

(عَلِّمُوا أَبْنَاءَكُمْ السِّبَاحَةَ وَالرَّمَيَ) الإمام البيهقي رحمه الله عزّ وجلّ.

السبح في النهار معناه أنْ تكون لك حركة دؤوبة، تُغطّي كلّ جوانب حياتك أيّها الداعي إلى الله عزّ وجلّ؛ فلا تكنْ خاملًا مُنزويًا في زاوية واحدة من زوايا الحياة، وإنّما لتكن لك سباحة وسياحة وانطلاقة، وسبحان الله العظيم فعندما كنت أقرأ قول الله تبارك تعالى:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [سورة الفرقان: ٦٣].

كنت أظنّ أنّ الله تعالى سيصفُ عباد الرحمن بأنهم الذين يقومون الليل، الذين يُصلّون، الذين كذا... إلى آخره، وبالتأكيد هذه كلّها مطلوبة، ولكن هنا بالذات أتى بالمشي؛ فلكي تتصف بالعبودية للرحمن عزّ شأنه لابُدّ أنْ يكون لك نشاط كبير على الأرض، ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾، وكأنّ ربّ العالمين جلّ جلاله يقول لنا: أيًّا كانْ ذلك السبح فلا تجعل منه أو من أي نشاط تجاري ومادّي وتعميري مُعوّقًا يعوقك عن ذكري، فلذلك أردفها بقوله عزّ من قائل: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [سورة المزمل: ٨].

فذكر الله جلّ في علاه بعض مُواصفات الداعي أنْ يكون ذاكرًا لله تبارك اسمه، ومن معالم ما ندعو إليه معلَم الذكر، يا سلام! الذكر حسب فهمي أعظم هدف بعد الإيمان بالله جلّ وعلا، وهو أنْ يُصبح العبد ذاكرًا لله عزّ وجلّ فهذا أعظم هدف، وهذا ما أؤمن به وأدعو إليه.

فما أعظم وسيلة تجعلك ذاكرًا لله سبحانه؟ إنها الخلوة: ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾.

تكلّم الله تبارك وتعالى عن الخلوة في بدايات ما أنزل، فهي تدخل تحت معالم الدّين، أي في الدِّين عبادة تُسمّى الخلوة، فالعمل والالتزام بها من مُواصفات الدّاعي، فلابُدّ للدّاعي أنْ يسحب نفسه مِن سبح الحياة للركون إلى ربّ العزّة، يعتذر إليه من كلّ ما أصابه في هذا السبح، ويقترب إليه سبحانه بذكره، ويتمتع بمعيّته:

(--- وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي ---) الإمام البخاري رحمه الباري جلّ شأنه.

بعض النور الموجود في الآيات المباركة يُمكن أنْ يدخل تحت أكثر من بند، وقد يدخل تحتها جميعًا.

قلت لكم: إنّي لا أفسِّر السورة الكريمة، وإنّما آخذ منها المعالم التي يُمكن أنْ نستفيد منها في بناء شخصيتنا الدعوية، في فهم ديننا، وفي فهم الواقع، فعندما نتحدث عن المُعوقات، إنّما نتحدّث في بيان الواقع الذي نعيش فيه؛ لأنّ الواقع فيه مُعوّقات ومُثبطات، وعندما نتحدّث عن الوسائل أي تلك التي تُعيننا لعبورها واجتيازها بأمان وسلام، فنتحدّث عن الحكمة التي دعا إليها سيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه، قال الله تعالى:

﴿ --- وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ --- ﴾ [سورة البقرة: ١٢٩].

فنحن نتعلّم ديننا العظيم الذي أكرمنا الله عزّ وجلّ به، لنصل إلى النقطة الخامسة، فنرى آثار الالتزام والالتصاق والتفاعل بين كلّ ما مضى من المعالم.

إن مدة فتور الوحي ومجيء الوحي تُعتبر من الحدود - إذا صحّ التعبير- النهائية للمرحلة الثانية، وبدايات حدود المرحلة الثالثة.

وما زلنا في ميدان التأكيد على قوّة صلة الداعي بالله تبارك اسمه، فينبغي عليه أنْ يعمل على تقوية صلته بالله جلّ وعلا من خلال التركيز على العمل الروحي، وعلى الشعائر التي ينبغي أنْ يُركّز فيها على مبدأ الحضور بين يدي الله سبحانه، بل حتى في الأعمال الأخرى الدنيوية التي تقتضيها خلافة الإنسان على هذه الأرض، وما يلزم ذلك من صور احيائها وتعميرها، ولقد بدأ ظهور معالم هذه الهدايات، مثلا في قوله جلّ جلاله:

﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ [سورة المزمّل: ٧].

حركة حياتية قوية، وزمانها طويل، ولكن لا يعني أنّ الصلة بالله تعالى تنتهي، كلا، وإنّما جعل هذه الآية بين آيتين، يُشدّدان على حُسن الصلة بالله تعالى وهما:

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾[سورة المزمل: ٦].

﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾[سورة المزمل: ٨].

فصارت الآية: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾، بين هاتين الآيتين، فإذا أعطينا نسبة لهذين المَعْلَمين: مَعْلَمْ قوة الصلة بالله تبارك وتعالى ومَعْلَم قوة الحركة لبناء الحضارة الإسلامية الإنسانية على الكرة الأرضية، فمُمكن أن نقول: ثلثان لتقوية الصلة بالله جلّ في علاه، وثلث لتقوية البناء الحضاري، مُمكن أنْ يُقال هكذا حتى نفهم لأنّ الصلة لا يجوز لك أنْ تقطعها في أيّ حال من الأحوال، ينبغي أنْ تُجاهد نفسك؛ لأجل أنْ تكون موصولًا بربك جلَّ وعلا،

وهذه الحقيقة تُؤكّدها نصوص كثيرة من القرآن الكريم نزلت بعد هذه المرحلة، فمثلًا تقرأ قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ـــ﴾ [سورة النور: ١٥٩].

ليس معناه أنَّهم لا يبيعون ولا يشترون ولا يُتاجرون، بل جالسين في زاوية، وفي مقابع العاطلين ـ نعوذ بالله سبحانه ـ كلا، بل هم يُتاجرون ويعملون، لكنّهم لربّهم ذاكرون.

إذنْ هنا في بدايات ما يبني شخصية الداعي إلى الله تقدست أسماؤه بشكل دقيق، وشخصية المُسلم بشكل عام؛ ينبغي تقوية الصلة بالله تبارك اسمه، ولها نسبة الثلثين، وتقوية الصلة بالبناء الحضاري أخذت نسبة الثلث، وأقول هذا لأجل البيان والتوضيح فقط.

في ضوء المَعلمين الأساسيين: مَعْلَم تقوية الصلة بالحضور مع الله تبارك في علاه، ومَعْلَم تقوية الصلة بمُتطلبات الخلافة عن الله عزَّ وجلّ في الأرض، ما المطلوب مني تقريبًا؟

المطلوب منك: أن تُعطي ثلثين من جهودك لتقوية الصلة بالله سبحانه، وثلث لتقوية البناء الحضاري، ولماذا الصلة بالبناء الحضاري؟

حتى يكون هذا البناء مُتنورًا مُتعطرًا بالحضور مع الله جلّ وعلا، ولكي يستقرّ هذا المعنى في ذهنك، جاءت بعد ذلك مباشرة:

﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [سورة المزمّل: ٩].

يعني لا يخطر في بالك أن وجود السبح الطويل وحركة الحياة المُتوالية مُسوغ للغفلة عن الله تعالى، بل ينبغي أنْ تُقوّي صلتك به، ينبغي أنْ تُحبّه حبًّا كبيرًا وعظيمًا:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ـــ﴾ [سورة البقرة: ١٦٥].

فهذا الربّ هو: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [سورة المزمّل: ٩].

ينبغي عليك أنْ تتخذه وكيلًا، وهذه تدخل في النقطة الأولى: شخصية ومُواصفات الداعي، وأيضًا في النقطة الثانية: لأنّه من معالم ديننا؛ فديننا يأمرنا بتقوية صلتنا بالله تبارك وتعالى وأدامتها، وتقوية صلتنا بالحركة الحضارية في أداء وظيفة الخلافة عن الله تقدّست أسماؤه.

إن الله تعالى يُريد أن يُبيّن الواقع الذي سنعيشه إنْ أخذنا بهذا المنهاج، واقع الحياة الدنيا، هذه المرحلة من عمرنا، فالدنيا هي مرحلة من مراحل حياة الإنسان، سواء كان الإنسان مُؤمنًا أو كافرًا، فهي ليست كلّ الحياة، الإنسان له حياة فيها مراحل، ومن مراحلها هذه المرحلة الدنيوية، وفيها أطوار وأحوال، منها عالم الأرحام، فأنت أيّها الداعي في رحم أمك تسعة أشهر، وفيها مرحلة الطفولة، لا تعلم شيئًا قال جلّ وعلا:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [سورة النحل: ٧٨].

فيها مرحلة الاستطلاع وبدايات التمييز بين ما يضرّ وينفع، من خلال التجارب والتعليم الأُسري، وما استودع الله عز وجل في فطرة الانسان، ومدة هذه المرحلة السنوات الخمس الأولى إلى سبع سنوات تقريبًا، فمرحلة التمييز، ثم النضوج شيئًا فشيئًا، وهكذا نتحرّك على أساس هذه الثقافة، ثمّ بعد ذلك تكاملت المدارك، مدارك العقل حتى يُصبح مناطًا للتكليف، فعند ذلك يتعلّق خطاب الشارع بالإنسان في هذه المرحلة، مرحلة البلوغ، فيقال له: افعل، ولا تفعل.

هذه الدنيا مرحلة من مراحل حياة وعمر الإنسان، وإلّا فله عمر في البرزخ، وله عمر في الآخرة، وله عمر مُمتد، وعمق روحي في عالم الروح، في عالم الذّر قبل مجيئه إلى الدنيا، وكلّ واحدة من هذه المراحل لها مُواصفات تختلف عن الأخرى، ومُتطلبات هذه تختلف عن تلك، فهذه كلّها تُعطينا علمًا ينفعنا في معرفة الواقع الذي نحياه، فنحن في واقع دنيوي فيه مراحل، منها مرحلة تسمّى: مرحلة التكليف، وهي تبدأ من البلوغ وتنتهي بإسلام الروح

لخالقها سبحانه وتعالى، ولا تنتهي قبل ذلك؛ فحتى الدقائق الأخيرة هي دقائق تكليف، نسأل الله عزَّ وجلّ أنْ يثبّتنا فيها، وأنْ يختم لنا بحُسن الختام.

إن الله تعالى يُريد أنْ يُبيّن لنا أنّ لهذه المرحلة خصائصَ ومعالمَ ينبغي أن ننتبه لها، ومن أعظمها أنها دار الاختبار والتكليف، وفي هذه المرحلة مُعوّقات ومُزعجات ومطبّات، فما أول شيء مطلوب منّي في مُواجهة هذه المعالم؟

أوّل شيء ينبغي أنْ تكون صابرًا، فلذلك جاء التوجيه الرباني بعد ذلك مباشرة:

﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [سورة المزمل: ١٠].

يا سلام، في كلّ آية، بل في كلّ كلمة في القرآن الكريم أعماق، وفيها ظاهر وباطن، وفيها حدّ ومطلع ومورد، ومجال للاستنباط:

﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [سورة الكهف: ١٠٩].

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [سورة النساء : ٨٥٣]

وعن الحسن البصريّ مرسلاً أنّ النبيّ ﷺ قال: (أنزل القرآن على سبعة أحرف لكل آية ظهر وبطن ولكل حدّ ومطلع) [حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ الامام البَيضَاوِي رحمه الله تعالى]

﴿--- وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة سيّدنا يوسف عليه السلام: ٦٧].

ونسأل الله سبحانه أنْ يجعلنا من العاملين بما يعلمون، ليس فقط نعلم ونتبختر بعلومنا ونتكبّر ونزهوا على الناس أو لأجل أنْ نُناقش ونُجادل ـ نعوذ بالله تبارك وتعالى ـ كلا، بل نتعلّم هذا العلم، والعلم نور، فنزداد نورًا على نورٍ.

﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [سورة المزمل: ١٠].

إذنْ ستكون هناك تقوّلات، انظروا بدأت تظهر معالم الابتلاء والاختبار، فالذي يدخل مُعترك الحياة حاملًا هذه الثقافة لا يتفاجأ، فمثلًا: إذا دخلت مجلسًا وسمعت أحدهم يقول لك: يا كذّاب، يا مفتري، فلا تستغرب، فالمسألة عادية، فقد قيلت لمَنْ لا نكون ذرةً تحت أقدامه، بل تحت نعاله الشريفة صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، فمَنْ أنت؟ حتى ما يُقال لك ما قيل للرُسل عليهم الصلاة والتسليم، ولسيّدهم صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه، ولكن مَنْ يجهل هذه المعلومة يتفاجأ، وربّما ينتكس أو يتمرّض، وتأخذه العزّة بالإثم، ويرد الصاع صاعين، وثلاثة أصْوُع، وينسى قوله تعالى:

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ـــ﴾ [سورة الشورى: ٤٠].

وقوله جل وعلا: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ـــ﴾ [سورة النحل: ١٢٦].

كلا، بل إذا سمع كلمة قد يردّها عشرة ـ نعوذ بالله تبارك في علاه ـ إذا أتته لكمة يَردّ عليها بضربات مُتعدّدة، فأين أنت من قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ ـــ﴾ [سورة المزمل: ١٠].

إذن الداعي صابر، مطلوب منه أنْ يصبر، ما يصبر على الأذى والضرب فحسب، بل يصبر على القول أيضًا، وإنْ كان جرح الكلام أعمق، ومؤذٍ أكثر من جرح السِنان:

﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ـــ﴾ [سورة المزمل: ١٠].

أيّها الداعي، هذا نبيك، هذا قدوتك صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، فينبغي أنْ تتأسّى بمَنْ قيل له: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ---﴾ [سورة المزمل: ١٠].

وقد يكون القول المُؤذي من أقرب الأقربين، فعليك بالصبر، وما الصبر؟

الصبر: مُجاهدة، الصبر: حبس النفس على ما تكره، فأنت تحبس نفسك على شيء تكرهه، تُحاول أنْ تُروض نفسك في كيفية التعامل مع هذا الشيء المكروه، وتتأقلم معه، فلا تُعطي مجالًا للانتقام وللكُرْه والقبح، فإن نفد صبرك فلا تُريد البقاء معهم، فاهجرهم، لكن بأي صفة؟

﴿--- وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [سورة المزمل: ١٠].

يا سلام، انظر هجرٌ جميل، فيا لعظمة ديننا الحنيف

ففي حالة وصولك لدرجة ما استطعت معها أنْ تتقبّل الأذى أبدًا، فلك الحقّ في أنْ تهجر وتذهب إلى مكان آخر، ولكن لا تجعل هجرك قبيحًا، تسب وتشتم، وكذا إلى آخره ـ نعوذ بالله تبارك وتعالى ـ وإنّما: ﴿--- وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾

استطاع سيّدنا صهيب الرومي رضي الله تعالى عنه أنْ يجمع أموالًا طائلةً بكسبه الحلال، ولمّا أراد أنْ يُهاجر إلى الحبيب صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه، قال له المُشركون: أتيتنا صعلوكًا لا تملك شيئًا، وصرت ثريًّا، والآن تُريد أنْ تذهب بأموالك! قال: أرأيتم إن تركته لكم، أتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم نُخلي سبيلك، فقال: إذن تجدونها في مكان كذا.

انظر هذا هجر جميل، وهكذا ينبغي أنْ نقرأ السيرة النبوية المُباركة، وسيرة الدعاة من السلف الصالحين رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

﴿--- وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ فالجمال مطلوب، وهو من معالم هذا الدِّين الخالي من القُبح تماماً، وإذا رأيت بعض النّاس يفهمون عكس ذلك فالعلّة في أفهامهم السقيمة.

مفهوم الهجر الجميل مُمكن أن يكون في النقطة الأولى، كذا في النقطة الثانية والثالثة، لأنّه يُبيّن لك أنّ هناك مُعوقات، وكيف تُعالج هذا المُعوقات في الفقرة الرابعة، وحتى في الخامسة لأنّه إذا صبرت على ما يقولون، وهجرت هجرًا جميلًا غيّرت معالم الدنيا، فهذه الهدايات تدخل تحت الكلّيات الخمس، كلّ واحدة منها من جهة معينة.

أيّها الداعي أمامك مُعوقات، ستظهر لك الكلاليب والأشواك، ومُمكن تقول: الصبر يدخل في النقطة الثانية، معالم الدّين، فالدّين فيه خصائص ومعالم يدعو إليها، منها الصبر، مبدأ الصبر، صفة الصبر، خُلق الصبر سَمِّهَا ما شئت.

هل يُوجد في الدِّين هجر؟ نعم يُوجد في الدّين هجر، لأنّ الدِّين يُعالج واقعًا، ولا يأتي للمثاليات فقط، بل هو مثالي وواقعي، وهذا كلام ليس مُتناقضًا، كلا، وإنّما ننظر إليه من عدة جوانب، فمرّةً نجده مثاليًا، وأخرى نجده واقعيًا، ويمزج بين المثال والواقع حتى يُغيّر وجه الحياة، والله تعالى أعلم متى يكون هذا، فقد كانت نسبة عظيمة منه إبّان عصر السعادة، وانتشار الخير، ولكن أيّام الدنيا الحلوة قليلة وقصيرة، وحتى الأيّام الحلوة أحيانًا لا تخلو من مُنغّصات؛ فهذه هي طبيعة الدنيا ووصفها الثابت حتى لا نتعلّق بها ونركن إليها.

كلّ هذه الضغوطات والشدائد ربّما تُخرج العبد عن طوره، فذكّره بأن دّينك فيه جمال فينبغي عليك أنْ تكون جميلًا في كلّ الأحوال، فأخاطب نفسي وأقول: بالله عليكِ يا نفس، أين أنتِ من هذه المراتب العالية؟

فبمُجرّد أن يتعرّض لأيّ مشكلة بسيطة، يثور ويغدر ويفجر وينسى أو يتناسى ـ نعوذ بالله عزَّ وجلّ ـ أنّ هذه من صفات المُنافقين، قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم في وصف المنافق: (--- وإذا خَاصَمَ فَجَر) الإمام البخاري رحمه الله جلّ وعلا.

فيا أيّها الداعي إذا رأيت نفسك تفجر في المُخاصمة فعليك أنْ تُراجع إيمانك، فالموضوع إمّا أنْ تكون أو لا تكون، أما أنْ تلعب على الحبلين فهذا غير مقبول عند الله جلّ في علاه، ولن يُكتب لك القبول عند الناس، وسوف تخدع نفسك، فالناس تحترمك وتُجلّك وأنت تلعب على الحبلين، عياذًا بالله جلّ وعلا، فلا تُصدق ما يقوله البعض عنك، فراجع نفسك، راجع مواقفك، فأحيانًا لمّا يستذكر الإنسان بعض المواقف التي مرَّ بها يكاد أنْ يشيب، يقول: أنا هكذا تصرفت؟ لماذا أيّها الداعي؟ أين الالتزام؟ أين الإيمان الحق؟

﴿ ---لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [سورة الصف: ٢].

اجعل هذه الآية الكريمة أمام عينك دائمًا، لأنّ فيها من الخير والبركة والتوجيه ما يُغطّي الكلّيات الخمس وزيادة، لماذا أقول وزيادة؟ لأنّها اجتهادات.

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة سيّدنا يوسف عليه السلام: ٦٧].

النفس التي صار عليها كلّ هذا الضغط الشديد، صبرت على ما يقولون، وهذه بداية الأذى، وبعدها استمر الأذى، فأدّى إلى الهجران، وهذا ما حصل في مرحلة من مراحل سيرة الحبيب صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه لمّا أذِنَ لأصحابه رضي الله تعالى عنهم بالهجرة إلى الحبشة، ومن المُمكن أن بعض أحوال زماننا يدخل في المرحلة الثانية، وقسمًا منها يدخل في المرحلة الثالثة.

فإذا تحمّلت النفس كلّ هذه الضغوطات ألا تحتاج إلى مُتنفس؟ ألا تحتاج إلى وعد جميل؟ ألا تحتاج إلى عقيدة تُسري وتُخفّف عنها؟

بلى، فجاء القول الربّاني بعد ذلك: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ ---﴾ [سورة المزمل: ١١].

يعني يا حبيبي يا رسول الله صلوات ربّي وسلامه عليه وآله وصحبه، لن أكلّفك بمُواجهة هؤلاء المُكذبين، وكذلك أنت أيّها الداعي إلى الله عزَّ وجلّ ليس المطلوب منك أنْ تُواجه هؤلاء المُكذبين، اتركهم لي، اتركهم لله ربّ العالمين:

﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [سورة المزمل: ١١].

فاترك حسابهم لي، وهنا مَعْلَم عظيم من معالم هذا الدِّين، فالأصل فيه ألا قتال ولا إكراه ولا مُواجهة بالقول ولا بالعمل، فليس من الدّين إذا سَبّك شخص فاشتمه، كلا، بل اصبِر، اصبِر على ما يقولون، وهنا أكّد: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ ، فلا تمدَّ يدك عليهم.

هذه الفترة يُؤسس فيها الدّين، ولكن بعد ذلك ستأتي أحكام وقتية، ولكلّ حكم واقعه الذي ينبغي أنْ يُدرس، ويتخذ بشأنه القرار، إذن أنت في النقطة الثانية: معالم الدّين، وفيها لا مُواجهة مع المُكذبين، وإنّما يجب الصبر.

الداعي ليس إنسانًا شريرًا ومُواجهًا، كلا، بل هو إنسان سمح مُسامح، أقصى ما يملك أنّه يهجر، لكن لا يهجر هجرًا قبيحًا، وإنّما يهجر هجرًا جميلًا، فهذه من مُواصفات الداعي، ومُمكن أنْ تدخل تحت النقطة الأولى.

مُمكن أنْ تدخل في المُعوقات، فهناك أناس سيُكذبوك، وغالبًا هم المُتنعّمون، من أهل الترف، أهل المناصب، المُتوجهون لظاهر الحياة الدنيا، الذين يعملون ليل نهار لأجل أنْ يملكوا ما ملك قارون، بدون أيّ ضوابط شرعية ولا عرفية ولا أسرية ولا فطرية.

﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [سورة المزمل: ١١].

أعطهم مهلة، ﴿ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴾ إرشاد للداعي أيضًا، أما في حال قيام دار الإسلام، فهناك الأمور ستختلف، ستكون هناك محاكم وضوابط، وسيُؤخذ على يد الظالم.

لنتخيل لو أنّ سيّدنا النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم عندما قام يدعو إلى الله سبحانه، ويُبيّن بعض معالم الدّين، جاء إليه الناس ووضعوا أيديهم بيده الشريفة، هل كان القتال سيُشرّع في الإسلام؟ مَنْ سيُقاتل؟ ولماذا يُقاتل؟ وهل جاء الإسلام لأجل قتل النّاس؟

إذا قالوا له مثلًا: نحن نتشرف بك، وأهلًا وسهلًا، لكن سامحنا لا نُؤمن، ولكن أفعل ما تشاء، وادعو من تشاء، فلا مانع لدينا، فهل سيقول لك الدِّين الحنيف يجب أنْ نقاتلهم؟

ذكر لي أحد الأحباب وقد عاش في دولة غربية، فيها كنيسة متروكة، يأتي إليها يوم الأحد أشخاص قليلون، فاضطروا لبيع بعض أقسامها، ومن ذلك قاعة المُناسبات، فاشتراها المُسلمون وجعلوها مسجدًا، فصار المسجد بناية مُستقلة بجنب الكنيسة لكنها تفتقر لمرأب السيارات، وصار المُسلمون ـ ما شاء الله جلَّ وعلا ـ يأتون بسياراتهم لصلاة الجمعة، فالمسؤولون عن الكنيسة فتحوا لهم مرأب الكنيسة طواعية، يقول هذا الرجل: قدّر الله تعالى أنْ أصلّي الجمعة في هذا الجامع، وبعيني رأيت كيف يفتحون الأبواب التابعة للكنيسة، والمُسلمون يدخلون بسياراتهم مُطمئنين.

يقول: دخلت وإذا الخطيب رجل سوري، فبدأ يذمّ ويشتم ويلعن عبّاد الصليب، تهجم على حكومة البلد الذي هم فيه، إلى آخره، يقول: فبدأت أغلي من داخلي غضبًا، وأقول: ما الذي أتى بي إلى هنا؟ أنا مُسافر تسقط عني صلاة الجمعة، أصلّي الظهر في بيتي وأسكت، يقول: تحمّلت كيفما كان، فلما انتهت الخطبة، قلتُ: لابدّ أنْ أوجّه هذا الخطيب، فذهبتُ وسلّمتُ عليه، فقلتُ له: أسألك سؤالًا واحدًا، وأرجو أنْ تُجيبني بصدق، فقال: تفضّل، قلت له: أنت سوري أليس كذلك؟ قال: نعم.

إذن هو مُهاجر، لماذا هاجرَ؟ على أساس أنّه يشتكي من ظلم الحكام السوريين إلى آخره، فهاجر والله عزَّ وجلّ أعلم بهذه الهجرة، فهناك من كنا نعتقد بهم خيرًا، فهم أهل فضل ودعوة إلى الله عزّ شأنه، هاجروا قبل احتلال العراق بسنة أو سنتين، منهم مَنْ سكن عَمّان، ومنهم في مكان آخر، وبعد ذلك جاؤوا على الدبابات الأمريكية، كانوا من قبل يتظلّمون بزعمهم أنّ الحكومة تُؤذيهم، والحقيقة ما كانت تُؤذيهم؛ فهم أساتذة في الجامعة، ولهم رواتب مُجزية وقصور فارهة، وعلى حين غرة انسحبوا، أين فلان؟ على أساس أنه مُسافر لشهر أو شهرين ثمّ يعود، لكنّهم ما عادوا إلا مع الدبابات الأمريكية، وذلك بعد سنة أو سنة ونصف، ففي يوم ٢٠٠٣/٤/٩م ذلك اليوم المشؤوم، ظهرت رؤوسهم كالأفاعي، وإذا بهم يقودون مُظاهرات، ولهم مُطالبات، والله جلّ جلاله أعلم لماذا سحبوا أنفسهم وسافروا إلى تلك الدول.

ثم سأله صاحبي مرة أخرى فقال: هل تستطيع أنْ تذكر من هذا الكلام الذي قلتَه بنسبة واحد من عشرة في بلدك؟ قال: لا، فقلت: يا أخي لماذا لا نحترم أنفسنا؟ ناس احترموك، وأذِنُوا لك بصلاة الجمعة، وأذِنوا لك بأنْ تخطب، وأكرموك، فهذه ما كانت مدرسة أو سينما أو قاعة، كلا، بل أكرموك برمزهم المُعتقدي، (الكنيسة) وفتحوا لك أبوابها، حتى يخدموا مُصلّيك، فلولا أن هذه الكنيسة فتحت أبوابها ما كان المُصلّون ليأتوا عندك، فهل هذا هو الجزاء؟ هل هذا ما أمر به الإسلام؟ أنْ تُسيء إلى مَنْ أحسن إليك؟

فمثل هذه التوجّهات، ما علاقتها بالإسلام؟ ليس لها أي علاقة بالإسلام، فينبغي على المُسلم أن يُجاهد نفسه لأجل أنْ ينضبط بتوجيهات ربّه جلّ ذكره.

﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [سورة المزمل: ١١].

أعطهم فرصة لعلّهم يرجعون، لعلّهم يهتدون، لعلّهم يرون منك خُلقًا حسنًا فيتأثرون به، لعلّهم يرون منك وقفة رجولية إسلامية ناصعة فيقتدون بك.

والإجماع مُنعقد بين أهل السير أنّ الإسلام انتشر بالخُلق الحَسن؛ وبمساحة هي أضعاف المساحات التي فُتحت بالسيف؛ إذا كان هناك فتح بالسيف أصلًا.

ظهرت لنا معالم أصل الدّين، فهناك معالم أصلية في الدّين وهناك معالم لأجل الحوادث والوقائع، فإذا صارت حادثة فما حكمها؟ هل يعجز الدِّين؟

حاشا فالدّين الحنيف فيه شمول وعموم، يأتي لك بالأحكام، لكنها ليست قالبًا تنطبق على كلّ الأحوال، وفي كلّ السنين، وفي كلّ الأطوار والأدوار، وليس لكلّ مَنْ هبّ ودبّ، وإنّما هناك شورى في الإسلام، فمجلس الشورى هو الذي يُقرّر، وإذا اختلف مجلس الشورى فعند ذلك يُرفع الخلاف إلى حكم القاضي، فهناك قضاء مُحترم في الإسلام، وهل من يُقرّر ويُباشر ويُنفذّ الأعمال هو المُشرّع نفسه أم مُؤسسة أخرى؟ يعني هل هناك مُؤسسة تشريعية ومُؤسسة تنفيذية؟ هذه تفاصيل ما نحتاج لها كثيرًا هنا إلا لأجل أنْ أركّز وأبيّن معالمَ:

﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ ---﴾

نحن لا ننسى أننا في المرحلة الثانية، المُختارة للتشرف بها وأختيها الأولى والثالثة:

﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ أعطهم فرصة فهؤلاء مساكين يحتاجون منك إلى رعاية وعطف ولطف ولين وبيان وتمحيص، مع صبرك الجميل، وهجرك الجميل:

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ---﴾ [سورة آل عمران عليهم السلام: ١٥٩].

ومن معالم الدّين أيضًا الاعتقاد باليوم الآخر، وقد بدأ يظهر كذلك:

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ [سورة العلق :٨].

هناك بيان للرجوع إلى الله جلّ وعلا، فيجب عليك أنْ تعتقد بأنّك راجع إلى الله جلّ جلاله، وعندئذٍ فهناك جزاء وحساب للمُكذبين:

﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [سورة المزمل: ١٣- ١٢].

فالجانب السلبي ـ بمعنى العقاب ـ موجود في الآخرة، أعدّه الله جلّ وعلا للمُكذّبين الذين يموتون على التكذيب والكفر والشرك نعوذ بالله جلّت صفاته.

هذا بيان وتوضيح لمعالم ما ندعو إليه: الاعتقاد باليوم الآخر، والاعتقاد بأنّ هنالك عذابًا أليمًا للمُكذبين نعوذ بالله سبحانه، وذكرٌ لبعض جزئيات هذا العذاب: طعام ذو غصة، أنكال وجحيم، أي هناك مُحاسبة: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [سورة القيامة: ٣٦].

فلمّا جاء الحديث عن الآخرة، والرجوع إلى الله عزّ وجلّ، فلربّما قفز إلى الأذهان السؤال التالي: والأرض ما مصيرها؟ فقال:

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [سورة المزمل: ١٤].

أيها المُتمسكون بالأرض، المُتثاقلون إليها، الأرض ستكون كثيبًا مهيلًا!

بعدها جاء التذكير اللطيف، تذكيرٌ بالحقائق الماضية، فأنتم يا أهل الكتاب، ويا أهل مكة لماذا تستغربون مجيء الرسول صلوات ربي وسلامه عليه وآله صحبه، وقد سبقه الرُسل عليهم الصلاة والتسليم؟

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ [سورة المزمل: ١٥].

اللهمّ صلِّ وسلِّم وبارك على رسلك أجمعين، وعلى حضرة خاتم النبيين عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه أجمعين.

إذنْ هنا معلم من معالم الدِّين وهو: التذكير بما فعل الله جلّ في علاه، وبما بيّن ووضّح للأمم السابقة، فالرسول عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام ليس بِدْعًا من الرُسل، ولستم وحدكم من أرسل إليهم ربُّ العالمين رسلًا، بل هناك أمم كثيرة أخرى، أما أنتم: أيها المُكذبون أولي النعمة فلقد سبقكم فرعون الذي ادّعى الربوبية والألوهية، فأين هو؟ أين من افتخر بقوته وماله؟ قال الله تعالى:

﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [سورة الزخرف: ٥١].

فما جاءكم ليس شيئًا جديدًا لكنه بمُواصفات أخرى، فالأصل واحد، ولكن الفروع لها مُواصفات تنسجم مع الرسالة، فهذه رسالة عالمية، وهي آخر الرسالات، وخاتمة الشرائع.

يُوجد هنا قياس، فمثلما أهلك اللهُ عزّ وجلّ فرعونَ، فسيُهلككم أيضًا، ما علة القياس؟

العلّة هي التكذيب، فبجامع التكذيب تكون النتيجة:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ [سورة المزمل: ١٥ – ١٦]

الرسول صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، شاهد عليكم، هنا أيضًا ميزة الداعي، فالشاهد لا تُقبل شهادته إذا لم يكن مُزكّى، والآية نزلت في حق سيّدنا رسول الله صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه، لكن العبرة بعموم اللفظ، وأنت أيّها الداعي إلى الله عزّ

وجلّ لك نسبة مع سيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم في مجال الدعوة، فأنت شاهد فيما بعد: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ـــ﴾ [سورة البقرة: ١٤٣].

وهكذا تظهر المعالم شيئاً فشيئًا، مثل الزرع لمّا يبدأ يشق وجه الأرض، ويظهر شيئًا فشيئًا، ومُمكن أن تجعل هذه في النقطة الأولى، يعني شخصية الداعي لابدّ أنْ تكون شخصية مُزكاة، مصقولة، نظيفة، حتى يصحّ أنْ يُقال عنها إنّ هذه الشخصية لها حقّ الشهادة على النّاس، أنْ يكون شاهدًا عليهم، والشاهد دائما مُبجّل ومُكرّم ومقبول القول، ولا يكون شاهدًا إلا بعد التزكية، أرأيت قاضيًا يأخذ بشهادة شهود لا يعرف عنهم شيئًا؟.

﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [سورة المزمل: ١٩]

وأؤكّد لكم سادتي بأنّي لا أفسّر هذه السورة، فالتفسير له قواعده، وإنّما أستلهم من هذه السورة معالم طريق الدعوة إلى الله جلّ في علاه، والداعي إلى الله عزّ وجلّ لا يكون مقبولًا عند الله جلّ وعلا إلّا بعد أنْ يعلم ما يُريده الله سبحانه منه، وما يُريده منه داخل بشكل دقيق في النقطة الأولى، وهي مُواصفات الداعي، فمَنْ يُريد أنْ يُصبح طبيبًا مثلًا فلابد أن يعرف ما هو الطب، ومن هو الطبيب، وإلا فلن يستطيع أنْ يكون طبيبًا، وكذلك الدعاة فهم أطباء الأرواح والأجساد.

فيما سبق رأينا أنَّ بعض المعاني المُستلهمة من الآيات الكريمة الماضية بيّنتْ لنا بعض هذه الكليات الخمس، – شخصية الداعي، معالم ما ندعو اليه، المعوقات، وسائل التغلب على المعوقات، الصورة المتكاملة للحياة – فمن الآيات ما دخل تحت النقطة الأولى، ومنها ما اشتركت في نقطتين أو ثلاثة، ومجمل ما أستفهم من الآية الكريمة المباركة:

﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾[سورة المزمل: ١٩].

إنَّ الله تبارك اسمه أكّد بتأكيدات عديدة، فـ (إنّ) للتأكيد، وكذا الجملة الإسمية، فهي تدلّ على الثبات والاستقرار، على عكس الجملة الفعلية فإنّها تدلّ على الحدث والتجدّد، فالثابت المُستقر هو المعنى المفهوم من الجملة الإسمية، فهذه تذكرة: مبتدأ وخبر، إذنْ هي جملة إسمية؛ لأنّ المبتدأ يكون اسمًا ولا يكون فعلًا، ودخول إنّ للتأكيد على الجملة الإسمية، تأكيد لمعناها، تأكيدٌ لما أُسند إلى الخبر، بمعنى تأكيد للجملة روحًا ومعنىً باسم الإشارة (هذه) أي: هذه تشير إلى المعاني التي تفهمونها من هذه السورة من بدايتها إلى قوله عزَّ شأنَه:

﴿السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ [سورة المزمل: ١٨].

هذه تذكرة، وتذكرة مأخوذة من التذكّر والذكرى التي تُغيّر نفسية الإنسان حسب وصفها، فإنْ كانت ذكرى إيجابية فآثارها ايجابي على النفس، وإذا كانت -لا قدّر الله تعالى- ذكرى سلبية فستكون آثارها من جنسها.

و(تذكرة) فيها معنى الوسيلة التي تُعينك على أنْ تتذكر شيئًا يستحق التذكّر قد تكون نسيته، ومن هنا - والله جلّ وعلا أعلم - هدى الناس إلى أنْ يُسمّوا بطاقة الصعود إلى الطائرة بالتذكرة، فتذكرة السفر، أي الورقة التي تُذكرك بأنك على سفر، وبما مِنْ شأنه أنْ يكون مهمًّا في حياتك، ففيها معنى العبور، فيها معنى العناية؛ لأنّ الموضوع مهم، وليس على هامش الحياة، وإنّما هو في صلبها: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ـــ﴾ [سورة المزمل: ١٩].

أي تأتي بهذه المعاني، وبهذا المبدأ، وبهذه المواصفات، فإذا استذكر الإنسان هذه الأشياء الصميمية الضرورية الأساسية فماذا ينتظر؟ ليس عليه إلّا أنْ يسلك الطريق، لكن هذا السلوك ليس بوصف الإجبار، وإنّما بوصف المشيئة ؛لأنّه لا إكراه في الدّين:

﴿ـــ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [سورة المزمل: ١٩].

إذنْ أيّها العبد! الله عزّ وجلّ ذكّرك ونوّرك وأعطاك فطرة سليمة، وعقلًا سليمًا، وقوّى الفطرة والعقل السليم بالوحي إلى رسوله الأمين سيّدنا المصطفى صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه، ثمّ جعل لك وزنًا وشخصية ومرتبة ومقامًا؛ فأنت فيه مُقوَّم كما قال عزَّ وجلّ:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[سورة التين: ٤].

أنت الآن في مرتبة أحسن تقويم، فلا نُريد أنْ نُنزلك إلى مرتبة مَنْ يُجبَرُ ويُكرَه؛ لأنّ الإكراه والإجبار يُنافي التكريم والتقويم، فالله عزّ وجلّ لا يُكْرِهُ الإنسان؛ لأنّه مُكرّم عنده سبحانه؛ ولأنّ الجبر نقصان، فالجبر يقتضي وجود كسر، والكسر نقص؛ وإنّما تركه يختار وينطلق؛ فهو سيّد يختار ما يُريد كما قال جلّ وعلا:

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ـــ﴾[سورة الكهف: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [سورة الإسراء: ١٩].

إذنْ العبد يُريد، فله إرادة ومشيئة، وله حُسن اختيار بين البدائل، بين افعل ولا تفعل؛ فلذلك تعلّق به خطاب الشارع عزّ شأنه.

ومن أجمل ما قرأت عندما كان عمري (١٢) سنة، حديث النبيّ عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام: (مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا، وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ) الإمام أبو داود رحمه الودود جلَّ جلاله.

فقال والدي رحمه الله تعالى: تعال لنُطبق الحديث، فأنت لم تصلِّ اليوم، أليس كذلك؟

قلت بلى، قال: إذن قُمْ فصلِّ، وبدأ يُربتُ على كتفي بلطف وهو يضحك، ثمّ قبّلني؛ لقد طبّق الحديث الشريف فضربني، ولكن أنظر إلى فهمه اللطيف.

لنتعلّم يا أحبابي من السادة المُرشدين، ولا أقول أنّ والدي كان مُرشدًا رحمة الله عليه، فلا أعرف هذا الشيء؛ لأنّه في ذاك الوقت كانت هذه الصور مُشاعة، والنّاس تتعامل معها بسلاسة، فينظرون إلى العالِمِ نظرة الإكبار والإجلال، وكان العلماء مُتميزين وقلّة، ففي مدينة السعدية كلّها لا أذكر في ذلك الوقت سوى عمّي رحمه الله تعالى، ووالدي، وعالمًا كرديًا من الشمال اسمه الشيخ عبد الرحيم، ولا أقول هذا تعصّبًا نعوذ بالله تبارك وتعالى، فمدينة السعدية كلّها بقُراها وأريافها، فيها جامعان فقط، يقوم بهما هؤلاء الثلاثة رحمة الله تعالى عليهم.

إذن معنى الضرب التَربيتُ على الكتف أو الظهر، فـ (وَاضْرِبُوْهُمْ) أيْ قوّوْهم بهذا الضرب؛ فهو نوع من القوة، لأنّ الضرب يأتي في اللغة لمعانٍ كثيرة، وإذا أردنا أنْ نكون مُجتهدين فقهاء فنحن بحاجة لتعلم لغة القرآن الكريم، والخلاصة: إنّ الإنسان لا يُثمر بالإكراه .

كنت أخدم في مدرسة الشيخ معروف الكرخي رضي الله تعالى عنه وعنكم، سنة ١٩٩٠م ويعرف الطلبة الذين جاءوا إلى المدرسة أنّي لا أرغم أحدًا من الطلاب حتى على الصلاة، فقد كان المُصلّون يتعثّرون بالطالب وهو نائم في الحرم وقتَ الصلاة، إلى درجة أنَّ كثيرًا من المشايخ الذين كانوا يُديرون مدارس أخرى انتقدوني وشكوني عند الأوقاف، فقالوا للمُدير العام: هذا لا يَصلح، لأنّه يُعطي مجالًا للطلّاب، فقلتُ لهم: اسمحوا لي بتقديم وجهة نظري:

أولًا: لا أؤمن بالإكراه، فأريد من الطالب أن يتعلّم من ذاته، وينهض للصلاة.

ثانيًا: لا أريد أنْ أضرب الطالب أو أهينه أو أضيّق عليه في الجامع حتّى لا يكره الجامع، فالدِّين جاء ليُربّينا على أنْ تكون قلوبنا مُعلّقة بالمساجد لا أن تنفر منها، فلذا أبتعد عن أيّ تصرّف يُؤدّي إلى نفور الطلاب من الجامع.

إنّ من معالم هذا الدِّين: لا إكراه فيه، فالإنسان سيّد في هذا الكون، سخَّرَ اللهُ عزّ وجلّ له ما في السماوات وما في الأرض، فماذا تُريد بعد؟ فالله جلّ وعلا لأجلك أنزل الكتب، ولأجلك أرسل الرُسل عليهم الصلاة والتسليم، فلا تخرم هذه السيادة، وحاول أنْ تبقى في مرتبتها، أنْ تتألق في آفاقها ومداراتها كما في هدايات الآية الكريمة:

﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [سورة المزمل: ١٩].

الإنسان لديه مشيئة: ﴿فَمَن شَاءَ﴾، مَنْ الفاعل؟

الفاعل هو الذي شاء، الفاعل معروف، لم يأتِ الفعل مبنيًّا للمجهول، حتّى لا يقول قائل: لا أدري من الفاعل الذي أجبرني على اتخاذ هذا الطريق، فلا أحد يجبرك على اتخاذ هذا الطريق، فأنتَ الفاعل، ولستَ سيّدًا مُكرّمًا إنْ لم تكن فاعلًا.

﴿اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾؛ إذنْ فالنهاية إلى الله جل في علاه؛ فالله جلّ جلاله هو المقصود والمُطلوب، فاللهمّ أنتَ مطلوبي ورضاك مقصودي.

كلّ سبيل يحتاج إلى دليل وإشارات وبدايات، وإلّا ضلّ الإنسان الطريق، أو تأخّر فيه؛ لأنّه لا يعرف مداخله ومخارجه، لا يعرف المطبّات والتحويلات الموجودة فيه؛ فوجود الدليل ضرورة، والدليل لا يخفى فهو سيّدنا رسول الله عليه صلوات ربي وسلامه وآله وصحبه أجمعين حينما كان في دار التكليف، وعندما انتقل إلى دار التشريف أوكلَ الأمر إلى ورثته، وأمرُ النبي صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم هو أمر الله عزّ وجلّ لأنّه:

﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ــــ﴾ [سورة النساء: ٨٠].

فالرسول صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه لا ينطق عن الهوى، ويأبى الله عزّ وجلّ أنْ يُكلّف عباده في دار التشريف، وإنْ قال قائل: نرى تصرّفات للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكذلك للأولياء بعد انتقالهم إلى رب العالمين! اقول: نعم، لا أنفي ذلك، ولا أنفي هذه التصرّفات، ولكن هي من باب الجود والكرم والفضل، وليست من باب أداء الواجب، فقد انتهى التكليف بتسليم الروح إلى بارئها، سواء كانت الروح أرواحَ الأنبياء عليهم الصلاة والتسليم أو كانت أرواح المُرشدين والعلماء الربّانيين رضي الله تعالى عنهم أجمعين، فلا تكليف بعد نزع الروح إلى دار التشريف، ويأبى الله عزّ وجلّ ذلك في دار التشريف، فهذا لا يتناسب مع عدله وكرمه سبحانه، بل لا ينبغي حتى في أعراف البشر؛ فنحن نستحيي أن نُكلف الضيف لأنه في مقام التكريم والضيافة، وكذا فالدار الآخرة دار الضيافة بالنسبة للأنبياء والأولياء عليهم الصلاة والتسليم؛ ثم ألا يكفي ما ذاقوا وما تحمّلوا؟!

(سُئِلَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَلَاءً، قَالَ: الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الأمثلُ، فالأمثلُ) الإمام أحمد رحمه الفرد الصمد عزّ شأنه.

ألا يكفي هذا كلّه؟ ثم إذا كان في الجنّة عند الله تعالى، فكيف يُقال له: اذهب فربّي فلانًا وفلانًا، وارفع كُدُرَات نفس فلان، واحمهِ من نزغات الشيطان!

إذنْ السبيل هنا في الدنيا، فلابُدّ أنْ يكون الدليل من أهل الدنيا، وله مُواصفات الحياة الدنيوية، والله عزّ وجلّ قرّر ألا يعودوا إليها بعد خروجهم منها، قال عزّ شأنه:

﴿ ـــ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ [سورة المؤمنون: ١٠٠].

فالإنسان لا يعود إلى الدنيا بعد خروجه منها بالمُواصفات الدنيوية، ولكن قد يعود إليها بمُواصفات أخرى، ولكن أنْ يعود إليها بمُواصفات دنيوية وتكليف وتشريع وقيام بواجبات، إنْ لم يقم بها يُعاقب أو على الأقل يُعاتب، كلا، فقد انتهت هذه الصورة.

إذنْ: أحبتي الكرام إلى هنا تأتي فاصلة في السورة؛ لأنّ هذه الآيات نزلتْ ثمّ نزل الجزء الأخير ـ الآية الأخيرة ـ بعد سنة تقريبًا، فماذا فهمنا ممّا سبق؟

فهمنا أشياء كثيرة، ولكن أهمّ شيء هو أنّ المرحلة الثانية فيها تركيز على تقوية الصلة بالله تبارك اسمه، وتقوية الصلة بالله عزّ وجلّ عن طريق تقوية الرّوحانية، وأنّ من أعظم ما يُقوّي الروحانية للعبد الحضور مع الله جلّ جلاله، وتركيز هذا الحضور يتجسّد بقيام الليل، ويتجسّد بترتيل القرآن الكريم، أي بالإكثار من ذكر رب العالمين سبحانه وتعالى؛ لأنّ القرآن الكريم جزئية من كليّة الذكر، فإذا قرأت القرآن الكريم فأنت ذاكر لله رب العالمين، لكنّه ليس كلّ الذكر، فالقرآن الكريم جزء من الذكر، أمّا الذكر المُطلق فصوره شتى، منها قولك: الله، الله، الله،...، سواء بلسانك مع حضور قلبك أو على الأقل مُستشعر بأنّك تذكر ربّك، فأنت في كلا الحالتين ذاكر.

ينبغي على العبد في المرحلة الثانية أنْ يُؤكّد على تقوية الصلة بالله تبارك اسمه بهذه الوسائل، القراءة والقلم، لأنّها وسائل فاعلة بها يتنوّر العقل، وتزداد الثقافة، وتتعمق النظرة إلى الكون المملوء بآيات عظيمة يغفل عنها ـ مع الأسف ـ كثير من الناس، ومما أعجبني خبر يقول: إنّ فيروس كرونا الذي أوقف الدنيا كلّها، شرقها وغربها، شمالها وجنوبها، لا وزن له تقريبًا، كأنّه صفر، ولكي يُمرِضَ الإنسان يحتاج إلى سبعين مليار فيروس، فتخيّل مريض واحد يحتاج لسبعين مليار فيروس؛ فكم مريض يوجد على الكرة الأرضية؟ وصل عدد المرضى في وقت ما إلى ثلاثة ملايين إنسان، فاضرب هذا العدد في سبعين مليار فيروس، فكم سيكون؟ وكلّ هذه المليارات لو وضعتهم في ميزان دقيق جدًّا فلا تُساوي غرامًا واحدًا! لا إله إلا الله! أتتفكرون بالموضوع؟ مليارات إذا وضعتها بالميزان لا تساوي غرامًا واحدًا، فما أعظم القدرة الرّبانية سبحانه وتعالى؟

إذنْ بالقراءة وبالعلم تزداد خشيةً لله عزّ وجلّ، تزداد معرفة بالله تبارك وتعالى، وبالتالي يرتفع عندك مستوى الذكر والعبادة، وهذه هي مُقومات العبودية لله تعالى.

إذنْ: هذا مَعلم أساسيّ في هذه المرحلة، إلى الآية (١٩) من سورة المُزمّل، وهو التأكيد على تقوية الصلة بالله تبارك وتعالى، والأخذ بأسبابها النظرية والتطبيقية، فستُقوي صلتك بالله سبحانه.

لماذا تقوّي صِلتك بالله؟ حتّى تكون ناجيًا عند الله، تصل إلى الله، تتخذ سبيلًا إليه جلّ جلاله، ومَنْ كان كذلك فإنّه يُضفي جمالًا على الكون، وكيف لا يُضفي جمالًا على الكون، وهو صاحب الهجر الجميل! والصبر الجميل!

يستطيع الإنسان بتطبيق الإسلام أنْ يعلو بهذه الحياة إلى ما يقرب من حياة أهل الجنّة، فبالإسلام الحق تمتلأ الحياة جمالًا وبهاءً وذوقًا وروعة ورِقّة، ولولا أنّ الله عزّ وجلّ أرادها دنيوية، لا وزن لها لأقترب وصفها من وصف الجنة بما فيها من أحوال راقية، فقد نُزعت من صدورهم الغلّ، وهم أحباب وإخوان مُتحابّون بجلال الله تبارك وتعالى، مُتعاونون بجمال الله عزّ وجلّ، يأخذ بعضهم بيد بعض برفق وحنان وصدق وتعاون بل بتفانٍ، وقد جاء وصفهم في القرآن الكريم في قول الله جلَّ جلاله وعمَّ نواله:

﴿--- يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة الحشر: ٩].

بتقوية الصلة بالله تبارك اسمه، وسلوك الطريق الذي يُوصلك إليه سبحانه، وإلى مرضاته عزّ وجلّ ترقى الحياة جمالًا وكمالًا بحيث تدنو من آفاق حياة أهل الجنّة.

هذه هي المرحلة الثانية، ومن معالمها هذا المَعْلَم العظيم، وهو تقوية الصّلة بالله جلّ في علاه؛ وستأتيك بعد ذلك تشريعات فيها أوامر تحتاج في تنفيذها ونشرها والدعوة إليها إلى هذه القوة، فتقوية الصلة في هذه المرحلة تجسّدت بتفاعل سيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه ومَنْ والاه، فقام من الليل حتّى تورّمت أقدامه الشريفة صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم.

وينبغي على مَنْ يُريد أنْ يكون داعيًا أنْ يقتدي بالنبيّ صلوات ربّي وسلامه عليه وآله وصحبه، فلذلك ستجدون في الآية الأخيرة التي سوف نتشرف بها الآن أنّ الله تعالى شهِد لطائفةٍ قامت بالأمر خير قيام مع خير الأنام عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام، فنالت هذا التكريم، إذنْ قيامك مع سيّدنا رسول الله عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه الميامين، صاحب الخُلق العظيم، سبب التكريم، كيف لا يكون تكريمًا والله سبحانه نزّل في القرآن الكريم شهادة لهم نقرأها؟ كم عدد الذين تشرفوا بهذه الآية منذ أنْ نزلت إلى قيام الساعة؟

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ---﴾ [سورة المزمل: ١٩].

وليس من شأننا البحث أكان فرضًا أم سُنّةً، فنحن نُريد أنْ نفهم ما المطلوب من الداعي إلى الله عزّ شأنه، ما المطلوب منّا إذا أردنا أنْ نُعِدَّ دعاة، فإنْ قال قائل: إنّه قد كبُر فلم يعد قادرًا على العطاء، وهو مكتفٍ والحمد لله بالذي قدمه، فنقول له: هذه نعمة من الله سبحانه تستوجب منّا شكرًا، ولكن اذهب إلى ابنك، ابنتك، إلى المُصلين في الجامع، اذهب إلى أصدقائك وجيرانك، علّمهم كيف يُعِدّون أنفسهم دعاة إلى الله جلّ وعلا.

وانظر فهناك تأكيد في الآية، فالجملة إسمية، وفيها نسبةٌ لكلمة الرّب سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ﴾، ولم يقل إنّ الله يعلم أو إنّ الكريم يعلم، قال: إنّ ربك، أي: من التربية والعناية، ففيها تشريف حينما ينسبه إليه، إلى ذاته العلية ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾، يَنسبُ سيّدنا الرسول صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه إلى ذاته الشريفة، إنّ ربّك، إنّ مُربّيك، إنّ المُعتني بك، إنّ مُحبّك؛ لأنّه من غير المعقول أنكّ تُربي أحدًا وتعتني به وأنت لا تُحبه، إلى آخره من المعاني، فأطلق العنان لعقلك لتفهم شيئًا من معاني كلمة ربّك في قول الله تبارك وتعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ﴾، فكم سيتألق العبد، وكم يترقى حينما يعلم ويشعر بأن قيامه في الليل ومجاهدته لنفسه ليست خافية على ربِّه جلّ جلاله.

إذنْ من معالم الدّين أنّه علّمَ العبد الأمور المُتعلقة بعقيدته، فيتعلّم بأنَّ الله تبارك وتعالى، يرى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ [سورة العلق: ١٤].

وأنْ يعلم بأنَّ الله عزّ وجلّ لا تخفى عليه خافية، وأنّه حينما يتعامل مع ربّه سبحانه لن يخسر شيئًا؛ لأنّ علم الله جلّ وعلا ليس لأجل أنْ يعلم، وإنّما يعلم ليُكرم، ليحفظ لك عملك، فيَجزيك عليه أضعافًا مُضاعفة.

ولله المثل الأعلى فالكثير من المُسؤولين يعرفون ما نزل بالخَلق من المآسي، وهم يستطيعون رفعها أو تخفيفها على الأقل، ولكن لا يلقون لها بالًا، فما فائدة هذا العلم؛ وقد قال الحبيب المحبوب صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه:

(كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤول عَنْ رَعِيَّتِهِ) الإمام البخاري رحمه الباري سبحانه.

أما في ظلال رحمة الله تعالى فإنه أتى بـ (إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ)، فذكر كلمة (رَبَّكَ)؛ وكأنه يقول: يا حبيبي يا رسول الله ـ صلوات ربّي وسلامه عليه وآله وصحبه ـ يا أيتها الطائفة المُؤمنة التي تشرّفت بالمعيّة مع سيدنا الرسول صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه، عملكم محفوظ، عملكم عند من لا يضل ولا ينسى، كما قال عزَّ شأنه:

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [سورة طه: ٥٢].

وسيُثيبكم على هذا العمل أجرًا عظيمًا، وسيُؤتيكم ثمرات هذه المُجاهدة في الدنيا قبل الآخرة.

إذنْ هنا مَعْلَمَ من معالم الدِّيْن؛ ففي عقيدة هذا الدِّيْن الذي شرّفنا الله عزّ وجلّ به أنّنا نعلم أنّ الله عزّ شأنه لا تخفى عليه خافية سواء لأجل العلم وإحصاء ما نعمل أو لأجل تكريم العاملين على ما يعملون من خير أو لعقوبة مَنْ يعملون الشرّ أو الرضا عنهم وإطلاق سراحهم وغفران ذنوبهم، ونسأل الله عزّ وجلّ أنْ يعفو عنّا جميعًا.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ---﴾[سورة المُزمل: ١٩].

كلمة (تقوم) تُعطيك هدايةً بأنّ معنى القيام لا ينحصر في الصلاة فقط، وأروي عن سيّدي وقرّة عيني وأخي في الإرشاد سيّدي حضرة الشيخ طارق السامرائي طيّب الله تعالى روحه وذكره وثراه، ومن فمه الشريف إلى أذني، قال: أحيانًا أنهض من الليل، فلا أصلّي التهجد، قلت: لماذا؟ قال: أنبهر بجمال الله تعالى، أبقى جالسًا أشاهد جمال ربّ العالمين سبحانه وتعالى، فلا تبقى عندي قوّة لأنهض وأصلّي، وقصارى ما أفعله هو صلاة ركعتين.

قد يقول قائل: هؤلاء يقعدون ولا يُصلّون، عاجزون عن الصلاة! والجواب: إننا نصف حالًا مخصوصًا، وهو حال المحبّة.

﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾[سورة الشعراء: ٢١٨ ــ ٢١٩].

هل الساجد من يضع جبهته على الأرض فقط؟ فيكف بمَنْ وضع جبهته على الأرض ولكن فكره - نعوذ بالله تبارك وتعالى- عند ملذّاته ودرهمه وديناره؟

وسبق وأن ذكرتُ معاني السجود، ففي قوله تعالى: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾، ما قال: تُصلّي،

بل قال: تقوم، فكلّ نهوض مع انتباهةٍ إلى الله سبحانه هو قيام، هو مُجاهدة، نهوض مع

حضور، تتوضأ وتجلس متفكرًا في خلق السموات والأرض، فأنت قائم كما لو وقفت لربك جلّ وعلا وصلّيت ركعتين.

إذنْ: من مُواصفات الداعي أنْ يكون له قيامٌ في الليل، لماذا؟

لأنّ هذا نوع من المُجاهدة للنفس والجسد، النفس تدعوك لتنام في فراشك، لما في النفس من حُبّ الراحة والاسترواح، ولكنك خالفتها فنهضت، فهنيئًا لك بشارات الحديث الشريف:

(مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ، فَقَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الحَمْدُ لِلَّهِ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَلاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، أَوْ دَعَا، اسْتُجِيبَ لَهُ، فَإِنْ تَوَضَّأَ وَصَلَّى قُبِلَتْ صَلاَتُهُ) الإمام البخاري رحمه الله جلّ جلاله.

فمن قعد من نومه ـ حتى لو لم يُصلّ ـ فيُستحب له ذكرٌ مخصوص، والله سبحانه يستجيب، لأنّه قائم، إذنْ القيام: نهوضٌ مع حضور.

﴿ـــ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ـــ﴾، ليس الكلّ، وإنّما طائفة، والمعنى الظاهر أنّ هناك

مجموعة صلّوا مع سيّدنا رسول الله صلوات ربّي وسلامه عليه وآله وصحبه أو قاموا في الليل مع سيّدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه، ويُمكن أنْ تدخل فيها احتمالات كثيرة، فمثلا أمّنا السيّدة خديجة رضي الله تعالى عنها أو سيّدنا عليّ رضي الله تعالى عنه أو سيّدنا أبو بكر رضي الله تعالى عنه باعتباره أوّل الرجال إيمانًا، وربّما الرسول صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم قام من الليل في دار الأرقم رضي الله تعالى عنه، وهؤلاء الجماعة قاموا معه، هذا هو المعنى الظاهر، ولكن عندي هناك صور أخرى، فالمعيّة تتحقّق بمعيّة الجسد، وتتحقق بمعيّة الروح أيضًا، فكم من عبد من عباد الله تبارك وتعالى في أدنى الأرض كان يقوم مع الحبيب صلى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه، لأنّه يُشاهده في عالم الروح عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام، لأنه يعيش

معه، لأنّه عاشقٌ، دَنِفٌ، مُلهم، مُحبّ فهو معه، وقد ذُكر في مجلس أحد الصالحين رضي الله تعالى عنه أجمعين إنّ أناسًا يذهبون لزيارة النبيّ عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام، وكأنّهم يُعرّضون به لماذا لا تذهب؟ والرجل عفيف لا يُحبّ أنْ يقول لتاجر غني اعطِنِي مالًا كي أذهب للعمرة أو يذهب لشركة عمرة ليجعلوه مُرشدًا للرحلة، والله عزّ وجلّ يعلم صدقه، فرفع مكانته ومنزلته، فأنطقه سبحانه لا للرياء والسمعة - نعوذ بالله تبارك وتعالى- وإنّما لأجل التعليم والإرشاد، فقال لهم: الحمد لله والشكر إنّه أمامي، فأنا أزوره ليلَ نهار صلوات ربّي وسلامه عليه وآله وصحبه.

سبحان الله العظيم، أشربتْ قلوبهم بحبّه صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، فسرى بعض سرّه في عروقهم ودمائهم، فكانوا شاهدين له ومعه: ﴿--- وَطَآئِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ---﴾، ولا يعني أنّ هؤلاء كلهم بمعيّة جسدية مع خير البرية صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم وإنّما كان يُصلّي في بيته في أقصى مكة المكرمة، وسيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه في بيته، لكنّه مُجتمع معه في عالم الروح.

﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾، بعدما ذكر بعض المقادير أوكل العِلم الدقيق في معرفة الوقت على التحقيق إلى الله سبحانه وتعالى، ومن آثار هذا أنّكم لا تقدرون أنْ تُحصوا كم تقومون من الليل، ولم تكن عندهم حينئذٍ ساعات إلكترونية مثل ما عندنا الآن، فنِعم الله عزّ وجلّ علينا لا تعُدُّ ولا تُحصى، وفي وقتهم خاطبهم الله جلّ وعلا فقال:

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة النحل: ١٨].

فكيف بنا الآن!؟ كان أحدهم كي يعرف طلوع الفجر من عدمه يحتاج أنْ يجتهد، وربما خرج في البرد القارص، والحرّ الشديد ليعرف الوقت، فلمّا كانوا بهذا الحال اضطربت

قلوبهم قلقًا ومخافة من التقصير في استجابة دعوة ربّهم جلّ جلاله، فالله عزّ وجلّ رفع عنهم الحرج، وهنا بيّن لنا مَعْلَمًا آخرَ من معالم هذا الدِّين، وهو مَعْلَم رفع الحرج والتخفيف: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾، فنحن لم نُحصه، إذنْ نحن مقصّرون؟

كلا، فقبْل أنْ تقولوا نحن مُذنبون تفضلوا هذه شهادة التوبة: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾، يا سلام، فكم يُحبّهم ربّ العالمين! رضي الله تعالى عنهم، وكم يُحبّ الله تعالى مَنْ يتشبّه بهم ويقتدي بهم!

وفي قوله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾، أفهم المعنى الذي ذكرته لكلمة تقوم: فلم يقل فصلّوا ما تيسّر من الركعات، حتّى يُعطي مساحة أوسع للمعنى، لأنّ المقام مقام حُبّ، مقام روحانية، وليس مقام مادّة: دينار واحد، اثنين، ثلاثة، كلا، وإنّما هو مقام فضفاض، كلٌّ بحسب حاله ومقداره، فإنْ جاء أحدٌ ما يعتب على حضرة الشيخ طارق رحمه الله تعالى فيقول له: لماذا في بعض الليالي كنت قاعدًا، ولم تصلي التهجّد؟

نقول له: هو قاعد يذكر الله عزّ وجلّ، قاعد يقرأ القرآن الكريم، يُمكن أنْ نقول: ما تيسّر من ركعات الصلاة، وسُمّيت الصلاة قرآنًا لأنّ القراءة ركنٌ فيها، وهو من باب إطلاق الركن الأعظم على الشعيرة كلّها، كما قال سيّدنا الرسول صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه: (الحَجُّ عَرَفَةٌ) الإمام الترمذي رحمه الله عزّ شأنه.

فالحج ليس عرفة فقط، فيجب أنْ تطوف وتسعى، ولكن أطلق الركن الأعظم من الحج على الشعيرة كلّها، وكذا فهنا جعلها في مدى أوسع وأرحب وأيسر، وهذا من معاني:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[سورة البقرة: ١٨٥].

وقول الحبيب المحبوب صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه:

(يَسِّرُوا ولا تُعَسِّرُوا، وبَشِّرُوا، ولا تُنَفِّرُوا) الإمام البخاري رحمه الباري جلّ جلاله.

﴿ --- عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ --- ﴾ [سورة المزمل: ٢٠].

أؤكد بأنّي لا أفسّر القرآن الكريم وإنّما أذكر بعض ما أفهم منه؛ فعَنْ سَيِّدِنَا أَبِي جُحَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، قَالَ: (قُلْتُ لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ مِنَ الوَحْيِ إِلَّا مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ؟ قَالَ: لاَ وَالَّذِي فَلَقَ الحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا فَهْمًا يُعْطِيهِ اللَّهُ رَجُلًا فِي القُرْآنِ، وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، قُلْتُ: وَمَا فِي الصَّحِيفَةِ؟ قَالَ: العَقْلُ، وَفَكَاكُ الأَسِيرِ، وَأَنْ لاَ يُقْتَلَ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ) الإمام البخاري رحمه الباري جلّ وعلا.

أو فهمًا أوتيه عبد من عباد الله جلّ جلاله، فالإنسان يفهم من كلام الله تبارك اسمه، ولا يزعم أنَّ فهمه هذا تفسيرٌ، فالتفسير له أصوله وقواعده، فأما في دائرة فهم الإنسان فيقول: هذا بحسب فهمي، فإنْ كان صوابًا فمن فضل الله عزّ شأنه، وإنْ كان خطأ فمن نفسي، وأستغفر الله العظيم منه، وأعوذ بالله سبحانه من شرّ نفسي.

قلت: إنّ الله تبارك في علاه جعل قيام الليل مُطلقًا في أي جهد يبذله العبد مع حضوره مع ربه عزّ وجلّ، أي خير يفعله العبد ليلًا بعد الاستيقاظ من نومه أو حتّى لو لم ينم وهو قاصد بهذا الخير وجه الله تعالى، مُستحضرًا عظمة الله عزَّ وجلّ، فهذا يُعتبر من قيام الليل، لكن الصلاة لا تُسمّى تهجّدًا إلّا إذا نواها تهجّدًا، ولها أحكامها الفقهية كما لا يخفى، وهذا الجهد الذي يبذله العبد ليلًا هو صورة من صور تقوية الصلة بالله جلّ شأنه:

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [سورة المزمّل: ٦].

فإذنْ قد يكون سبيل العبد إلى ربه سبحانه من خلال القيام، والقيام يصح حتّى بين المغرب والعشاء، فبغروب الشمس يدخل الليل، ولذلك تقرأون أنّ بعض السلف كانوا يقومون بين المغرب والعشاء بست ركعات أو بثمان ركعات أو بعشرين ركعة أو بأكثر من ذلك، وهناك روايات بستِ ركعات تحديدًا، وهذه الروايات وإنْ كانت ضعيفة لكن بحسب رأي جمهور أهل العلم أنّ الرواية الضعيفة يُعمل بها في فضائل الأعمال، وهل هنالك فضيلة في الشعائر التعبدية بعد الفرائض أفضل من قيام الليل، بالتأكيد لا؛ لقول الرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه:

(وَأَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ، صَلَاةُ اللَّيْلِ---) الإمام مسلم رحمه المنعم جلّ وعلا.

لماذا أذكر السبيل؟ لأنّ الله تبارك وتعالى قال قبل ذلك:

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [سورة المزمل: ١٩].

فقد يكون سبيلك الأمثل بعد الفرائض هو قيام الليل، ولغيرك في التجارة ثم التصدّق والإقراض من أرباحها، كذا إمهال المُعسرين، وقد يكون السبيل لعبد آخر من حيث العلم ونشره وحفظه والتعمّق فيه إلى آخره، فهي كلها سُبل، وقد يقول قائل: ألم يقل رب العالمين:

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ---﴾ [سورة الأنعام: ١٥٣].

إذنْ هناك سبيل، وهناك سُبل، فـ (السبيل) بصيغة المعرفة، فتأتي ويُراد بها صُلبُ وأصول الدّين التي لا تتغيّر، كالعقائد والأخلاق فهي لا تتغير من دين إلى دين، فلم يقل أي نبيٍّ ـ عليهم الصلاة والتسليم ـ لا يُوجد حساب بعد الممات، فآمنوا بالله جلَّ جلاله وعمَّ نواله واعبدوه في الدنيا فهي حياتكم فقط.

فما يدخل تحت الأصول يُدلّل عليه بلفظ السبيل، فعندما تقول هذا تفرّق عن سبيل الله عزَّ وجلّ، أي بمعنى أنَّه غيّر في الاعتقاد، وهؤلاء هم المُبتدعة نعوذ بالله جلّ وعلا.

لم يقل الله تعالى: إنّ هذه تذكرة فمَنْ شاء اتخذ إلى ربه السبيلا، بل قال سبيلًا، وسبيلًا نكرة، والنكرة تدلّ على العموم، أيْ إنّ الله تعالى يُبيّن أنّ ما يتعلّق بالقُربات والشعائر، وما يتعلّق بغير الأصول الشرعية في العقائد قد تتعدّد الطرق إليها؛ لذلك قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة العنكبوت: ٦٩].

فهو سبيل أم سُبل؟ كلا، بل سُبل؛ لأنّ الله عزّ وجلّ قال: سُبلنا، أي الطرق التي تُوصلهم إلى مقام الإحسان؛ لأنّه ذيّلَ الآية الكريمة بقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

إذنْ هنا: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾، فأحدهم يرى الفرائض أقرب إلى نفسه، ورجل آخر آتاه الله تعالى القرآن فتجده في أكثر أوقاته يُعلّم أولاد المسلمين القرآن الكريم، وآخر مكّنه الله سبحانه في الأموال فيُنفق ويُعطي بحسب حاله مع الله جلّ في علاه، وقد لا يُصلّي السُنّة القبلية، ليس مُتعمدًا، فلا يقول لن أصلّيها، ولكن أحيانًا يُصلّي، وأخرى لا يُصلّي، يكتفي بالفرائض، فقد يكون مشغولًا بالتجارة وبأسفاره، إلى آخره، ولكن لمّا يأتي فيما مكّنه الله عزَّ وجلّ من الأموال فيا سلام! يقترب من ساحة سيّدنا أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه في بعض أحواله، ويقترب من ساحة سيّدنا الفاروق رضي الله تعالى عنه في بعض أحواله، فلربّما يُلزِمُ نفسه بثلث ماله كما جاء في الرواية:

(بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ، فَسَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ، فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ، فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ، فَإِذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ قَدِ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ، فَتَتَبَّعَ الْمَاءَ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الْمَاءَ بِمِسْحَاتِهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللهِ مَا اسْمُكَ؟ قَالَ: فُلَانٌ - لِلِاسْمِ الَّذِي سَمِعَ فِي السَّحَابَةِ - فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللهِ لِمَ تَسْأَلُنِي عَنِ اسْمِي؟ فَقَالَ:

إِنّي سَمِعْتُ صَوْتًا فِي السَّحَابِ الَّذِي هَذَا مَاؤُهُ يَقُولُ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ، لِاسْمِكَ، فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا؟ قَالَ: أَمَّا إِذْ قُلْتَ هَذَا، فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ، وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلُثًا، وَأَرُدُّ فِيهَا ثُلُثَهُ) الإمام مسلم رحمه الله جلّ جلاله.

إذنْ: سبيلًا هنا نكرة؛ لأنّه لا يُراد بها الأصول، وإنّما يُراد بها الأسباب التي تَرقى بالعبد إلى الله تبارك وتعالى، ومن أعظم أسبابها في الشعائر قيام الليل، إحياء الليل، فلو جلست مع زوجتك بنيّة أنْ تعفّ نفسك وتعفّ زوجتك وتخلّلتْ جلستكم مواعظ ولهو مُباح بالنيّة الطيّبة، صار نوعًا من إحياء الليل، صار نوعًا من الوسائل والسُبل التي تُقرّبك من ساحات المُحسنين بإذن الله رب العالمين جلّ جلاله.

إن الله تبارك وتعالى بيّن لنا من مُواصفات الداعي إنّه يتحيّن السُبل التي يقدر عليها، والتي ينساق معها، وسبحان الله فالأذواق تختلف فأحيانًا تجد طالبَ علم مُمتاز ما شاء الله عليه، وتقول له: يا أخي فيك خير وبركة، وصوتك جميل، قراءتك ممتازة، وعندما تخطب في المسجد فأنتَ خطيب مُفوّه ومُؤثر، وعندما تجلس على كرسيّ الوعظ ترتجف القلوب من وعظك، وتدمع العيون، فلماذا لا تلتزم مسجدًا؟!

يقول: سامحني أنا لا أقدر على هذا الأمر، يعني روحانيته - سبحان الله- والمُواصفات التي في داخله ما تنسجم مع هذا التشريف والتكريم، فيقول: سامحني، وإنْ كان هناك حاجة فيُمكن أنْ أساعد، لكنّي ذاهب إلى الجامعة أدرّس فيها، فصار سبيله إلى الله تبارك وتعالى التدريس بالجامعة، فلا بأس، وإذا صار سبيله إلى الله تبارك وتعالى في التجارة فلا بأس.

ومن فضله سبحانه أطلعهم على بعض الصفحات الغيبيّة؛ لأنّ السين داخلة على الفعل المُضارع ليدلّ على الاستقبال: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى﴾، فالإنسان يتمرّض، وهذا من عوارض الإنسانية، فكونه إنسانًا بشرًا في هذه المرحلة من مراحل الحياة الدنيا فلا عجب أن يمرض، وإنْ كان نبيًّا مُرسلًا، وقد ذكر القرآن الكريم صورًا من ابتلاء السادة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وهكذا ينبغي مراعاة تغير أحوال المُكلفين؛ قال تعالى: ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ﴾.

القرآن الكريم يرسم منهاج الدعوة إلى الله عزَّ وجلّ، كيف نكون دعاة إلى الله جلّ وعلا؟ كيف نُفكر للمستقبل؟ فعندما تُكلّف شخصًا، ادرس مُستقبله، ماذا تتوقع له؟

أنت مُطّلع عليه، فهو تلميذك مثلًا، تعرف إمكانياته، ربّما تعرف حتى نواياه ورغباته ، كأن يقول لك: بعد سنة سأفعل كذا، سأتزوّج مثلًا، أو بعد كم شهر سيأتيني طفل، فعندما تُكلّفه بأمر لابُدَّ أنْ تحسب حسابًا لهذا المُستقبل، فلا تقل أنا كلّفتك بهذه الوظيفة، وتبقى مُكلفًا بها دائمًا، كلا، فلابُدّ أنْ تكون فقيهًا بأحوال مَنْ تُكلّفهم، فكأنّ الله عزّ وجلّ يقول لهم: إنّي فرضت عليكم هذا القيام: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [سورة المزمل: ١ - ٢].

بعض المؤمنين اعتبروه في حقّهم فريضة، فرَبُّ العالمين جلّ وعلا أراد أنْ يُبيّن أنّه لا حرج في هذا الدّين، أراد أنْ يُبيّن بابًا من أبواب رحمته بخلقه سبحانه، فكشف لهم في المُستقبل أنّه إذا تمرّض أحدكم فهل يبقى يقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه.

كما سيكون في المُستقبل قتال: ﴿وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فكيف ستكون صلاتكم أثناء القتال؟ لم تُشرع صلاة الخوف بعدُ، ولكن يُريد الله تعالى أنْ يُبيّن لهم معالم هذا الدِّين، يُريد بيان أشياء مُستقبلية، يُفقههم في واقعهم، في واقع الحياة، حتى نكون نبهين، مُنتبهين، أذكياء، نُخطط، فمن أعظم أسباب فشل الأمّة هو ضعف التخطيط والجهل بالواقع وبالإمكانيات.

﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾، أي من القرآن الكريم، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾، نحن في بدايات ما أنزل، فلا تُوجد صلاة، وإنما فُرضت الصلاة ليلة الإسراء والمعراج، ونحن في المرحلة الثانية من سيرة الحبيب صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه، والأيام الأولى من الإعلان عن بعثته عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه أجمعين، وأفهم من هذا أنّه يُريد أنْ

يُبيّن لهم أنّه سيكون في الدّين صلاة مفروضة، وهناك زكاة ستُفرض عليكم، مع أنّي أعلم أنّ بعض المُفسّرين رحمهم الله تعالى قالوا: كانت هنالك صلاة ركعتين بكرة، وركعتين عشية، وكانت مفروضة، فهذا معنى وأقيموا الصلاة أي التزموا بهذه الصلاة، وكانت الزكاة مفروضة ولكن أنصبتها ما نزلت إلّا بعد قيام دار الإسلام، لكن الزكاة بشكل عام تعني أن تُخرج شيئًا من مالك قلّ أو كثر، فهذه كانت فريضة، سواء أخذنا بهذا أو بهذا، فنحن نفهم من هذه الآيات أنّ الله تبارك اسمه يُبيّن لنا معالم هذا الدِّين الذي ندعو إليه، وبعض معالم هذا الدّين الذي ندعو إليه ستدخل ضمن النقطة الثانية.

إذنْ هذه كلّها تُقوّي الصلة بينك وبين الله سبحانه، إلى قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ كعبادات محضة، تُقيم العلاقة بينك وبين الله تعالى بشرائطها، بآدابها، بأركانها وهكذا.

بعد ذلك قال ربّ العالمين ﷻ: ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، وهنا انتقل إلى غرس البصمة في المجتمع، فذكر أهمّ وأقوى بصمة في الحياة بعد تقوية الصلة الرّوحانية بالله تبارك وتعالى والدعوة إليها في المجتمع، هو الجانب المالي، يا سبحان الله، ولهذا دائمًا أقول: لستُ مع الذين يقولون "الدنيا جيفة وطلّابها كلاب"، مع احترامي إذا كان هذا القول نُسِبَ لساداتنا، فإذا ثبتت النسبة فإني أفهمُ منها أنّهم يقصدون مَنْ يعبد الدنيا، ولا يقصدون مَنْ يستخدم الدنيا، فالذي لا يستخدم الدنيا مُقصّر في أمر الله تبارك وتعالى، ولكن الذي يخدم الدنيا، ويكون عبدًا لها فهذا هو المسكين الخاسر.

﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، هنا يبرز معلم لهذا الدّين، وهو العناية بالمال، فالمال عصب الحياة، فلذلك أنزل ربّ العالمين جلّ وعلا أحكامًا كثيرة في الكتاب والسُنّة تتعلّق بالمال، فالمال مُحترم، فماذا نُريد أنْ نقول عن قدسية المال واحترام المال أكثر من أنْ نُبيّن وننقل ما قاله الحبيب المصطفى صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه:

(مَنْ قُتِلَ دُوْنَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيْدٌ) الإمام البخاري رحمه الباري سبحانه

الله أكبر! تُدافع عن أرضك ومالك، فإذا تمكّن منك الخصم فقتلكَ فأنت شهيد عند الله عزَّ وجلّ! يا سلام، نحن نعرف الذي يُدافع عن الدِّين شهيد، والذي يُدافع عن المال شهيد أيضًا!

نعم، نعم، الذي يُدافع عن المال شهيد بقول الحبيب عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه أجمعين، وهذا نصّ واضح جدًّا يختصر لك كلّ ما وردَ من أحكام تتعلق بالإنفاق، والبيع والشراء، وبالمعاملات المُنسجمة مع الشرع الشريف، والمعاملات المُخالفة له، واقرأ بالفقه أبواب البيع، وأبواب الكفالة والوكالة والصرف والحوالة، وأنواع البيوع، فهذه كلّها تبرز معالمها هنا، فهذا الدّين لا يُعنى بتقوية الصلة الروحية، وزيادة إشراقات وطاقات الروح فحسب، وإنّما يُعنى أيضًا بإشراقات المادة، فلابُدّ لحياتكم الماديّة أن تكون ناصعة، كاملة ومُؤثرة، إلى متى نمدّ أيدينا لأعدائنا، يُقرضوننا أو يتصدّقون علينا، ولماذا؟

أين قدراتنا؟ ألسنا بشرًا؟ أليستْ لنا عيون وعقول؟ أليست لنا أراضٍ؟ أليستْ لنا عيون ماء وآبار وأنهار؟!

فإذنْ: الجانب الماديّ مهم جدًا، والعناية بالترتيب الماديّ ضروري جدًّا، ومن هنا ذكرت لكم كيف أتاني سيّدي حضرة الشيخ قُدِس سرّه يسألني، وكأنّه يُحاكمني، يسألني أعندك قطعة أرض؟ قلت: لا سيّدي ما عندي ـ بالمحصلة ما عندي بيت ـ فقال قُدِسَ سرّه: لا يجوز يا ابني، هل تتكئ على بيت الجامع؟ إيّاك، فما أيسر أن يُخرجوك منه، وعندما يُخرجوك لا تقل بيت الوالد موجود، سآخذ أهلي هناك، فلا يجوز شرعًا أنْ تُكره زوجتك بالعيش في بيت والدك، فمن حقّ الزوجة أنْ يُهيئ لها زوجها سكنًا مُستقلًا خاصًّا، نعم لا قدّر الله إذا أخرجوك من بيت المسجد تقدر أن تأخذهم إلى بيت الوالد لبضعة أيّام، أسبوعًا، أسبوعين على الأكثر، يُباح لك ذلك لأنّك مُضطر، لكن بعد ذلك لابُدّ أنْ تُجاهد لأجل أنْ تجد سكنًا ولو بالإيجار.

انظروا كيف يعتنون بهذا الجانب، هؤلاء هم الذين يُحيون الدِّين، يُحيون ما انطمس من الدِّين، أما غيرهم فكم كنا نسمع منهم يُحدثوننا عن الزهد وترك الدّنيا، لا تأكل شيئًا، والبَس مُرقّعًا، وكذا وكذا إلى آخره، وإنّي لأشمّ من خلف هذه الدعوات رائحة كريهة مصدرها أعداء الإسلام، يستغفلون المُسلمين، والحق أن الزهد عمل القلوب، والكسب عمل الجوارح، وما أجمل وأكمل من أن يكون المُسلم غنيًا زاهدًا؛ فتجتمع وتكتمل عنده جانب الصلة بالله تعالى، وجانب تعمير الأرض بامتلاك مواردها، ولذا فكيف كانت الأمور تنسجم مع سيّدنا الرسول صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه لولا مال السيّدة خديجة رضي الله تعالى عنها، لولا أموال سيّدنا أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، صدّيق الأمّة، وسيّدنا عبد الرحمن بن عوف، وسيّدنا عمر، وسيّدنا عثمان رضي الله تعالى عنهم.

عشرات النصوص تمدح الإنسان القوي بإيمانه وبماله، القويّ بإمكانياته، كم من النصوص التي تدفع الأمّة لاستثمار طاقاتها، تُغري الأمّة بأنْ تغزو حتى الفضاء، قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [سورة سيّدنا نوح عليه السلام: ١٥].

لماذا نُؤول ونقول: رؤية عقلية؟ هو يقول لك ممكن أنْ ترى، لكن كيف ترى؟

هيئ الأسباب؛ وهل ذمَّ الله عزّ وجلّ سيّدنا ذي القرنين رضي الله عنه أم مدحه؟ بل مدحه، وذكر لنا قصّته، حتى نتعلّم كيف نستثمر الطاقات، ناس مفتولو العضلات أقوياء أشداء، لكنّهم لا يعرفون كيف يُدبّرون أمورهم، فحرّكهم: آتوني زُبر الحديد، ما قال أنا مُتمكّن وسأبني لكم السدّ، كلا، بل شغّلهم حتّى يستثمر الطاقات الموجودة عندهم.

فحينما نتكلّم عن تقوية الصلة، وعن الارتقاء بالرّوحانية، لا يعني أننا نترك الجانب المادّي في الحياة، كلا والله، وإنْ شاء الله كلّ أحبابي يغدو غنيًا، لكن فيما يُرضي ربه سبحانه من حيث التمكّن والغنى والثراء.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾

يا سلام، هذا أرقى، وأجلّ وأعظم من أي إنفاق؛ لانّ القرض الحَسن فيه مكاسب عظيمة جدًّا، فإذا كان المال لديك، ولست بحاجته فأعطه أخاك بدلًا من ايداعه في البنوك ثم يأتي السُرّاق العالميون هم وأزلامهم فيضعون أيديهم على أموالكم، فخير لك أن تسحب هذه الأموال وتقول لأخيك: تعال يا فلان أنت شاب لا عمل لك، تفضّل هذه قطعة أرض، اذهب وابذر فيها، تفضّل هذا مبلغ اشتر به سيارة واعمل بالأجرة أو شاب درس الطبّ أو الصيدلة وليس عنده مال، تفضّل هذا مال فاذهب وافتح صيدليّة، وعندما يمكّنك ربّ العالمين رُدَّ إليَّ مالي، تعاقد معه حتّى لا تُشجّعه على البطالة ومَدّ اليد للآخرين، فيقول الشاب بدوره: نعم سآخذ هذه الأموال دَيْنًا برقبتي، يا زوجتي الحبيبة فلنقتصد، لنُرتّب أوضاعنا المادّية حتّى نُرجع الحقوق لأهلها، فهؤلاء أناس وقفوا معنا، أحذيتهم على رؤوسنا، لولاهم ما كنّا لنقدر أن نشقّ طريقنا في الحياة، ونبني مستقبلنا ومستقبل أطفالنا.

فأنت بهذه الحالة شجعته على العمل، ربّيت فيه الأمانة والشعور بالمسؤولية، دفعتَ هذه المعاني إلى أسرته، فوقفت زوجته معه، وإذا كان أولاده مُميزون فسيقفون معه يُساعدونه في الحقل والأرض، ليفكّوا الدَّيْن الذي عليهم.

فالقرض آثاره إيجابية في نفس المُقرض وفي أسرهما، وفي دفع عجلة الاقتصاد نحو الأمام، وتحريكها نحو الارتقاء والنماء والاستثمار، لذلك قال الرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم:

(رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ مَكْتُوبًا: الصَّدَقَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَالْقَرْضُ بِثَمَانِيَةَ عَشَرَ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ مَا بَالُ الْقَرْضِ أَفْضَلَ مِنَ الصَّدَقَةِ؟ قَالَ: لِأَنَّ السَّائِلَ يَسْأَلُ وَعِنْدَهُ، وَالْمُسْتَقْرِضُ لَا يَسْتَقْرِضُ إِلَّا مِنْ حَاجَةٍ) الإمام ابن ماجه رحمه الله جلّ ثناؤه.

هذا جانب الحسابات الماديّة وهو جانب مهم، والجانب الأرقى صلتك بالله عزّ وجلّ، ما قال: أقرضوا إخوانكم، أقرضوا المُحتاجين، أقرضوا الفقراء، وإنّما نسب القرض إليه سبحانه حتّى يُعزّز مكانته في قلبك أيّها المُسلم، أيّها المُؤمن، وأقرضوا الله، فأنت عندما تُعطي قرضًا لأخيك المُسلم فأنت تُعطيه لله عزَّ وجلّ، قال: وأقرضوا الله، ولا يقولنّ قائل المعنى: اصدقوا، أي اجعلوا النيّة لله، لا، فهذه بديهة، فالإخلاص روح العمل، ومن دونه لا يُقبل العمل، ولكن قال: اقرضوا الله، فالذي يُعطي أنتم، والذي يأخذ هو الله جلَّ جلاله، سمّاه قرضًا حسنًا، من الحُسن، وهو من الجمال والكمال والرقة؛ وربّما هذه المعاني كلّها تدخل تحت عباءة الحُسن، والحُسن هنا جزئيات في المجال الماديّ، وقبلها كانت جزئيات روحية جمالية من قيام الليل وتلاوة القرآن الكريم، فهذه كلّها تنطوي تحت كليّة عامة شاملة جامعة وهي كلية الخير، فهذه كلّها صورٌ من صور الخير؛ قال عزّ شأنه:

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ [سورة المزمل: ٢٠].

سواء أكان هذا الخير كلمة طيّبة، حنانًا، شفقة، رِقة استشعر بها المُقابل حُبًّا، إجلالًا، تكريمًا، تعظيمًا، صدقةً، زكاةً، صلاةً، ذكرًا، تسبيحًا.

ومنذ البدايات فالله عزّ وجلّ بيّن لكم أنّه لا يُوجد بدعة في الجزئيات، طالما تدخل تحت (من خير)، وهذا من الخير، وفي دائرة من "أَمْرِنَا"؛ فلا يحتج أحدٌ بقول النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم:

(مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدّ) الإمام البخاري رحمه الله جلّ جلاله.

فهذا من أمر الله تبارك وتعالى، ينبغي أنْ تقدّم هذا الخير لنفسك، صحيح أنت تعمله لربّك، ولكنك منْ يستفيد، فالله عزَّ وجلّ غنيّ عن عباده، وهنا أكّد منذ البداية، في بداية ما أُنزل،

في ثاني سورة أو ثالث سورة نزولًا قال: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾، ما قال: ما تفعلوا أو وما تؤدوا، بل ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا﴾ بمعنى: أيّها المُسلم انظر أمامك، وقدّم لمُستقبلك:

﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [سورة الحشر: ١٨].

لماذا؟ لأنّه بناء المُستقبل، فالتخطيط للمُستقبل من أسس هذا الدِّين، وقدموا لأنفسكم حتّى في الزواج، في كلّ حركة حياتك، كلّها تقديم للأمام، عمّر ما أمامك، عمّر قبرك، عمّر موقفك حين تخرج من قبرك، فأين سيكون محلك؟ في ظلّ عرش الرحمن سبحانه أم ـ نعوذ بالله تبارك اسمه ـ في الشدائد والأهوال والظلمات؟

قدّم وفكّر للمُستقبل، فكّر في البناء الحضاري على هذه الأرض، فكّر بمأواك بعد الانتقال من الأرض، ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾، ومن للتبعيض، ويَصح بيانًا، بمعنى بيان أنّه يُقدم خيرًا، ولا يُقدم شرًّا، نعوذ بالله تبارك وتعالى، وما النتيجة؟

النتيجة في قوله تعالى: ﴿تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [سورة المزمل: ٢٠].

إذنْ عمل الخير من شخصية الداعي، ومن معالم هذا الدِّين ـ النقطة الثانية ـ أنّه يدعو للخير، ومن معالم هذا الدِّين أنّه يُؤسس للإيمان بالبعث بعد الموت، بالحياة في القبر، بجنّة نسأل الله سبحانه أنْ يجعلنا جميعًا من أهلها، ونارٍ أعوذ بالله جلّ وعلا منها.

وهكذا تظهر معالم هذا الدِّين، ولو أنّ الناس عملوا بهذا المنهاج فكيف سيكون وجه الحياة؟ أكيد سيكون وجه الحياة مُشرقًا، سيكون كما في زمن سيّدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه، فلا يُوجد فقير ليُعطوه الزكاة، لا يُوجد مظلوم، فقد رُدت المظالم للنّاس، وهكذا فالحياة مُشرقة مُضاءة، حياة الرحمة والمودة والعطف.

بعد ذلك يرجع لقضية خطيرة جدًّا، فلا تظن بأنك مضيت في تقوية الصلة بالله تبارك في علاه، وفي تقوية الصلة بالمجتمع، وارتقيت فيها مراتبَ وأنتهى الأمر؛ فلا زلت مُخطئًا، لا زالت العيوب فيك، وما زلت مُذنبًا، فلذلك يجب عليك مع هذه الأعمال العظيمة أنْ تستغفر الله جلّ جلاله: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة المزمل: ٢٠].

حتّى لا تأخذك نفسك، حتى لا تكتفي بما وصلت، كلا، بل ترنوا لما هو أسمى وأرقى.

سمعني أحد الأحباب حفظه الله تبارك وتعالى أقول: يا أرحم الراحمين ارحمنا وأوصلنا إليك، فقال أسمعك تُكثر من هذا الدعاء، ألَم يصل المُرشد إلى الله عزَّ وجلّ؟

بالتأكيد فالمُرشد هو الإنسان الذي مَنّ الله تبارك وتعالى عليه بالوصول، جعلنا الله جميعًا من أهل الوصول، بجاه سيّدنا الرسول صلى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه الثقات العدول، ولكن هل هذا يعني أن درجات مقام الوصول مُحدّدة؟ وأنّه أخذها كلّها؟

كلا، يبقى العبد مُحتاجًا إلى الله عزّ وجلّ القائل:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [سورة فاطر: ١٥].

نعم المُرشد وصل إلى الله عزّ شأنه، والحمد لله ربّ العالمين، وأسأل الله عزّ وجلّ أنْ يمنّ على الجميع بالوصول إليه جلَّ جلاله وعمّ نواله، ولكن هنالك مراتب في الوصول، كما أن في الوصول مخاطر أيضًا، وفي الوصول ما يليق بالمقام، فهناك تقصير، وهناك خلاف الأوْلى، ولا ندعي العصمة معاذ الله تعالى، فلذلك قال: واستغفروا الله، يا مَنْ تقومون الليل، يا مَنْ تُقيمون الصلاة وتُؤتون الزكاة وتُقرضون الله قرضًا حسنًا وتُقدّموا لأنفسكم من الخير ما مكّنكم الله عزَّ وجلّ فيه، يجب أنْ تستغفروا الله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وهنا تظهر مُواصفات الداعي أيضًا، فالداعي دائم الاستغفار، كيف لا وهذا وصف حبيبهم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، فعن سَيِّدِنَا أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ:

(أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: وَاللَّهِ، إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ وَأَتُوبُ فِي كُلِّ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً) الإمام أحمد رحمه الفرد الصمد عزّ شأنه.

وفي رواية أخرى عَنِ سَيِّدِنَا عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا قَالَ:

(إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِائَةَ مَرَّةٍ: رَبِّ اغْفِرْ لِي، وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) الإمام أبو داود رحمه الغفور الودود جلّ ذكره.

كي لا تأخذك نفسك أيّها العبد وتهوي بك في مُستنقع العُجب والغرور فتقول أنا مُرشد، أنا عالم، أستغفرِ الله، استغفر، نعم استغفر الله عزّ وجلّ كثيرًا.

وهناك معنى روحي لطيف جدًّا، وهو أنّ ربّك سبحانه غفور رحيم، وغفور اسمٌ من أسماء الله جلّت صفاته، واستغفروا فيها حروف كلمة الغفور، فكأنّ الله جلّ جلاله دلّك على وسيلة من وسائل محبّته، ومن وسائل الارتباط به، حتى لو لم تكن عندك ذنوب، استغفر، وهكذا نفهم استغفار الرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، فاستغفاره تشبّثٌ بسبيل من سُبل المحبة لله تبارك وتعالى، والحضور معه سبحانه، والاستكانة إليه عزّ وجلّ، والتطلّع لرحمته جلّ في علاه، فإذا شعر العبد أنّه استغنى - نعوذ بالله تبارك وتعالى- فقد طغى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾[سورة العلق: ٦ - ٧].

فلاحظ الارتباط القويّ بين المَعْلَم الأوّل في الآية الأولى: يا أيّها المُزمّل صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، قم الليل إلا قليلًا، قوّة الصلة بالله تبارك وتعالى على أساس الحضور بين يدي الله سبحانه، وبين آخر السورة: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

هذا هو السبيل لغفران ربّ العالمين تقدّست أسماؤه، هذا هو السبيل لمحبّة الرحيم جلّ جلاله وعمّ نواله.

إذنْ هذه السورة رسمت معالم المرحلة الثانية من حياة سيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه، وهو قدوتنا، فهي معالم لنا إن اخترنا أنْ نتخذ إلى الله سبحانه سبيلا، وهذا السبيل هو سبيل الدعوة إلى الله عزَّ وجلّ، تُريد أنْ تكون داعيًا إلى الله تعالى خذ هذا السبيل، تعلّم هذه المعالم، ادرس هذه الكليات، ولا يكفي هذا بل لابد أن تتفاعل معها اعتقادًا والتزامًا وسلوكًا وآثارًا.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ [سورة يس: ١٢].

لا زلنا في هذه المرحلة، مرحلة إعداد الداعي، ولكن هذا الداعي لبروزه وإشراقاته بهذا الشكل صار منارًا لكلّ طيب، لكلّ صاحب فطرة نقيّة، لكلّ إنسان يُريد أنْ ينجوا من الظلمات، وهذا التعلّق صار مُباشرة من دون أيّ مُنازعة، من دون أيّ مُحاورة ولا جدال أو نقاش، فمُباشرة دخل وتمسّك بهذا النور.

اجعل هذه السورة أمامك، وخذ زادك منها، خاصة في هذا العصر الذي فقدنا فيه دار الإسلام، نحتاج إلى الإعداد المُنضبط القويّ، الإعداد الذي يستطيع به أنْ يتحمّل أعباء الدعوة إلى الله جلّ في علاه، بحيث عندما يُقال لك: اترك مكانك هذا واذهب إلى المكان الفلاني تقول: سمعًا وطاعةً وحبًّا وكرامةً أو يُقال لك: اترك أموالك ووظيفتك واذهب إلى المكان الفلاني، تقول: الله! ما أحلاه! يا سلام! لقد جاءني الخير والنور والسرور والفرج؛ فقد اختاروني مع أني لست أهلًا لذلك؛ فالحمد لله تعالى، ؛ ولا تقول: كيف أنتقل فهذا راتبي، وهذه أرضي، وهؤلاء أولادي، هذا كلّه معناه أنّ هناك قصورًا في الإعداد والتربية.

مُجمل تعريف الدعوة إلى الله سبحانه أو وظيفة الداعي: إخراج النّاس من الظلمات إلى النور، وعدد البشر الآن أكثر من ثمانية مليار نسمة، فكم نسبة الذين هم في ظلمات الإلحاد والشرك والغفلات؟ كثير جدًا؛ فمَنْ يتحمّل مسؤولية أولئك المساكين؟

أنت بقدر ما تستطيع ينبغي أنْ تُوصل النور الذي عندك، وإنْ قصّرت فأنت مسؤول أمام الله عزَّ وجلّ، ولماذا الدعوة إلى الله جلّ وعلا معناها إخراج الناس من الظلمات إلى النور؟

سبحان الله العظيم تشرّفت بكتاب الله عزَّ وجلّ، ففتحته وإذا بسورة سيّدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، لماذا لم تظهر لي سورة البقرة؟ أو سورة العنكبوت أو النمل؟

سبحان الله العظيم، إنه تقديرٌ حكيمٌ؛ فسبحانه من لطيف خبير، فإذا بي أتفاجأ بالآية الأولى وفيها يقول الله سبحانه وتعالى لسيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم:

﴿الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [سورة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ١].

اللام للتعليل، لتُخرج الناس من الظلمات إلى النور، وقد يقول قائل: اللام للعاقبة، نعم المعنى ذاته، فأنت عندما تنشر معالم هذا الكتاب وتدعو إليه فيُؤمن الناس به تكون عاقبة ذلك أنَّ الحياة ستكون مُنوّرة، فيخرجون من الظلمات إلى النور بإذن ربّهم إلى صراط العزيز الحميد؛ فقلتُ بما أنّ الله تعالى فتح عليَّ، فدعني أكمل السورة، فوصلت الآية الخامسة:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سورة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ٥].

حتّى نفهم خصائص ديننا، فمن خصائصه أنه جاء لعموم الناس، فلمّا كان الخطاب لخير الناس صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، ولخير الخَلق بأبي وأمّي ونفسي هو عليه

الصلاة والتسليم وآله وصحبه، قال له: لتُخرج النّاس من الظلمات إلى النور، ورسالة سيّدنا موسى عليه الصلاة والسلام خاصّة لقومه، فقال له: أنْ أخرج قومك من الظلمات إلى النور، وبالتالي فإنّ مسار وغاية الدعوة لجميع الأنبياء عليهم الصلاة والتسليم هي إخراج النّاس من الظلمات إلى النور.

إن قسمًا من السمات التي ظهرت في المرحلة الثانية هي امتداد للمرحلة السابقة، لأنّ موضوعه الصلة بالله عزّ وجلّ، وموضوع الروحانية بدأت وظهرت منذ نعومة أظفار سيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه، بفطرته النقيّة، وصفائه، واختيار الله جلّ في علاه واصطفائه له، وعناية ربّ العالمين سبحانه بحضرته عليه أفضل الصلاة وأتمّ السلام وعلى آله وصحبه الكرام، وهذه ستمتد في كلّ المراحل، لأنّ الروحانية روح التشريع والتكليف، فلا تكليف ولا ارتقاء ولا تأثير لمَنْ لا روح له، فموضوع الروحانية موضوع مُتصل في كلّ المراحل، سواء في هذه المراحل الثلاثة التي اخترتها أو مراحل أخرى ربّما نحتاج إليها، ونتحدّث عنها في وقت آخر.

فهذه السمة إمّا أنْ تكون فطرية، يعني: أنَّ هناك صفاءً ونقاءً في الفطرة، كما في قوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ---﴾ [سورة الروم: ٣٠].

وكما بيَّن سيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه ومَنْ والاه في قوله الشريف: (كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ ---) الإمام البخاري رحمه الباري سبحانه.

فالإيمان ليس جسمًا غريبًا في الكيان الإنساني، وإنّما الإيمان من أهم مُكونات هذا الإنسان، فهو مُستقر فيه، نمى مع نموه، وليس هذا من باب الخيال والأساطير، وإنّما الأدلة عليه وافرة في الكتاب الكريم، والسُنّة النبوية المُطهرة.

فبالتالي الإيمان ليس جسمًا غريبًا في الكيان الإنساني، بل هو عنصر أصيل مُتجذّر في أعمق نقطة يُمكن أنْ تتخيّلها فيه، لذلك فالمؤمن ينسجم مع فطرته وتكوينه، بينما الكافر

يعيش مُضطربًا قلقًا غير مُنسجم لا مع ذاته ولا مع الأكوان، لأنّه يظهر عكس ما في داخله، فهو يستر الإيمان الذي في داخله، ومن هنا فمن معاني الكفر: الستر، فكَفَرَ بمعنى: سَتَرَ، ستر هذه الفطرة النقيّة، ستر إيمانه الفطري بربِّ البرية سبحانه، فهذه النقطة المهمّة العظيمة التي تُجسّد أصل الإيمان، ومُمكن بعد ذلك أنْ تنبني عليها جزئيات أخرى.

في بداية السبعينات كنتُ مُسافرًا إلى شمال العراق في حافلة تسع (١٨) راكبًا، وكانت هناك وقتئذٍ حركة قوية تدعو إلى الإلحاد، هم شيوعيون من الناحية السياسية، ومن ناحية ثقافية يسمّون أنفسهم: أهل المعرفة، فيقولون: نحن مُثقفون، يعني أقرب إلى ما يُسمّى بالعلمانية، وكان قولهم: نحن لا نُؤمن إلا بما نرى، والدّين أفيون الشعوب، إلى آخرها من هذا الكلام المُضلل، وكان هؤلاء يعتنون بهندامهم غالبًا، ويُركزون على العناية بمظهرهم على أساس أنّهم مُثقفون، وغيرهم ليس كذلك، فقدّر الله عزّ وجلّ أنّي كنت أرتدي العمامة لأوّل مرّة، وقُدّر لي أنْ أجلس في مقدمة الحافلة، وجلس خلفي اثنان من أولئك النفر المُضلل بهم، فسارت السيارة، وبينما نحن في الطريق قبل محافظة كركوك بقليل، أرادوا أنْ يستفزوني، فبدأوا يتكلمون فيما بينهم بصوت مسموع، والسيارة كانت مُمتلئة: الدِّين خُرافات، وهكذا كلام ـ أستغفر الله العظيم ـ وأنا شاب صغير، وبحُكم قلّة الخبرة أو ليقضي الله سبحانه أمرًا كان مفعولًا، أخذني الحماس، فقلت لهم: هذا الكلام غير صحيح، الإيمان فطرة في الإنسان، مهما أخفاه فإنه سيظهر خاصّة في الشدائد، وسبحان الله، في تلك الفترة، في بداية الدراسة كنّا نقرأ أن الإيمان فطرة في النفس، وما الفطرة؟

الفطرة: هيئة في الكيان الإنساني، لو تُركت من غير مُؤثرات لنشأ الإنسان مُوحِّدًا مُؤمنًا بالله ربّ الأرض والسماوات جلّ جلاله، لكن تأتي المُؤثرات السلبية فتغيّر مسار الفطرة الإنسانية كما قال سيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه:

(كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَثَلِ البَهِيمَةِ تُنْتَجُ البَهِيمَةَ هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ) الإمام البخاري رحمه الله جلّ ثناؤه.

ما أراد حضرة النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم أنْ يحصر الوسائل السلبية في الأبوين فقط، لكن ضرب مثلًا، فالإنسان مُلتصق بأسرته فطرةً، والأسرة هي المُؤثر الأوّل، يعني: الكثير من النّاس عاشوا في الأسر، لكن ما دخلوا مدارسَ أو جامعاتٍ، كثير من النّاس عاشوا في أريافهم وقُراهم، مع أسرهم وعشائرهم، ما سافروا إلى بلدان أخرى حتى تأتيهم تأثيرات خارجية، أما الأبوان فهما الأكثر تأثيرًا، والرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم لمّا ذكر الأبوين لا يُريد أنْ يحصُر الجهات السلبية التي تُؤثر على الفطرة الإنسانية بالأبوين؛ فالمُؤثرات كثيرة، لكن أقربها وأكثرها تأثيرًا الأبوان.

المُهمّ صار كلام على هذا النحو، فهم احتَدّوا مع قهقهات وضحكات، وأنا تفاعلت وأحمّر وجهي، فسبحان الله العظيم في هذه الأثناء انفجر إطار السيارة الأمامي، وكان الطريق مُرتفعًا عن جانبيه مترًا أو أكثر، ولكن كان هناك بفضل الله تعالى مساحة بعُرض مترين تقريبًا بمُوازاة الشارع مفروشة بالحصى الناعم، وبعد المترين مُباشرة يأتي ذلك المُنخفض القوي، أما تقنية السيارات حينئذٍ فقد كانت ضعيفة، ومواصفاتها بسيطة، وغالبًا ما تكون في الأصل مُتعبة، وهنا السائق المسكين أمسك بالمقود مُحاولًا السيطرة على اتجاه المركبة لكنّه لم يستطع، فانحرفت السيارة وخرجت إلى الرصيف ونزلت بالحفر، وبدأت ترتفع إلى الأعلى وتضرب الأرض، فو الله يا أحبتي، قبل كلّ الرُكاب صاح أولئك الشباب الذين كانوا يقولون قبل دقائق: إن الله ليس موجودًا - أستغفر الله العظيم ـ فناقل الكفر ليس بكافر ـ يا الله، يا الله، يا رب سترك، يا حافظ، وبعد دقائق، استقرت السيارة في حفرة، وتوقفت بفضل الله عزَّ وجلَّ، وهنا لم أسرّها في نفسي، فمُباشرةً قلتُ لهم: ها أنتم أكثر النّاس، وأوّل النّاس تشبثتم بالله تبارك وتعالى، فهل رأيتم؟ هذه هي الفطرة التي كُنتم تُخفوها، تضغطون عليها، تستروها، الآن انطلقت، انطلقت بشعاعها، بضيائها، بقوتها، بازدهارها، قالوا: والله ما قلته صحيح، ونحن مُخطئون، وها نحن من الآن تائبون على يديك.

فإذنْ نحن لمّا نتحدث عن المرحلة الأولى، الفطرة بنقائها وصفائها، ثمّ زيدت نقاءً وصفاءً بفعل الله تبارك اسمه، وحُفظت من أنْ تنخرم وتنخدش بأفعال قبيحة غير لائقة، وتزداد تألقًا وصفاءً بزيادة من الله تعالى القائل: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [سورة الشرح: ١].

فشرح الصدر، يعني العناية بالحبيب صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه، ثمّ ازدادت تألقًا لمّا دخلنا في المرحلة الثانية، حيث جاء الفعل من النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم أيضًا، بالإضافة إلى فعل الله جلّ وعلا، وقلنا هنا الفاعل مجهول ـ جاء الفعل مبنيًّا للمجهول ـ أنا أعيد هذا الكلام لضرورته ولأهمّيته ـ وبالتالي حُبِّب إليه الخلاء.

إذنْ انظروا إلى هذا النور، وهذا المَعْلَم النوراني القائم، ولابُدّ أنْ يتوهج أكثر، ويتوقّد أكثر، ويزداد صفاءً وجلاءً أكثر، فيا أيّها الداعي انتبه لهذا الأصل، إيّاك أنْ تخرم فطرتك بما يُضمِر ويُضعِف ضوئها وتألّقها، إيّاك أنْ تُقصِّرَ في الأسباب التي تَزيدها جلاءً وصفاءً، فقد أتمّ الله سبحانه عليك النعمة، وبيّن لك المنهج، ثم جاء الأمر الرباني بعد ذلك في قوله عزَّ شأنه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [سورة العلق: ١].

فبالقراءة يزداد الإنسان نورًا وصفاءً، بشرط ألا تكون قراءة مبتورة عن الصلة بالله جلّ في علاه أو تكون قراءة لأجل القراءة فقط، أو لأجل أنْ نُماري به النّاس، كلا، بل لأجل الإكرام قال عزَّ وجلَّ: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [سورة العلق: ٣].

فلابُدّ من القراءة لأجل التكريم، ولأجل الإكرام، فتُكَرَّمَ أيّها القارئ، وتُكْرِمَ غيرك أيّها المُعلم، وتزداد إكرامًا أيّها المُتعلّم، فانظروا فضل العلم والعلماء والتعليم.

استأذن أحد طلابي الذين كنت أخدمهم في البحرين، فخرج من المُحاضرة لحاجة ثم عاد، فلمّا رجع، قمتُ له، وهذا القيام يُعد غريبًا في الخليج، إذ يعتبروها نوعًا من الرهبانية ـ نعوذ بالله تبارك وتعالى ـ أو من الأعراف الأعجمية، وهذا الجانب من الثقافة ضعيف عند

أغلبهم، ومع الأسف لا تراه إلّا في مجال كرة القدم أو السياسة، فهم يقومون ـ ليس على أقدامهم بل على رؤوسهم ـ لهدف في لعبة كرة القدم، كذا إذا عُزف السلام الأميري أو الجمهوري، ولا يقولون عن كل ذلك بدعة أو حرام أو عبودية لغير الله عزَّ وجلَّ، لكن إذا قُمت لوالديك يعتبرونها شيئًا خارجًا عن الدِّين نعوذ بالله تبارك وتعالى، فالمُهمّ قمتُ لهذا الطالب، فاستغرب الحضور، وكنت أقصد ما فعلت، فقد كنتُ أدربهم وأعلمهم وأنورهم، إنْ شاء الله تعالى، فقلتُ لهم: هذا طالب علم، وطالب العلم يحترمه ويُوقره ويُجلّه ويُكرمه خيرٌ منّي، فقالوا: مَنْ؟ قلتُ: الملائكة عليهم السلام، فهذا حديث صحيح جاء عن سيّدنا النبيّ الفصيح صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم:

(وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضَاءً بِمَا يَصْنَعُ) الإمام البيهقي رحمه الله تعالى.

ما معنى تضع أجنحتها؟

يعني: تُوقف الطيران، وتقف بالاستعداد، فحينما رأت طالب العلم استحت وتوقفت عن الطيران، كحالك إذا كنتَ تتحرك ماشيًا فاذا رأيت والدك تنتبه له، فتقف عن الحركة مُباشرة، وتُسلّم عليه، وتسأله إذا كان مُحتاجًا لخدمة ما.

إذنْ قوله تبارك وتعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾، يعني: أنت تتعلّم، وعلمك قائم على قوّة صلتك بالله جلّ وعلا، إخلاص نيتك لله عزّ شأنه، لا تتعلّم العلم لأجل أنْ تُباهي به النّاس، ولا تبتغي به عرضًا من الحياة الدنيا، ولا غرضًا من أغراضها، كلا، وإنّما تقصد به قوّة الصلة بالله سبحانه، فتزداد عندك الفطرة تألّقًا وجلاءً وصفاءً، فيأتيك الإكرام: ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾.

إذنْ نحن نسير مع هذا المَعْلَم، ونرى كيف أن النسبة تزداد، فلو نرسم خطًّا بيانيًّا سنرى أنه يرتفع بكرم من الله تبارك تعالى الذي لا تستغني عنه في كلّ وقت، فأنت الفقير إلى الله تعالى، وأنت المأمور بأن تسأله من فضله، ثمّ كلّما دخلتَ في مجال التعقّل والتمكّن، وتبدأ مداركك العقلية تتكامل، فعند ذلك تزداد من الأعمال التي تُؤدي إلى تألّق وتوهج الفطرة،

وهذا المَعْلَم الروحاني في كيانك الإنساني لا توقف فيه، فلماذا نقول: يا أرحم الراحمين ارحمنا وأوصلنا إليك، فالوصول إلى الله جلّ جلاله لا تنتهي مراحله، وسيّد الخَلق صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه حاز أعلاها كما قال الحق جلّت قدرته:

﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [سورة النجم: ١٦ ــ ١٨].

وأروي لكم عن سيّدي حضرة الشيخ عبد الله طيّب الله تعالى روحه وذكره وثراه، قال: عندي أعظم مدح لسيّد الخلق صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم في هذه الآية المباركة: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾؛ فكم كانت هذه الروح عظيمة بحيث بلغت هذه المراتب العلية، ولم يزغ منه البصر صلوات ربّي وسلامه عليه وآله وصحبه، ولم يطغَ، وإنّما بقي ثابتًا مُستقرًّا مُطمئنًا مُتلقيًا مُستوعبًا، بينما هناك مَنْ أغشيَ عليه، وأغمِيَ عليه، وصُعِقَ، وكاد أنْ يموت، وهم في مراتب دون تلك المرتبة بكثير.

إذنْ ينبغي أنْ نُحافظ على هذا المَعْلَم، ونعضّ عليه بالنواجذ؛ فخيره وبركته أعظم بكثير من وسائل الدعوة الأخرى، بل تلك الوسائل لا تنفع ولا تُجدي، وربما تضرّ إن انسلخت عن هذا المعنى.

فمن وسائل الدعوة إلى الله سبحانه: الخطابة، فإذا كان الخطيب غافلًا عن الله تبارك وتعالى، إذا قصد بخطبته رضى النّاس ليقولوا: فلان خطب خطبة رنّانة نعوذ بالله تبارك وتعالى أو يُريد أنْ ينال بها جائزة، لوجود مُسابقة للخطابة، وإلى آخره، وليس في ذهنه الله جلّ في علاه، فهذه الوسيلة بهذا الحال لا تنفع، بل تضرّ بالتأكيد، تضرّه أولًا ثم تضرّ المُجتمع، لأنَّ الناس ضيّعوا نصف ساعة بالاستماع للخطبة ثم خرجوا صفر اليدين، وما استفادوا شيئًا، وفي أحسن الأحوال ربما تذكّروا بعض المعلومات.

لذلك لمّا نتشرّف بأيّ سورة من سور القرآن الكريم ـ خاصّة في أوائل ما نزل ـ نجد التأكيد على هذه الصلة، فبهذه الصلة تنصلح الأخلاق، ويستقيم السلوك، وتبرز المواقف الجليلة الحميدة، سواء في المرحلة الأولى أو المرحلة الثانية التي صار لها دعم من سيّد الخَلق صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه بالخلوة، ثمّ بعد ذلك جاء الدعم بالوحي، وعلِمنا ما قالت أمّنا السيّدة خديجة رضي الله تعالى عنها: (كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ) الإمام البخاري رحمه الباري سبحانه.

انظر للسلوك المُنبثق من الفطرة السليمة، المُنبثق من الصلة بالله تعالى، والتي أخذت نصيبها من عناية ورعاية الحق ﷻ.

فيا أيّها الداعي إلى الله سبحانه، ينبغي عليك أنْ تلتفت إلى هذا المَعْلَم، فهذا هو الأصل في قوّة الدعوة وتأثيرها في واقع الخَلق، وتيسير الله تبارك وتعالى لها للنمو والتكامل مع شدّة المُعارضة وقوّتها، لأنّ هذه الصلة قائمة على المحبّة، على حُبّك لله جلّ وعلا، فلا إيمان من غير محبّة، وكلّ محبّة لله سبحانه بأيّ صورة من صورها، وبأيّ مرتبة من مراتبها يحتاج إلى تضحية، ومن هنا ترون أن المشاكل واجهت النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم في هذه المرحلة.

هذا مَعْلَم ظاهر في المرحلة الأولى والثانية، وستجدونه ظاهرًا في المرحلة الثالثة أيضًا، بل يجب أنْ يبقى ظاهرًا مُتألّقًا عند المُكلّف إلى انتهاء دار التكليف.

لقد ظهر عندنا في المرحلة الثانية مَعْلَمٌ آخر، وهو استثمار الطاقات قدر المُستطاع، هذا يعني أنْ تبحث عن الطاقات، عن أولي المواهب، أنْ تنتبه لما أكرم الله عزَّ وجلَّ به عباده بأيّ شكل من أشكال التكريم، فالصوت الجميل تكريم، والذكاء الحادّ تكريم، والجرأة، الرجولة ...إلخ.

رأيتُ طفلًا بسم الله ما شاء الله، عمره خمس سنوات لكنه يتحلى بأدبٍ وتنسيق في الضيافة مُبهران، ما وجدته عند كثيرين من البالغين، يخدم الضيف ويُكرمه بحيث يُخجله، وكأنّه رجلٌ في الأربعين من عمره، فهذه طاقة ينبغي استثمارها أيضًا.

وهكذا فالمال، الجاه، المكانة، الجرأة، كلها طاقات ينبغي أن تُستثمر، وقد ذكرنا سيّدنا الأرقم رضي الله تعالى عنه، شاب صغير لكن انظروا إلى إمكاناته ورجولته، معظم رؤساء عشيرته هم من ألدّ أعداء الحبيب صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه، ومع ذلك يأوي الحبيب عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام، ويُرتب له اللقاءات، ولم يقل له النبيّ صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه: أنت شاب، وأنا سأجد شيخًا من أقاربي يُرتب لي مكانًا أجلس فيه مع أحبابي وأصحابي، كلا، بل استثمر طاقته ووظفها في سير الدعوة إلى الله تعالى، وعليه ففي مجال تكوين الداعي ينبغي أنْ تكون شخصيته مُلهمة، مُنتبهة لاستثمار الطاقات في المجتمع.

أيها الأحبة بالتعارف يكتمل التآلف، وباكتمال التآلف تزدهر الحياة، وتقوى المجاذف، فأنت تُريد أن تُجذف في بحر الحياة، تُريد أن تُقوّيها؛ فلابد من التعارف والتزاور، حتى يحصل التآلف، سيُصبح تزاوج بين الخبرات والأفكار لتنمو وتتسق فنصل بإذن الله تعالى إلى مرضاة العزيز الغفار عزَّ شأنه، وبإذنه جلّ وعلا نُوفق، وبمدد من عنده ندخل البيوتات دخول الماء إلى الحقول، ودخول الضوء إلى بطون الأودية المُظلمة لإضاءتها واستكشاف ما فيها من خيرات وبركات، الدخول إلى المواطن كي نفهم مزيّتها وما يستودع الله عزَّ وجلَّ فيها من خير وبركة.

ولأن الأرض تواضعت صار عمقُها منجمًا للجواهر والدُرر، فإذا تواضعتَ كان ظاهرك طاهرٌ مُطهر، وباطنك منجم لكلّ ما يخطر في بالك من دُرر الخير، وهاك مثلًا من واقع الحياة: الأرض تستقبل البذرة التي تُوضع في بطنها، لا ترفضها بل تبدأ تُداريها وتُغذيها وتمدّها بما عندها من قدرات، انظروا للمداخل، فبالمداخل تُوجد القدرات والخيرات.

رُبَّ بنت استقرّت في مخدعها لكنها منجمُ خير وبركة، تفوق كثيرًا من الذين يمشون على الأرض، فمَنْ يكتشفها؟ أنت لمّا تدخل بسم الله، لمّا تدخل على بركة الله عزَّ وجلَّ، ستصل إلى مناجم، تصل إلى دُرر وكنوز دفينة؛ فثوّرُوها أيها الدعاة إلى الله تعالى.

إذنْ هنا مَعْلَم في هذه المرحلة، وهذا المَعْلَم سوف يستمر أيضًا، لا يُوجد مَعْلَمٌ يظهر في مرحلة سابقة على مرحلة ماضية، قد لا تجد هذا المَعْلَم في البداية ـ في المرحلة الأولى ـ ولكنك تجد جذوره ثمّ تجد بروزه ومعالمه في المرحلة الثانية، وستجده يزداد ويزداد إنْ تمسّكتَ بما أمرك الله سبحانه به.

شعار الداعية: اخترق لا تحترق، فمثلًا: في قريتك تُوجد مُؤسسة خاملة ميتة، القائمون عليها أناس يأخذون رواتبهم لا غير، أفلا تستطيع أنْ تستثمر الطاقات الموجودة عندك لإحياء هذه المُؤسسة؟ نستطيع إخواني، لكن مع الأسف كثير منّا غائب أو مُنشغل بما لا يليق، أو غافل، والغفلة تندرج تحتها صور كثيرة من صور التقصير، فلو جلسنا وفكّرنا لعلمنا وتأسّفنا، وقلنا: يا حسرة على تلك الأوقات، وتلك الأيّام والشهور، بل ربّما أعوام ضاعت في قيل وقال، قال سيد الرجال عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه:

(إنَّ اللهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةَ المَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ) الإمام البخاري رحمه الباري جلّ وعلا.

رأيت أحد الشباب ممن تورّط فدخل فيما يُسمّى بالأحزاب الإسلامية، فقلت له: أسألك سؤالًا فأصدقني الإجابة: هل التقارير والتحاليل الإخبارية والسياسية التي تقرأها تأخذ منك وقتًا أكثر أم وردك القرآني؟ قال: لا وقت لديّ للورد القرآني أصلاً؛ فقد تركته، لكن من الضروري قراءة التقارير وتحليلها السياسي، فإن تبقى لدي وقت قرأت وردي القرآني، فقلتُ له: ما يعني هذا؟ هل هذا هداية أم ضلال؟ أسأل الله عزَّ وجلَّ أنْ يُوقظ قلبك.

إذن استثمار الطاقات مَعْلَمٌ بدأ يظهر في المرحلة الثانية، وسيبقى لأنّ هذا الدين جاء لاستثمار الطاقات وتنميتها، فغوصوا في المداخل، لكن دون احتراق؛ فلا تدخل لمُؤسسة كي

تُحسبَ على الحزب الفلاني أو الطائفة أو الهيئة الفلانية، أشكال وأنواع مُسمّيات، فينبغي ألا نغتر بها، فنحن لا نرضى ولا نتقبّل إلّا بالتسمية الربّانية التي سمّانا الله عزَّ وجلَّ بها:

﴿ ---هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ .. ﴾ [سورة الحج: ٧٨].

الاسم: مُسلم، والجوهر: باحث عن الصالحين، الدخول في الصالحين، والغاية: هي الله جلّ في علاه: ﴿ --- قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [سورة الأنعام: ٩١].

وهنا سوف تظهر المُعوقات، وظهرت فعلًا، فبعدما أعلن الرسول الأعظم عليه أفضل الصلاة وأتمّ السلام وآله وصحبه الكرام عن رسالته فأخبر زوجته رضي الله تعالى عنها ثمّ أهل بيته ثمّ أصدقائه ثمّ الأقرب فالأقرب، وانتشر الخبر في مكة، وبدأت المُفاوضات مع النبي عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام على ترك الدعوة.

يقولون له: تُريد أنْ تُصبح ملكًا ملكناك علينا؛ يا سلام لو كان العَرضُ قائمًا الآن، فهناك من يركض لاهثًا باحثًا عنه، بل يُقاتل لأجله، لأجل أنْ يكون صاحب قرار أو صاحب مُلك أو منصب، بل مُستعد أن يذبح نفسه وأهله وشرفه وعرضه ودينه لأدنى من ذلك!

ستظهر المُعوقات لكن الله عزَّ وجلَّ لطيف بعباده، فهل أنتم مُحبّون؟ الحُبّ[١]: يقتضي التضحية، ينبغي أن تُضحوا، وتتحمّلوا السهر، قف على الأقدام لتُناغي المحبوب، وتُناجي مَنْ تُحب؛ فلا راحة بعد اليوم، فأنت مُحب؟ والمُحب لا يرتاح.

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ . [سورة السجدة:١٦]

هذا هو سبيل الرزق، الحُبّ سبيل الأرزاق، الحُبّ مجال العطاء، الحُبّ هو الذي يرقى بالحياة إلى الصفاء والنقاء.

[١] يرجى الاستماع لمحاضرات المحبة في الموقع المبارك: https://saadarif.com/ .

ستظهر مُعوّقات، فلابد أن تتحمّل، والنبي صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم مع قوّة مكانته وقوّة عشيرته وصل إليه الأذى، كي لا يقول أحد: عشيرة النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم قوية فحَموه، ونحن لا نستطيع، كلا، وصلوا إليه فوضعوا سلا الجزور على ظهره ورأسه صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه وهو ساجد بين يدي ربّه أمام الكعبة الشريفة، أمام نوادي قريش، أمام الساعين بين الصفا والمروة، أمام الطائفين بالبيت الحرام كي يضرب لك مثلًا على التضحية، ثم يقولون بعد كل هذا دعوة سرية، فهل يُوجد أجلى من هذه الصورة العلنية؟

إذن لابد من البذل أيّها المُحبّون، لابد أنْ يظهر هذا في طريق الحُبّ، ولكن هناك مُقوّمات ومُيسّرات ومُعينات أيضًا، ليس لأجل اللذة الذاتية الشخصية والأهواء النفسية، كلا، وإنّما لدعم مسيرة الدعوة الربّانية، فتظهر لك المواقف الجليلة العظيمة، فهذا سيّدنا أبو بكر رضي الله تعالى عنه، طاقة معرفية عظيمة، طاقة عاطفية جليلة، يدٌ قوية في الإمكانية المادية، يُحرّر سيّدنا بلالًا رضي الله تعالى عنه، ويفكّ هذه، ويعتق رقبة هذا، انظر فقد ظهرت المواقف في المرحلة الثانية، وكلها لله عزَّ وجلَّ؛ فنحتاج إلى التضحيات، نحتاج للانتباه إلى الطاقات وتوجيهها، ليس لأجل أنْ نأخذ الحُكم أو أن نسرق الدوائر والمُؤسسات بل لأجل إخراج الناس من الظلمات إلى النور.

هذا سيّدنا الأرقم رضي الله تعالى عنه، موقفٌ ظهر، ولسان حاله يقول: يا حبيبي هذا قصري تفضل شرّف، وافعل ما تشاء، روحي ومالي ومرتبتي العشائرية فداءٌ لنعليك.

هل تبغي جزاءً أو شكورًا؟ كلا والله، فقط أُعبّر عن محبتي، فهؤلاء يفهمون قوله تبارك اسمه: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ـــ ﴾ [سورة السجدة: ١٦].

الذين يخافون من النار، ويطمعون في الجنّة هم أدنى مرتبة، أما أمثال سيدنا الأرقم فيخافون مقام الله عزَّ وجلَّ، القائل: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ـــ ﴾ [سورة النازعات: ٤٠].

خوف الهيبة والجلال، وطمعًا وتطلعًا للجمال، ليس للجنّة أو لحور العين، وبرتقال ورمّان، كلا، بل حُبًّا في الجمال؛ قال عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام:

(إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ) الإمام مسلم رحمه المنعم جل شأنه.

فتأتيهم الأرزاق والعطايا والهبات، فهل يحتكروها؟ كلا، يأخذون نصيبهم ولا ينسون غيرهم، قال تبارك جلّ ذكره: ﴿ ـــ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [سورة البقرة: ٣].

فالمُربي المُرشد لمّا يجلس في مجلس المُناجاة والتجافي، تجافي الجسم عن مواضع الراحة، ويشعر بما يهبه الله تبارك وتعالى له فيتوجّه مُباشرةً إلى أحبابه بهدايات قوله تعالى: ﴿ ـــ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾؛ فلا يُبقيها له بل يُنفقها، فلا يحتكر إلّا مُخطئ نعوذ بالله تبارك وتعالى، كما قال الحبيب المحبوب صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه:

(لَا يَحْتَكِرُ إِلَّا خَاطِئٌ) الإمام مسلم رحمه المنعم جلّ جلاله.

إن التأكيد على قوّة الصلة بالله تعالى، وحشد الأسباب التي تُقوي هذه الصلة، كالشعائر التكليفية وأعظمها قيام الليل، وليس التهجّد، فالتهجد من صور قيام الليل، ثمّ الانتباه إلى ما حولك، أين تأثيرك؟ هل صارت لك صلة؟ هل صار عندك نور؟ أين أوصلت هذا النور؟

اختراق بلا احتراق؛ فأنت مُؤمن مُحبّ، لابد أنْ تكون مُحبًّا، لا إيمان بدون حُبّ، ومَنْ كان مُحبًّا فيجب أنْ يُضحي، وخذ مفاصل التضحية على أنّها تكريم وتوطين لمحبّتك، وقوّة لإيمانك بالله تعالى، لكن رحمة الله جلّ وعلا لا تتركك، ستجد المواقف الداعمة أمامك تظهر شيئًا فشيئًا، كما أنّ المُعوّق قد يكون من أقرب النّاس إليك:

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [سورة المسد: ١].

كذلك الدعم قد يأتي من أقرب النّاس إليك، وقد يأتي من أشدّ الأعداء لك، فالمفروض أن يقف عمّه معه، كلا بل انقلب عليه شرّ انقلاب؛ فالمُعوّق هنا جاء من أقرب الأقربين إليه، وبالعكس فقد ظهرت نبعة عين مُغذية صافية نقيّة في دائرة ألدّ أعدائه، فبنو مخزوم أشدّ أعداء النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، فظهر فيهم الأرقم، وقد يُقال: هذا شاب لا يفهم من الحياة شيئًا، كلا، فالأمور هنا تختلف، لأنّك في دائرة المحبوبية، في دائرة الإيمان القائمة على محبّة الرحمن سبحانه، هكذا ينبغي أنْ نفهم الواقع، ونسير فيه، ونتلمس مداخله، لنغوص في أعماقه، فكلّ غوّاص بإذن الله جلّ في علاه له مكرمته من الله جلّ جلاله.

ما زلنا مُتشرّفين بالمرحلة الثانية، وقد ظهرت فيها معالم كثيرة، مُمكن أنْ تنضوي كجزئيات تحت الكليّات الخمس:

١- خصوصية الداعية.
٢- معالم ما يدعو إليه.
٣- المُعوّقات التي يُحتمل أنْ تظهر أمامه.
٤- الوسائل التي يُمكن أنْ يتغلّب بها على المُعوّقات.
٥- الصورة المُتكاملة لمرحلة الحياة الدنيا إذا تحقّقت النقاط الأربعة السابقة.

في بدايات ما أنزل الله سبحانه جزئيات كثيرة تنضوي تحت هذه الكليات الخمس، فلو بقينا مُتشرّفين بسورة المُزمّل مثلًا، سنجد جزئيات كثيرة مُمكن أنْ تدخل تحت هذه الكليّات الخمس؛ فمثلًا: حينما أتشرّف بقوله عزّ شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾، فالإسلام يُعلّمنا تقييم الناس، واحترام الشخصيات بشكل عام؛ فينبغي على الإنسان حينما يُنادي أخاه أن يُناديه بأحبّ الأسماء والصفات إليه، ثمّ يُربّينا الإسلام على تعظيم مقام خير الأنام عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام، فربّه تعالى لا يُناديه باسمه، وإنّما يناديه بهذه الصفة التي كانت واقع حال لخير الرجال صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم في ذلك الزمان: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾.

ينبغي أن تكون للداعي شخصيّة ومكانة وتأثير في المجتمع، لذلك حينما نُريد أَنْ نختار شخصًا نُربيه داعيًا إلى الله تبارك اسمه، فينبغي أنْ نختاره من ذُؤَابة النّاس، من الأسر التي لها مكانة ومرتبة، وهذا لا يعني أنْ نزدري الآخرين - نعوذ بالله تبارك وتعالى- أو نحتقرهم، كلا، وإنّما هذا هو الأصل، فكان اختيار الله جلّ وعلا لسيّد الخَلق صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم من أشرف النّاس، ومن أنْفَسِهِمْ؛ قال الله تعالى:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ---﴾ [سورة التوبة: ١٢٨].

هذه هي القراءة المُعتادة لكن هناك قراءة: ﴿مِنْ أَنفَسِكُمْ﴾، أي من النفائس، وهذا المعنى يُمكن أن يدخل في شخصية الداعي، فإذا كان ذا مكانة ومنزلة في قلوب الناس، فإنّ هذا سيُعزز دعوته ومسيرته، فتأتي ثمارها أكثر بإذنه تبارك وتعالى.

أما فيما ندعو إليه: فينبغي أَنْ نُنزل النّاس منازلهم، فمن خصائص هذا الدِّين إنزال الناس منازلهم، فلا يصح مثلًا أنْ تُخاطب عالمًا باسمه المُجرّد، لا يجوز لك أَنْ تنادي أَباك باسمه المُجرّد، وهكذا، لأنّه إخلالٌ بالالتزام بما تدعو إليه، بمواصفات ما تدعو إليه، بالأَحكام التي جاءت في هذا الدِّين فيما تدعو إليه.

إنّ المعالم بدأت تظهر في هذه المرحلة بنوعٍ من التفصيل، فالليل ظرف زماني له شأنه في القيام والعبادة؛ قال الله جلَّ جلاله: ﴿قُمِ الَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [سورة المزمل: ٢].

مُمكن أنْ تجعل هذا تحت صفة الداعي، فالداعي له حظه من الليل، ومَنْ لا حظّ له من الليل لا حظّ له من الدعوة إلى الله عزَّ وجلَّ.

﴿قُمِ الَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾، فلذلك لمّا تكون الليالي شريفة فإنك تُدعى لإحيائها إحياءً كاملًا من المغرب إلى الفجر، بل حتّى إلى الشروق عند أصحاب الهمم العلية.

فإذنْ القيام للعبادة بشتى صنوفها، والليل أمضى ظرفٍ لها، مع العلم أَنّ العبادة في النهار مطلوبة كذلك، لكن هناك تفاضل، والتفاضل من مبادئ هذا الدِّين قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ...﴾ [سورة البقرة: ٢٥٣].

وقال سيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه ومَنْ والاه:

(لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ) الإمام البخاري رحمه الباري جلّ ثناؤه.

كذا ظهر لنا في هذه المرحلة ضرورة العناية بالقرآن الكريم، مع العلم الذي نزل لحد الآن عبارة عن سورة أو سورتين أو ثلاث سور، وآيات قصيرة، لكن هذا تأسيس لبناء أمّة، هذه الأمّة سيكون منهجها ومصدرها الأول القرآن الكريم، فلابد من الالتصاق بالقرآن الكريم، والتفاعل معه حفظًا وفهمًا وتدبّرًا وتفاعلًا وتطبيقًا، وكلّ هذه الحقائق تُعبّر عنها كلمة: ﴿وَرَتِّلِ﴾، فما قال تبارك وتعالى: ﴿اقْرَأْ﴾، وإنّما قال: رتّل، والترتيل معناه: التنظيم، التنسيق، والتفويج، رتل لأنّ فيه مسارًا، فهنالك أَقسام، وهذه الأقسام مُرتبة، وكلّ ما يخطر ببالك من العناية، كتثوير المعاني، وتلمس المداخل للغوص إلى الأعماق، لا تُعبّر عنها سوى كلمة: ﴿وَرَتِّلِ﴾، وتأكيدًا لهذا قال جلَّ جلاله: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾.

فرتّل: فعل أمر، وترتيلًا: مفعول مُطلق، وهذا المفعول على إطلاقه، لتفهم كلّ هذه الجزئيات.

إذنْ في هذه المرحلة: العناية بالليل، العناية بالعبادة، العناية بالمصدر الأوّل، المُعجزة الكبرى لسيّد الخَلق صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، العناية باختيار شخصية الداعي، إنزال النّاس منازلهم، وفي كلّ هذه الأَحكام يبرز جمال وكمال هذا الدِّين.

إنّ حضارة الإسلام لا تقوم على العبادة فقط، العبادة المحضة المُتمثلة بالتأمّل والتدبّر والذكر والصلاة، كلا، فلابُدّ من حركة لبناء الحياة، لبناء الحضارة الإنسانية، فأنت خليفة الله تبارك وتعالى في أرضه، وهذه تفهمها عندما ظهرت معالمها من قوله تبارك اسمه:

﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ [سورة المزمل: ٧].

لكن إيّاك أنّ يكون السبح الطويل سببًا للبُعد عن ذكر الله جلّ وعلا، وعن الأصل الذي بدأ من المرحلة الأولى، والذي ينبغي أن يبقى إلى نهايات خروج الإنسان من هذه الحياة الدنيا؛ فنحن الآن نتحدّث عن دار التكليف لا عن دار التشريف، فما هو الأصل؟

الروحانية، وهي باقية، ونسبتها تعلو شيئًا فشيئًا، بينما حركة الحياة ـ البناء الحضاري ـ تتأثّر نسبيًا بالظروف من حيث ارتفاع النسبة أو انخفاضها، وقد تتوقف أحيانًا.

أحد القادة العسكريين قال عن أحد الرؤساء الذين ماتوا: فيه مُواصفات عظيمة، فهو رجل شُجاع، شهم، كريم، الى آخره، لكن المُشكلة إنه لا يُؤمن بمبدأ الانسحاب، فمن بديهيات العلوم العسكرية إن في الحروب كرّاً وفرّاً، وهذا الرئيس لا يُؤمن بالفرّ، وهذه مُشكلة كبيرة؛ فقد يكون الفرّ واجبًا أحيانًا لأجل إعادة الكرّة، ولأجل تنظيم وترتيب الصفوف مرّة أخرى.

فهنا في حضارة الإسلام، في معالم هذا الدِّين، لا يجوز لنا أنْ نترك العناية بالسبح في النّهار، فجعل النّهار معاشًا، لكن هذه الحركة قد تعلو نسبتها، وقد تنخفض، وأحيانًا قد تتراجع، لِحِكَم يعرفها أهل الخبرة في الحياة، كما قال عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه أجمعين: (أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ)الإمام البخاري رحمه الباري سبحانه.

انظروا حتّى هذا السبح الطويل ينضبط بالأصل الأصيل، الذي هو الروحانية، فجعله بين مَعْلَمين من معالمها، فقبلها تحدّث: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾، وبعدها مُباشرة قال عزّ من قائل:

﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾[سورة المزمل: ٨].

فأيًّا كان السبح، لا تنسَ مَنْ يجب عليك أنْ تُسبحه وتذكره وتُقوي صلتك به، وهذه من معالم ما ندعو إليه، وأيضًا من خصائص الداعي، فالداعي لا ينشغل بالسَّبْح عن قوّة صلته بالله جلّ وعلا.

ثمّ التأكيد على أنّ من أعظم الأهداف بعد الإيمان ـ باعتبار الإيمان هو الأصل والأرضية التي تقف عليها، والنور الذي تكون فيه حتى تنطلق ـ أنْ نكون لله تبارك وتعالى ذاكرين، ولقد أكدّ على هذا الهدف في بدايات ما أنزل، ومن أوجه التأكيد والعناية بهذا الهدف ذِكرُه لبعض وسائل تحقيقه: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾، أي لابد من الخلوة، الانقطاع، الرجوع للنفس ومُحاسبتها لأنّ هذا السبح قد يُؤدي إلى تثبيط الهمّة أو التعب أو الغفلة، فإيّاك إيّاك أنْ تنشغل وتغفل، فوَضَعَهَا لك بين هذين المَعْلَمَيْنِ من المعالم التي تُؤكّد قوّة الصلة بالله تعالى؛ وخير أنيس في العلوم مثال: يومًا ما صار عندي توجّهٌ بأنْ أصلّي الضحى (١٢) ركعة، وهذا أعلى ما ورد، لأنّه بحسب ما أعلم أن الروايات الشريفة ذكرت الركعتين، والأربعة، وهكذا إلى (١٢) ركعة بنيّة سُنّة الضحى، وما زاد على ذلك يكون تطوّعًا، وبمُجرّد حصول هذه النيّة في القلب لاحظتُ ظهور نزعة نفسية ـ نعوذ بالله تبارك وتعالى ـ تقول: كلا، هذا كثير، فأربع ركعات تكفي، وأنت ما شاء الله قد عملت كذا، وعملت كذا، فجاء التثبيط؛ حتى تعرفوا كيف أنّ الدنيا دار ابتلاء واختبار، وأن الله تبارك وتعالى يبتلي الإنسان مهما كان، في أيّ نقطة كان، في أيّ مرتبة كان، وإن بلغ مرتبة الإرشاد الكامل.

في نفس الوقت دعتني زوجتي للنقاش في موضوع مهم، ليس هامشيًّا بل مُتعلّقٌ بالدعوة إلى الله عزَّ وجلَّ، ولكن هذا ليس وقتها، فأنا الآن مُتفرّغٌ لأجل صلاة الضحى، فقد نويت

هذه العبادة، فلاحظوا كيف تظهر أمامك المُثبّطات، كما أن الهاتف رن مرة بعد مرة حتى صار عندي جُنوح للاكتفاء بالركعات الأربع، وفي السجدة الأخيرة من الركعة الرابعة، قلت في سجودي: يا ربي أنا عبدك الفقير المسكين، أنت وعدت الساجدين بالقُرب، وأنا الآن في قُربك يقينًا، وإن كنتُ لا أستحق هذا، لكنّه كرمك، وإنّك لا تُخلف الميعاد، فسكت الهاتف بعد هذا التذلل، وأجلتْ أهلي حوارها معي لوقت آخر؛ فقمتُ وقلتُ لنفسي: اخرسي أيّتها النفس الأمّارة، وصلّيت (١٢) ركعة من فضل الله تبارك وتعالى.

فامر السَّبح خطيرٌ، لأنّ هذا السبح يُؤدي إلى تثبيط الهمّة والتعب، يُؤدي إلى الغفلة، فإيّاك إيّاك أنْ تنشغل وتغفل، فوَضعَهَا بين هذين المَعْلَمَيْنِ من المعالم، التي تُؤكّد قوْة الصلة بالله رب العالمين سبحانه وتعالى .

ومن المعالم التي ظهرت في بدايات ما أُنْزِل إنّ الله تبارك اسمه طالبنا بأنْ نتخذ إليه سبيلًا، طواعية دون اكراه، وإنّما أوكل ذلك لمشيئة كلّ عبد عاقل بالغ، قال ربّ العزة والجلال:

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [سورة الصافات: ٩٩].

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة العنكبوت: ٦٩].

﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [سورة طه: ٨٤].

كلّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يُسارعون لنيل رضا الله تعالى، أمّا سيّد الخَلق صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم لأنّه قمّة القمم، لأنّه سيّد الرُسل والأنبياء وسيّد الخَلق، بأبي ونفسي وروحي، قال له: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [سورة الضحى: ٥].

فالله تعالى يُسارع في رضوانه، وفي إبلاغه بأنّه راضٍ عنه، وهذه من خُصوصيات الحبيب صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه أهل الطيب.

ما نُريده هو المعالم التي تنفعنا ونتفاعل معها، وما تقدم ينفعنا لأجل أنْ نعتزّ بحبيبنا عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه أجمعين، وأنْ نتعرف على بعض خصوصياته، ومنها خصوصية: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾.

لابُدّ للداعي أنْ يسير إلى الله عزَّ وجلَّ، ومن صفات ما ندعو إليه أنّ هذا الدّين يدعوك لأنْ تتخذ إلى الله سبيلًا، ولقد بيّن لك السبيل، كما بيّن لك المُعوّقات، فهنالك مطبّات في الطريق، هنالك تحويلة مُؤقتة، وهذا الدّين يُعطيك الوسائل التي تتغلّب بها على الخطورة في التحويلة، وأعطاك الوسائل التي بها تنجو من المهالك.

إذن سأريكم أنموذجًا لمَن اتخذ إلى الله تعالى سبيلًا، فكن ذكيًّا حصيفًا، واستخرج الوسائل المُعِينة، وانتبه للمُعوّقات، وكيف ستتغلّب عليها بهذه الوسائل، فبعد قوله سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾، ذكر مثالًا واقعيًّا فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾[سورة المزمّل: ٢٠].

إذن فحقًّا: مَنْ لَا حَظَّ لَهُ مِنَ اللَّيْلِ لَا حَظَّ لَهُ مِنَ السَّيْرِ، لَا حَظَّ لَهُ فِي مَجَالِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ جَلَّ فِي عُلَاهُ.

فأوّل مَعْلَم من معالم الذين اتخذوا إلى الله سبيلًا هو قيامهم الليل، وهذا يدخل ضمن شخصية الداعي الذي سار إلى الله سبحانه، ومن وسائل سيره قيام الليل، وهذا كله في بدايات ما أُنزل؛ فهي بذلك من الأصول في الدّين.

قال جلّ جلاله: ﴿وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾؛ فيه بيان ضرورة معيّة المُربّي، المُرشد، فهل تقوم

الليل بمفردك؟ كلا، حاول أنْ تقوم الليل بحضورك مع إخوتك، مع مُربّيك، لابُدّ أنْ تكون لك معيّة، وإنْ كنت لوحدك من حيث الجسم، فلابُدَّ أنْ تكون لك معيّة روحية، وإذا صارت لك معيّة روحية وجسدية ضمن الضوابط الشرعية فلا بأس، كأن تكون في البيت فأيقظ زوجتك لتُصلّي معك أو اتفق معها بدايةً.

ظهرت هنا معالم شخصية الداعي، فهو يُسارع في اتخاذ السبيل إلى الله سبحانه، يُسارع في الأخذ بالأحكام التي دعت إليها الشريعة الغرّاء، ومن ضمنها تقوية الصلة بربّ الأرض والسماء جلّ ذكره، وخاصة من خلال ناشئة الليل.

من معالم المعيّة البحث عن الصحبة، التواصل، البحث عن المُربي؛ ومعية المُربي أعمق وأشدّ تأثيرًا مما سواها، فإذا كان هذا المعنى في بدايات ما أنزل، فهو إذنْ من روح وأُسس التشريع.

بعد ذلك ذكر الله تعالى بأنه يُقدّر لكم هذا العمل، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ﴾، بلفظ: ﴿رَبَّكَ يَعْلَمُ﴾،

ولم يقل: إنّ الله يعلم أو الكريم يعلم، كلا، قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ﴾ أي: أنتم بهذا العمل تستحقون

كلّ ما يُثري جانبكم التربوي في إيمانكم ويقينكم واستحقاقكم للأجر منه سبحانه.

إذن يُبيّن لك هذا الدِّين علاقتك بالله تبارك وتعالى، فهي علاقة عطاء وكرم وجود وفضل وإكرام وعلم وتذوق بأنّ الله جلّ جلاله لا تخفى عليه خافية من حاجاتك أيّها العبد السائر إلى الله جلّ ذكره فجاء التيسير والتخفيف: ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [سورة المزمل: ٢٠].

فلا حرج عليكم ان لم تقوموا نصف الليل أو ثلث الليل، فإحصاء هذا ليس سهلًا، ولذا قد خفّفت عليكم، فقال سبحانه: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ [سورة المزمل: ٢٠].

فأحوالكم لا تخفى عليه، وكلّما كنتم في حال معينة شرَّع لكم ما يُلائم ذلك الحال، بما يُقوّمه ويُخفّف به عنكم.

وحتى لا تغفل أيّها الداعي إلى الله سبحانه بأنّ تقوية الصلة لا تكون فقط من خلال الشعائر التعبدّية بل تأتي كذلك من خلال الحركات المُجتمعية النافعة، سواء كانت وظيفية أو كانت تطوعية، فهذه تُعزّز مكانتك أيضًا عند الله جلّ في علاه، وهذه من مُواصفاتك أيضًا، فأنت داعٍ إلى الله عزَّ وجلّ، وهذه من معالم ما تدعو إليه أيضًا، وبالتالي إذا جاءتك المُعوّقات وكنت قادرًا على أنْ تُخفّف لأوائها وقسوتها فينبغي عليك أنْ تأخذ بالوسائل التي تفعل ذلك، وإن كانت خارجة عن نطاقك وقدرتك فإنّ ربّك سبحانه لا يغفل عنك، وفي هذه الحالة سيأتيك التخفيف في الشرع، ويأتيك رفع الحرج.

ولكي لا تنشغل فتقول: الأصل في الدِين أنني أُقوّي صلتي بالله ربّ العالمين عزّ شأنه، ولا أنظر إلى بقيّة معالم الدِين، كلا، فلقد أدخَلَ لك السَّبْحَ في الأرض، ولكن بمعنى آخر أو بأسلوب آخر: ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [سورة المزمل: ٢٠].

مُعظم المُفسرين يقولون عن قوله تعالى: ﴿يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يُسافرون، ولِمَ لم يقل الله تعالى: يُسافرون؟ ليُبيّن لنا مَعْلَمًا من معالم الداعي إليه سبحانه؛ فالداعية شخصية ضاربة، له بصماتٍ عميقة، له جهد كبير وقويّ في اقتحام المداخل، واستثمار الفرص والدخول فيها، نعم السير على الأرض يُعتبر ضربًا في الأرض، ولكن المعنى الشمولي إنهم يضربون في الأرض لأجل استنباتها، فعندما أَضْرِب الأرض لأجل أنْ أقلبها وأستثيرها وأنمّيها، فهذا ضرب في الأرض، وكل صورة فيها استثمار طاقات الأرض هو ضربٌ فيها.

هذه كلّها من شخصية الداعي، ومن معالم ما ندعو إليه، فلاحظوا كيف يأتي بموضوع العناية في تعمير الأرض في ظِلال وعمق الكلام عن قوة الصلة بالعليم العلام سبحانه.

أفهم من هدايات قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[سورة السجدة: ١٦].

إن بعض الناس لمّا يسمعون تتجافى جنوبهم عن المضاجع، يقولون: هؤلاء مساكين يُحيون الليل، وبالتالي ينامون بالنّهار، كلا، فقد ختم الآية المُباركة بقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾،

أي إنّهم أصحاب أعمال وأموال، منها يُنفقون ويتصدقون ويتبرعون، فلو كانوا ينامون نهارًا لأنّهم يُحيون الليل بالطاعات، فمن أين لهم هذه النفقات؟

أنت تقوم: ﴿أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾، إذنْ هذا جهد عظيم في الليل، فكيف ستتحرك في السبح نهارًا؟ كلا، أنت لا تتحرّك في النهار فحسب بل تضرب الأرض: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾[سورة ص: ٤٢].

اضرب، هكذا بقوّة وشدّة؛ لأنَّك في البناء الحضاري، في نقل الخير للغير، في هداياتك للخَلق، في التماس وابتغاء فضل الله جلّ في علاه ينبغي أنْ تكون قويًّا ثابتًا شديدًا، لذلك أتى بلفظ (يضربون)، وما أتى بلفظ (يُسافرون)، والله تعالى أعلم.

إذنْ هذان المَعْلَمَان: تقوية الصلة بالله تبارك وتعالى، وتقديم الخير للغير، معلمان مُهمّان، يأخذ كلُّ واحد منهما برقبة الآخر، يتفاعل بعضهما مع الآخر، فمع ضربك في الأرض لا تنسَ واجبك، لا تنسَ صلتك بالله تقدّست أسماؤه، ومع قيامك بالليل لا تنسَ ضربك في

الأرض، لا تنسَ أنْ تكون من الذين يقرضون الله تعالى قرضًا حسنًا، وحتى يتأكّد هذا التصوّر نرى أنه سبحانه يربط الأمر بالدار الآخرة، ثمّ يشدّد على قوّة الصلة به ﷻ.

تأملوا شخصًا يَقوم نصف الليل، ويذهب ليضرب في الأرض نهارًا، ما هذه الشخصية اللامعة، المُتقدة، المُثابرة، أين هذا ممّن ينامون لصلاة الظهر، وهم لا يَقومون الليل أصلًا؟!.

إن الداعي إلى الله عزَّ وجلَّ عندما يكون صادقًا مع نفسه، مع ربّه جلّ وعلا، صادقًا مع نبيّه صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، صادقًا مع مُربّيه، يُوفق مُباشرة:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة العنكبوت: ٦٩].

في هذه المرحلة إلى أنْ جاءت مرحلة الدعوة الجماعية ـ ليس أقلّ من ستة أشهر، وعند بعض أهل العلم ربّما يُوصلون هذه الفترة إلى ثلاث سنوات ـ ظهرت صور بديعة في الدعوة إلى الله تبارك اسمه، وظهرت مُعوقات، وظهرت سُبل لتذليل هذه المُعوقات، والغلبة عليها، فمثلًا لمّا تحدّث سيّدنا الرسول صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه لأهل بيته وأصحابه المُقربين عمّا حصل له، وتثبّت منه، آمنوا به مباشرةً، فربّ العالمين سبحانه أعطاه ووهبه ومنحه ما يُذلّل به بعض الصعوبات، فمن المُحتمل أنّ النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم لا يستطيع أنْ يستقبل المُؤمنين في دار أمّنا السيدة خديجة رضي الله تعالى عنها ذلك الوقت، فهيئ له سبحانه دار الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله تعالى عنه.

بعض المُؤمنين لمّا آمنوا، واكتشف ذلك أهلهم أو عشائرهم أو ساداتهم ـ بالنسبة للعبيد مثل سيّدنا بلال رضي الله تعالى عنه أو سيّدنا عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنه ـ تعرّضوا للأذى والتعذيب من أولئك المُستغنين كما سمّاهم القرآن الكريم:

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [سورة العلق: ٦].

لكن ربّ العالمين هيّئ سيّدنا الصديق رضي الله تعالى عنه، فبدأ يشتري هذا العبد ويعتقه ويُخلصه، وهكذا فالله تعالى يُجسّد لكم أيّها الدعاة من ناحية عملية بأنّكم إنْ صدقتم معه في التعامل فإنه سيُهيئ لكم ما تُذللون به المصاعب والمتاعب، وما تُخففون به الآلام، ولابُدَّ أنْ تبقى هناك نسبة من المتاعب لأننا في دار التكليف والابتلاء، فتُصيب النّاس بحسب إيمانهم وتقواهم، سُئل عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام:

(أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ) الإمام الترمذي رحمه الله جلّ جلاله.

لماذا؟ ليميز دار التكليف عن دار التشريف.

إذن هذه المرحلة تمهيدٌ لمرحلة: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [سورة الحجر: ٩٤].

مرحلة الدعوة الجماعية كما أسمّيها، وهذه الفترة لا تقِل عن ستة أشهر، وفي بعض الأقوال تزيد وتربو على ثلاث سنين، وصار فيها الحصار على النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، وصارت فيها كتابة وثيقة المُقاطعة، وفيها تتجلى هدايات قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾، إمّا بقدر إلهي، فربّ العالمين يُخفف، ويُمهد للتخفيف أو بفعل فاعل ينبري تعبيرًا عن رجولته وشهامته وتقييمه لهؤلاء المُعذّبين والمُحاصرين، لأنّهم لا يستحقون هذا، فهم علية القوم، ولأنّهم يَصلون الرحم، ويحملون الكَّل، إلى آخره.

وفي ظلّ هذه الهدايات إذا تمسّكتَ بالله تبارك وتعالى بصدق فالله عزَّ وجلّ سيُعينك للتغلّب على المُعوقات والشدائد، فتُؤجر في الحالتين، في حالة أنْ تكون مغلوبًا أو غالبًا:

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ [سورة التوبة: ٥٢].

﴿قل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [سورة التوبة: ٥١].

فكلّ ما يُصيبيك وأنت مُتشبث بالله جلّ وعلا، صادق معه سبحانه فهو لصالحك، لذلك قال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ .[سورة التوبة: ٥١].

فانظروا يا رعاكم الله كيف قال سبحانه ﴿مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾، ولم يقل علينا، فإذن كل ما يكتب من الله سبحانه وتعالى هو لصالح العبد، فَهِمَ ذلك ام لم يفهم.

ومن مجموعة أوائل ما نزل على سيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم من السور: سورة الفاتحة، وهي أعظم سورة في القرآن الكريم: (عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ المُعَلَّى، قَالَ: كُنْتُ أُصَلِّي فِي المَسْجِدِ، فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ أُجِبْهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي، فَقَالَ: " أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]. ثُمَّ قَالَ لِي: «لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّوَرِ فِي القُرْآنِ، قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ المَسْجِدِ». ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ، قُلْتُ لَهُ: «أَلَمْ تَقُلْ لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي القُرْآنِ»، قَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] «هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي، وَالقُرْآنُ العَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ») [الامام البخاري رحمه الله تعالى].

صحيح أنها ربّما لم تنزل بعد سورة المُزمّل أو بعد سورة اقرأ، لكن هي من مجموعة أوائل ما نزل من السور، وهناك خلاف بين أهل العلم في ترتيبها، وهذا من رحمة الله تبارك وتعالى، فسبحانه يُعطي مجالًا للعقل الإنساني لأجل أنْ يستنتج ويُفكّر، ولا يُقيّده سبحانه بقيد إلزامي إلّا فيما تقتضيه المصلحة، فمثلًا اقتضت المصلحة ترتيب السور في المُصحف الشريف؛ لأنَّ المُصحف مُعجزة سيّدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام وآله

وصحبه الكرام، فلابد أنّ يُتمّ ويُكمل ويُحفظ، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [سورة الحجر: ٩].

فربّ العالمين عزّ شأنه تولّى هذا الترتيب، فكان هذا الترتيب مُلزمًا فلا يصحّ لمُسلم أنْ يقول: هذه السورة قدّموها وهذه أخّروها، ولكن من حيث النزول ربّ العالمين لم يُلزم المُسلمين بشيء، خاصّة وإن بداية نزول القرآن الكريم هي بداية انطلاق الإعلان عن بعثة سيّد المُرسلين عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه أجمعين.

تخيّل وقت الإعلان عن نبوته صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه، كيف كانت مكة المُكرمة؟ وكيف أحوال الناس فيها؟ وكيف كانت طبيعة الحياة؟ لا نستطيع أنْ نُثبت (١٠٠%) أن هذه السورة نزلت أولًا، وهذه ثانيًا، وهذه أنزلت ثالثًا، فربّ العالمين ما أراد أنْ يُحرج الأمّة في بدايات ما أنزل من أحكام ربّما لا تنفع كثيرًا في تلك المرحلة، ولكن حينما تأتي الأحكام النافعة التي تُعدّ من صلب الدِّين واهم اولوياته؛ لأنه من الكليات التي تندرج تحتها جزئيات كثيرة، يصح فيها الاجتهاد، وتتعدد فيها وجهات النظر، فالله تعالى يحسم الموضوع وينهيه، ولا غالب لأمره جلَّ جلاله؛ لذلك أنا لا أقول متى نزلت سورة الفاتحة، ولكن هي أكيد من بدايات ما أنزل من القرآن الكريم.

هذه السورة حينما نتشرّف بها لأنّها أعظم سورة في القرآن الكريم، كما أخبر سيّد المُرسلين عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه المُباركين، نفهم مبدًأ يُمكن أنْ نضعه تحت الكلّيات الخمس، تحت الكلّية الأولى، مثلًا شخصية الداعي، فالمفروض أنه دائمًا ينحو نحو الأفضل والأتمّ والأكمل والأجمل، يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُ﴾ [سورة الزمر: ٥٥].

أعظم سورة في القرآن الكريم، وأعظم آية، وأعظم نبيّ ورسول في موكب الأنبياء

والمُرسلين عليهم الصلاة والسلام، وهكذا فالبحث عن العظمة والأفضل من شخصية الداعي، عندك ٢٤ ساعة في اليوم والليلة، فأي الساعات أفضل؟ ابحث عنها، فإنْ كنت داعيًا فلابُدَّ أنْ تتصف بهذه الصفة، وإلّا لماذا يقول لك الله عزَّ وجلَّ:

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٣].

حتّى يُربّيك على هذا المبدأ، فهنالك تفاضلٌ، فإذا كنت في طريق وبدا لك أمران، ينبغي عليك أنْ تختار أفضلهما، فأنت داعٍ إلى الله سبحانه، لست إنسانًا هامشيًّا تعيش على هواك أو شهواتك، كلا، فلديك مبادئ، ينبغي أنْ تختار الأفضل، فهذه هي شخصية الداعي.

وكذلك يُمكن أنْ نضع هذه الجزئية تحت بند أو كلّية ما ندعو إليه، فهذا الدِّين الذي ندعو إليه دائمًا يأتينا ويأمرنا بأنْ نأخذ بالأحسن، ويدلّنا على الأجمل والأكمل.

إذنْ من هذا الباب نتشرّف بهذه السورة، باعتبارها أعظم وأفضل سورة في القرآن الكريم؛ لذلك لم يرتضِ الله سبحانه لأعظم ركنٍ بعد الشهادتين في الإسلام ـ ركن الصلاة ـ إلّا هذه السورة، فالركن الركين في الصلاة هو قراءة سورة الفاتحة: قال سيدنا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ : (لاَ صَلاَةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ) [الامام البخاري رحمه الله تعالى].

تتشرّف بهذه السورة؛ لأنّها عظيمة؛ لأنّها السبع المثاني، فكأنّما ذكرها الله تعالى مقابل القرآن الكريم، في قوله الكريم:﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [سورة الحجر:٨٧].

لا يقصد سبحانه أنَّها مُغايرة في الأصل، فالعطف في قواعد اللغة العربية يقتضي المُغايرة، فإذا قلت جاء أحمد وأحمد، فأحمد الثاني غير أحمد الأوّل، فهذا أحمد بن محمد، وذاك أحمد بن محمود؛ لأنّ العطف يقتضي المُغايرة حتّى لو تطابق الاسمان، فكيف نفهم المُغايرة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾، هل القرآن العظيم غير السبع المثاني، أي:

إن سورة الفاتحة ليست من القرآن الكريم؟ كلا، وإنّما يقتضي المُغايرة في الوصف: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾، فهذه أوّل سورة من القرآن الكريم من حيث ترتيب المصحف الشريف، وأعظم ما في القرآن الكريم.

إذنْ المُغايرة من حيث المُواصفات وليس من حيث الأصل، فالأصل إنه قرآن واحد، ولكن من حيث المُفاضلة فالفاتحة هي الأفضل.

إذن الداعي يرنو وينحو نحو التمام دائمًا، نحو الكمال المقدور للإنسان سواء في بناء شخصيته أو بالتوجّه إلى تحقيق أهدافه، أيّ هدف كان، طالما هو في ظلّ شرع الله عزَّ وجلَّ، حتّى في الجانب المادي، تُريد أنْ تعمل؟ اعمل، لكن أنْ تعمل وترنو إلى أعلى مراتب العمل؛ فلا تكتفِ بوظيفتك طالما عندك وقت، خبرة، فرصة، استثمر الخبرة والفرصة، واستثمر عدم الانشغال وقت الفراغ، يقول الحبيب المحبوب صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه أتقياء القلوب: (اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هِرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاءَكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ) [الإمام الحاكم رحمه الله جلّ جلاله].

وسورة الفاتحة المُباركة هي السورة الوحيدة على رأي جمهور العلماء رضي الله تعالى عنهم: تكون ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ آية منها، فهي الآية الأولى؛ لذلك حينما نتشرّف بالمُصحف الكريم نجد سورة الفاتحة تبدأ بـ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، مُرقّمة بالرقم واحد، ثم نذهب إلى سورة البقرة فـ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ليس فيها رقم آية؛ لأنّها ليست آية من سورة البقرة، فـ ﴿ألم﴾ هي الآية رقم واحد، وفي سورة آل عمران الشيء نفسه، وهكذا في

بقية سور القران الكريم.

سمّاها ربّ العالمين جلَّ جلاله وتقدّست أسماؤه بالفاتحة، ولها أسماء أخرى، وتسمية الفاتحة فيها معانٍ كثيرة، منها أنّها فاتحة الكتاب، بداية الكتاب، بداية القرآن الكريم، وهذه السورة إنْ تفاعلتَ معها وفقهتَ بعض معانيها ستفتح لك آفاقًا روحيةً، فهي الفاتحة من الفتح، نسأل الله تبارك اسمه أنْ يفتح لنا جميعًا.

بدأت بـ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ﴾، و﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ﴾ جزء من آية في سورة النمل،

يقول الله سبحانه:﴿. . .إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾[سورة النمل: ٣٠].

وفي سورة العلق جاءت البسملة بالمعنى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[سورة العلق: ١].

باسم ربك الذي خلق، أي كأنّه يقول اقرأ بـ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ﴾؛ وهذا يُؤكّد مقولتي:

(كُلُّ هَدَفٍ نَسْعَى إِلَيْهِ بِبِسْمِ اللهِ، نُدْرِكُهُ بِإِذْنِ اللهِ جَلَّ فِي عُلَاه)

فلو دقّقنا النظر، لماذا أنزل الله عزّ شأنه القرآن الكريم؟

طبعًا أنزل القرآن الكريم لحكم كثيرة جدًّا، من أعظمها ليُثبت نبوّة النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم؛ فالقرآن الكريم مُعجزة خالدة، والمُعجزة أمرٌ خارق للعادة يُجريه الله سبحانه على يد مُدّعي النبوّة، فمَنْ يقول أنا نبيّ عليه أن يُثبت دعواه، فهل كلّ من يقول: أنا رسول نُصدقه؟ فمُسيلمة الكذاب قال أنا رسول، الأسود العنسي قال أنا رسول، وغيرهما كثير، فالذي يُثبت هذا الادعاء هو الأمر الخارق للعادة الذي يُجريه الله تبارك وتعالى على يديك؛ لإثبات صدقك أو نعوذ بالله لإثبات كذبك وخزيك، وإنْ كان أمرًا خارقًا للعادة.

يُروى أنّه قيل لمُسيلمة الكذاب إن سيّدنا الرسول صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه

بَصق في عين سيّدنا علي رضي الله تعالى عنه التي أرمدت فشُفيت وصارت أفضل من العين السليمة، وهذا رجل مسكين أصاب الرمد إحدى عينه، وأنت تقول أنا نبي، تفضّل ابصق فيها، فجاء فبصق فيها ـ أجلّكم الله تعالى ـ فعميت العين السليمة، سبحان الله تعالى، هذا أمر خارق للعادة؛ فالعين الصحيحة عميت، والعين المريضة بقيت مريضة، هل تحقق المراد؟ كلا، بل تحقق عكسه، فكان هذا دليلًا على كذبه وادعائه الباطل.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله سبحانه:

(وَذَكَرَ عُلَمَاءُ التَّارِيخِ أَنَّهُ (أَيْ مُسَيْلَمَة الكَذَّاب) كَانَ يتشبَّه بالنَّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلَّم، بَلَغَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَصَقَ فِي بِئْرٍ فَغَزُرَ مَاؤُهُ، فَبَصَقَ فِي بِئْرٍ فَغَاضَ مَاؤُهُ بِالْكُلِّيَّةِ: وَفِي أُخْرَى فَصَارَ مَاؤُهُ أُجَاجًا، وَتَوَضَّأَ وَسَقَى بِوَضُوئِهِ نَخْلًا فَيَبِسَتْ وَهَلَكَتْ، وَأُتِيَ بِوِلْدَانٍ يُبَرِّكُ عَلَيْهِمْ فَجَعَلَ يَمْسَحُ رُؤُوسَهُمْ فَمِنْهُمْ مَنْ قُرِعَ رَأْسُهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ لُثِغَ لِسَانُهُ، وَيُقَالُ: إِنَّه دَعَا لِرَجُلٍ أَصَابَهُ وَجَعٌ فِي عَيْنَيْهِ فَمَسَحَهُمَا فَعَمِيَ) البداية والنهاية (٣٥٩/٦).

إذن ليس كلّ أمر خارق للعادة يُعد تكريمًا أو دليلًا على الدعوى، كلا، فقد يكون استدراجًا، وقد يكون شعوذة إلى آخره.

ابتدئ الكتاب الكريم بـ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ﴾، وهذا الكتاب جاء لأهداف كثيرة جدًّا، الله

أعلم بعددها، لكن الهدف الأعظم أنْ يكون هذا الكتاب هو المُعجزة الخالدة الكبرى إلى قيام الساعة التي تُثبت بأنّ سيّدنا محمّدًا هو رسول الله صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه ومَنْ والاه، فهل تحقق الهدف أم لا؟ لقد تحقق رغم أنف المشركين والمُعارضين والمُتقوّلين والمُتجبّرين، وباقٍ إلى يومنا هذا، وسيبقى إلى يوم الدّين.

بل على العكس، كلّما ازدادت المُعارضة، وكلّما اشتدت ضراوتها، كلّما انتشرت هذه الحقيقة، حقيقة سيّدنا محمّد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، ولو أننا كنا سفراء صدق وإخلاص لتغيّر وجه الحياة، لكن اكثر المُسلمين قصّروا ـ مع الأسف ـ عندهم

قضيّة عادلة، عندهم الحقيقة، لكن إذا صحّ التعبير، فبعضهم مُحامون فاشلون، لا يستطيعون أنْ يُثبتوا هذه الحقيقة ويَنشروها.

إذنْ فـ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، يُعلّمك ربّ العالمين جلّ جلاله أنْ تتجّه إلى أهدافك

بهدايات: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وهذه الصفة تندرج تحت شخصية الداعي، وكذا نُدخلها

في ما ندعو إليه أيضًا، ولا مانع أنْ تندرج الجزئية تحت كلّ الكلّيات الخمس، فيُمكن أنْ تُدخلها في الوسائل التي تُعينك على تذليل الصعوبات والمُعوقات، أقصد الكلية الرابعة، فإذا حدثت عندك مُشكلة فقل: بسم الله، ستُحل إنْ شاء الله رب العالمين، عندما تستيقظ قل: بسم الله الذي لا يضرّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، بكلّ صدق وإخلاص وحضور، تُكرّرها ثلاث مرّات في أذكار الصباح وأذكار المساء؛ لا يُضرّك شيء في ذلك اليوم بإذن الله تعالى، وإذا وقع عليك قدر من الله سبحانه، وظاهر هذا القدر أنّه ضر فينبغي أنْ تفهمه نفعًا طالما أنك نطقتَ بهذا الذكر، وهذه من حقائق قول الله تعالى:

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٥].

بل قد ترتقي أكثر فلا تكتفي بقولك هذا ليس بضرّ، وإنّما تقول هذا نافعٌ بإذنه تعالى، وتبدأ تبحث عن أوجه النفع .

لقد أصبتُ بجلطة، وقلتُ حينها: بسم الله الذي لا يضرّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء، والجلطة في نظر كلّ النّاس ضرر، وهذا واقع حال، فهو ضرر في الظاهر، فكيف نظرتُ إليها؟ نظرتُ إليها على أنّها مكرمة، لأنّي مُؤمن بأنّي طالما قلتُ هذه الصيغة الذكرية الشريفة بإيمان ويقين، فلا يُصيبني ضرر، فهذا ليس بضررٍ في نظر المُؤمن بل هو كسب وتكريم، إنّما هو ضرر في نظر القاصر، نعوذ بالله تعالى.

وأذكر منفعتين فقط تدلّان على هذه المكرمة:

المنفعة الأولى: انتبهتُ على حالي، فربّما كان عندي تقصير، فربّ العالمين نبّهني لذلك.

المنفعة الأخرى: أنا على يقين أن جميع أحبابي قد دعوا لي، والدعاء مخ العبادة، والذي حصل لي من الشفاء كان سببًا لانشغالهم بالدعاء، أي تحققوا في العبادة، فهذه منفعة أخرى.

إذنْ ينبغي للداعي إلى الله عزَّ وجلَّ أنْ ينظر هكذا، أنْ يتفاعل بيقين مع ما يُؤمن به قلبه الحاضر، ومع ما يتشرّف به لسانه من ذكرٍ بقوة فكره الواعي.

إذا أردت أنْ تدعو بالمغفرة، تقول يا رب اغفر لي إنك أنت الغفور الرحيم، فهنا أتيتَ باسم الله تعالى الغفور، واسمه الرحيم، وهكذا إذا قلتَ يا رب ارزقني إنّك أنت الرزاق الكريم، يا رب احفظني إنك أنت الحفيظ، يا رب أكرمني وارفع لي الدرجات فإنّك الرافع الخافض، لكن لمّا تقول: يا الله، فقد جمعت كلّ الصفات، فالله هو الاسم الجامع لكلّ الصفات.

إذن فـ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أي ابتدئ مُتبرّكًا مُتوكّلا على الله سبحانه، الله هو الغفور، الله هو الرحيم، الله هو القوي، الله هو الناصر، الله هو الرافع، الله هو الجامع، الله هو المُغني جلّ وعلا، انظر فقد قدّم لك الاسم الجامع أوّلًا؛ لأنّه اسم عام جامع يشمل كلّ صفات الربوبية والألوهية، أما بقية الأسماء فداخلة فيه.

إذنْ أنت داعٍ لله عزَّ وجلَّ فلابُدَّ أنْ تتوكّل عليه جلّ في علاه، لابُدَّ أنْ تتشرّف بالاسم الجامع؛ لأنّك لا تدري أي شيء تحتاج إليه بالضبط؟ هل تحتاج إلى المغفرة؟ هل تحتاج إلى الإعانة؟ هل تحتاج إلى الرزق؟ يُريد الشرع الشريف أن يُعلّمك أنْ تلهج بالاسم الجامع.

ولمّا أراد أنْ يُبيّن أخصّ خصائص الداعي إلى الله عزَّ وجلّ، وأخصّ خصائص ما ندعو إليه أتى الله سبحانه باسمين آخرين:﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وهما اسمان مُشتقان من الرحمة

لماذا؟ لأنّك أيّها الداعي من المفروض أنْ يكون عندك صفة الرحمة، يقول سيّدنا الرسول صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه الثقات العدول:

(الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ) الإمام أَبُو دَاوُدَ رَحِمَه رَبُّنا المَعْبود جلّ ثناؤه.

صلة الرحم؛ لأنّ الرحم من الرحمة، سواء كانت الصلة التي بينك وبين من تصلهم هي صلة القُربى أو أي صفة ونسبة أخرى، حتى لو كانت نسبة الإنسانية، بل أكثر من هذا فعند أهل الذوق هناك نسبة الخَلْقية، فأنت مخلوق والشجرة مخلوقة، والحيوان مخلوق - أجلّكم الله تعالى- فينبغي أنْ تكون رحمتك شاملة عامّة لكلّ خَلق الله تبارك اسمه.

إذنْ: الله جلّ وعلا جاء باسم الرحمن، وما اكتفى بالرحمن فقط، وإنّما أضاف إليها الرحيم أيضًا، فالرحمن على صيغة فعلان، وما يأتي على صيغة فعلان يدلّ على وفرة الصفة التي في الموصوف، فنسبة الصفة في الموصوف عالية جدًّا، مثلًا تقرأ قول الحق جلّ جلاله:

﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ٦٤].

لماذا على وزن فعلان؟ لأنّه يُريد أنْ يقول لك إنّها الحياة الحقيقية، فالحياة التي تحياها في الآخرة هي التي تستحق أنْ تُسمّى حياة، وليست هذه المرحلة الدنيوية المليئة بالكدورات والصعوبات والمآسي.

الحياة الحقيقية، هي الحياة التي تُضفي على الحيّ نماءً وقوةً وجمالًا وكمالًا، فالحيوان على وزن فعلان يدلّ على تحقق الصفة في الموصوف في أعلى نسبها.

والرحيم على وزن فعيل؛ لوجود فعل يدلّ على الحدوث والتجدّد، لكن بنسب مُختلفة، فكريمٌ أكرم، ورحيمٌ أرحم، وهكذا يُوجد هناك تفاضل، لكن في حالة تحقق الصفة في الموصوف على أتمّ وجه مقدور؛ وهذا عند البشر، فنقول الكمال المقدور للإنسان ـ أما عند الله تقدّست أسماؤه وصفاته فسبحانه صاحب الكمال المُطلق، فالفعل لغير الله تعالى يُوصف بالقوّة والشدّة، لكن الصفة لله عزّ شأنه لا تُوصف إلا بالكمال المُطلق.

إذنْ نفهم من البسملة أنّ الله سبحانه علّمنا أنْ نتشبّث به، أنْ نُؤمن به بوجه عام، أنْ نذكر

الاسم الجامع ابتداءَ كل عمل أثناء حركتنا في الحياة، فقال النبي صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه:

(كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَهَوَ أَقْطَعُ) الإمام أبو داود رحمه الغفور الودود عزّ وجلّ.

وفي رواية: (فَهُوَ أَبْتَر، فَهُوَ أَجْذَم)

فلابُدَّ للداعي أنْ يتشبّث دائمًا بـ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ﴾، أنْ ينطلق إلى أهدافه على ضوء

هدايات: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ﴾، ثمّ يستفيد من: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾؛ فيأخذ حظّه من بركاتها

سلوكًا وتصرّفًا وأهدافًا، كيف أهدافًا؟

الجواب: عندما ترسم هدفًا اجعله منارًا ومنبعًا للرحمة بخَلْق الله عزّ وجلّ، ولا تُفكّر في أهداف شريرة كما يُفكّر الأشرار نعوذ الله تعالى.

هذه سورة برزت فيها معالم تدخل في باب الثناء على الله تبارك اسمه، وتعظيمه وتبجيله سبحانه، فيا أيّها الداعي يجب أنْ تتجسّد في شخصيتك هذه الحقيقة، حقيقة أنّك مُعَظِّمٌ لله جلّ وعلا، وكيف السبيل إلى معرفة أنك مُعَظِّمٌ لله سبحانه؟

لقد أعطاك الله تعالى ميزانًا في أكثر من آية، فأنت تقرأ القرآن الكريم، تسمع ذكر الله عزّ وجلّ، فهل تزداد إيمانًا؟ هل تخشع لذكر الله؟ هل يطمئن قلبك بذكر الله جلّ جلاله؟ إن كان الجواب نعم فاعلم أنك مُعظّمٌ لله عز شأنه، إذا قيل لك: اتقِ الله، فهل ستنساق لأمر الله تبارك في علاه؟ أم تأخذك العزّة بالإثم؟ فهذا ميزان، يقول ربّنا الحكيم تقدّست أسماؤه:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ

﴿بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [سورة الليل: ٥ – ١٠].

فهذا ميزان أيضًا.

يقول الله سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [سورة الشمس: ٩ - ١٠]

هذا ميزانٌ آخر.

هل تألم قلبك عندما أُغلقت المساجد فترة الوباء؟ هذا ميزان، أم إنّك فرحت، وقلت لا يُوجد أفضل من هذا، فلا وعظ، ولا صلاة تراويح، لا فلان تحدّث، ولا فلان يقول صلّوا عشرين، وفلان يقول صلّوا ثمانية، ارتحنا من كل ذلك، فالله سبحانه أعطانا إجازة، فرمضان فيه مسؤوليات كبيرة وثقيلة، ونسأل الله جلّ وعلا أنْ يُيسّرها، لكن أنت داعٍ إلى الله عزَّ وجلَّ، أنت مُؤمن بالله تبارك وتعالى، فهل يصحّ أنْ تفكّر هكذا؟ لا يصح أنْ تفكّر هكذا، بل المفروض أن قلبك يُؤلمك، المفروض أن تدخل الجامع يوميًّا فتُقبّل المحراب والمنبر، تقول: يا رب هذه شعائرك، ونحن نُعظّم شعائرك، يا رب لا تحرمنا خيرك بسوء ما عندنا، هذا تمجيد لله عزَّ وجلَّ، فالداعي لابُدَّ أنْ يكون مُعظّمًا لله جلّ في علاه، يقول الحق سبحانه:

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [سورة الحج: ٣٢].

لماذا الابتداء ببسم الله، لماذا الثناء على الله جلّ وعلا بهذا الشكل؟ لأنك مُقبل على الإقرار بحقيقة عظيمة لهذا العظيم، لهذا الملك جلّ جلاله وعمّ نواله، لهذا الذي يستحق الحمد والثناء والشكر بكل ما تعني آية: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، إقرارك بماذا؟

إقرارك بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: ٥].

أحد عباد الله عزَّ وجلّ، رضي الله تعالى عنهم جميعًا، يقول: كثيرًا ما كنت أقرأ هذه الآية الكريمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، بلفظ الجمع، لكن عن نفسي أقول: يا رب سترك "أخشى أنْ تقول لي يا كذّاب" هل تعبدني حقًا؟ هل تستعين بي حقًا؟

انظروا فهذه من معالم خوف العبد مقامه بين يدي الربّ سبحانه، قال الله تقدست أسماؤه:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ---﴾ [سورة النازعات: ٤٠].

يقول: أخشى أنْ يُقال لي يا كذاب، حتّى يُخرج بقيّة إخوته من الجمع، فيتهم نفسه فقط، ويُحسن الظن بإخوانه.

إذنْ سوف تُقرّ وتعترف بأنّك جماعة، بأنّك أمّة، فلست وحدك، صحيح تُصلّي بمفردك لكن مع ذلك تقرؤها كماهي بصيغة الجمع أيضًا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .

إذنْ من مُواصفات الداعي أنْ يعيش حالة كونه أمّة، كونه عضوًا في أمّة، كونه لبنة في بناء، ولا يجوز له أنْ يُفكّر أحاديًا، ولسان حاله يقول: أنا أرى نفسي فقط، أنا مُعجب بنفسي ـ نعوذ بالله تبارك وتعالى ـ أنا الأفضل، أنا الأتمّ، أنا الأكمل، أنا أقوم بهذا العمل وحدي، فلا أحتاج فلانًا يُعاونني، أنا من ينجح بهذا العمل فقط، مسجدي هو الأفضل، كي يقول النّاس إنَّ مسجدَ فلان أفضل المساجد، فهذه كلها أنانية، وانسلاخ من هدايات: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، انسلاخ من معاني النظرة الجمعية، النظرة المُتكاملة للأمّة على أنّها جسد واحد.

إذنْ: أنت ابتدأت التبرّك بـ ﴿بِسْمِ اللهِ﴾، والإقرار والتلذذ والافادة من: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ حتى تكون عندك من رحمة الله جلّت صفاته، وأتى بلفظ الربّ حتى يُعلّمك الحنان، يُعلمك

العناية، وضرورة المُحاسبة، وهل أنت مُربٍ حقًّا؟ هل عندك هذه العناية بمَن استرعاك الله سبحانه عليهم؟ يقول الحبيب المحبوب صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه أتقياء القلوب:

(كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤول عَنْ رَعِيَّتِهِ) الإمام البخاري رحمه ربنا الباري سبحانه.

كذا فـ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ من ضمن الثناء على الله جلّ جلاله، فيتكرر حتى ينزل إلى أعماقك

ما في هذه الأسماء الشريفة والصفات المُنيفة من خير وبركة، وخاصة اللطف والعطف والرحمة والمودة، عبّر عنها بما تُريد، فهذا التمجيد والثناء على الله عزَّ وجلَّ في ساحة: (لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ) الإمام مسلم رحمه المنعم جلّ وعلا.

تعترف بعجزك وتقصيرك، تُقِر له سبحانه بأنّك تعبده لا تعبد غيره، ليس في بالك شريك، نعوذ بالله تبارك اسمه، فأنت مُوحد لله تعالى، ومُستعين به عزَّ وجلَّ، وإذا أخذت بأسباب أخرى تُعينك فإنّك ما أخذت بها إلّا لأن الله عزّ شأنه أذنَ لك، فأنت تستعين بالصبر والصلاة، وهما غير الله عزَّ وجلّ، لكن استعنت بهما لأنّ الله أمرك بهما فقال عزّ من قائل:

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [سورة البقرة: ٤٥].

لماذا كلّ هذه الأجواء الإيمانية والرحمانية، أجواء الإقرار والثناء والانكسار لعظمة الباري سبحانه؟ لأنّك ستأتي إلى مخ العبادة، فالدعاء مخ العبادة كما قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم.

تدعو فتقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، انظر لدعائك: "اهدنا الصراط المستقيم" ألست على

الصراط المستقيم يوم آمنت؟ نعم هُديت وأُرْشِدت إلى الصراط المستقيم، وبدأت على

الصراط المستقيم، إذنْ لابُدَّ من كلمة تحصر معنى: ﴿اهْدِنَا﴾ في إحدى المعاني التي تدلّ

عليها، فهنا يُوجد اشتراك في المعنى، فالاسم تشترك فيه معاني كثيرة، والقرينة هي التي تدلك على المعنى المُراد، وهنا لا يكون معنى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، أي: دُلّنا أو أرشدنا إلى الصراط المستقيم قطعًا، إنّما معناه وفقنا وثبّتنا حال كوننا على الصراط المستقيم؛ يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ---﴾ [سورة سيّدنا إبراهيم عليه السلام: ٢٧]

إذنْ: ﴿اهْدِنَا﴾ معناها قوّمنا، ثبّتنا، اجعلنا مُخلصين، اجعلنا ممّن يمشي على الصراط المُستقيم إلى أنْ يصل الهدف، إلى مرضاة الله سبحانه، لكن هذا الصراط الذي تُريده لابُدَّ أن تكون له مُواصفات، فلا يكفي أنْ يكون مُستقيمًا، بل لابد أنْ يكون مُتَعَطِرًا بأنفاس من أنعم الله جلّ وعلا عليهم.

يرى الداعي في بدايات ما أُنزِل أمّهاتٍ وأصولًا في الدِّين، فمن أمّهات وأصول الدِّين: العناية بالعبودية لله ربّ العالمين، وأجلى مظاهر العبودية أنْ تكون داعيًا طالبًا من الله عزّ وجلّ مُتذللًا مُفتقرًا؛ لأنَّ الدعاء يدلّ على المسكنة والطلب والفقر، يدلّ على أنّك مُؤمن بأنّ هذا الإله الذي تدعوه قادر، فعّال لما يُريد جلّ جلاله؛ لذلك صار الدعاء مخ العبادة، وسمّاه الله تعالى عبادة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [سورة غافر: ٦٠]

لكن حينما تدعو في البدايات فلابُدَّ أنْ تدعو بالأساسيات، وبقية الجزئيات تأتي، فكلّ واحدة تُفرد لها زمنًا خاصًّا، وقتًا خاصًّا، جاء في الحديث الشريف:

(أَنَّ رَجُلًا ضَرِيرًا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، ادْعُ اللهَ أَنْ يُعَافِيَنِي، فَقَالَ: إِنْ شِئْتَ أَخَّرْتُ ذَلِكَ، فَهُوَ أَفْضَلُ لِآخِرَتِكَ، وَإِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ لَكَ. قَالَ: لَا بَلْ ادْعُ اللهَ

لِي. فَأَمَرَهُ أَنْ يَتَوَضَّأَ، وَأَنْ يُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ، وَأَنْ يَدْعُوَ بِهَذَا الدُّعَاءِ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَتَوَجَّهُ بِكَ إِلَى رَبِّي فِي حَاجَتِي هَذِهِ فَتَقْضِي، وَتُشَفِّعُنِي فِيهِ، وَتُشَفِّعُهُ فِيَّ، قَالَ: فَكَانَ يَقُولُ هَذَا مِرَارًا. ثُمَّ قَالَ بَعْدُ: أَحْسِبُ أَنَّ فِيهَا: أَنْ تُشَفِّعَنِي فِيهِ. قَالَ: فَفَعَلَ الرَّجُلُ، فَبَرَأَ) الإمام أحمد رحمه الفرد الصمد عزّ شأنه.

هذه دعوات خاصّة، لكن الداعي إلى الله عزّ وجلّ له أمّهات القضايا، له الأركان الأساسية في سيره إلى ربّ البرية سبحانه، وأعظمها أنْ يثبت على الصراط المستقيم، الذي تعطّر بأنفاس من أنعم الله عليهم، صراط الذين أنعمت عليهم، والقرآن الكريم يُفسّر بعضه بعضًا، يقول الله تبارك في علاه: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [سورة النساء: ٦٩].

يا ربِّ أرفقنا معهم برحمتك يا أرحم الراحمين.

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ * غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [سورة البقرة: ٦ – ٧].

وقد ورد أنّ الرسول الأعظم صلوات ربّي وسلامه عليه وآله وصحبه، فسّر هذا فقال: (الْيَهُودُ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ وَالنَّصَارَى ضُلَّالٌ) الإمام الترمذي رحمه ربنا العليّ.

لكن هل يُقتصر على هذا في تفسير الآية الكريمة؟ كلا، ففي ظلال الآية الكريمة إشارات، ألا يُفهم من الآية الكريمة أنّها تشمل كلّ خارج عن دّين الله عزّ وجلّ، كل ظالم لنفسه، وربّما مغضوب عليه وهو لا يعلم، اللهمّ نعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك، ونسألك أنْ تحمينا من ظلم أنفسنا أو ظلم غيرنا أو نجرّ ظُلمًا على أحد من خلقك يا أرحم الراحمين.

هذه السورة تُؤكّد أساسيات نحتاجها في معرفة ما ندعو إليه، في معرفة مُواصفات الداعي إلى الله جلّت حكمته، في معرفة المُعوقات التي نجدها أمامنا، فـ "المغضوب عليهم" من المُعوقات، كذا "الضالين"، ونسأل الله تعالى أنْ يُبعدنا عنهم، وعن الاقتداء أو التأثّر بهم، فقد تأثر بهم كثير من الناس ـ نعوذ بالله تعالى ـ فصدق فيهم قول الرسول صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه: (لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، قَالَ فَمَنْ؟) الإمام البخاري رحمه الباري سبحانه.

كيف نُذلّل المُعوّقات؟ بصدق اللجوء إلى الله عزّ شأنه، فإنْ لجأت بصدق إلى الله جلّ جلاله كفاك وحماك من المُعوّقات، ويُبَصّرك بعد ذلك، ويجعل كلّ شيء يُجسّد تلك المُعوّقات مكروهًا لقلبك، فيحميك من أنْ تركض وراءها او تقتدي بأصحابها.

أحدهم يزعم بأنّه داعٍ لله عزَّ وجلّ، وهو مُنتسب لحزب من الأحزاب الموجودة على الكرة الأرضية التي تزعم بأنّها إسلامية، تم اعتقاله فترة من الزمن ثم أطلق سراحه، فكيف صار سلوكه؟ بدأ يرتاد المقاهي، فقيل له: أنت حمامة المسجد، وأنت الداعي إلى الله تعالى، وصاحب دورات تحفيظ القرآن الكريم، فلماذا تغيّرت؟ فيقول: اسكتوا فهم يُراقبوننا الآن، فليُغيّروا نظرتهم عنا ثمّ نرجع بعد ذلك.

هل هذا من الديانة؟ تتشبّه بالغافلين، وتكون قدوة سيئة لأبناء المسلمين، هل هذا من الحكمة؟ فكيف كان مصيره؟ اتفق مع اليهود والنصارى، وجاء مع المُحتلين، ولمّا سألوه ما الضمان بأن هؤلاء المُحتلين يسمحوا لكم بأن تحكموا بالإسلام؟ قال: هؤلاء أصدقاؤنا ولقد اتفقنا معهم.

سبحان الله، لقد أصبح اليهود والنصارى أصدقاء! لماذا قال هذا؟ لعدم وجود الإخلاص في:

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾.

حينما تقول له: اذهب فبايع أحد السادة المُرشدين، حضرة الشيخ مصطفى قُدِّسَ سرّه أو حضرة الشيخ عبد الله قُدِّسَ سرّه، يقول: ليس بالضرورة فالله سبحانه قريب، ثم يُقدمُ لك شواهد من الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، فمثلًا يستشهد بقوله تعالى:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [سورة غافر: ٦٠].

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [سورة البقرة: ١٨٦].

لقد حرموا أنفسهم من صُحبة من أنعم الله تعالى عليهم فحُرِموا بركات وهدايات الصراط المُستقيم الذي لا يكون إلا بهم ومعهم.

كيف تُذلل المُعوقات؟ أعظم سبب في تذليل المُعوقات أنْ تتذلل في أعتاب ربّ الأرض والسماوات جلّت قدرته، أنْ تلجأ إلى الله عزّ شأنه، انظر إلى الرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم في كلّ أحواله، فمثلًا ماذا فعل في غزوة بدر؟ بنوا له العريش، جلس يدعو الله سبحانه، يلتجأ إليه سبحانه بصدقٍ وانكسار، يُناشد الله تبارك اسمه حتى أشفق عليه سيّدنا أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، فقال له:

(يَا نَبِيَّ اللهِ، كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ) الإمام مسلم رحمه الله تعالى.

المرحلة الثـالثة

أما المرحلة الثالثة فهي المرحلة التي تبدأ من صدور الأمر الإلهي لسيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه ومَنْ والاه بضرورة الإنذار، والصدع بما يُؤمر، وهي المرحلة التي يُمكن أن تُسمّى: بمرحلة الدعوة الجماعية، فالدعوة في المرحلة الثانية كانت شبه فردية، ولابد من التذكير بأن الفاصل بين هذه المراحل ليست قطعية ومُتميزة مائة بالمائة وإنّما نجد فيها بعض التداخل كتداخل ضوء الصبح بضوء شروق الشمس، فلا نستطيع أنْ نقول هذا ضوء الفجر تنفّس مائة بالمائة، لأنّ الفوارق ضئيلة جدًّا، فيصعب أنْ نقول هذا هو الحد الفاصل بين هذه المرحلة والمرحلة التي قبلها أو التي تليها؛ فهي تذوقات، نتذوقها من سيرة الحبيب صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه، ولا نُطيل النقاش في هذه الأمور الشكليّة، فالمطلوب هو الاعتناء بالجانب التطبيقي الذي يعود بالثمر والأجر والثواب على المُتكلّم والسامع، على الداعي والمدعو.

اخترت في المرحلة الماضية: سورة اقرأ وسورة المُزمّل وأضفت لها سورة الفاتحة، باعتبار أنّ المرحلة الثانية كانت مرحلة إعداد، فتفاعل معها سيّدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام وطائفة معه لأجل أنْ يُعدّوا إعدادًا تامًّا كاملًا يتناسب وما تقتضيه المرحلة القادمة، مرحلة الدعوة الجماعية.

فإذا أردت أنْ تلتقي بشخص فتُذكّره بضرورة تقوى الله جلّ وعلا، وبضرورة الاستعداد للقيام بين يديه سبحانه، فأيّهما أولى: أنْ تُذكّره وتتحدّث معه في مجلس عام فيه عشرات الأشخاص؟ أم تذهب إليه، وتجلس معه على انفراد أو أنْ تدعوه إلى بيتك، وتقول له: عندي موضوع مهم يا أخي الكريم، فتجلس مُستحضرًا قلبك مع الله تبارك وتعالى، مُستحضرًا صدقك في إنقاذ هذا المدعو، وإخراجه من الظلمات إلى النور بإذن الله جلّت صفاته، فأيّهما أولى؟ أيّهما تعتقد سيكون أكثر أثرًا في نفسيّة المدعو؟

يكون هذا عادةً في بداية الدعوات انسجامًا مع سُنّة الله عزَّ شأنه، في التدرّج في كلّ شيء،

فكلّ شيء يبدأ ضعيفًا، يبدأ جزئية صغيرة ثمّ تكبر هذه الجزئية أو يقوى هذا الشيء الضعيف.

فالفلّاح يُلقي بذرة في الأرض، البذرة ضعيفة ولكن فيها حياة بالقوة، وليس بالفعل، ما معنى بالقوة؟ أي فيها مُقوّمات الحياة، فهذه البذرة مُمكن أنْ تحيا إذا لاقت الظروف المُناسبة، والمناطقة ـ علماء المنطق ـ يُسمّون ذلك حياة بالقوة، أي إن الحياة موجودة في قوى هذه البذرة، ولكن بالفعل هي غير موجودة، فهي بذرة يابسة يضعها الفلّاح تحت التراب، لكن عندما تشُق وتصدع الأرض وتُخْرِج ثمراتها، صارت حيّة بالفعل، كذا تقول: فلان كاتبٌ بالقوة، وفلان كاتب بالفعل أي بالواقع.

إذن فالخيرات والإمكانات والقدرات المُتوفرة في المجتمع بالقوّة، يجب أنْ نعمل على إظهارها بالفعل؛ فهذا شخص كريم، عنده سخاء وكرم، إلى آخره، لكنّه لا يعرف الطريق لأجل أنْ يُترجم قوة الكرم والجود والعطاء إلى ضيافة، إلى مواقف إنسانية، فينبغي أن تذهب وتستخرج هذه الطاقات لأجل أنْ تُوظّفها في واقع الأمر.

جعل الله سبحانه التحري في فطرة الإنسان السويّ، وهل هنالك من القدرة الإنسانية الكاملة كقدرة سيّدنا رسول الله صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه ومَنْ والاه؟ كلا، بل هو القمّة، وهو القدوة في كلّ كمال مقدور للإنسان، فبالتالي هو يُريد أنْ يتثبّت من هذا الأمر، ويُريد أن يبدأ الأساس بداية ركينة قويمة قوية لأجل أنْ يُبنى عليها تماشيًا وتفاعلًا مع سُنّة التدرّج في الكون؛ قال عزّ شأنه:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [سورة النحل: ٧٨].

لكن أعطاكم الوسائل التي بها يُمكن أنْ تتعلّموا وتترقوا، فنحن لم نخرج من بطون أمهّاتنا حاملين لشهادة الدكتوراه أو لإجازات علمية أو لإجازة إرشاد، كلا، أكيد كان هناك تدرّج.

أيها الداعي أنت مُتشرّف بالحبيب عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه، المحفوظ والمعصوم

من قبل الله تبارك اسمه، المُصطفى المُختار عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الأخيار، فانظر كيف أنّ الله سبحانه يحفظه ويُربّيه، كيف أنّ الله عزَّ شأنه يجعله منارًا للبركة والخير والسُؤدد، وإخراج النّاس من الظلمات إلى النور.

فأين جذور معرفتك بالله جلَّ ذكره في قلبك؟ فبدون تتبع هذه الجذور، جذور هذا الأصل الأصيل، يصعب علينا أنْ نتحمّل القول الثقيل، قال تعالى:﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾.

نتحمل جزءًا من أعباء الدعوة إلى الله تبارك تعالى إذا كانت معرفتنا مهزوزة، ضعيفة، ألْهَتّنا الشهوات فغطّت معالمها ومسامّها التي تُؤدي إلى تعمّقها أكثر، فلابد أنْ نُجاهد أنفسنا لتأسيس خطىً تُؤدي بإذن الله جلّت صفاته إلى إخراجنا من الظلمات إلى النور، والإنسان مهما علت مرتبته في مراتب التقوى واليقين يحتاج لأنْ يخرج من الظلمات إلى النور، فالمرحلة السابقة تعتبر مرحلة فيها نوع من الظلمة بالنسبة للمرحلة القادمة، والمرتبة الأعلى وهكذا، قال الله تقدّست أسماؤه:

﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ﴾[سورة البقرة: ٢٥٧].

بداهةً قد يسأل شخص: كيف يكون المُؤمن في الظلمات؟ نعم، في ظلمات، لكن ليس في ظلمات الكفر أو الشرك فقد تجاوزها والحمد لله، لكن ربما في ظلمات بعض الجهل بالله تبارك وتعالى، الجهل بمعرفته سبحانه، ربّما في ظلمات بالنسبة لمقامات القرب والأنس من الله تقدّست أسماؤه، يعني: بالضبط مثل مُوظف في مرتبة ما ثمّ رُقّيَ إلى مرتبة أرقى، فهو بعدئذٍ يرى أنّ المرتبة السابقة كان فيها نوع من الضبابية أو الظلام بالنسبة للمرتبة الأعلى، وهكذا ولله المثل الأعلى قال الله جلَّ وعلا: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ [سورة الإسراء: ٢١].

يُمكن أنْ يُقال: هم في المرتبة الأعلى أفضل من المرتبة التي قبلها، كأنّه كان فيها نوع من الظلمة أو الضبابية أو السُحب الكثيفة، فإذنْ ينبغي علينا أنْ نتذكّر دائمًا بأنّنا نتعامل مع الله تعالى القائل: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [سورة يس: ٨٢].

ينبغي أنْ نستذكر هذه المعرفة، أنْ ننظر إلى جذورها في قلوبنا، ليس مثل جذور النباتات الضعيفة الصغيرة، فبمجرّد أنْ تسحب ساقها تنقلع من جذورها، بل مثل جذور النخلة، والأشجار المُعمّرة؟ فأين هذه من تلك؟ يبقى يحفر الإنسان حولها فلا تهتز ولا تتأثر.

إذا بقيت الدعوة فردية فكيف ومتى سينشر الإسلام؟ كيف سيصل صوته؟ كيف يصدع بالأمر؟ قال الله جلّت قدرته: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [سورة الحجر: ٩٤].

ومن معاني الصدع بالأمر، أي: خذ الأرض طُولا وعرضًا، شقّها فأنت مُكلّف بأنْ تُوصل هذه الرسالة إلى كلّ بيت شجر وحجر ومدر وشعر ووبر؛ فالمفروض بك أيّها الداعي بحسب إمكانياتك في هذا الوقت أن تُوصل صوتك إلى أمريكا، فرنسا، روسيا، وهكذا.

فإذا كنت تدعو واحدًا واحدًا فمتى ستنتهي؟ إذن هذه المرحلة الانتقالية، هذا المفصل الذي ننتقل منه ومن خلاله، فنحتاج إلى هذه الوقفات، وإلى تمحيص ومراجعة النيّات.

هذه الأحكام التي تسمع بها، هذه الأخبار التي تتلقّاها، هذه البركات التي وصلتك من خلال الحبيب صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه، حينما أوحى الله تعالى له، ما مصدرها؟ وإلى مَنْ تنتسب؟ قال الله عزّ وجلّ:

﴿ ـــ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ ـــ ﴾ [سورة آل عمران عليهم السلام: ٧٩].

أنت مُنتسب إلى الربّ سبحانه، فنحتاج أنْ نفحص هذه الصفة، صفة الربانية، أين موضعها من قلبك أيّها الداعي؟ إلى أي درجة وصلتَ في مدّ هذه الجذور في أعماق روحك؟ هل هي

في أرضية القلب أم في سويداءه أم في لبّه وجوهره؟ نحتاج أنْ نُراجع قبل أنْ ننتقل إلى المرحلة المُقبلة، لأنّ المرحلة المُقبلة فيها ما فيها من تبعات وتضحيات، فإذا كان الشخص قاعدًا، ويقول: أنا مُسلم، وأصلّي، والحمد لله، وحينما يُريد أن يُخرج ألف دينار من جيبه ليُعطيه فقيرًا ترتعش يده بخلًا وحرصًا وتمسّكًا بالحياة الدنيا، أين هذا ممّن يُعطي كلّ ما عنده، قال الله جلّ وعلا:

﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾[سورة الليل: ١٨ – ٢١].

لقد وضع سيدنا أبو بكر رضي الله تعالى عنه ماله كله بين يدي النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم؛ فسأله عليه الصلاة والسلام: ما تركتَ لأهلك يا أبا بكر؟ فأجاب: تركت لهم الله ورسوله.

إنّه اسم الحبيب صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه، المُقترن باسم الله جلّ في علاه في كل حين، قال الله تقدّست أسماؤه: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[سورة الانشراح: ٤].

سمعت من الشيخ إسماعيل رحمه الله تعالى ـ أحد الصالحين في مدينة تكريت ـ هذا الرجل العَلَم، الشّهم، الذي ترك بصمات قوية، وقد سمعت من فمه الشريف أشياء كثيرة، من ضمنها قال: زارنا حضرة الشيخ عبد الله رضي الله تعالى عنه إلى تكريت، فأنا مُتألّم وألوم نفسي على التقصير، ودمعت عيناه، فقلتُ: ما التقصير يا فضيلة الشيخ؟ حاشاك من التقصير، قال: لم أفرش لحضرته الطريق بالورود، كان واجبًا عليّ أن أفرش الطريق ورودًا.

وبمناسبة الأتقى الذي أعطى كلّ ما يملك لله جلّت صفاته سمعت الشيخ إسماعيل رحمه الله

تعالى يقول: في بداية بزوغ رؤوس الشياطين[1] - أصحاب الفكر التكفيري المُتشدد - تلك الحركة المُتطرفة ـ نعوذ بالله جلّ وعلا ـ التي كانت تُمهّد لغزو العراق، جاء أحدهم فصعد منبر جامع إحدى قرى تكريت، وكان الحضور بين٤٠ إلى ٥٠ شخصًا بالكثير، هم فلاحون بُسطاء، بُيوتهم مُتباعدة، وابتدأ الخطيب بالديباجة التي يحرصون عليها، وكأنّها فرض لا تصح الخطبة إلّا بها، وفيها قول النبيّ الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم:

(كلُّ بِدعةٍ ضلالةٌ) الإمام مسلم رحمه المنعم سبحانه.

فقال: أمّا بعد أيّها المُسلمون، فهل تعلمون مَنْ أوّل مُشرك في الإسلام؟ ـ ناقل الكفر ليس بكافر ـ فيُجيب: أوّل مُشرك هو أبو بكر الصدّيق، رضي الله تعالى عن سيّدنا أبي بكر، هذه سمعتها من الشيخ إسماعيل، لم يروِهَا لي أحد، يقول: لم يُصدّق المُصلّون ما سمعوا، هل قال ما قال فعلًا؟ لعله قال: أوّل مُنفِق في الإسلام، لم يتبيّنوا لها جيدًا، وهكذا كلام لا يُعقل أنْ يُقال على منبر خير الرجال صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله وصحبه، ولا أحد يُصدّق كيف تلفّظ بمثل هذا الكلام؟ فتجاوزوها على أنّهم لم يسمعوها بوضوح أو لم يفهموها.

لماذا قال عن سيّدنا أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ذلك؟ لأنّه قال: تركتُ لهم الله ورسوله، فهذا لا يجوز ـ بحسب فهمهم السقيم ـ لأنّه قرن الرسول صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم بالله جلَّ وعلا فهذا شرك!

ثم أردفها بقبيحة وجريمة ثانية، فقال: وأوّل مُبتدع في الإسلام: عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، لماذا؟ قال: هو اعترف بنفسه فقال: نعمت البدعة هذه، حين رأى الناس يُصلّون التراويح فجمعهم على إمام واحد، يقول الشيخ أسماعيل: هنا انتبه النّاس، وعرفوا غاية

[1] النِخْلة القديمة، والنِحْلة الجديدة ـ كما سمّاهم أستاذ الجيل حضرة الشيخ عبد الله الهرشمي طيّب الله تعالى روحه وذكره وثراه ـ هما وجهتان لعملة واحدة، والحمد لله الذي أرانا أفعالهم لأنّ بعض الناس كانوا يقولون: لماذا حضرة الشيخ عبد الله تكلم عليهم؟ كأنّهم يتهمونه ـ حاشاه ـ لكن الحمد لله الذي جعلنا نعيش ونرى فعلا الوجهين القبيحين لتلك العملة الفاسدة المُفسدة، النِحلة القديمة، والنِحلة الجديدة، مع الفارق والمنافاة الظاهرية بينهما.

الكلام، وكان هناك رجل كبير في السنّ عمره ناهز الثمانين، انتفض غيرةً على صحابة رسوله صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه[١]، فقال: إذا سيّدنا أبو بكر مُشرك؟ وسيّدنا عمر مُبتدع؟ فماذا بقي لنا من الدِّين؟ فمدّ يده إلى العِقال ونزعه من على رأسه، ثمّ قال: قد صلّينا كثيرًا من الجُمع فهذه الجمعة لا لزوم لها ـ هكذا قالها الشيخ إسماعيل، نقلًا عن ذلك الرجل المُسنّ ـ ثمّ صعد المنبر وسحب ذلك الشيطان ونادى بالحضور: رحم الله والديه مَنْ يحثّ التراب عليه، فبدأ النّاس يضربونه، بين لكمة وصفعة، وأخرجوه من حرم الجامع، ثمّ قال: أقم الصلاة، وصلّوا صلاة الظهر.

إذنْ حينما نُريد أنْ ننتقل من مرحلة إلى مرحلة أخرى، لابُدَّ أنْ نُراجع نيّتنا، نُراجع معرفتنا بالله تبارك في علاه، ينبغي أنْ نستذكر بأننا نقترب من ساحة الحبيب صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، أنتبه نقترب، فلا أقول: نحن ـ أستغفر الله- في ساحة الحبيب صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه وسلّم، فأنّى لنا ذلك!!

لقد فقهنا من المرحلة الثانية: ضرورة وجود مَنْ نقترب من ساحته في حياتنا الدعوية إلى الله عزَّ وجلَّ، وهو الحبيب صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه، فإذا كان الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام يُوصي المسافرين بقوله:

(إِذَا كَانَ ثَلَاثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ) الإمام أبو داود رحمه الودود جلّ وعلا.

إذنْ كم هو ضروري هذا المَعلَم الذي يُشير إلى هذا المبدأ الإسلامي، كم هو ضروري أنْ يكون موجودًا في حياتنا، خاصة في حياتنا الدعوية؟ فالرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم أكّد في المرحلة الثانية هذا المبدأ والمَعْلَم تأكيدًا عظيمًا جليًّا، بعد أنْ تحرّى وتثبّت، فقال له سيّدنا جبريل عليه السلام: أنت رسول الله، ونزل من القرآن الكريم ما يُطمئنه، قال الله تبارك اسمه: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [سورة الضحى: ٣].

---

[١]ـ قال خاتم النبيين صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه في حق سادتنا الخلفاء الراشدين: (عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ) الإمام أبو داود رحمه المعبود جلّ وعلا.

إذنْ فحضرته المحور الذي ينبغي أنْ ندور حوله، أنْ تدور حوله الأمّة الإسلامية، وتتشبّث بأذياله الشريفة الطاهرة الزكية صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، إنه الشخص الذي يجب أنْ يرجعوا إليه، يتعلّموا منه، يتباركوا به، يتنوّروا من نوره، يستفيدوا من توجيهه وإرشاده، ولا يصدروا عن شيء بغير إذنه.

سيّدنا الصدّيق رضي الله تعالى عنه أصرّ أنْ يُعلنها مُدوّية فيجعلها جماعية، لكن مع وجود سيّدنا الرسول صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه العدول لا يُقتدى بعمل سيّدنا أبي بكر الذي استأذن الرسول صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلمّ بذلك أوّل مرّة فلم يُوافق، قال: أنا خائف عليك من المُشركين، فأصرّ سيّدنا الصديق رضي الله تعالى عنه، فذهب، ولمّا جهر بالدعوة يُريدها جماعية ضربوه ثمّ ضربوه حتّى ثارت قبيلته ومَنْ يحترمون مكانته فكفوا المُعتدين عنه، وحملوه لا يشكّون في موته .

إذنْ موضوع الإمارة والقدوة، موضوع المُربّي والمُرشد ضرورة شرعية، لا تستقيم حياة الأفراد بدونها، فمثلًا عندما دخلنا معمعة الاحتلال نعوذ بالله جلّ وعلا، ظهرت دعوات هنا وهناك، وظهرت المناصب، بدأت الدنيا تظهر، تحلو، تتزين؛ فعُرض عليّ منصب كبير بدون أي تطلّع أو طلب، عُرض عليّ منصب وزير الأوقاف، يا سلام من إمام وخطيب إلى وزير الأوقاف، لكنها أهداف وهمية، وثمرات زائفة، وقد وفقني الله تعالى للتحصن منها، وعدم التثاقل للأرض، وتم رفض العرض.

فإذنْ المرحلة الثانية برز فيها هذا المَعلَم على أَشُدِّه، فالكلّ يؤول إلى الحبيب صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه، وهذه من أسرار وحِكم اختيار دار الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله تعالى عنه، فقد كان مَحِلًا مُناسبًا لجلسات الإعداد، التي يتعذر إقامتها آنذاك داخل الحرم؛ لما فيه من المُوبقات والمفاسد العقدية والسلوكية والأخلاقية المُتردية، التي لا تليق حتى بالحيوانات، أجلكم الله تعالى.

كيف لهذا النبع الصافي، كيف لهذه الروح الزكية أنْ تُؤثّر في تلك الأجواء الموبوءة، فكان اختيار دار الأرقم رضي الله تعالى عنه ليجلس فيه حضرة النبيّ المختار عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الأبرار، فيبثّ الخير والبركة والأسرار.

يقولون إنّه كان يُعلّمهم القرآن الكريم صلوات ربي وسلامه عليه، نعم، أكيد، ولكن كم نزل من القرآن الكريم آنذاك؟ لم ينزل منه إلّا القليل، فلماذا لا نقول كان يُعلّمهم ويُدارسهم ما نزل من القرآن الكريم، ويُغذّي أرواحهم من أنوار قلبه الشريف الزاكي الذاكر، القلب الذي لا حظّ للشيطان فيه، القلب القائم بين يدي الرحمن سبحانه، القلب المُنيب السليم، وهذا القلب المبارك له إشراقاته وآثاره لهؤلاء الذين جاؤوا وهم عطشى لهذه الحقائق، فيُزكيهم ويُربيهم، ويُؤنسهم، ويُخفّف عنهم ما يُصيبهم من عناء، ويُبيّن لهم معالم المستقبل.

إن أمر النبوة كان مُعلنا؛ فأخبار بعثة نبي آخر الزمان مُتداولة، والإرهاصات لها كانت ظاهرة، فكانت هنالك رقاب تترقب وترنو وتشرأب، وهناك آذان صاغية تسمع، وهناك قصص وروايات ومنامات تُبَث وتُنشر، بل هنالك صوارِخ أحيانًا بأمر الله جلّ في علاه، صارخ يصرخ بأهل مكة، يسمعون صوتًا، ولا يرون شخصًا، هذه كلّها تمهيد للإيمان بالغيب، للإيمان بالصفحة الغيبية في الكون، أما الذين يُحاولون أنْ يَطمِسوا هذه المعالم فهم يُؤسسون للقضاء على عقيدة الإيمان بالغيب.

نحتاج إذنْ إلى هذه الوقفة للتأكّد من إخلاص النيّة لرب البرية عزّ شأنه، والبحث عن جذور معرفتنا بالله عزَّ وجلَّ، أنْ نستذكر بأنّنا نقترب من ساحة الحبيب المحبوب صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه، نرى ونتطلّع لمعرفة المعالم التي ظهرت في المرحلة الثانية، ومنها القدوة، الإمارة، الإمامة، الإرشاد، الربانية.

المهم أنْ يكون لك إسنادٌ، أنْ يكون لك مُرتكزٌ، أنْ يكون لك مُتكئٌ، أن تتمتع بقوّة تستند إليها؛ فأنت في دار الأسباب.

نعم، أنت مُستند إلى قوّة الله سبحانه، لكن في عالم الأسباب تحتاج إلى نقطة ترتكز عليها، وتستند إليها، وتتبارك بها، وتستمد منها، لتستطيع بعد ذلك أنْ تدخل إلى المرحلة المُقبلة، المرحلة الثالثة، مرحلة الدعوة الجماعية.

إن التمييز بين المراحل أمرٌ ظنّي وليس بقطعي، خاصة بين المرحلتين الثانية والثالثة لأنّ التواريخ والأحداث لا تُعين على معرفة دقيقة للفصل بين مرحلة وأخرى، وكما ذكرت فيما سبق إنّ هذا التداخل لا يضرّ في الوقوف على سمات تُؤكّد بأنّ هذه من المرحلة الثانية أو من المرحلة الثالثة، بمعنى: أنّه حينما نتحدّث عن قوة الصلة بالله جلّ في علاه فهذه الصفة لا تختلف من حيث الوجود في المرحلة الأولى والمرحلة الثانية والمرحلة الثالثة.

ففي المرحلة الأولى: الصلة بالله جلّ وعلا كانت صلة فطرية، فنقاء فطرته صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم اقتضى هذا النقاء والصفاء، والله تبارك وتعالى حمى حبيبه عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام من الانزلاق فيما يُؤثر على نقاء وصفاء هذه الفطرة، ثمّ لبيان أنّ هذه الفطرة ينبغي الحفاظ عليها، والعناية بها، فهذا أمر ضروري جدًّا بالنسبة للداعي في حق نفسه، وكذلك فيمَنْ يُريد أنْ يعدّه من الدعاة، ومَنْ تقدّم به العمر فلينظر حوله، لينظر إلى ولده سواء كان ذكرًا أو أنثى، فثَمة من يُمكن خدمته بهذه الهدايات.

إن الله تعالى يُريد منّا في حال اعتذارنا عن أنفسنا لفوات الفرصة، إذ لم نجد من يأخذ بأيدينا إلى هذه الآفاق المُتألقة الناصعة، أقول: نعم، لنقل هذا عن أنفسنا، ولكن ينبغي أنْ نهتم بمن حولنا ممن نجده من أولاد، أصدقاء، جيران، أي إنسان بيننا وبينه صلة، أنْ نُربّي هذا الإنسان على هذه المعاني، الحفاظ على الفطرة، واستدامة صفائها ونقائها.

كان الله تعالى يتدخل في المرحلة الأولى ليُحافظ على فطرة النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم من أنْ تُخرم، ثمّ يتصرّف ربّ العالمين سبحانه بحكمته وإرادته في ترقية هذه الفطرة إلى مراتب أعلى وأعلى تألقًا، كما حصل في حادثة شقّ الصدر حيث امتلأ قلب النبي صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه نورًا وحكمة.

عندما أتينا إلى المرحلة الثانية رأينا هذه الفطرة بدأت تتألّق بفعل الله جلّ وعلا، ثمَّ بفعل سيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه ومَنْ والاه، وطبعًا فأن الله عزَّ وجلّ هو المُريد في كل الأحوال؛ فلا مشيئة للعبد إلّا بعد مشيئة الله تبارك وتعالى:

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة التكوير: ٢٩].

فرأينا هنا ـ مثلًا ـ قد حُبّب إليه الخلاء، وأكّدنا هنا أنّه مبنيٌّ للمجهول، وعندما حُبّب إليه الخلاء لم يُعارض هذا الحُبّ، وإنّما سار في هداياته، فبدأ في التحنّث في غار حراء.

نحن في المرحلة الثانية، ولقد بدأت الملامح بالظهور، قال الله تبارك اسمه:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [سورة العلق: ١].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [سورة المزمل: ١-٢].

جانب المُجاهدة من العبد بدأ يتّسع أكثر، فالعبد هنا يُجاهد نفسه بوسائل العلم، بالقراءة، وبالعبادة المحضة، وأجلى صورها قيام الليل، قال تعالى:

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [سورة المزمل: ٥].

حسنًا إذا ذهبنا إلى المرحلة الثالثة نجد أنّ سيدنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم كان يقوم من الليل حتى تتفطّر قدماه، فقالت له السيّدة عائشة رضي الله تعالى عنها: (لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: أَفَلاَ أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا) الإمام البخاري رحمه الباري جلّ جلاله.

إذنْ في المرحلة الثالثة المُجاهدة ستظهر بأعلى صورها وقوّتها، ومساحتها ستتسع

للجزئيات التي تدخل تحت المُجاهدة، وسوف تتعدّد صورها، ستختلف، وستظهر أنواع أخرى من المُجاهدات كما سنرى، وهذا النوع من التداخل سيبقى موجودًا في جميع المراحل لكن نِسَبها تختلف، ودوافعها تختلف.

ليس هناك ترك للفطرة في المرحلة الثانية بل بالعكس صار أمرانِ يتصرّفان بالفطرة: إرادة الله تبارك وتعالى، ومُجاهدة النبيّ عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام، وعندما تذهب إلى المرحلة الثالثة نرى أنّها باقية كما هي، لكن أكثر سبب مُؤثر فيها، وفي ارتقاءها وزيادتها وتألقها هو فعل المُكلّف نفسه.

ولأن الجانب التطبيقي هو المطلوب منا لهذه الهدايات فإننا لا نرى في المرحلة الثانية أي مدرسة فقهية أو عقائدية، ليس هنالك فلان قال كذا، وفلان قال كذا، كلا، فالموضوع مُنحصر عند المُشرِّع، وهو سيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم تبليغًا عن الله جلّ في علاه؛ فالمرحلة مرحلة تأسيسية للمبادئ الأصيلة في الدّين، وليست المبادئ التي تفرضها الوقائع والحوادث، كلا، وإنّما ما يُريده الله تعالى، فالذي يُريده الله عزَّ وجلَّ أنْ نطبّق، وإلّا فما قيمة شخص يحفظ القرآن الكريم، وهو لا يُصلّي! نعم رأينا في حياتنا شخصًا حافظًا للقرآن الكريم، وهو تارك للصلاة - نعوذ بالله تعالى- فما فائدة هذا الحفظ؟

قد تجد في الحياة مَنْ يحفظ النصوص، مَنْ يحفظ أصل التشريع، يحفظ صحيح الامام البخاري والامام مسلم ثمّ يرتقي المنبر ليذبح المُسلمين، هذا تطبيقه، وهو عكس مُراد الله عزَّ وجلَّ، ما فائدة هذا الحفظ؟ رأيت رجلًا حافظًا للقرآن الكريم، وهو لا يُصلّي، فقلتُ له: يا عمّ لماذا لا تُصلي، وأنت ما شاء الله حافظ للقرآن الكريم؟ وعمري آنذاك (١١) سنة، فقال لي: الصلاة كانت في ذلك الوقت واجبة، ولو نزل الوحيّ الآن لقال لنا: لا تُصلوا لأنّ الحياة أصبحت مُعقدة، فالنّاس حينئذٍ لم يكن عندهم شيء ففرض الله سبحانه عليهم الصلاة حتى لا يبقوا جالسين!!

هكذا يُفلسفها بحسب هواه، انظروا كيف إن الشيطان - نعوذ بالله تعالى- يجد لها تكييفًا ذهنيًا - إنْ صحّ التعبير- لكن أكيد هذا من وساوس الشياطين والنفس الأمّارة بالسوء، بالضبط

هكذا قالها: النّاس ذاك الوقت ليس عندهم عمل، فحتى لا تتجمد مفاصلهم، فرض الله جلّ وعلا عليهم هذه الحركات، وأنا أعمل من الصباح إلى المساء، فأين أجد مجالًا لأصلي؟ فلا تُوجد صلاة في الإسلام.

وهذا كما لا يخفى إنكار لما ثبت في الدّين بالضرورة، وهذا أصل واضح من أصول الكفر في الإسلام - نعوذ بالله تبارك وتعالى- فمن أصول الكفر في الإسلام أنّ يُنكر المرء أمرًا ثبت في الدّين بالضرورة، فحتى الجاهل يعرف أن الصلاة فريضة في الإسلام.

إذن التطبيق، أؤكد على التطبيق، فهو مُراد الله عزَّ وجلّ، ورسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، ولذلك نجده في المرحلة الأولى، قال تبارك تعالى:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [سورة العلق: ١- ٥].

وقال عزَّ شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [سورة المزمل: ١-٢].

نأتي إلى المرحلة الثالثة: تبدأ من نزول سورة المُدثر، فالداعي إلى الله جلّ وعلا استكمل ما يُعينه على الدعوة الجماعية، لأنّ الدعوة الفردية غالبًا ما تكون مُسالمة، طريقها سهل، تجلس مع أحدهم، وتتكلّم معه، فلا حكومة تسمع ولا استخبارات تُراقبك، وإنْ كان ما تتحدث به دينًا، فأنت لا تُريد به أنْ تصنع انقلابات وثورات أو تُريد أنْ تصنع ما يُسّمى بالربيع ظلمًا وعدوانًا، فهذه تسمية الأشياء بأضدادها، والحق إنها جحيم وليست ربيعًا.

لقد بدأتَ بالبناء، والبداية تكون ضعيفة دائمًا، والتدرّج سُنّة الله عزَّ وجلّ؛ فالفلاح يضع البذور في الأرض لكن ينتبه، إمّا أن يضع شاخصًا أو يضع تمثالًا لإنسان حتى لا تأكل الطيور تلك البذور، فالبذور ضعيفة لا تستطيع أنْ تُدافع عن نفسها، لكن حينما تخرج وتكبر

هل سيجعل لها شاخصًا؟ هل يجعل لها تمثالًا؟ هل يذهب ويعتني بها؟ كلا، فقد قويت وضربت بجذورها في الأرض، وهنا فالطير لا يستطيع أنْ يجتثها من جذورها ويقلعها.

في البدايات التدرّج ضرورة، لأن الشيء يبدأ ضعيفًا، فالرسول صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه ما أخفى دعوته بل بيّنها، وبدأ أهل مكة يتحدثون عن هذا الدين، يتحدثون أنّ هناك صلاةً، وأناسًا يُصلّون ويتعبدون بهذا الشكل، صحيح كان قسمٌ منهم يذهبون إلى الشعاب فيُصلّون هناك ليتذوقوا الصلاة، ويخشعوا فيها، ولا يُعرضوا أنفسهم للفتن، فهم ما زالوا في بداية طريقهم؛ والله سبحانه ما شرع هذا الدّين للتصادم مع النّاس، وإنّما أنزله وبيّن أنّ الدعوة إليه لابُدّ أنْ تكون بالحكمة، قال عزّ من قائل: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل: ١٢٥].

لا زلنا نُبيّن معالم المرحلة الثانية حتى نفهم ما حدث في المرحلة الثالثة، فالرسول صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم لم يصنع تنظيمًا سريًّا، وإنّما بيّن أنّه رسول الله، وذهب وصلّى في الحرم المُحترم وتحمّل ما تحمّل، لكن بشكل فردي، وليس بشكل جماعي حتى يكون عنده اطمئنان واستقرار، ويتمكّن من التعليم والتزكية والتُوجيه والإرشاد.

ثم نزلت سورة المُدثر، قال تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ [سورة المدثر: ١-٢].

فالرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم لم يُبعث نذيرًا فقط بل بشيرًا أيضًا، وكما قال الله جلّ في علاه: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [سورة النساء: ١٦٥].

الأنبياء جميعًا عليهم الصلاة والتسليم، عندهم بشارة و نِذَارَة، وكذلك سيدّنا رسول الله عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه أجمعين، قال ربّ العالمين جلّ ثناؤه:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [سورة الأحزاب: ٤٥].

قال تعالى ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾؛ فأين (مُبَشِّرًا)؟

لأنّه صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم بشّر في المرحلة الثانية بأنّه مَنْ قال: (لا إله إلا الله، محمّد رسول الله) يعصم نفسه وماله، مَنْ قال لا إله إلا الله يدخل الجنّة، بشّرَ بأنّه رسول الله عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام، المُبعوث لهذه الأمّة لخلاصها ونجاتها، ولا يعني إنّ صفة المُبشّر انتفت عن الحبيب صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه في المرحلة الثالثة، كلا، وإنّما صفة الإنذار برزت هنا لأنّ رؤوس الطغاة بدأت ترتفع لأجل القضاء على الدعوة وصاحبها.

يصعب تحديد الفترة الزمنية بين قول الله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾، وقوله:﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾

أو بين قوله: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾[سورة الحجر: ٩٤]، وقوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [سورة الشعراء: ٢١٤].

لا أريد أنْ أحدّد أنّ هذه الآيات نزلت بعد كذا، لأنّه لا دليل عندي، فأنا لا أقسّم تقسيمًا نقليًّا إخباريًّا، فأقول روى فلان عن فلان أن هذه السورة نزلت كذا، وهذه تُعتبر في المرحلة الثانية وهذه تُعتبر كذا، كلا، أنا أقسّم هذه المراحل بحسب فهمي لإعداد الداعي، فإذا كان سيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم رمز الدعاة فهذا يعني أنّ فطرته أنقى وأصفى فطرة خلقها الله عزَّ وجلّ في الكون، وقلبه أطهر وأزكى قلب خلقه الله تبارك في علاه، وربّ العالمين حفظ هذا القلب في المرحلة الأولى، حفظ هذه الفطرة من دواعي بشرية إنسانية تدعو الإنسان لأنْ يُرفه عن نفسه فيحضر احتفالًا أو يرفع ثوبًا، إلى آخره ممّا كان طبيعيًا في ذلك الزمان، لكن هذا يخرم هذا القلب الطاهر الزكي، ويخرم هذه الفطرة

النقية، فيحفظه سبحانه، ثم يحتاج بعد ذلك ـ حتى يتحمّل ثقل الدعوة إلى الله تبارك اسمه ـ إلى مُقويات أكثر وأكثر، فيأتي شرح الصدر وغيره، ثمّ لأنّ الدنيا دار أسباب فلابُدّ للداعي إلى الله عزَّ وجلّ أن يُهيئ أسبابًا بها يُقوي قلبه بإذن الله تبارك وتعالى، فتأتي التكاليف الشرعية قال جلّ جلاله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾.

وفي ظلال هذه الهدايات كيف أربّي داعيًا إلى الله عزَّ وجلّ؟

دعونا نقول: أحدهم عنده ولد، فيقول: طالما عرفت أن هنالك هدايات فيا زوجتي المُحترمة، يا حبيبتي، تعالي نتعاون، فنبدأ من الآن نُعدّ ولدنا هذا داعية إلى الله عزَّ وجلّ، هذا هدفنا، ولكن كيف نُعدُّ داعيًا إلى الله عزَّ وجلّ، وهو غير مُكلّف؟ عمره (١٠) سنوات مثلًا، نُحاول أن نُبيّن له أنّ هناك شيئًا في داخلك، في كيانك الإنساني، ينبغي أنْ تُحافظ عليه، هناك جوهرة ينبغي أنْ تُحافظ عليها، نُبيّن له شيئًا فشيئًا بقدر استيعابه وفهمه، وبالحكمة والوسيلة الناجعة في مثل هذا العمل، لكن متى نُعدم هذا الخير؟ حينما لا نستحضر هذه النيات والغايات النبيلة، فيذهب الولد منّا ويكبر، وتفسد فطرته بفعل البيئة والإنترنت.

إذنْ الذي يُريد أنْ يضع هذا الهدف يمشي على هذا المنهج، يُحافظ على فطرة ولده، يتعاون مع زوجته، فهذا ضروري جدًّا، لا تعمل لوحدك، فالإسلام دين الجماعة، أقل الأقوال في الجماعة قالوا: اثنان فصاعدًا، اعتبروا الاثنين جماعة، حتى بعض الفقهاء رضي الله تعالى عنهم، يقولون في موضوع العدد اللازم لصحة صلاه الجمعة: اثنان مع الإمام، بعضهم قالوا: واحد مع الإمام يُعتبر جماعة.

في المرحلة الأولى كانت نسبة البشارة كبيرة جدًّا، وربّما لا تجد نسبة للإنذار مع أنّه صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم بُعِثَ بشيرًا ونذيرًا، لكن النِّسَب تختلف من مرحلة لمرحلة، ثلاث سنوات دعوة فردية مع زوجته، ابن عمّه، صديقه، مع القادم إلى مكة، وهكذا.

ولمّا صاروا بحدود الأربعين شخصًا تقريبًا، أصبحت الدعوة الفردية لا تُغني لأنّ الله عزّ وجلّ لا يُريد الدِّين لأهل مكة فقط، كلا، يُريد الدِّين للعالمين، قال تعالى:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [سورة ص: ٨٧].

هذا معروف عند كلّ الناس، حتى الغرب يعرفون الآن أنّ محمّدًا صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم رسولٌ للعالمين، كثيرٌ منهم يعرفون، فلا تنفع الدعوة الفردية، فالعمر لا يكفي للدعوة الفردية، فبدأت معالم المرحلة الثانية بالإنذار وهي من صور رحمته، قال عزّ شأنه:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: ١٠٧].

كيف يكون الإنذار من صور رحمته؟ يقول لهم: يا بني قومي، يا عشيرتي، يا جماعتي، يا ابنتي، يا ذريتي، أمامكم حساب، أنذركم من غضب الله عزّ وجلّ، أنذركم من السقوط في النّار:

﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ * وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [سورة الذاريات: ٥٠-٥١].

(فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيْدٍ) الإمام البخاري رحمه الباري جلّ جلاله.

البشارة قد لا تنفع مع بعض النّاس الذين انطمست فطرهم، فعلى الأقل بالإنذار، فمثلًا تقول لشخص ما إذا كنت تبغي منافعَ فعليك بهذا الطريق، فيقول لك، لا أريد هذه المنافع، فعندي خير كثير، بينما إذا رأيت شخصًا آخر يُريد أن يمشي في طريق فيه مزالق ومخاطر، فتقول له: يا أخي الكريم هذا طريق خطر، فيه لصوص وقُطّاع طرق؛ فحتما سيتنبه ويشكرك.

فالإنذار لا يُصدّ عنه، بينما البشارة ربّما يستغني الناس عنها، لذا فالإنذار أدعى لقبول الدعوة في التأثير على النّاس.

ولأنّ الإعلان والدعوة الجماعية تُؤدي إلى إيصال هذا الخير والخبر إلى أكبر مجموعة من الناس؛ فربّ العالمين قال: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [سورة الحجر: ٩٤].

جاءت كلمة الصدع في القرآن الكريم في آيات أخرى، مثل قول الله سبحانه:

﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ [سورة الطارق: ١٢].

ماذا تفهم من كلمة الصدع هنا؟ ما معنى ذلك؟ معناه أنّ هناك شيئًا مُمتلئًا بالخيرات والبركات، فالأرض مليئة بالخيرات والبركات، تنصدع، تنفتح، تتشقق، فتُخرج ما فيها من خيرات وبركات، ولكثرة انصداعها صار الصدع صفة ملازمة لها: ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾، والله سبحانه وتعالى يُقسم بها، بل حتى الأراضي البور فيها من الخيرات ما لو درسها الإنسان لتوصّل إلى معظمها، فليس شرطًا أن يكون الخير زرعًا، كلا، فقد يكون نفطًا، غازًا، ذهبًا أو معادن مفيدة وثمينة.

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾، فأنت مليء بالخيرات والبركات، لا ينفع بعد اليوم أن تجلس مع شخص وتتكلّم معه، كلا، انفتح للعالم كله، انفتح بدعوة جماعية ـ هكذا أفهم الصدع ـ ففيك خير كثير لا يعلم مداه إلّا خالقك سبحانه، فحاول أنْ تفتح منافذ كيانك لخروج هذا الخير بتطبيقك وعملك، بقولك وإفصاحك، في سماعك لآراء الآخرين، وبيان الحق لهم بما آتاك الله جلّ وعلا من خيرات، حاول أنْ تُترجم هذه الخيرات والبركات في حركة الحياة.

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾، كأنّه يقول: خذ الأرض طولًا وعرضًا، فلذلك عندما رأى الرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم أنّ مكة قد أقفلت أبوابها في وجهه الشريف، وبدأت تضطهد الصحابة رضي الله تعالى عنهم، وارتفعت أول شهيدة في

الإسلام، وهناك أناس ثبتوا، وآخرون ضعفوا، أَذِنَ للصحابة الكرام بالهجرة إلى الحبشة، كما أنه سافر إلى الطائف ليبلغ دعوته هناك.

الاضطهاد أشتدّ بعد هذا الصدع، وبعد هذا الإنذار، فنزلت سورة الكهف في هذه الفترة، إجابة على بعض الأسئلة التي وردت إلى الحبيب صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه، وإذا بها تأتي بثلاث قصص لتقول لنا أن من مُواصفات الداعي العناية بالقصص، وهي من معالم هذا الدّين أيضًا، وفيما ندعو إليه ضمن الكلية الثانية من الكليات الخمس، فمعالم ما ندعو إليه أنّ هذا الدّين يدعو إلى العناية بالقصص، قال جلّ جلاله:

﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٧٦].

القصة وسيلة للبيان والعبرة سواء كانت قصة حقيقية فيها إخبار عن المسلمين أو الكفار، بل حتى لو كانت عبارة عن قصة خيالية من نسج الخيال، فالغاية هي أن يبرز الداعي من خلالها بعض ما يدعو إليه.

في بدايات المرحلة الثالثة بدأ الصدع، فهذا الخير لابُدّ أنْ يبرز، لابُدَّ أنْ يصل إلى مشارق الأرض ومغاربها، مثلما الأرض صدعت بالخير، لا تفرّق بين مَنْ عليها سواء كان مُسلمًا أو كافرًا، سواء كان مُحبًّا لله تعالى أو مُبغضًا له سبحانه، ينبغي عليك يا حبيبي يا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم أنْ تصدع بما تُؤمر فقد بعثتك للجميع.

بين هذا الإعلان وانتقال صفة الدعوة من صفة الفردية إلى الجماعية تقريبًا ثلاث سنوات، فما أبرز معالم المرحلة الثالثة؟

الصلة بالله جلّ في علاه لا تزال قائمة، بل بالعكس نسبتها زادت فبدأت آيات قرآنية تنزل، بدأت حوادث أخرى تقع فيُنزل الله تبارك اسمه لأجلها قرآنًا، ويُبيّن حُكمها، كذا ظهر مَعلم الإصرار على إيصال الدعوة إلى النّاس، ففي المرحلة الثانية كانت هنالك ضبابية، لذلك الباحثون قالوا: هي دعوة سرية، كلا، فهنا الضبابية انقشعت، فالسماء غدت صافية، قال

عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه:

(فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) الإمام البخاري رحمه الله جلّ ثناؤه.

قالها فوق الصفا بمجمع قريش وزعمائها، ومن لم يحضر أوفد مَنْ يسمع الخبر، ماذا يُريد سيّدنا رسول الله صلى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه منهم، الكلّ سمعوا، فبدأت أحداث مرحلة جديدة، الصلة بالله جلّ وعلا مُستمرة، لأنّ هذا أصل الدين، كلّ شيء يُمكن ألا يُطبّقه المُسلم إلا أصل الدّين وهو الصلة بالله تعالى، فربّما لا تتوفر شروط التطبيق لبعض الأعمال، مثلًا شخصٌ جاء إلى الدنيا مُسلمًا مُؤمنًا مُصليًّا صائمًا، لكنه لم يحج لمانع ما؛ قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [سورة آل عمران عليهم السلام: ٩٧].

لم يستطع الحج لكن إسلامه تامٌّ كاملٌ، مع العلم عنده ركن ناقص؛ لأنّ الإسلام ليس قالبًا ينطبق على الجميع، ولكن الشهادة أصل الإيمان، نعم قالب ينبغي أنْ يكون عند كلّ شخص مُسلم، فلا يُعتبر مُسلمًا بدون هذه الصلة التي بينه وبين الله سبحانه وتعالى، المُتمثل في الإيمان الحق المُستقر في قلبه، والذي أقرَّ به بلسانه وجاهد أعضائه لتطبيق أركانه، كلّما وجب عليه ركن من الأركان.

الشخص الفقير لا زكاة عليه، فهل يصح أن تقول له: إسلامك ناقص، لأنّك لا تُزكي؟! كلا، إسلامه كامل.

إنّ الصلة بالله جلّ جلاله القائمة على التصديق والمُعطرة بالحُب، لا تكون مقبولة إذا لم تصطبغ بالمحبة الصادقة لله ربّ العالمين جلّ ذكره، ولسيّدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام.

إذنْ فالصلة من بداياتها، من المرحلة الأولى، من كونها فطرية إلى مرحلة كونها مُسددة من قِبَلِ الله تعالى، ومُتألقة أكثر بفعل العبد، إلى المرحلة الثالثة حيث تزداد مساحة فعل العبد،

فجاءت تشريعات أخرى تُعزّز هذه الصلة، وإذا كانت هذه الصلة تُعبّر عن المحبة فلابُدَّ أنْ تُختبر، لابُدَّ أنْ تُبتلى، لأنّه لا تثبتُ محبة بدون ابتلاء وتضحية، فكلّما توجّه القلب إلى محبة، تقترب من محبة الله تبارك وتعالى أو ربّما عند بعض الناس - نعوذ باللهِ جلّ وعلا- تزداد على محبة الله عزَّ وجلّ كلّما اهتزت دعائم الإيمان وضعفت، وربّما تسقط - نعوذ بالله سبحانه- ونسأل الله جلّ جلاله الثبات، قال سبحانه:

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾[سورة آل عمران عليهم السلام: ٨].

فإذا جاءت الابتلاءات في الدنيا، وهي دار أسباب فلا شك أنك تستطيع أنْ تنجو منها، فهنالك أحكام شرعية، هنالك أحكام للمُضطر، قال الله عزَّ شأنه:﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾[سورة الأنعام: ١١٩].

شخصٌ يُجبر على الكفر؛ وكَفَرَ فعلًا بلسانه، لكن قلبه مُطمئن بالإيمان، ولأنّ الله تعالى لا يُريد لهذا الإيمان أنْ يسقط ويتزعزع فتحَ له باب الرخصة.

بينما صار في هذا الطرف شخص آخر، فقال: لا أريد أنْ أنطق بهذه الكلمة، حتّى لو أكرهتُ عليها، فيُقال له: سوف نُعذبك، يقول: عذّبوني، افعلوا ما تُريدون، فأخذوه وعذّبوه فعلًا، فهذا الشخص اعتبر نفسه قد أخذ بالأحسن، وقد يكون تصرفه هذا مُعبرًا عن حاله الخاص مع ربّ العالمين، قال جلَّ جلاله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[سورة البقرة: ٢٨٦].

الدِّين فيه سعة، فيه قاعدة: الضرورات تُبيح المحظورات، وفيه الثبات والعزيمة أيضًا، فهؤلاء الذين ثبتوا وما قالوا أيّ شيء، لا في حق الله جلّ في علاه، ولا في حقّ الرسول صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه العدول، ولم يقبلوا أنْ يُمجدوا الأصنام، ولسان

حالهم يقول: دعني أكون شهيدًا في سبيل الله عزّ وجلّ، فأنا مُحبّ لله جلّ وعلا، فيا ربِّ أنا أقدّم نفسي لك، فهؤلاء أخذوا بالعزيمة، حتى يكونوا قدوةً لمَنْ يأخذ بالعزم، ويبيع نفسه لله تعالى القائل: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾[سورة التوبة: ١١١].

باع نفسه لله عزَّ وجلّ، لكن لو أخذ بالرخصة يجوز أم لا يجوز؟ يجوز طبعًا، لأنّ هذا الدِّين يُسْرٌ، فيه من اليُسر كما فيه من العزيمة، لأن الموضوع موضوع تأسيس، فلابُدَّ أنْ تبرز نماذج لكلّ أحكام الدِّين.

أعظم صفات المرحلة الثالثة أنّها مرحلة الصدع بما أمر به سيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه ومَنْ والاه، بمعنى نقل الخير للغير، هذا الخير الذي تجمّع عندك بفضل الله تبارك تعالى أوّلًا، وبما استودع الله عزّ وجلّ فيك من نقاء وصفاء وطهارة، وزادك طهرًا على طهر، ونورًا على نور بفضله وكرمه، ثم بمُجاهدتك وقيامك بأعظم الشعائر ثانيًا، لتقوية صلتك به، فكأنّ الله سبحانه هو المُتحدّث مع سيّدنا رسول الله صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه المُباركين: هذا الخير لابُدَّ أنْ تبدأ بنشره بشكل فاعل وقوي جدًّا، وليس بشكل فردي كما كان في المرحلة الثانية؛ فلذلك الصَّدْع معناه الشقّ بقوّة، ومنه الصُداع؛ لأنّ فيه الضغط والقوّة والشدّة، وعلى وفق الأسس التي سبق ذكرها في المرحلتين الأولى والثانية ينبغي أن يتربى الدعاة الربانيون.

نزلت سورة (المُدثّر) الكريمة، وبدأت هذه المرحلة التي من سماتها نقل الخير للغير، ومن سماتها أنْ يكون الابتلاء شديدًا، والاختبار صعبًا، لماذا؟ لأنّ هذا الدِّين الذي وقر في القلب تصديقًا، وتحدّث به اللسان إقرارًا، وتجسّدت معالمه في حركة الحياة عبادةً وتوجّهًا إلى الله تبارك وتعالى، وتعميرًا للأرض، لا يقبل ولا يتمّ إلّا إذا أسّس على الحُبّ، وكلّ حُبّ دعوى، وهذه الدعوى تحتاج إلى شهود، تحتاج إلى معالم تدلّ على

صدق مُدعي المحبة؛ فإذا كنت تُحبّ الله تعالى، وتُحبّ سيّدنا رسول الله عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه، تُحبّ هذا الدّين، فلابُدّ أنْ نختبرك، يقول الحق جلّ جلاله:

﴿أَلَم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ١- ٢].

يُلاحظ أنّ الفتنة بدأتْ على أشدّها، كانت بصور فرديّة في المرحلة الثانية، فالذي لديه قوة عشائرية أو صديق من الأمراء أو من رؤساء القبائل فسيحميه، وهذه كلّها لها شواهد في السيرة النبوية الشريفة، ونحن نُريد العبرة والفحوى، والذي يُريد أنْ يتشرّف بشواهدها فليقرأ كتب السيرة النبوية، مثل سيرة ابن هشام، الرحيق المختوم، فقه السيرة للشيخ البوطي، رحمهم الله تعالى ورحم علماء المسلمين جميعًا، فكُتب السيرة كثيرة جدًّا ولكن هذا الثراء وهذه الشواهد لسنا بحاجة ماسّة لها بقدر حاجتنا لفهم العبرة.

أيّها الداعي العبرة أنّ تقوم دعوتك على الحُبّ، والحُبّ لابُدّ فيه من الحرق، لابُدَّ منْ حرْق القلب في المحبة؛ حتى يُؤدي إلى طهو المبادئ المُستقرة في القلب، وإنضاجها والتمسّك بها، ومن دون حرق لا يُوجد غذاء، فتبقى الأمور نيئة لا يجرعها الإنسان، لابُدَّ أنْ تكون مطبوخة، لابُدَّ أنْ تكون لذيذة، فما أعذب العذاب في المحبّة، وما أحلى المرارة في المودّة.

وهنا بدأت تتسع دائرة الاضطهاد والعذاب، وتختلف نوعيتها، تشتد في المرحلة الثانية ضراوة، ولقد كان سيّدنا النبي عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه منيعًا بعمّه وعشيرته، والنّاس يحسبون له حسابًا إنْ تعدّوا عليه، أما الضعيف مثل سيّدنا بلال وسيّدنا عمار بن ياسر، وبعض العبيد والإماء ممن لا ناصر لهم فقد جرت عليهم أنواع العذاب، فالذي صمد نال الدرجات العالية في إثبات المحبّة، وربّ العالمين سبحانه وتعالى كريم رحيم، أعطى سعة ورحمة لمَنْ كان مُضطرًا، يقول الله جلّ جلاله:

﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [سورة النحل: ١٠٦].

ومع ذلك فالذي اطمئن قلبه بالإيمان، لكنه قال كلمة الكفر والسوء مُضطرًا وما فرح بذلك، فلم يذهب لينام رغيدًا لأنّه قد تخلص من العذاب، كلا، وإنّما أتى الحبيب صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه، ولسان حاله يقول: أنا كئيب وحزين لأنّي قلت فيك قولًا لا ترضاه، فأنزل الله جلّ وعلا:

﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [سورة النحل: ١٠٦].

لكن من ينقلب على عقبيه، ويُنكر المحبة، فيكفر جاحدًا، فهذا قد خسر الدنيا والآخرة نعوذ بالله تعالى.

هذه الصفة دائرتها اتسعت في المرحلة الثالثة، لأنّه لابُدَّ أنْ تثبت معالم الدِّين؛ لتأتي الثمرات، كثمار الكلمة الطيبة، قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [سورة سيدنا إبراهيم عليه السلام: ٢٤ - ٢٥].

فعندما ضربت الجذور في الأرض ـ وهذا هو حال المُؤمن الصادق في هذه المرحلة ـ تبدأ المُعارضة الشديدة إلى درجة أنّهم فكّروا في قتل الحبيب صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه بالرغم من قوة ومنعة عشيرته، بل حاصروه مع عشيرته، واستمر الحصار ثلاث سنوات، وهذا كلّه من باب إثبات دعوى المحبة؛ لأنّ الإيمان لا يثبت إلا بالاختبار والابتلاء، فإنْ كنتَ مُحبًّا فعلًا وبعتَ نفسك لمَنْ تُحبّ فستشهد لك دموعك ونحول جسمك، واصفرار لونك، ومواقفك في الخير؛ فسيّدنا الصديق رضي الله تعالى عنه، يشتري العبيد ويعتقهم، وهو مُؤمن منذ أيّام فقط، فمن أينَ له هذا اليقين؟

أما نحن فمُؤمنون من سنين عديدة، نسمع المحاضرات، بل نحن من يُلقي المُحاضرات يوميًّا، والحمد لله نُصلّي الصلوات الخمس، ولكن حالنا لا يُؤهلنا لنصر الله تعالى وتمكينه لنا في الأرض.

لولا الحُبّ لَمَا كان هذا البذل والعطاء، لولا أن يبيع المُحب نفسه لحبيبه لا تكون هذه الصور من البذل والعطاء، مثلما سنرى في تحمّلهم الحصار والتعذيب، واضطروا لترك مكّة مرّتين، فهذه كلها أشكال وأنواع من الاضطهادات؛ لماذا؟ ليبقى هذا التواصل القائم على المحبّة الصادقة بينك وبين مَنْ تُحبّ.

إذن أنت تُحبّ ولابُدَّ أنْ تُعلن عمَّنْ تُحبَ، لابُدَّ أنْ تدعو لمَنْ تُحبّ، فمن دون حُبّ لا تستقيم الحياة من أصغر حلقاتها إلى أعظمها وأكبرها، فتخيّل بيتًا وأسرةً من زوج وزوجة، فإذا كانت هذه الأسرة لا تقوم على المحبّة والمودّة فحتمًا ستكون المشاكل فيها مُستمرة ومُتوالية نعوذ بالله تبارك وتعالى، أمّا إذا بُنيت على المُودّة والمحبّة فأبشر ببيت مُستقر، مُطمئنّ، مُثمر مُستقبلًا بثمار عظيمة جليلة مُؤثرة فاعلة، بل حتى الزوجان تكون عندهم ثمرات عظيمة ويانعة.

المُؤسسة إنْ لم يرتبط أفرادها بالمودة والاحترام لا تكون فاعلة ومُثمرة، وإنّما تكون قائمة على الخيانة والغدر والكذب، قائمة على السّرقة وكلّ ما يخطر ببالك من جرائم، إلّا ما تراه من قليل الالتزام ببعض القوانين لأجل الحصول على الفُتات من المغانم، وبمُجرد أنْ يجدوا الفرصة المُناسبة تراهم - نعوذ بالله تعالى - يرتكبون أنواع المُخالفات.

بغير الحُبّ تُصبح البيوت والمُؤسسات كأنّها بيت العنكبوت نعوذ بالله سبحانه، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ٤١].

لماذا بيت العنكبوت؟ لأنّه لا تُوجد فيه محبّة، لم يقم بناؤه على هذا العنصر، يضرب الله عزّ وجل مثلًا به لأنّ صفحة الحياة فيها مدارس وجامعات ومُؤسسات، لأجل أنْ يتعلّم الإنسان بشكل مُجسّد وليس قولًا فحسب؛ فكيف حال بيت العنكبوت؟ لقد اثبتت بعض الدراسات ان بعض انواع العناكب بعد تلقيح الأنثى من قبل الذكر، تقوم الأنثى بقتل زوجها، ثم يقوم الصغار بدورهم بقتل أمّهم! يا لطيف، ما هذا البيت؟ ما العلة؟ لا تُوجد محبّة.

إن واقع الإنسان لا يقل فظاعة عن حال العنكبوت، فنسبة الجرائم داخل الأسر كثيرة، وهي مُعلنة على وسائل التواصل؛ فكم شخصًا قتل أولاده! وبالعكس ـ نعوذ بالله تبارك وتعالى ـ لماذا؟ لأنّهم بعيدون كلّ البُعد عن الإيمان الحقّ القائم على الحُبّ.

إذنْ المرحلة الثالثة تبدأ من قول الله تبارك اسمه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ [سورة المدثر: ١].

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة الحجر: ٩٤].

وغيرها من النصوص المُباركة، وكذلك السُنّة النبوية المُطهّرة فيها نصوص تدعو للدعوة إلى الله عزّ وجلّ منها قوله صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم:

(لأنْ يهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ) متفق عليه.

إن الله عزّ وجلّ يُعلّمنا الأدب في الخطاب من خلال سورة المُدثر ـ كما في سورة المُزمل ـ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾؛ فالرسول الأعظم صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه لا يُنادى عليه باسمه المُجرّد، وعجبًا لمن يُنسب إلى العلم فيقول: يجب أنْ تقول في الصلاة: اللهمّ صلِّ على محمّد، ولا تقل اللهمّ صلِّ على سيّدنا محمّد صلّى الله تعالى

عليه وآله وصحبه وسلّم، ويحتج بحديث الصحابة رضي الله تعالى عنهم مع حضرة الحبيب صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه:

(سَأَلْنَا رَسُوْلَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْنَا: يَا رَسُوْلَ اللَّهِ، كَيْفَ الصَّلَاةُ عَلَيْكُم أَهْلَ البَيْتِ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ عَلَّمَنَا كَيْفَ نُسَلِّمُ عَلَيْكُم؟ قَالَ: قُوْلُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيْدٌ مَجِيْدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ)
الإمام البخاري رحمه الباري سبحانه

فإذا نقلت نصّ حديثٍ فيجب أنْ تنقله هكذا، إذا قلت: قال رسول الله صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه ومَنْ والاه، فانتبه لا تزد سيّدنا محمّد، فيجب أنْ تروي الحديث مثلما قاله النبيّ عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام، ولكن حينما تأتي في التطبيق فلا ينبغي الاعتماد على نصٍّ واحدٍ، وإنّما تجمع بين النصوص، ألم يقل عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه: (أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، وَلَا فَخرَ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ، وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ، وَلَا فَخْرَ، وَلِوَاءُ الْحَمْدِ بِيَدِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا فَخْرَ) [الامام ابن ماجة رحمه الله تعالى].

لماذا يقول لك هذا الشيء؟ لكي تتشرف بذكر لفظ السيادة، فحضرته سيّد ولد آدم فهو سيّدنا؛ وفي صيغة التحيّات من الحديث نفسه، هل قال السلام عليك باسمه المجرّد؟ كلا، وإنّما بالصفّة، السلام عليك أيها النبّيّ، فلا يُريد لهذه الأمّة أنْ تكون غبيّة – حاشاكم - وإنّما يُريد أنْ تكون ذكيّة، فكأنه يقول: قد علّمتكم كيف تُسلّمون عليَّ، فهنا أقول لكم هذا النصّ، ولا أكرر عليكم بأنْ تقولوا سيّدنا محمّد، يُعلّمنا التواضع، فحضرته يقول لنا: أنا سيّد الخَلق، ولكن آتي باسمي مُجرّدًا لأعلّمكم التواضع، ولكن أنت مُؤمن مُتّبع لسيّدنا الرسول صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه ليس لك حقّ في ذكر أسمه الشريف مُجردًا من ألفاظ السيادة والتوقير والتعظيم لأنّك نُهيتَ عن هذا، قال تبارك في علاه:

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضاً﴾[سورة النور: ٦٣].

فهل هناك أكثر من هذا النهي؟ فكيف لشخص منسوب للعلم أن يقول هذا؟ ولو أنّه قال لكم مثلًا: لا تقولوا هكذا، فالأفضل أنْ تقولوها هكذا، لكان الامر هيّنًا، وفيه وجهة نظر، ولكن يقول: هذا ابتداع، لا يجوز أنْ تقولَ (سيّدنا)! فمن أين له هذا العلم؟ الله تعالى أعلم.

يقول الحق جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ﴾[سورة المدثر: ١ - ٢] .

إذنْ يُعلّمنا الأدب مع الحبيب عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام، والأدب فيما بيننا أيضًا، فيا أيها الداعي إلى الله عزّ وجلّ لابُدَّ أنْ تنزل النّاس منازلهم، لابُدَّ أنْ تتعلّم من كتاب الله تبارك وتعالى كيف تحترم النّاس؛ فهذا يدخل في الكلية الأولى: شخصية الداعي، وفي الكلية الثانية: معالم ما ندعو إليه، وفي الكلية الخامسة: إنّ الحياة تتكامل وتتجمّل بهذه الآداب والأخلاق والمشاعر.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ﴾، الإنذار أيْ هناك خطر أمامك ينبغي أن تُحذَّرَ منه، وهل هناك خطر أعظم من أنْ يكون المرء مُخلدًا في الجحيم - نعوذ بالله تبارك وتعالى- في العذاب الأليم؟ هل هنالك خطر أسوأ وأقسى من أنْ يعيش الإنسان مُنعمًا بنعم ربّ البرية وفضله ثم هو صادٌّ عنه سبحانه؟! إلى آخره من مظاهر ضَنْكَ العيش، وتعب القلب والجوارح، ليس هناك أعظم من هذه المخاطر، ولو أنهم قبّلوا التراب الذي داس عليه حضرة الحبيب صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه ليُجازوه عن هذا الخير الذي أتاهم به لمَا أعطوه حقّه صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم.

ستكون هنالك اضطرابات في الإنذار، لأنّه احتكاك، وكلّ احتكاك يُولّد شَرَارةً، عظُمَت أو ضَعفَت، هنالك شرارة طالما هناك احتكاك، مهما كان المكان والزمان، فهناك نسبة

من الشرارة، ابتلاءً، اختبارًا، إنضاجًا، إثباتًا للمواقف، لذلك عندما يقول لي أحد من الشباب من الأخوة أو الأخوات أنّه مُقبل أو مُقبلة على الزواج، فأوّل نصيحة أقولها له: إن هذه المرحلة فيها صعوبات، فيها شرارة، ينبغي أنْ تنتبه، فحينما يعتقدون أنّهم سيعيشون عيشة هنية ليس فيها أيّ مشاكل، ويقول: أنا أحبّها، وهي تُحبّني، إلخ، من هذا الكلام الرائج، فهذا كلّه لا يدلّ على أنّه سيعيش في جنّة، يا بُني، يا ابنتي، الدّنيا ليست جنّة، الجنّة في الآخرة، نعم هناك جنّة في الدنيا لكنّ هذه للمُستويات العالية جدًّا، أمّا عموم الخَلق فلا يبلغوها، والله تعالى أعلم، فانتبهي يا ابنتي فأنت مُقبلة على مرحلة فيها ما فيها، لماذا؟ لأنّ فيها احتكاكًا بين اثنين، فلابُدَّ إذن من شرارة.

﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾؛ فسوف تكون هناك شرارة، الله تعالى أعلم بشدّتها وقوّتها وضعفها، ماذا

تحتاج هنا؟ تحتاج للانتباه لصلتك بالله عزّ وجلّ: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾[سورة المدثر: ٣].

انتبه أيّها الدّاعي إذا قمت لتُنذر ستكون شرارة فلا تجعلها تُضعِفُ صِلَتك بالله تبارك وتعالى، كلا، ابقَ في رياض تكبير وتعظيم صلتك بالله سبحانه.

من حيث القرائن ـ سواء كانت القرائن لفظية أم حالية ـ فكلُّ الأوامر التي جاءتْ في القرآن الكريم إلى حضرة خاتم النبيين عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه لا يُراد بها حضرته فحسب إلّا إذا جاء دليل التخصيص؛ لأنّ النبيّ صلوات ربّي وسلامه عليه وآله وصحبه في الكمالات بل في أرقى الكمالات من حيث التطبيق فلا يحتاج أنْ يقال له:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾[سورة الأحزاب: ١].

أيّها الداعي أنت مَن تحتاج أنْ يُقال لك: اتقِ الله، أنت من تحتاج أنْ يُقال لك: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾، أما الرّسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم فلا يحتاج لذلك، إذنْ لماذا يأتي الكلام مُوجّهًا إلى خير الأنام صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه؟

الذي فهمته من تشرّفي بدراسة القرآن الكريم أنّ عظائِمِ الأمور التي لها آثار كبيرة في حياة الإنسان سواء كانت في المرحلة الدنيوية أو البرزخية أو الأخروية يأتي الخطاب فيها مُوجهًا إلى شخص الحبيب صلوات ربّي وسلامه عليه وآله وصحبه لماذا؟

حتّى ينتبه العبد، أما الرسول عليه الصلاة والسلام فحضرته من يُعلّمنا كيف نُكبّر ربَّ العالمين، فلا يحتاج أنْ يُقال له: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾، وهو يُعلّمنا التقوى وأصولها، ويُبيّن لنا ثمرات التقوى، فلا يحتاج أنْ يُقال له: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾، لا يحتاج أنْ يُقال له: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ [سورة الأنعام: ٥٢].

بل أنتَ أيّها الداعي مَن يحتاج إلى كل هذه، لتعرف كيف تدعو إلى الله عزّ وجلّ.

إذنْ قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾، تعميق وتأكيد على ضرورة حفاظك على صلتك بربّك سبحانه، وهذه الصلة قائمة من المرحلة الأولى إلى انتهاء حياتك الدنيا، وينبغي أنْ يكون قيامها بوتيرة التصاعد، لأنّ عندك صلة بالله تعالى فطرية غريزية بسيطة، بدأتَ تُغذيها - بفضل الأبوين وتربيتهم لك - شيئًا فشيئًا، بدأتَ تُربّي هذه الصلة وتُقوّيها، بعد ذلك لمّا بلغتَ بدأت تلتزم – بفضل الله تعالى – بالشرع الشريف وما جاءك من خير، ووسائل ومن اعظمها اتخاذك للمربي والمرشد، وما جاءك من هدايات وأحكام إلى أنْ تخرج من دار التكليف بتسليم الأمانة إلى الله جلّ في علاه، ولكن الله عزّ وجلّ لطيفٌ

بعباده سبحانه، رحيم رؤوف، فإنْ أصاب هذه الوتيرة ضعف -لا قدّر الله- أو وقفتْ أو تراجعت - عياذًا بالله تبارك وتعالى - فينبغي عليك أنْ تتوب التوبة النصوح بشروطها، فتقلع عن الذنب الذي أدّى إلى ضعف الوتيرة أو توقفها أو انتكاستها ـ نعوذ بالله تعالى ـ تقلع عن الذنوب، وتندم على ما فعلت، وتعزم على ألّا تعود، وإنْ كانت الذنوب من باب الحقوق مع العباد فبرّئ ذمتك، فهذه الوتيرة يجب أنْ تُحافظ عليها، لابُدَّ أنْ تجعلها تزيد تصاعديًا، اجعل لك خطًا بيانيًا، وقِسْ، فمثلًا: حينما تُصلّي صلاة الفجر ركعتين ينبغي أنْ يكون حالك في الركعة الثانية أفضل وأتمّ من الركعة الأولى، فالركعة الأولى رفعتك فأصبحت في الركعة الثانية أي في مرتبة أعلى، فحافظ على هذه المرتبة، فقوله تعالى:

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ تأكيدٌ على المحافظة على صلتك بالله جلّ وعلا، وهذه الصلة أو هذا العنصر يبدأ معك أيّها المُكلّف منذ انتباهتك لفطرتك وإلى وقت تسليم الأمانة إلى ربّك سبحانه، وهذا ليس تفسيرًا وإنّما فَهْمٌ وتأسيس لمبادئ نسير عليها، ولا نقبلها إلّا إذا كانت واضحة ومُستنبطة من كتاب الله تعالى.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [سورة المدثر: ٣ - ٤].

الفهم البسيط لقوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾، أنّ المشركين وضعوا سلى الجزور على رأسه الشريف صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه، وأتو بالنجاسات ووضعوها على بعض المُسلمين، والذي أفهمه أوسع من ذلك؛ لأنّ الثوب ما يلبسه الإنسان في عالم المادة، أما في عالم المعنى فثوب الإيمان، فالله تبارك وتعالى مَنَّ على العباد بِلباس التقوى، ما لباس التقوى؟ هو ثوب الإيمان، فينبغي أن نُطهر هذا الثوب، وأنْ نُزكّيه سواء أكانت هناك ذنوب أم لا، فأكثرْ من الاستغفار، فلا تعرف فلعلك أذنبت ونسيت،

ألم يقل الله تبارك اسمه: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[سورة المجادلة: ٦].

يا لطيف! كمْ من الذنوب ارتكبناها ونسيناها؟

سألني أحد الأحباب: لماذا غالبًا ننسى الأعمال الصالحة والمواقف الجيّدة التي نعملها، خاصّة التي كنّا مُخلصين فيها، بعكس الذنوب التي تأتي على بالنا وتُزعجنا؟ ما الحكمة من ذلك؟ قلتُ: هناك حكم كثيرة، ولكن من أجلَى الحِكَم عندي أنّنا نتذكر الذنوب حتّى يحمينا الله تعالى من العُجب فنلزم الاستغفار، ويُنسينا الأعمال الصالحة حتى لا يُصيبنا الغرور، وهو دليل القَبول إنْ شاء الله تعالى لقوله سبحانه:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [سورة فاطر: ١٠].

إذا بقي العمل الصالح عندك، فأنت تذكره في كلّ مجلس: أنا فعلت كذا، وفعلت كذا -نعوذ بالله تعالى- فقد يكون هذا الذكر دليلا على أنّ أعمالك لم تُرفع إلى الله ﷻ.

فالعمل الصالح يرفعه لننجو من العجب والغرور، ويذكّرنا الذنوب حتّى نتوب إلى الله عزّ وجلّ ونستغفره، فتصبح عندك نشوة إيمانية، وصلة ربانية قوية، فقد برزت أمامك صور الجرائم والذنوب التي ارتكبتَها في حقّ نفسك أو في حقّ غَيرك، فتفزع مُستغفرًا: استغفر الله، استغفر الله، فمن رحمة الله عزّ وجلّ بالعبيد أنّهم يتذكرون الذنوب؛ حتّى لا تقول لك نفسك أيّها الداعي ما شاء الله عليك، عالِمٌ جليل، ليس لديك ذنوب، كلا، فقد عملت ذنوبًا كثيرة، فانظر إليها، إنه مُسلسل من الذنوب، فتوجّه إلى الله تبارك وتعالى بذلٍ وانكسار، وبادر بالتوبة والزم الاستغفار.

وهكذا نرى أنّه في هذه السورة جاء التأكيد على المَعالم التي ظهرت بوادرها في المرحلة الثانية، فالرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام يُقوي صلته بالله تبارك اسمه بالخلوة في غار حراء، وهنا يُقوّي صلته بالله جلّ وعلا بما شُرع من عبادات كالصلوات الخمسة، والسُنن القبلية والبعدية، وغيرها.

فلو نتخيّل أنّ العبد كان عنده اجتهاد على نفسه في مرحلَة من مراحل حياته ثمّ بعد ذلك قوَّي هذا الاجتهاد وتعدّدت صوره، فتعتبر المرحلة السابقة أضعف من المرحلة التي هو فيها، فنرى أنّ ربّ العالمين سبحانه يُؤكّد على المَعالم التي ظهرتْ في المرحلة الثانية؛ لأجل زيادتها والحفاظ عليها؛ ولأجل عدم ضياعها.

﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [سورة المدثر: ٦].

لا تمنّ بأعمالك على الخَلق فتراها كثيرة، مهما كثرت؛ فالله أعظم، والله أكثر، وهي من معاني ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾.

المبادئ الأساسية تبقى قائمة في كلّ المراحل، فيجب الحفاظ عليها، بل يجب استثمارها والارتقاء بها إلى أعلى الدرجات، منها معلم الارتباط بالدار الآخرة، فالإيمان باليوم الآخر أقصر الطرق في الهداية، وأقصر طريق لهداية الخَلق، فتعال يا أخي إلى أينَ أنت ذاهب؟ أمامك موت وقبر وحساب وعقاب، هنالك أهوال، فكيف ستنجو؟ تنجو بالارتباط بالدار الآخرة، فلاحظوا في بدايات ما أنزل قوله عزَّ شأنه:

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ [سورة العلق: ٨].

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [سورة المزمل: ١٧].

ثم تذكير بقيام الساعة: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ [سورة المدثر: ٨].

﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [سورة المدثر: ٩ - ١٠].

وبمفهوم المُخالفة: إنه على المُؤمنين يسير، اللهمّ يسِّر علينا أهوال الآخرة، ولا تجعلنا نشعر بها، إنّك على كلّ شيء قدير، واجعلنا من الذين قلت عنهم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠١].

واجعلنا من الذين يشملهم الاستثناء في قولك: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [سورة الزمر: ٦٨]

وهكذا بدأت تظهر لنا قصص وصور من المعارضة، سواء أكانت من عتاة وطغاة أو من مجاميع ظالمة، والسورةُ تمضي في بيان المعالم التي ظهرتْ في هذه المرحلة، ففي مقاطعَ ذكرتْ معالمَ حديثةً، وفي أخرى أكدتْ على معالمَ سبقَ الحديثُ عنها.

إذنْ اشتد الاضطهاد في مرحلة الدعوة الجماعية، وبدأت معالم انتشار الدّين تظهر بالتشريعات، فمثلًا: أنزل الله جلّ وعلا سورة الكهف، وفيها ثلاث قصص، قصة أصحاب الكهف: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [سورة الكهف: ١٦].

لماذا الاعتزال عن الاضطهاد؟ لأنّ هناك عنصرًا لابُدَّ أنْ ينتشر، ولابُدّ أنْ يُؤكّد عليه، لابُدّ أنْ يُلتزم به، ولكي نُحافظ عليه لابُدَّ أنْ نسكت ونكظم الغيظ ونهاجر.

كأنّ ربّ العالمين يقول: هؤلاء فتية آمنوا وذهبوا إلى الغار، فأنتم لماذا لا تُفكرون قليلا لتخرجون إلى مكان آخر، فبدأ صلوات ربّي وسلامه عليه وآله وصحبه بنفسه فذهب إلى الطائف لأنه كان يبحث عمّن ينصرُه ويقوم معه، ثم وجه أصحابه بقوله:

(لَوْ خَرَجْتُمْ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ، فإنَّ بِهَا مَلِكًا لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ) الإمام البيهقي رحمه الله عزّ وجل.

إذنْ ظهرت التضحية، انظروا إلى الحُبّ، فلا حُبّ دون تضحية، لا حُبّ دون تحمّل لعذاب الحُبّ، فعذاب الحُبّ يُستعذب، ومرارته تُستحلى، ثمّ يأتي العطاء، فهذه المعاني التي بدأت تظهر بشكل قوي وفاعل في المرحلة الثالثة.

ومن سمات هذا الدّين عنصر السلمية في الدعوة، لأنّ دين الإسلام دعوة سلام، كم ضغطوا عليهم، كم آذوهم، بل قتلوا منهم، مما دفع المُسلمين للهجرة، وما هي عليهم بهينة، وكذا الحصار فليس سهلًا، تقبّلوا كلّ هذا لأجل الحفاظ على سلمية الدعوة، هذا العنصر الأساسي في الدّين، فالدِّين ليس حربًا، بل حتى كلمة حرب لا يُحبّها سيدنا النبي صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه ومَنْ والاه، فنهى عن التسمية بها، وأمر بتغييرها[1].

المرحلة الثانية والثالثة تأسيس لأصول وقواعد الدِّين، إذنْ فما يُؤسس في هذه المراحل يكون مبادئ أساسية لا تَقبل نسخًا ولا وجهات نظر، وإنّما هي أركان وثوابت وجذور، وليست وقائع حال.

ما معنى وقائع حال؟ مثلا: يسألك إنسان فيقول لك: ما حكم تعدّد الجُمَع الآن؟

[1] - ذكر الامام مسلم رحمه الله تعالى في كتاب الادب باب استحباب تغيير الاسم الى الحسن عَنِ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَيَّرَ اسْمَ عَاصِيَةَ وَقَالَ: «أَنْتِ جَمِيلَةُ»: (١٦٨٦/٣) رقم (٢١٣٩)، وذكر الامام ابو داود في سننه: (... وَسَمَّى حَرْبًا سَلْمًا...) سنن الامام ابي داود رحمه الغفور الودود: (٢٨٩/٤) رقم(٤٩٥٦).

تقول: جائز أنْ نُصلّي الجُمع في أكثر من مسجد، وإنْ كان الأولى كلّما استطعنا أنْ نختصر المساجد والجُمع سيكون أبرز لمعالم هذه الشعيرة الإسلامية، ولكن إذا اقتضت المصلحة، واقتضى الحال أنْ نُعدّد الجُمع، فلا بأس به.

فيقول لك: أخطأت؛ فما صلّى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، جُمُعًا مُتعدّدةً، فماذا يكون الردّ؟

نقول: عدم صلاته عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الجُمعة في أماكن مُتعدّدة واقع حال في فترة من الزمن، وليس منعًا من تعدّد الجُمع، فلم يأتِ دليل واضح وقاطع يقول: لا تُعدّدوا الجُمع، فالدليل القاطع مثلا: (الحَجُّ عَرَفَةُ) الإمام الترمذي رحمه الله جلّ ذكره.

فلا يجوز لك أنْ تقف على جبل الصفا، وتقول: هذا حجّ، وتقول: نُعدّد؛ فالآن أصبحت مصلحة وحاجة أنّ نُعدّد! نقول لك: كلا، لا يجوز أنْ تعدّد، لأنّ الأمر ليس في باب واقع الحال، وليس في مجال الإباحة، وإنّما هو في مجال التشريع، فالمُشرّع قال: (الحَجُّ عَرَفَةُ)، فلا تستطيع أنْ تُعدّد، أما هنا فالمُشرّعُ ما قال: الجُمعة جُمعة واحدة، ولا قال: لا تُعدّدوا الجُمع، وإنّما صلّى الجُمعة في جماعة في مكان واحد، فكان هذا واقع حال، وعليه فإنّ واقع الحال لا يكون تشريعًا.

إذنْ ما يُؤسّس في المرحلتين الأولى والثانية هي جذور وأصول لا تَقبل نقضًا أو وجهات نظر أو اجتهادات، وحينما أقول: اجتهادات، أي اجتهادات قائمة على أصولها، مُوكّلة إلى أهلها وأصحابها، وليس لكلّ مَنْ هبّ ودبّ نعوذ بالله تبارك وتعالى.

فسلمية الدعوة في الإسلام ركن ركين لا يجوز الاعتداء عليه او تغييره؛ لذلك فسيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه ومَنْ والاه، وعِبْرَ (١٣) سنة يُرسخ جذورها في الفكر الإسلامي، وفي المجتمع، مع شدّة وضراوة المُعارضة، فلم تُبقِ قريش مع سيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم صورة من صور الأذى إلا وعملته، استهزاء، اتّهام، إيذاء جسدي، إيذاء معنوي، يجعلونَ على صدور أتباعه الصخور في

الرمضاء المُلتهبة، قتلوا النساء والرجال، فصلوا الولد عن أمّه وأبيه، اضطروهم للهجرة، حاصروهم إلى حدّ المجاعة التي أدّت لأكل أوراق الشجر - إنْ وجدوها - فماذا أبقت قريش؟! تآمر على القتل، مباشرة القتل...إلى آخره، وليس يومًا أو يومين ولا أسبوعًا أو أسبوعين، ولا شهرًا أو شهرين، كلا، بل سنين طويلة، فما هو الردّ؟ لا يُوجد أيّ ردّ! سوى العفو والصفح والصبر الجميل:

﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [سورة المعارج: ٥].

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [سورة الحجر: ٨٥].

يقول أحدهم: سيدنا الرسول صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، سبّ آلهتهم! الحقيقة أني ما وجدتُ هذا السبّ، لكن الرسول مُكلف ببيّان حقيقة هذه المعبودات التي يعبدونها؛ فهي لا تصلح أنْ تكون معبودات، لأنّها لا تضرّ ولا تنفع، لا تستطيع أنْ تحمي نفسها، فإن اعتبروا هذا سبًّا وشتمًا، فهذا توصيفهم للواقعة، وما أسرع الظالم الطاغي أنْ يُوصف كلامك، بمعنى أنّك تأتي بكلّ شفقة وحنّية تدعوه إلى النجاة والطمأنينة، وهو يقول لك: أنت تُريد منّي أنْ أسبّ أبي وأمّي لأنّي سوف أعارض عقيدتهم.

ربّما بعض المسلمين من شدّة الأذى والعنت أو ربّما اندفاعًا وغيرةً من الصحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم فقالوا قولًا ما أو تصرّفوا تصرّفًا ما، ولكن هل رأي الصحابي مع وجود النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم له وزن في التشريع؟ بمعنى: هل له صلاحية التشريع؟ فإذا كان الرسول الأعظم عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه أجمعين، موجودا يُوحى إليه، ثم يأتي صحابي جليل فيذكر رأيًا، فيُقال: هذا رأي صحابي، ويجب أنْ نأخذ به؟ كلا، لا يجب، ولا يُعتبر مصدرًا للتشريع قولًا واحدًا إلّا في حال إقرار سيدنا النبيّ

صلّى الله تعالى عليه وصحبه وسلّم، فحينئذٍ يغدو تشريعًا، لأنه صار مُسندًا إلى النبيّ صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه.

الرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم جهر بالدعوة، صلّى في الحرم، وقال للذي جاء وجلس إليه: إنّي رسولُ الله إليكم، وهكذا فعل مع بعض أقربائه وأصدقائه، فهو بذلك يُشرّع علانية الدعوة، فإذا دخل اثنان أو ثلاثة في شِعْب يُصلّون في خفاء فهؤلاء ليسوا مُشرّعين، ولقد أباح لهم الدّين ذلك؛ لأنّ في الدِّين رحمة وسعة:

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ـــ﴾[سورة البقرة: ٢٨٦].

يقول: إذا صلّيت أمامهم قد يُؤذونني ويَضربوني، وأنا أريد أنْ أخشع في صلاتي، وأريد أنْ أتمتع بهذا الدِّين؛ فأنّ لكلِّ جديد لذّة، فتصوّر إنسانًا كان لا يعرف الله عزَّ وجلَّ أو يعرفه معرفة ضبابية، فجاءه النور والبيان والحق، فآمن به، وتغلغل في قلبه، فكم يستأنس عندما يقف ويُصلّي ركعتين بمعزل عن الطغاة والسفهاء! حتى لو كانت الصلاة من غير قراءة سورة الفاتحة ـ لأنّها لم تنزل بعد ـ حتى لو كانت صلاة خالية من الشروط المعروفة، فهناك نوع توسّع في الأداء وقتئذٍ، بمعنى: لا تُوجد أوقات محدّدة أو شروط معيّنة لابُدَّ أنْ تلتزم بها.

ما كانت نتيجة الذين اختاروا المُواجهة؟ النتيجة أن تعرضوا للبلاء، فهذه أمّ سيّدنا مُصعب بن عمير رضي الله تعالى عنه عملت ما عملت بابنها الحبيب الوحيد، والآخر عمل بعبيده كذا وكذا، ولذا قال الآخرون: دعنا نذهب وننزل بهذا الوادي نُصلّي، نتمتع بصلاتنا، نتذاكر دّيننا الجميل، ومتى ما أردنا أنْ نتعلّم أكثر فالرسول صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم عند جبل الصفا، نذهب ونجلس عنده، نتشرّف به عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه أجمعين.

فالرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم هو المُشرّع، هو الذي جهر، سواء كان الجهر بصورة فردية أو جماعية في المرحلة الثالثة، فالمُشرّع في تلك المرحلة هو سيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه.

الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام يتحمّل كلّ هذا الأذى خلال ثلاث عشرة سنة من بعثته صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم إلى هجرته، وهناك أناس لم يستطيعوا أنْ يصبروا، فتصرّفوا تصرّفًا فرديًّا، فهل تصرّفهم الفردي تشريع؟ كلا، ليس تشريعًا، وكيف يكون تشريعًا وقد جاء النهي بعد ما انتشر الخبر؟ حتى لا يقتدي بهم أحد، قال رب العالمين:

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[سورة الأنعام: ١٠٨].

ويأتي قول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: (لَيْسَ المُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ وَلَا اللَّعَّانِ وَلَا الفَاحِشِ وَلَا البَذِيءِ) الإمام الترمذي رحمه الباري عزّ وجلّ.

نحن نتكلّم عن فترة وجود النبي المُشرع صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم، ولا نتكلّم عن الفترة بعد انتقاله وإتمام الدِّين، وانقطاع الوحي، فرأي الصحابي عندئذٍ من مصادر التشريع بشروطه، أما قبل ذلك فلا، ويُمكن التأكد من ذلك بالرجوع إلى تاريخ التشريع الإسلامي.

ففي ذلك الوقت رأي الصحابي لا يُعتبر من مصادر التشريع، فإذا ضرب أحد من الصحابة كافرًا أو مُشركًا أو فعل مثلما فعل سيّدنا عمر رضي الله تعالى عنه بعدما أسلم فقد ذهب وأعلنها بهذا الشكل، فهذا رأيه، أمّا الدِّين في مجال الدعوة إلى الله سبحانه فلا يكون بالسبّ ولا بالشتم، وهؤلاء ليس عليهم إثم السبّ والشتم، لأنّه لم ينزل النهي بعدُ.

فالذي يُريد أنْ يقول في شرع الله جلّ في علاه شيئًا فلابُدّ أنْ يكون عالمًا، لابُدَّ أنْ يكون موصولَ اليدِ بحضرة خاتم النبيين عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه أجمعين، لابُدَّ أنْ

تكون له أدوات الاجتهاد، فعندما آتي إلى النصّ، فلابُدّ أنْ أنظر إلى مُتعلّق النصّ، لابُدّ أنْ أنظر إلى زمان النصّ، فمثلًا مُتعلّق النصّ في آية تتحدّث عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فهل أفهمها مثلما لو نزلت الصيغة نفسها في حقّ المُسلمين؟! فمثلًا قوله تعالى على لسان سيدنا يونس عليه الصلاة والسلام:

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة الأنبياء عليهم الصلاة والتسليم: ٨٧].

هذا قول سيّدنا يونس عليه الصلاة والتسليم، وتسبيحه في بطن الحوت، فالنصّ بمَن يتعلّق؟ يتعلّق بنبيّ من الأنبياء عليهم الصلاة والتسليم، فكيف أفهم كلمة الظالمين في قوله تعالى:

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾؟

ومن معاني الظلم الشرك:﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[سورة سيّدنا لقمان عليه السلام: ١٣].

فقد يتسرّع أحدهم ويقول عن سيّدنا يونس عليه السلام هذا المعنى؟ فهل هذا المعنى يصلح مع سيّدنا يونس عليه السلام؟

يقول آخر في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾[سورة سيّدنا يوسف عليه السلام: ٢٤].

كان سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام من زوجة العزيز كما يكون الرجل من زوجته! يا أخي اتقِ الله؛ فشخصٌ من الشارع لا يفعل هذا، أنت تتحدّث عن نبيّ ابن نبيّ ابن نبيّ، الكريم ابن الكريم ابن الكريم عليهم الصلاة والتسليم، قال سيدنا النبي صلى الله تعالى عليه واله وصحبه وسلم: (الكَرِيمُ، ابْنُ الكَرِيمِ، ابْنِ الكَرِيمِ، ابْنِ الكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ) [الامام البخاري رحمه الباري سبحانه وتعالى]

فقولك هذا غفلة عن أصول الاجتهاد.

حسنًا أنت تتحدّث عن نص وعن واقعة في زمن سيدنا النبيّ عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام فكيف تعطيها حكم على أنّها من الشرع، ويجب أنْ نلتزم به، والرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم موجود، بل وأكثر من ذلك، غاب عن ذهنك أنّ الله عزَّ وجلَّ نهى عن ذلك: ﴿وَلَا تَسُبُّوا﴾، فهذا نهيّ واضح.

إذنْ سلميّة المُسلم، سلميّة الداعي من باب أولى، فهذه الصفة تضعوها تحت مُواصفات الداعي، ومُواصفات ما ندعو إليه، وضمن الوسائل التي تُذلل العقبات، لأنّك بالعفو والصفح سوف تصل إلى مرتبة زاهية من المحبّة والأخوة والمودة، قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [سورة فصلت: ٣٤].

فهذه تضعها في الكلية الخامسة، وجه الحياة، صفة الحياة، حينما نُطبّق الإسلام تصبح الحياة كلّها رحمة ومودة وأخوّة ومحبّة وتواصلا؛ فالاعتقاد لا يكون بالإكراه لأنّه اختيار، قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [سورة الكهف: ٢٩].

أي: هذا هو الحق، فأنا أتيتكم به ، هذه معجزتي، هذا ديني، هذه من شريعتي، هذا ما أدعوكم إليه، أعرضه عليكم، تقبلوه ولكم الجنّة، لكم السُؤدد، لكم الخير والطمأنينة، فإن لم تقبلوه فأمامكم عذاب الله عزَّ وجلَّ، وفي حياتكم شقاء ونكد:

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [سورة طه: ١٢٤].

إذن هذا هو الحق، ولكن هل أجبركم عليه؟ هل أرفع السيف عليكم، فإما أنْ تعتقدوه أو أنحركم نحر الخِراف؟! فأين قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٦].

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، بعض النّاس يفهمون من الآية الكريمة أن الحقّ هو الاعتقاد فقط،

كلا، فالآية الثانية تتحدّث عن الدِّين: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، فلا إكراه في كلّ مفاصل الدِّين،

في كلّ جزئياتِ وجوانب الدِّين، فإن كان ثمة ما يُشمُّ منه رائحة الإكراه أو الشدّة أو القوّة فهذا مفهوم خاطئ، وينبغي أنْ يُفهَمَ هذا التوجّه في فهم أهل الذوق، وأعلاهم وسيّدهم وإمامهم ومقتداهم سيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه ومَنْ والاه.

عندما نزلت أحكامٌ تتعلق بتأديب النساء، وهجرهنّ في المضاجع قال تعالى:

﴿وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ [سورة النساء: ٣٤].

ماذا قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم؟ هل قال: اجلب العصا وكسّر أضلاعها؟! أم قال: (--- ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ ---) الإمام البخاري رحمه الباري سبحانه.

بالسواك وكأنّه مُزاح، وهذا ما فعله والدي رحمه الله تعالى لمّا سألني: هل صلّيت؟ قلت: لا يا أبي لم أصلِّ، قال: تعال، وبدأ يُربت على ظهري، وكأنّه يضربني، ثم قال: هذا تطبيق الحديث الشريف:

(--- وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا، وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ ---) الإمام أبو داود رحمه الرحيم الودود جلّ جلاله.

وبعدها قال: تعال أعطني قُبْلَةً من هذا الخدّ الجميل.

أحدهم يُفسّر القرآن الكريم كما يشتهي، وله تصوّر مُسبق بأنّ الإسلام دّين عنفٍ وسيف، لا رحمة فيه، بمعنى أنّه أخذ فهمه على طريقة ذلك المسكين الذي لا يعرف قراءة القرآن الكريم؛ فقد روى لي أحد القضاة عن حادثة غريبة وقعت معه، قال: اشتكت امرأة على زوجها في المحكمة، وفحوى الشكوى أن زوجها عضّها عدّة مرات حتى أدماها، فقلتُ له: لماذا فعلت هذا؟ قال: لأن الله تعالى يقول: فعَضّوهنّ! ويعني بها قول الله تعالى:

﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ [سورة النساء: ٣٤].

فقام الزوج الجاهل المسكين بالعَض بدل العِظة، وهكذا فهناك من يدعي أنه من أهل العلم ثم يُفسّر القرآن الكريم وهو غافل عن هذه الأصول، غافل عن تاريخ النصّ ومُتعلَّق النصّ.

قال لي أحدهم: قولك بأن الدعوة سلمية خالية من الإجبار والإكراه يُمثل رأيك فقط؛ فقلتُ له: صحيح أنّي أؤكّد على هذا، ولكنه ليس رأيي فقط، بل أكيد يُوجد من العلماء والفضلاء مَنْ قال ويقول بهذا، فقال: فماذا عن الآيات التي تتحدث عن الجهاد، ﴿وَجَاهِدْهُمْ﴾، وقد تكررت مرارًا؟ قلت له: ليس كلّها بمعنى القتال.

قال: مثلًا قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [سورة الفرقان: ٥٢].

قلت: نعم، فماذا تعني هذه الآية؟ قال: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ﴾، يعني: بالسلاح.

قلت له: سبحان الله! يا أخي الكريم، هذه آية من سورة الفرقان، وسورة الفرقان سورة مكية نزلت قبل هجرة خير البرية صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، هل تعلم ما معنى هذا؟ معناه أنه لم يُؤذن بالقتال في ذلك الوقت، فقد كان مُحرّمًا، وهناك عدّة نصوص ما أمرت بقتال النّاس، بل أمرت بالصبر:

(--- صَبْرًا يَا آلَ يَاسِرٍ فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْجَنَّةُ ---) الإمام البيهقي رحمه الله تعالى.

بل أقل من ذلك فالسبّ والشتم لا يجوز.

قلتُ له: فـ (الضمير) في قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ﴾، يرجع إلى القرآن الكريم.

قال: والله لم أكن أعرف ذلك! فقلت له: يا أخي الكريم عندما لا تعرف لا تتكلّم، فهذا دِين.

إذنْ لا يُوجد في الإسلام - قولًا واحدًا - أنّ ترفع السيف على إنسان لأجل أنْ تُخرجه من الظلمات إلى النور، انا قلت إنّ الدعوة هي إخراج النّاس من الظلمات إلى النور، فسلمية الدعوة أمر يدخل في شخصية الداعي، فالداعية إنسان مُسالم.

قال ﷻ: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[سورة الزمر: ١٨].

في ظلال هذه الآية يعتقد بعضهم: أنه يُوجد في الدِّيْن شيء حَسَنٌ، وشيء غير حَسن!

يا أخي! الحُسنُ موجود في الدِّين كلّه، ولكن هنالك حَسنٌ وهنالك أحسنُ؛ وخيرُ أنيس في العلوم مثال: أحدهم اعتدى عليك فتستطيع أن تأخذ بقوله عزّ شأنه:

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾[سورة الشورى: ٤٠].

فالذي أساء إليك تُسيء إليه، لكن انتبه على المُماثلة، بمعنى: ضربكَ كفًّا، تضربه كفًّا، لا تضربه خمسة كفوف.

مع أنّني أفهم من هذه الآية أنّه في حالات نادرة جدًّا يُمكن أنْ تأخذ الحق لأنّ تحقيق المُماثلة صعبة جدًا؛ بمعنى: إذا ضربك كفًّا؛ فكم قوّة الكفّ؟ المفروض أنّك تضربه بالقوة نفسها! فمن أين لك بمقياس يُعطيك قوّة الضربة، والواجب عليك أنْ تضربه بالقوّة نفسها، فأنى لك هذا؟

إذنْ فكونك تُطالب بحقّك فهذا حَسن، ولكن بمثل ما اعتدى عليك، والأفضل والأحسن: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [سورة البقرة: ٢٣٧].

يا سلام! تبحثون عن التقوى؟ اذهبوا للعفو، فهذا من معنى قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [سورة الزمر: ١٨].

﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُم﴾ [سورة الزمر: ٥٥].

حسنًا، هذا فيما إذا كان لك حق فسبحانه يدعوك إلى الأحسن، فكيف إذا لم يكن عندك حق أصلًا، فكيف يسمح لك أنْ تتعدّى وتتجاوز وتبغض وتكره، الى آخره.

إذنْ (١٣) سنة والرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم يُؤسّس لحرّية الاعتقاد في حضارة الإسلام: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٦].

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [سورة الكهف: ٢٩].

بعد ذلك يدعوهم إلى الوسائل المُباركة الطيّبة المبنيّة على المودّة والرحمة والحكمة:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [سورة النحل: ١٢٥].

ربّما تكون هناك استثناءات أحيانًا، لكن ليس في هذه المرحلة، أما بعد قيام دار الإسلام فقد جاءت أحكام تقبل وجهات النظر، تقبل الاجتهادات، لأنّ الواقعة الشرعية تتأثر بالزّمان والمكان والحال، لذلك قال علماء الأصول رحمهم الله تعالى بتبدّل وتغيُّر الأحكام بتغيّر الزمان والمكان والأحوال، وهذه قاعدة أصولية، ولكن ما تغيّر الأحوال؟

مثلًا: أعطاك الله تعالى الصحّة والعافية، فأنت صائم والحمد لله، لكن غيرك مريض، فحالته تستوجب تغيّر الحُكم بالنسبة له؛ بينما هو يُعاند الأطبّاء الذين قالوا له: الصيام يُؤذيك، فيقول: بل أصوم.

يا أخي سوف تقتل نفسك، والله عزَّ وجلَّ قال:

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [سورة النساء: ٢٩].

هنا أصبح صيامك حرامًا، وفطرك واجبًا، فتغيّر الحكم بتغيّر الحال من الصحة إلى المرض.

مثال آخر: زوجة تشكي فتقول: ترضى يا شيخ زوجي يمنعني من قراءة القرآن الكريم؟

فقلت: قد سمعتُ منك ولكن يجب أنْ أسمع من زوجك؛ فقالت: نعم، اسأله، فسألتُ الزوج، فقال: نعم، صحيح يا شيخ.

عندما تسمع كلمة: نعم صحيح، ربّما تغضب فورًا فتقول: لماذا أيها الظالم، نحن نتحايل على نسائنا ليُمسكنّ القرآن الكريم، وأنت تمنعها!

قلت له: حسنًا، مُمكن تشرح لي كيف تمنعها؟

قال: سوف أشرح لك، وأنت احكم، قال: عندي أطفال ثلاثة في المرحلة الابتدائية، وأمّهم تذهب تتوضأ فتُصلّي الظهر ثم تُمسك بالمُصحف الشريف، وبعد خمس دقائق تقريبًا تكون عودة الصغار من المدرسة، وكما تعلم فالطفل يرجع جائعًا مُتعبًا مُتلهفًا لأحضان أمه، وقد

يحتاج بعضهم لمساعدتها في خلع ملابسه، والحال أن أمهم مُمسكة بالقرآن الكريم تقرأ وتقرأ ولا تلتفت لصغارها المُتعبين.

نحن الذي فهمناه من مشايخنا الكرام أنّ لكلّ زمانٍ تقواه، وأنتِ تقواكِ الآن أنْ تُقبّلي المُصحف وتضعيه في المكتبة، وتأتي لتعانقي ابنك، وتنظفيه وتُطعميه؛ فهذا سبب منعي لها من قراءة القرآن، فهل الحق معي أم لا؟ فقلت له: أكيد الحقّ معك حتمًا يا أخي الكريم.

إذن لا يصحّ لمَنْ يقرأ كتاب الله عزَّ وجلَّ وهو لا يعرف مُتعلّق النصّ ولا زمن النصّ، ثمّ يجتهد فيُعطي أحكامًا، قد تكون بعضها خطيرة تتعلّق بالدعوة إلى الله عزَّ وجلَّ؛ فالدعوة سلمية كلّها، إلّا ما حصل من استثناء، فمثلًا الرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم قاتل في المسجد الحرام لساعة، ثم بيّن أنّ هذه الساعة مخصوصة، فقد أذن الله تعالى فيها لرسوله عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام فقط استثناءً، ثم عادت مكة بعدها حرامًا إلى يوم الدّين، فلا يصحّ أن يُقال: أنا أقاتل فيها، فالاستثناء لا تُبنى عليه أحكام جديدة، وأنت لستَ مُشرّعًا حتى تقول: إنّ الله استثناني من هذا النصّ.

فمثلاً قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [سورة التوبة: ١٢٣].

هذه حالة استثنائية، فبعد ما أقام الرسول الأعظم صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه دار الإسلام، وأراد أنْ يُوطّد أركانها، هجم الكفر كله على هذه الدار، وأردوا أنْ يستأصلوها ويجتاحوها؛ فهؤلاء الكفار إذا كانوا من أهل الكتاب فالحُكم فيهم إمّا الجزية أو السيف، ولكن هذه حالة استثنائية إبّان قيام دار الإسلام، على قول بعض أهل العلم رحمهم الله تعالى.

وربّما هنالك قول آخر: فهذه الآية لها وقائعَ خاصة، فـ﴿يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾، يعني بها كما يُسمّونها في لغة الحروب: حربٌ استباقية، فإذا تأكّدتَ ١٠٠% بأنَّ هناك قوّة ظالمة تتهيأ وتُقوّي نفسها، وتبني قدراتها وطاقاتها للهجوم المُحقق عليك، ليهدموا دارك، دار الإسلام،

ويقتلوا حبيبك صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم أو ليقتلوا وارثه وخليفته، فهنا يجوز لك أنْ تذهب لقتالهم؛ لأنّهم بحكم المُحاربين.

نحن لا نتحدّث عن مرحلة ما بعد الهجرة، نحن نتحدث عن مرحلة تأسيس الدِّين، عن مرحلة الأسس الأصلية في الدِّين، الدِّين قائم على عدم فرض العقيدة فرضًا؛ لأنّ العقيدة اختيار، فالله جلّ وعلا أعطى الإنسان عقلًا، فهو يختار، هل يأخذ بهذه العقيدة أم بتلك؟ بعقيدة الإيمان أم بعقيدة الكفر؟

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [سورة الكهف: ٢٩].

وبعد ما قامت دار الإسلام، قال لهم سأترك لكم كلّ شيء، اتركوني فقط، قالوا: لا نتركك، سنلحق بك حيث تكون، وفعلًا حدث ذلك، فماذا يفعل؟ فنزل حكم الإباحة.

لمّا جاء فتيان قريش الذين آمنوا مثل سيّدنا حمزة وسيّدنا عمر، سيّدنا عبد الرحمن بن عوف، سيّدنا معاذ بن جبل، وغيرهم رضي الله تعالى عنهم، قالوا: يا رسول الله نحن كنّا أعزّاء في الجاهلية، فهدانا الله تعالى لهذا الحقّ، لهذا الخير، لهذه البركة، فهل نُذلّ؟! ائذن لنا بمناجزة القوم، والله لو أنّه أعطى الإذن لسيّدنا عمر رضي الله تعالى عنه لفعل ما فعل بأهل مكة، هو وحده فقط رضي الله تعالى عنه وأرضاه، فكيف إذا كان معه سيّدنا حمزة عليهما السلام والرضوان! لكن ليس هذا من هدايات الدّين الذي جاء به؛ فليست هي مسألة غَيْرَة وأهواء، فهذا تشريعٌ، ليس لمجموعة صغيرة بل تشريع لأمّة تعيش حتى قيام الساعة.

إنّ آية السيف مخصوصة بأحوال معيّنة، لأنّها تُعارض الثوابت، وبالتالي: الأصل في الدعوة إلى الله تبارك هو الحكمة، وإشعار المُقابل بأنّك تُريد له الخير، تُريد أنْ تخرج به من الظلمات إلى النور.

فموضوع سلمية الدعوة موضوع أساسي في الدِّين، فإذا كان الأمر هكذا، فلنرجع إلى أنفسنا، ينبغي أنْ نُحقّق السِّلم في حياتنا، السِّلم الاجتماعي، السِّلم الأسري، السِّلم النفسي، فلا يجوز أنْ تعتدي على نفسك، فإنّ لجسدك عليك حقًّا.

فبعد ما وصل الحبيب صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه، وأقام دار الإسلام، عند ذلك نزلت الآية الكريمة: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾ [سورة الحج: ٣٩].

انظر أوّل كلمة: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾، ما أُذِنَ لكم بأنْ تفرضوا الإسلام بالقتال، كلا، بل أُذِنَ لكم يا مَنْ تُقاتَلُون أنْ تردُّوا الكيد والعدوان.

هذه الآية من سورة الحج، فلا تستعجل في إطلاق الأحكام، بل انظر إلى عمقها اللغوي وتاريخها وإلى كونها مكيّة أم مدنية، انظر إلى اسم السورة، والأحكام التي جاءت بها، فسورة الحج سورة تُبيّن أحكام شعيرة من شعائر الدِّين، كلّها مودّة ورحمة وسلام، فالذي يُحْرِم بالحجّ أو بالعمرة لا يستطيع أنْ يقصّ أظافره، كثير من المُباحات أصبحت عليه حرامًا، لا يستطيع أنْ يلبس الملابس المُعتادة، فكيف سيُقاتل؟ فهذه كلّها هدايات في ظلال هذه الآيات، وفي نفحات تسميات السور؛ فينبغي أنْ يُلتفت إليها؛ لأنّه قرآن، مُعجزة النبيّ العدنان عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه.

فأفهم أنّه حتى لو أُذن لكم بأنْ تُدافعوا عن أنفسكم لكنه دفاعٌ قابل للتخفيف من حدّته أو الاستغناء عنه بالسلام؛ فكلّما وجدتم مجالًا للسّلم فاجنحوا له، قال تعالى:

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [سورة الأنفال:٦١].

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [سورة البقرة: ١٩٠].

صيد البرّ حرام بحق الحجيج، بل إن الحاج لا يحكّ - من غير ضرورة- رأسه حتّى لا يسقط شعره، وفي ظل هذه التشريعات نزل الإذن بالقتال، وليس الأمر بأنْ تُبادر للتقاتل، وتُجيّش جيشًا، وتهجم على جيرانك، فهذا لا علاقة له بشرع الله جلّ وعلا، لا من قريب ولا من بعيد، ويبقى الأصل:

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [سورة فصلت: ٣٤].

ينبغي أنْ ننتبه أن ثلاث عشرة سنة من عمر النبوّة كثير، فعمر النبوة ثلاث وعشرون سنة فقط، وهذا يعني أن المُسلمين ـ خلال أكثر من نصف الفترة ـ كانوا يتعرضون لمختلف أنواع الإيذاء والإجحاف والظلم والطغيان، والنبي صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم يقول: ما أمرت بهذا، ويقول: (--- صَبْرًا يَا آلَ يَاسِرٍ فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْجَنَّةُ ---) الإمام البيهقي رحمه الله جلّ وعلا.

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [سورة سيّدنا يوسف عليه السلام: ١٨].

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [سورة الأحقاف: ٣٥].

﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [سورة البقرة: ١٠٩].

قد يقول قائل: هل نبقى هكذا مُقيّدين نتعرض للعذاب والقتل؟ نعم، تذكّر فأنّك مُحبّ، والمُحبّ إذا قُتِل لأجل محبوبه، فهذا هو الفوز العظيم، هذه لغة المُحبّين فلا تنسى.

الحالات الاستثنائية تفرضها الوقائع والحوادث، ولا تبقى قوالب ثابتة، فهي تُوْكَلُ إلى الشورى في الإسلام، فإن لم يتفق أهل الشورى يرجع الأمر إلى وليّ الأمر.

و لمّا نسيت الأمّة أو تناست، جهلت أو تجاهلت، وابتعدت عن مصادر فهم الشرع الشريف فهمًا سليمًا دقيقًا مبنيًّا على الأسس والثوابت الصحيحة، ومُنبثقًا من الذوق العالي الرفيع، حصل في الأمّة ما حصل في كلّ الأزمنة، فكل الفتن التي حدثت كان سببها الابتعاد عن هذا المصدر، مصدر أهل العلم، مصدر الراسخين في العلم، مصدر المُتذوقين الربانيين.

إنّ المرحلة الثانية والثالثة تميَّزتا بوتيرة تصاعدية في بناء العقيدة الإسلامية، الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشرّه، فأوائل ما نزل من القرآن الكريم لا يخلو أبدًا من التصريح أو التلميح بضرورة بناء العقيدة، وإذا درست جزء "عمّ" ستجد إن ٩٩% من سوره مكيّة، نزلت في هذه الفترة، في الفترتين الثانية والثالثة، وكلها تدعو لربط الإنسان بالعقيدة الإسلامية.

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾[سورة النبأ: ١-٣].

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾، عمّا يعني عن أي شيء يتساءلون، صار إدغام بين النون والميم،

فصارت:﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾، ومعنى النبأ العظيم: الاعتقاد بوحدانية الله تعالى، والايمان بنوة

سيدنا الحبيب صلى الله تعالى عليه واله وصحبه وسلم، والاعتقاد بالدار الآخرة، باعتبار أنّهم كانوا مُشركين إلى غير ذلك من أقوال المُفسرين رحمهم الله تعالى.

أكيد النبأ العظيم يشمل كلّ هذه الأقوال، فكلّها نبأ عظيم، فعندما يُقال في مكة بُعث رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، وإنّه يقول: إنّ إلهكم واحد، وإنّكم مبعوثون من بعد الموت، فهذه كلّها نبأ عظيم.

لكن هناك مُعوّق الاختلاف، فكيف تقضي على هذا المُعوّق أيّها الداعي إلى الله عزَّ وجلّ؟ ما الوسيلة؟ الوسيلة: أنْ تُذَكّر النّاس بقدرة الخالق سبحانه، فهم مُتعجبون من نزول مَلَك على رجل منهم يُوحى إليه مُراد الله جلّ وعلا أو مُتعجبون من عودة الروح، أي الإيمان

بالبعث بعد الموت، ما العلاج الأمثل لمداواة وهداية هذه العقول؟ بتذكيرهم بعجائب قدرة الله عزَّ شأنه: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾[سورة النبأ: ٤ – ٥].

كلّها بالمستقبل، وستتضح في قوله تعالى:﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[سورة فصلت: ٥٣].

ستكون الأمور واضحة جدًّا، لا تقبل مُنازعة، انظروا بعقولكم إلى قوله تبارك اسمه:﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾[سورة النبأ: ٦ – ١١].

إذنْ خذهم في سياحة فكرية، قلبية في هذا الكون الذي خلقه الله جلّ في علاه، ليُشاهدوا عجائب قدرته سبحانه، وكأنّه يقول لهم: أنتم ترون أمامكم كل هذه الآيات، أفلا تُعين هذا عقولكم على الايمان بأنّ البعث والحساب بعد الموت حاصل؟ فمثلًا: النوم آية من الآيات، وهو أخو الموت، فمثلما تنام وتستيقظ هكذا تموت وتُبعث، قَالَ سيدنا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (النَّوْمُ أَخُو الْمَوْتِ...) [رواه الامام الطبراني رحمه الله تعالى في المعجم الاوسط].

هكذا نرى السورة الكريمة تُقرّر العقائد، تُقرّر أساليب يتخذها الداعي بالدعوة إلى الله جلّ وعلا بعيدًا عن الفلسفات والعبارات التي تحتاج إلى شروح وحواشي، فما تكلم الشرع الشريف عن الجوهر والعرض، فالجوهر لا يتغيّر، والعرض يتغيّر، إلى آخره، نعم هذه أساليب نافعة تعالج أجواءً وأمراضًا نشأت في أوقات وأطوار زمنية معيّنة، ولكن أسلوب القرآن الكريم يبقى هو الأمثل والأوضح والأسهل لكلّ الأوقات وفي كلّ الأزمنة.

فإذا تكلمتَ مع الغربيّ والشرقي والعربي والأعجميّ، وَجِّهْ نَظَرَهُ وقلبه لآيات الله عزَّ وجلَّ في هذا الكون، ليُفكّر فيها فإنه سيصل إلى الله تعالى، لا تحتاج أنْ تأتي له بدليل السلسلة المُتناهية وغير المتناهية، والأدلة التي جاء بها المُتكلمون رضي الله تعالى عنهم، نعم قد أحسنوا وأجادوا، فلا أنتقد - نعوذ بالله تبارك وتعالى- ولا أقلّل من علومهم الشريفة، ولكن هذه الأدلة تنفع لمستويات خاصّة فقط، لأشخاص معينين في أزمنة مخصوصة، وأحوال معلومة، أمّا أسلوب القرآن الكريم فهو خطاب للعقل الإنساني بغض النظر عن كونه عربيّاً أو أعجميّاً، شرقيّاً أم غربيّاً، من أهل هذه العصور أو من أهل العصور السالفة.

إذن أمامك كفر وشرك واختلاف، فهذه مُعوّقات أمام نشر الدعوة وسيرها، فكيف تُذلّل هذه العقبات؟

الكليّة الرابعة: تذليل هذه العقبات

كيفية إثارة العقل الإنساني للتأمّل والتدبّر؟ وخذ الجزء الثلاثين من القرآن الكريم أنموذجًا، تدبر الآيات والسور فسترى حقيقة هذه الهدايات واضحة جدًّا، وبشكل سلس ومُيسّر، وستجد أن آيات قصيرة لها وقع موسيقي مُؤثر على الروح والعقل الإنساني.

بعد هذه السياحة الكونية، والوقوف على عجائب قدرة ربّ البرية سبحانه، يُوقفهم الله تعالى أمام الدار الآخرة مُباشرة؛ لذلك أقول إن أقصر الطرق إلى الإيمان بالله جلّ وعلا هو التذكير بالدار الآخرة: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا * لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾[سورة النبأ: ١٤ – ١٦].

وبينما هم يجولون ويطوفون بعقولهم وعيونهم في هذه الرياض العقلية المُطمئنة للقلب، يُدركون بأن ربًّا خالقًا يتصرّف في هذا الكون، ثم يُوقفهم مباشرة أمام الحقيقة:

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ [سورة النبأ: ١٧].

أنتم مُختلفون؛ والخلاف لا يفضُّ ولا يُحلّ إلّا في يوم الفصل، فموعدنا معكم يوم الفصل، أي اليوم الآخر :﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا * يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا * وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا * وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [سورة النبأ: ١٧ - ٢٠].

وهنا إنذار: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ [سورة النبأ: ٢١].

وتبدأ الآيات تصف جهنّم، فهذه كلّها وسائل لتذليل العقبات التي ظهرت، فالمُعوّقات في الكلية الثالثة، وهنا يُعطيك وسائل تذليلها.

وبعد ما أنذر بشّر، فقال تعالى:﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾ [سورة النبأ: ٣١- ٣٢].

ثمّ خُتمت بختام يقرع القلوب والعقول:﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ [سورة النبأ: ٤٠].

نحن أنذرناكم، فلا تقولوا: نحن لا نعرف، ما سمعنا، كيف تُؤذوننا؟ كلا، فـ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾، هذا العذاب ربّما يشمل العذاب في الدنيا أيضًا، مثل عذاب انكسارهم والانتصار عليهم، وهذا الذي حصل، فبعد سنوات ـ في بداية قيام دار الإسلام ـ انتصر الرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم انتصارًا عظيمًا، بل هجرته كانت انتصارًا عظيمًا، وكلّ حياة المُسلمين انتصارات.

السيّدة سُميّة رضي الله تعالى عنها، الصحابية الجليلة أمّ سيّدنا عمّار بن ياسر رضي الله تعالى عنه، لمّا استشهدت انتصرت، نالت الشهادة، وافتتحت مُوكبَ الشهداء العظيم، بل هي نقطة الارتكاز في ذلك المُوكب، هي البيرق والعلم، هي القدوة والمثال، أليس هذا انتصارًا، إنْ لم يكن هذا هو الانتصار الحقيقي، فما الانتصار إذن؟ الانتصار على النفس الأمّارة بالسوء، الانتصار على شياطين الجنّ والأنس وطغيان الطغاة، وإقرار الحقّ والثبات عليه.

﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ [سورة النبأ:٤٠].

عندما تنتقل من هذه السورة الكريمة إلى السورة الثانية ـ النازعات ـ ترى الحال نفسه، فهذه المعاني تبرز بشكل قويّ، إذن أيّها الداعي إلى الله عزَّ وجلَّ ينبغي عليك أنْ تتشبث بالقرآن الكريم، وأنْ تتفاعل مع آياته، ومع سيرة سيّد المرسلين عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه أجمعين، والسيرة تجسيد لسُنّة النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم.

هذه المرحلة التي نعيشها ليس فيها دار إسلام، فهي نفس المرحلة المكيّة، صحيح نحن مُسلمون وهناك دول إسلامية بمعنى أنّ مُعظم أهلها مُسلمون ويُصلّون والحمد لله، لكن نحن في هذه المرحلة نحتاج إلى تفعيل بدايات ما نزل من القرآن الكريم، فيا حبذا لو حفظ أهلنا وأحبابنا جزء "عمّ" على الأقل، ولا أعني بالحفظ مُجرّد ترديد الآيات، بل يتفاعلون معها إيمانًا وتطبيقًا.

وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ [سورة النازعات: ١].

لابُدَّ أنْ تعلموا بأن هناك ملائكة تنزع الروح من أجسادكم، لماذا؟ لوجود يوم البعث والحساب: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾.

وهنا انتقال إلى ركن آخر من أركان الإيمان، وهو الإيمان بالملائكة:

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾[سورة النازعات: ١ – ٤].

كان التذكير بالملائكة قبل ذلك عامًا: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾[سورة النبأ: ٣٨].

أما هنا فبدأ يُبيّن وظائف ومجاميع الملائكة، فلكلّ مجموعة وظيفتها، وهكذا تمضي مع السورة الثانية لتجد أن هذه المعالم بدأت تبرز: الإيمان بالله عزَّ وجلَّ، الإيمان بالملائكة، إلى غير ذلك من أركان الإيمان.

ولابد من أمثلة للعظة والعبرة: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [سورة النازعات: ١٥ – ١٩].

يضرب لهم أمثلة حتى يقيسوا عليها، أنتم مثل هؤلاء، فهل طغيانكم أكبر وأعظم من طغيان فرعون؟ ومع ذلك فالله عزَّ وجلَّ أرسل إليه سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام يُذكره عسى أن ينتبه لنفسه، ويدعوه لتلقي آيات ربّه عزّ شأنه حتى لا يقول: يا ربّ أنت ظلمتني، ما أنذرتني، ما بيّنت لي، كلا، لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ عليهم الصلاة والسلام.

وهكذا فعل الرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم؛ فقد ذهب إلى طغاة مكة، بلّغهم وبيّن لهم، وأعلن لهم، فلا تُوجد سرية في بيان دّين الله عزَّ وجلَّ، بل لا تُوجد

سرية حتّى في الديانات السابقة، يا الله، فهذا سيّدنا موسى عليه السلام ذهب إلى فرعون مباشرةً، لم يذهب إلى وزرائه أو حاشيته أو حارس من حرّاسه، قال الله تعالى:

﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [سورة النازعات: ١٧].

أين السرّية في الدعوات السماوية؟ هي تُريد أن تُعلن عن نفسها، تُريد أن تُبيّن مُراد الله جلّ جلاله من خلقه، تُريد إنقاذ البشرية من الظلمات إلى النور، وأعظم الرسالات السماوية رسالة حبيبنا وسيّدنا محمّد صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه، فكيف تعمل في الظلمات والسراديب؟ كلا، بل تتحرك بحرية في كلّ مكان، نعم ينبغي أنْ ندعو بحكمة، لكن ليس هناك سرّية في الرسالات السماوية.

هذه صفحة من صفحات الطغاة فُتحت في سورة النازعات، فيها بيان ما حلّ بهم كي يحذر الآخرون، كل ذلك في أسلوب قصصي لطيف يُمثل أسلوبًا من أساليب الدعوة إلى الله جلّ جلاله: ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٧٦].

وهكذا قصّة فرعون، قصّة قوم نوح، قوم لوط، إلى آخرها من الأقوام، وهذه كلّها جاءت في بدايات ما أنزل الله جلّ وعلا من القرآن الكريم.

ختام القصة قوله عزّ شأنه: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ * فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ * ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ * فَحَشَرَ فَنَادَىٰ * فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ * فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ﴾[سورة النازعات: ٢٠ - ٢٦].

أخشى ألا تُصدقوا بأن الطغاة لا يُقضى عليهم، كلا:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ * أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾[سورة النازعات: ٢٦ - ٣٣].

ومرّة أخرى بدأ يطوف بهم في سياحة كونية، طاف بهم على آيات القدرة الربانية، وعجائب قدرة الله سبحانه في الخَلق، لكن بينما هم يطوفون ويُدققون النظر في آيات الله تعالى، بدء يهزّهم هزًّا قويًّا: ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ * فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ﴾[سورة النازعات: ٣٣ - ٣٥].

أوقفهم وجهًا لوجه مرّة أخرى أمام أساس من أسس العقيدة الإسلامية، أساس متين وعظيم وهو الإيمان باليوم الآخر.

وهكذا نجد في الجزء الثلاثين هذا الأسلوب الدعوي الجميل والحكيم في إخراج النّاس من الظلمات إلى النّور، وفي تذليل العقبات بما فيها من وسائل دعوية وفكرية كثيرة، يُمكن جمعها في عبارة: تحفيز العقل الإنساني، وانظروا إلى عظمة الإسلام، يُريد لهذه الطاقة الروحية ـ طاقة العقل ـ أنْ تُستثمر، فمثلًا: لا يجوز لأحدٍ لديه سيّارة مُمتازة أن يتركها في بيته ويذهب ليقف في طابور مُنتظرًا حافلة عامة لنقل الركاب، يتحمل الحرّ والتدافع، لماذا؟ ألم يهبك الله تبارك وتعالى هذه السيّارة المُمتازة؟ اركب فيها وتمتع، شغّل المُكيّف، قف حيث تشاء، اجلس حيثما تُريد، فالله تبارك وتعالى أعطاك هذا العقل، هذه القوّة الفذّة، وأنت تُهمله وتُغمضُ عينيك فلا تتأملَ ولا تتدبر، كما قال ربّ العالمين:﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[سورة سيّدنا يوسف عليه السلام: ١٠٥].

تُعرض! نعوذ بالله تبارك وتعالى، أليس من المفروض أن تنظر، ليس بعينيك فقط إنّما بقلبك أيضًا: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾[سورة عبس: ٢٤ - ٢٦].

نعم أكيد؛ فليس المُراد بالنظر هنا نظر البصر، كلا، إنّما نظرة المُتأمّل، نظرة العاقل، مَنْ يُحفّز عقله، ويُفكّر إلى أنْ يصل إلى السلسلة الأولى لكلّ هذه النّعم اللذيذة الطيّبة المُباركة التي أمامه؛ فهي في حقيقتها وأصلها عبارة عن حفنات من تراب.

إذنْ من وسائل الدعوة إلى الله جلّ ذكره، تحفيز العقول، وهذا يُذكرنا بأوّل كلمة نزلت من القرآن الكريم: ﴿اقْرَأْ﴾[سورة العلق: ١].

" اقْرَأْ " هي الكلمة التي تُحفّز العقل، فإذا تحفّز العقل يطمئنّ القلب، ويهتدي إلى مُراد الربّ سبحانه، لذلك جُعِلَ العقل مناط التكليف.

فإذا أخذنا بهذا المنهاج المبارك، كيف سيكون وجه الحياة؟ الكلية الخامسة، تصير الحياة قائمة على الإيمان والصفاء، على السلم البدني والفكري والقلبي، على السلم المُجتمعي، فالإنسان فيها مُتوجّه إلى الخالق، يرى هذه الحياة مطيّة لحياة مُستقبلية، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فيها أعظم عطاء مُمكن أنْ يُوصف بالعظمة، نعمة النظر إلى وجه الله جلّ في علاه، نسأل الله عزَّ وجلَّ أنْ يُمتّعنا بالنظر إلى وجهه الكريم: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[سورة سيّدنا يونس عليه السلام: ٢٦].

فحياة تحياها بهذا الشكل، بهذا التوجّه، بهذه الأهداف السامية، كيف تكون؟ أكيد تكون حياة هانئة مُطمئنة، فيها الصبر الجميل، فيها النور المُبين، فيها الطمأنينة كما قال عزَّ شأنه:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[سورة الرعد: ٢٨].

إذنْ في هاتين المرحلتين بالذات: الثانية والثالثة عندنا الخط البياني يعلو في إرساء أركان العقيدة الإسلامية، في إرساء شخصية المُسلم اعتقادًا، بمدّ جذور العقيدة وتقويتها في أرضية الإيمان الراسخ في القلوب.

إذنْ المرحلة الثانية والثالثة قامتا على معرفة الله سبحانه، فلمّا عرفوا الله تبارك اسمه آمنوا به، لمّا عرفوا الرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم بأخلاقه وشخصيته الفذّة تعلّقوا به، قبل نزول مُعجزته، والتعلّق والتوجّه إلى الله عزّ كماله، وسيدنا رسول الله صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه ومَنْ والاه أصل في الدّين، عبّرت عنها كلمة الشهادة بشقيها؛ فلا إله إلا الله، لا تُغني ولا تكفي ولا تبني عقيدة مُنجية بدون: سيّدنا محمّد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم.

من السمات البارزة في المرحلة الثانية والثالثة أنّ الدواعي الغريزية الإنسانية خفّت في حياة سيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، وهذا لا يعني إهمالها، بل يعني ترتيبها حسب الأولويات، فهناك أهمّ ومهمّ.

ففي المرحلة الأولى كانت الدوافع الغريزية قويّة، العمل والرعي والدخول في المجتمع، بناء الرجولة والشهامة الفطرية الغريزية، فما عندنا آنذاك دين أو وحيّ يُوجّه، فلذلك رأينا الدوافع الفطرية الغريزية على أشدّها في المرحلة الأولى.

إذنْ عندما نعدّ الداعي ينبغي أن نُهيّئ له الحاجات الغريزية كي يخدم دين الله عزَّ وجلَّ، ينبغي أنْ نفكّر بسكنه، براحته، بمأكله، بمشربه، بعلاجه إذا لا قدّر الله تعالى مرض، فإذا تركته بدون دعم فكيف يستطيع أن يقف في الساحة؟.

الرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم عمل راعيًا، تاجرًا حتى تزوّج من السيدة خديجة رضي الله تعالى عنها، وهي من سيدات الأعمال إنْ صحَّ التعبير، فإذنْ هذا الجانب قَوِيَ عنده، لذلك جاء بسيّدنا عليّ رضي الله تعالى عنه وأسكنه معه وربّاه، تكفّله، خفّف عن والده، أما لمّا بدأ الوحي، وبدأت الدعوة فلا نرى حديثًا عن عمل النبيّ صلّى الله

تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، ماذا كان يعمل، هل بقي يُتاجر؟ فلم تعد هذه الأمور مهمة قياسًا بأهمية الدعوة إلى الله تبارك اسمه، فقد حصّلت ما يكفي منها، فخذ من الدنيا كفافًا أيّها الداعي إلى الله عزَّ وجلَّ، أما أن نضع هذه الحاجات هي الأهم، فمعنى ذلك أنّ الداعية سيذهب وينشغل بالتجارة، وببناء العمارات وتأسيس الشركات، ويوميًّا اجتماع في هذه الشركة، ومراجعة لتلك الدائرة، وهكذا؛ فمتى يدعو إلى الله تعالى إذن؟ متى يأخذ نصيبه من الليل؟ كلا أيّها الداعي، في بداية طريقك رتّب هذه الأمور الفطرية، فالإسلام لا يُحرمها، رتّبها، حاول أن ترتبها أيّها الأب، حاول أنْ تُعين أولادك على ترتيب هذه الأمور، وأخاطب كلّ الآباء بشكل عام، الآباء من المُسلمين بشكل عام، وأخصّ السالكين بشكل خاص، أنْ يُولوا عناية كبيرة بما يحتاجه أبناؤهم، لقد قال سيّدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام: (كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَعُولُ) الإمام النسائي رحمه الله تعالى.

وقال: (إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً[1] يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ) الإمام البخاري رحمه الباري سبحانه.

إن مساحة الظلمات - نعوذ بالله تبارك وتعالى- تتّسع، لماذا؟ لعدم ترتيب المراحل، وعدم ارتباط حلقاتها، فالبداية: حُسن الصلة بالله تبارك وتعالى، الصدق مع الله عزَّ وجلَّ، فهذه مُقومات صناعة الأمّة القوية.

فإذا أكمل الأب بناء الدار، وصارت كل الأمور جاهزة، انطلق الأبناء في مجال الدعوة إلى الله عزَّ وجلّ، ثم جاء الجيل الذي بعده فرأى أنّ الأمور كلّها تمام ما شاء الله، والدعوة سائرة وقاطعة أشواطًا، فبدأوا أشواطًا أخرى فتألّقوا بها وترقوا، ولعدم حصول ما تقدم بقينا نُراوح في مكاننا، بل ننقلب على أعقابنا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

يا أصحاب الهمم العلية إن الترقي مقصود، ففي الصلاة مثلًا: المفروض أن تكون في الركعة الثانية أفضل حالًا من الركعة الأولى، والركعة الثالثة أفضل حالًا من الثانية، الرابعة أنقى وأصفى حالًا من الثالثة، الصلاة التي أدّيتها في هذه المرحلة أرقى حالًا مما قبلها،

[1] العالة: هو الذي لا يجد ما يسد حاجته من طعام وشراب وكساء ونفقة وغير ذلك.

فهكذا نبني حياتنا إلى الله عزَّ وجلَّ، ولا تخشَ ولا تخف، فالإسلام ما حرّم البيت الواسع ولا السيّارة الفارهة ولا الأكل اللذيذ:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [سورة الأعراف: ٣٢].

لكن كن زاهدًا، لا تجعل الدنيا تعشعش في قلبك - نعوذ بالله تبارك وتعالى - بل اجعلها تحت أقدامك، فأنت تُديرها، وليست هي من تُديرك.

هنالك سُنن في الخَلق والتكوين والتشريع ؛ قال الله تعالى:

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [سورة الأحزاب: ٦٢].

﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [سورة الإسراء: ٧٧].

إذا الإنسان لم يفقه هذه السُنن فسيخطأ كثيرًا، ويقع في مطبّات عظيمة جدًّا، فمن الضرورة بمكان الالتفات إلى سُنن الرحيم الرحمن جلّ جلاله في الخَلق والتكوين، فمثلًا نجد أنّ الله عزّ وجلّ من سُننه أنْ يجعل نواةً لما يُريد خلقه أو لما يُريد تشريعه، ففي الخَلق مثلًا، قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [سورة المرسلات: ٢٠ - ٢٣].

كثيرة هي النصوص التي تتحدّث عن قضية خلق الإنسان، فهنا أشار إلى مرحلة الضعف، فالبداية تكون ضعفًا، وهذا الضعف واضح جدًا في الآية الشريفة الأخرى:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾[سورة الروم: ٥٤].

إذنْ من سُنن الله تبارك وتعالى أنّ المرحلة الأولى في الخلق والتشريع والبناء والتكوين تكون ضعيفة، فتحتاج إلى رحمة الله جلّ وعلا، فهذه النواة لا تعيش ولا تقوى إلّا برحمة الله تبارك اسمه وعنايته سبحانه، فلذلك قال: ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾.

إذن العناية بالنواة لأنّها نقطة الارتكاز، ومبدأ الانطلاق، لابُدَّ أنْ تضعها في قرار مَكين، وهذا القرار المَكين يحتاج إلى وقت يتناسب مع هذا الخَلق، فهذا خَلق يحتاج إلى تسعة شهور غالبًا ـ الإنسان ـ وذاك خَلق يحتاج إلى أقلّ، وهذا يحتاج إلى أكثر، هذه نواة تحتاج إلى كذا، وتلك نواة تحتاج إلى كذا.

إذنْ وَضْعُ الشيء في المكان الصحيح، في القرار المَكين، ولابُدَّ أنْ يكون هنالك وقت لأنّ هذه البذرة فيها مُقوّمات الحياة بالقوّة، وحتى تخرج إلى الحياة بالفعل تحتاج إلى وقت، وفيها القوّة للنجاة من المخاطر غالبًا، وأحيانًا تقع في المخاطر، فعندما تنظر إلى النطفة فهي ماء مَهين لكن الله عزَّ وجلَّ جعل هذا الماء المَهين في قرار مَكين ـ رحم الأنثى ـ وجعل هذا المكان آمنًا مُصانًا محميًّا محروسًا بإذن الله تبارك وتعالى، فيبقى الجنين فيه ـ غالبًا ـ إلى وقت معلوم: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾، وأحيانًا يسقط الجنين، فسبحان الله العظيم الخبير.

كذلك بذرة النباتات، فيها مُقوّمات الحياة، فيضعها الفلاح في الأرض: ﴿فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾، لا يضعها فوق الأرض لأن الطير سيأتي ويأخذها، بل يُغطيها، ففيها القابلية لأنْ تكون في هذا المقرّ الآمن، وفيها القوة لأجل أنْ تنمو وتخرج إلى الحياة، وأحيانًا تُحيط بها الحشائش والأدغال، ومع ذلك تأخذ يمينًا ويسارًا فتخرج بالرغم من وجود تلك الأدغال.

أما في التشريع فنرى أن ربّ العالمين يُريد أنْ يُربي الإنسان على منهاج معيّن، على دّين معيّن، هذا الدِّين مُقوّماته موجودة في الفطرة الإنسانية، فالفطرة هي النواة، فهذه النواة لابُدَّ أنْ تكون في قرار مَكين، وهناك خطورة لأن أبواه مُمكن ـ نعوذ بالله تعالى ـ أن يُهوّدانه أو يُنصّرانه أو يُمجّسانه.

إذنْ في جانب المعنويات فالفطرة تُعدُ نواة الدِّين فيجب عليك أنْ تُحافظ عليها، لما فيها من القوّة، ونتذكر معًا قصّة السيّارة التي انفجر إطارها فصرخ الشباب فيها: "يا الله يا الله"، وكيف أن فطرهم قد دنّستها المُؤذيات الخارجية وغطّتها، فهنا تتجلى خطورة البيئة على الفطرة الإنسانية، لكن بفضل الله تعالى ما استطاعت أنْ تقضي عليها فظهرت بنقائها وصفائها في الشدائد: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[سورة سيّدنا لقمان عليه السلام: ٣٢].

هذا الدِّين نواة، جعلها الله عزّ شأنه في أصل الجذر الإنساني، في أعماق روحه، فما هو بجسمٍ غريب بل هو من مُكونات شخصية الإنسان، وهذا من رحمته سبحانه بالإنسان.

الالتفات إلى سُنّة الله جلّ وعلا في الخَلق والتكوين والتشريع ضروري جدًّا للدعاة إلى الله سبحانه، ونستطيع أنْ نضع هذا تحت الكلّية الأولى: شخصية الداعي، وأيضًا نستطيع أنْ نضعها تحت الكلّية الثانية فهو من معالم الدِّين الذي ندعو إليه، فهذا الدِّين يُوجهنا إلى ضرورة العناية والالتفات الصحيح لسُنن الله جلّ جلاله في الكون، ونستطيع أنْ نضعها كذلك في الكلّية الخامسة، فالحياة إذا قامت على الفطرة السليمة ستكون آمنة مُستقرة مُطمئنة، وهي الحياة التي يُريدها الرحيم الرحمن جلّ ذكره لخلقه، فما خَلَقَنا لأجل أنْ نتقاتل، وإنّما خَلَقنا سبحانه لأجل أنْ نتعارف ونتآلف، قال تعالى:

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [سورة الحجرات: ١٣].

الإنسان يحتاج في كلّ مراحل حياته إلى رحمة الله عزَّ وجلَّ، لكن النسبة تختلف من مرحلة لأخرى، رأينا في المرحلة الأولى كيف أنّ الله عزَّ وجلَّ حفظ نواة الفطرة لسيّدنا النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم ـ باعتباره أُنموذجا للدعاة في هذه الحياة ـ فاختار له الأبوين، اختار له: عبد الله وآمنة، عبد الله في مجتمع مُعظمه يعبدون اللات والعزّى، وما اختار له والدًا اسمه عبد اللات ولا عبد العزى، وفي هذه البيئة التي تهبط فيها العلاقات بين النّساء والرجال إلى أخسّ من طبع الحيوانات؛ اختار الله عزَّ وجلَّ له أمّاً كريمة طاهرة نقيّة: السيدة آمنة بنت وهب، من الموهبة، من الهبة، من العطاء، من الكنز، من كلّ ما يُسر القلب، ويُفرحه، فمِنْ عبد الله وآمنة يأتي سيّدنا محمّد صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه.

انظروا حماية الله عزَّ وجلَّ وحراسته، المرضعة حليمة، الموضع بنو سعد، من السعادة والى آخرها، وهكذا نرى عناية الله تبارك وتعالى في المرحلة الأولى.

وِقَايَةُ اللهِ أغْنَتْ عَنْ مُضَاعَفَةٍ ***** مِنَ الدروْعِ وَعَنْ عَالٍ مِنَ الأُطُمِ

فإذنْ حفظ هذه النواة، هذه الفطرة، ثمّ زيادة قابلياتها ودعمها بالمُقومات، ومنها شرح الصدر، وأشياء أخرى كثيرة ملئت السيرة الشريفة.

بعد ما حُوفظ على الفطرة من المُؤثرات الخارجية نرى في المرحلة الثانية أنها قويت وتألقت أكثر وأكثر، وازدادت نورًا على نور بشرح الصدر، وامتلاؤه بالنور، وجاءت المُجاهدة من العبد نفسه بدوافع عُبِّرَ عنها بالفعل المبني للمجهول، فحُبِّبَ إليه الخلاء والتأمّل، فهو يسحب نفسه من معترك الحياة واضطراباتها، ويجلس وحيدًا فريدًا مُتأمّلًا مُدقّقًا ناظرًا بعيني رأسه وعقله، وبصيرة قلبه إلى وضعه، مازجًا تأمّله بالتعبّد المُطلق.

ثمّ جاء الدعم الربّاني أيضًا؛ لأنّ الذي دخل الخلوة وتحنّث فيها تأهّل لتلقي بركات الله تعالى، وهدايته عزّ شأنه إلى الأسباب التي تُقوّي هذه الفطرة وتبني هذه الشخصية فنزلت الآيات والسور الأولى، ومعها الهبات والاعطيات، وبدأ التكليف المُنضبط الذي فيه قواعد وشعائر وأوقات وشروط وإمكانات، وهكذا، فالذي افهمه من هذه المراحل ـ وانا اسير معها خطوة خطوة ـ أنّه بهذا الشكل تُنَشَّأ شخصية الداعي إلى الله سبحانه وتعالى.

وبعد ما ثبتت هذه البذرة ـ الفطرة ـ وبدأت تنبت بإذن الله جلّ في علاه، وطالما بدأت الثمرة تنمو سوف تأتي المُعوقات، لأنّه لا يُرمى إلّا مَنْ به ثمر، فلمّا قال عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه: (فإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) الإمام البخاري رحمه الباري سبحانه.

بل قبل ذلك لمّا عرفوا أنّه يقول: إنّي رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، وإنّه أتاني جبريل، وإنّ ورقة بن نوفل رضي الله تعالى عنه قال كذا، وإنّ زوجته الطاهرة رضي الله تعالى عنها قالت: (وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا) الإمام البخاري رحمه الله عزّ وجلّ.

بدأوا يسمعون كل هذه الأخبار، فظهرت المعارضة، وجاءت المُعوّقات مُباشرة، وهذه سُنّة الله تبارك اسمه في كلّ المجالات، فحتى الجنين إذا اكتمل نُموّه وأكمل تسعة أشهر سوف يخرج للدنيا صارخًا، والرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام بيّن ذلك بقوله الكريم: (مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا نَخَسَهُ الشَّيْطَانُ، فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ نَخْسَةِ الشَّيْطَانِ، إِلَّا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ) الإمام مسلم رحمه المنعم جلّ وعلا.

نخسه، يعني: ضرب الطفل في خاصرته، كأنه يقول له: لقد جئت إلى حياة فيها مُعوّقات، ولذلك فبمُجرّد أنّ الرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم أعلن عن نبوّته ظهرت المعارضة، فلا تستغرب لمّا تتحدث بضرورة الالتزام بشرع الله تبارك وتعالى، وضرورة البحث عن مُرشد، وأنّ البيعة في حياة المسلم ركن ركين من أركان الدِّين، أنْ يخرج لك أشكال وأنواع المُعارضات، آراء، مُهاترة، إيذاء، طعن، غمز، لمز، كلها مسائل طبيعية، لأنها نزغات الشيطان ـ نعوذ بالله تعالى- لأولياء الرحمن سبحانه.

ولذلك جاء التأكيد على الصبر في المرحلة الثانية والثالثة في بدايات ما أنزل، جاء التأكيد على الصبر قولًا وفعلًا، وصبر الصابرون، لكن هذا لا يعني أنّهم لا يبحثون عن وسائل النجاة، كلا، فلابُدَّ من وسائل النجاة، فالنبتة لمّا ضايقتها الحشائش حاولت أنْ تخرج، وربما يأتيها مددٌ من الفلاح فيرفع عنها زرعةً مُتطفلة أو يُسقيها ماءً أو يُضيف إليها سمادًا، وإن لم يتم ذلك فهي تُحاول أنْ تثبت وتصبر فتخرج، فصابر أيّها الداعي، ينبغي عليك أنْ تفهم المرحلة الثالثة بأنّها مرحلة صبر ومُصابرة ومُرابطة فتصبر وتُصابر، تُرابط وتبني هذه المُجاهدة على ساق التقوى، لأجل أنْ تصل إلى الفلاح والهدى قال تبارك اسمه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سورة آل عمران عليهم السلام: ٢٠٠].

نرى أنّه في المرحلة الثالثة ظهرت معالم، منها: الحفاظ على النواة، فصار دار سيّدنا الأرقم رضي الله تعالى عنه المأوى الآمن، القرار المكين لحضرة سيّد المرسلين عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه أجمعين، لنواة الدعوة إلى الله ربّ العالمين جلّ وعلا، فالآن بحاجة إلى أنْ يكون في قرار مكين، فمن غير المُمكن أنْ يبقى هكذا هدفًا لكلّ مَنْ هَبَّ وَدَبَّ، كلا، لابُدَّ من قرار مكين فيه الطمأنينة والراحة، فيه الفهم عن الله جلّ ذكره، فيه المجال للترقية والتزكية بذكر الله عزَّ وجلَّ، وذكر الحقائق الجديدة التي يحتاج إليها سالكو الطريق إلى الله عزَّ شأنه، والمهاجرون إليه سبحانه:

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [سورة الصافات: ٩٩].

﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [سورة الذاريات: ٥٠].

هذا القرار المكين ضروري للداعي، فلابُدَّ أن تكون عنده نقطة انطلاق وارتكاز؛ ومن هنا تحتاج الدعوة إلى الإمامة في الدِين، والإمامة في الدِين هي: نقطة الانطلاق، وجاء وقت

الإشارة إليه أنّه الرسول الأعظم عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه أجمعين، فعندما يُؤمن المُسلم فلابُدَّ له أنْ يرتبط بالرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام من خلال الإقرار بالشهادة والبيعة، لابُدَّ أنْ يُبايع على الإسلام، وكلّ الذين دخلوا الإسلام في هذه المرحلة قيل لهم: ابسط يدك لأبايعك.

لابُدَّ في الإسلام من بيعة، وهذا موضوع مهمّ جدًّا جدًّا، وعليه فالداعي إلى الله تعالى لابد أن يكون مُبايعًا، لابد أنْ يتخذ مُرشدًا، وظهرت هذه المعالم في نهايات المرحلة الثانية، وفي بدايات المرحلة الثالثة صارت واضحة جدًّا، فهي ظاهرة شرعية، والكلّ يعرف ذلك، واشتدّت ظهورًا وتألّقًا بعد قيام دار الإسلام لأنّ هذه الأسس لا تتغير أبدًا؛ فلقد حُوفظ على النواة في المرحلة الأولى، ثمّ ازدادت تألّقًا وقوّةً لأجل أنْ تظهر ويُعلن عنها في المرحلة الثانية، وبمجرّد الإعلان عنها يجب الارتباط بها، والالتفاف حولها، والاقتراب منها كي ترتشف من رحيقها، وتستنشق عطرها، وتأكل خيراتها وبركاتها، لأجل أنْ تقوى أيّها العبد.

الفَلّاحُ في عالم الظاهر يجلب البذور، يحفظها ـ الآن الشركات المعنية بهذا الأمر لديهم الوسائل الصناعية للحفاظ على البذور إلى أنْ يُسلّموها للفلاح تامّة كاملة نامية ـ بوضعها في الأرض، ومنذ وضعها تبدأ العناية، يبدأ التفكير بها، فليس فلّاحًا مَنْ وضع البذرة ثم تركها، وليست أمًّا مَنْ شعرت بأنّها حامل ولا تفكّر في حملها، وليس أبًا من لا يُفكّر في تهيئة الأجواء لهذا الجنين، لابُدَّ من الارتباط به، لابُدَّ من الاقتراب منه، لابُدَّ من الرعاية والحماية والحراسة، فحال ما تخرج تبدأ تُثمر، فيجب أنْ نذهب لنرتبط بها، لأجل أنْ نأكل ثمرتها، لأجل أنْ نتلذذ بها، لأجل أنْ نتفيّأ بظلالها، ولله المثل الأعلى.

حسنًا: ظهرت المُعوّقات، القذف، والسبّ، والشتم، والنسبة إلى الضلالة والجنون، والتهمة بتغيير دّين الآباء والأجداد، وتجاوز الخطوط الحمراء للعشيرة والقبيلة، ثمّ الأذى باليد، كلّها ظهرت ليقضي الله تعالى أمرًا كان مفعولًا، ليتخذ منكم شهداء، وحتى يُعطي الأجر للصابرين، ويُبيّن أنّ أصل الدّين عدم المُخاصمة، عدم المُصادمة، فالأصل أنْ تتوجّه إلى الله تبارك وتعالى بسلم وسلام، وأمن وأمان، ولكن إذا قدّر الله عزَّ وجلَّ عليك شيئًا فينبغي

أنْ تصبر ولا تضجر، فلذلك لمّا مرَّ النبيّ عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام بآل ياسر ذكّرَهُم فقال: (صَبْرًا آلَ يَاسِرِ فَإِنَّ مَوْعِدَكُم الجَنَّةُ) الإمام الحاكم رحمه الله تعالى.

إن سيّدنا النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم يأخذ بكلّ أسباب الأمن، ويُمكن القول بأن كلّ الدوائر والمُؤسسات الأمنية وشركات الحمايات الخاصة ما عندهم الثقافة التي كانت عنده عليه الصلاة والتسليم؛ فراجع سيرة هجرته الشريفة كم رتب من ضمانات لأجل أنْ يُحافظ على موكبه الشريف، حتى يصل ويُشرّف أرض المدينة المنورة.

لكن بالمُقابل انظر لسيّدنا عمر رضي الله تعالى عنه، لأنّه غير مُشرّع وقف على ناديهم وقال: مَنْ أراد أنْ يُيتّم أولاده، ويُثكل زوجته أو أباه وأمّه فليتبعني خلف هذا الوادي، فهل سيّدنا عمر رضي الله تعالى أشجع من الرسول صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه ؟ كلا والله.

لأن الرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم مُشرّع، فلو أنّه هاجر علانية لكان على كلّ الأمّة أنْ تُعلن حركاتها، وهذا الخطر لا يقدر عليه كل الناس، فليس كلّ منّا هو سيّدنا عمر رضي الله تعالى عنه:﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[سورة البقرة: ٢٨٦].

حسنًا: إذا ظهرت المُعوّقات، فكيف نتعامل معها؟ بالصبر الجميل، بالهجر الجميل، والصبر أمر معنوي، والاحتساب أمر معنوي، صفة إيمانية بينك وبين الله جلّ في علاه، لا أحد يقدر أن يطّلع على إخلاصها إلّا الله عزَّ وجلَّ، فيجوز أن يصبر المرء أَنَفَةً - نعوذ بالله- فلا أجر له، وآخر يصبر سمعًا وطاعةً لله تعالى القائل:

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً ﴾[سورة المزمل: ١٠].

إذن تذليل العقبات المعنوية التي ظهرت، والتي تتعلّق بالإيمان، وصلة الإنسان بالرحيم الرحمن سبحانه، كذلك ظهرت الأمور المادية المحسوسة، الاحتماء بالعشيرة، الاستنجاد

بإنسان يحميك ويجيرك، فالرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام لمّا رجع من الطائف ما استطاع أنْ يدخل مكة المُكرمة إلّا بجوار رجل مُشرك، ومعناه البحث عن الطاقات المُتاحة حتى لو كانت من الكفار.

سيّدنا أبو بكر رضي الله تعالى عنه خرج مُهاجرًا إلى الحبشة فرآهُ مَنْ يعرفه من المُشركين من أهل القوّة، فقالوا: لا والله لا نسمح لك بالهجرة، فما يُشرفنا أنْ تترك مكة، فأنت رجل كريم، وديع، رحيم، ارجع فنحن نحميك، فلم يقل لهم: لا أدخل في حماية كافر.

استثمار الطاقات الموجودة شريطة ألا تحترق، على وفق قاعدة: اخترق لا تحترق، فسيّدنا أبو بكر رضي الله تعالى عنه لمّا دخل بجوارهم ما جاء وتمسّح بأصنامهم، وقال: هؤلاء الذين يعبدون الأصنام طيّبون وكرماء وعندهم الرجولة والشهامة، أبدًا، لكنه من باب استثمار الطاقات والأعراف المُتاحة، أما غيره ممن ليس لديه هذا السند والدعم فقد هاجر إلى الحبشة، والهجرة أمرٌ مادي ومعنوي في آن واحد.

مثل هذه المعاني ـ استثمار الطاقات من حولنا ـ نجدها مبثوثة في رياض السيرة النبوية الشريفة، فلننظر ما الذي دار بين الصحابة رضي الله تعالى عنهم لمّا هاجروا إلى الحبشة، ووفادة قريش ضد المُهاجرين، ومفاوضاتهم لسيّدنا النجاشي، وما حصل في مجلسه رضي الله تعالى عنه، فهذه كلّها هدايات وبركات وبيان لمعالم شخصية الداعي، وما ندعو إليه.

مرحلة بداية الدعوة إلى الهجرة هي المرحلة التي يحياها المُسلمون اليوم على الكرة الأرضية، فالمُسلمون لا دولة لهم ـ بمعنى دار الإسلام ـ بل هناك دول إسلامية مُعظم شعوبها مُسلمون، بعض القوانين فيها إسلامية كالأحكام الشرعية مثل الزواج والطلاق، لكن الاقتصاد قائم على الربا، العلاقات الدولية قائمة على الأهواء والخيانات والضلالات، الإعلام قائم على التضليل وبث الشهوات، أمور كثيرة دستورية تشريعية مُناقضة لدّين الإسلام، وليست الغاية من هذا الكلام لأجل أنْ أملأ قلوبكم غيظًا وحقدًا على النّاس، وعلى الدول التي نعيش فيها، كلا أبدًا، وإنّما هو بيانٌ للواقع فقط، حتى نفهم ما المرحلة التي نحن فيها، وماذا يجب علينا أنْ نفعل حتى نرحم النّاس، ونُخرجهم من الظلمات إلى النّور، ونأخذ

بأيديهم برفق، حتى نُوجّه قلوبهم بدفء وحنان ومحبّة، هلمّوا إلينا أيّها الناس، فنحن نُحبّ الخير لكم، نُريد إنقاذكم.

المرحلة الثالثة فيها معالم كثيرة، وهي التي تبدأ من بدايات ما أنزل الله تبارك وتعالى بعد سورة (اقرأ) و (المُزمّل) وتنتهي بهجرة الحبيب صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، وتتويج مُجاهداته ومُجاهدة الصحب الكرام رضوان الله تعالى عليهم بإقامة دار الإسلام في المدينة المنورة، وهذه المرحلة غنيّة بالعبر والعظات وببيان معالم الدعوة الى الله سبحانه.

من المعالم في هذه المرحلة تحقيق الإيمان وتوسيع مديات تفكير الداعي إلى الله تعالى، فحينما تقول: أنا مُؤمن فهذه دعوة أو إعلان بأنّك مُؤمن، والإعلان عن انتسابك إلى الإيمان واتصافك به يحتاج إلى تمحيص وتثبت، وهذه سُنّة الله تبارك اسمه في إدارة شؤون الخَلق.

لا يجوز لك أنْ تنطلق مُسرعًا بمجرّد سماع خبر دون أنْ تتثبّت وتتأكّد؛ لأنّك ستكون ضحيّةً غالبًا، تفقد وقتك وجهدك وربّما تفقد مكانتك ومنزلتك بين النّاس، لأنّه سيقولون: فلان كلّما سمع خبرًا صدّق به ثم أسرع فنشره، فلا يجوز هذا، وإنّما يجب أنْ تُمحّص هذا الخبر، وأنْ تُدقّق فيه، وتتأكد منه.

عندما تقول: أشهد أنْ لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم تسليمًا كثيرًا، فهذا إعلان منك سيُقابله تمحيص؛ فلذلك جاءت المُعوقات، جاء الأذى بصور شتى لأجل إثبات إيمانك بهذا العقيدة، هل ستبذل لأجل التحقق بها؟ هل ستُضحي وتُعطي، أم إنها مُجرّد كلمة قلتها، وعندما يأتي التمحيص تسقط؟.

هذا المَعْلَم بدأ يظهر على أشدّه، كلّ مَنْ تمكّنوا منه عذّبوه أو قتلوه أو أخذوا أمواله، فما قصّروا في الأذى نهائيًّا إلى درجة أن الأمور اشتدّت كثيرًا، وكما قال ربّ العالمين جلّ وعلا: ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ [سورة الأحزاب: ١٠].

﴿حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾ [سورة البقرة :٢١٤].

لماذا؟ لأنّه استحكمت حلقاتها، وهذا القول ليس ـ نعوذ بالله تبارك وتعالى ـ إنكارًا، كلا، وإنّما استبطاءً، وهذا من ضعف الإنسان، فقد يُصيبه ضعف بل هو ضعيف أصلًا فيغلب عليه الضعف أو أن الله عزّ شأنه أخبر عن بعضهم وليس عن كلّهم، لكن حتى لو قيل عن كلّهم فلا بأس بهذا الكلام لأنّه أمر طبيعيّ، فالإنسان له طاقات محدودة، له طاقات معيّنة، فنسأل الله تعالى العافية، فمثلًا: أنت نائم في بيتك، مُتنعم بالكهرباء والتبريد، متى تُريد أن تأكل، فستجد ذلك، فهل تستوي مع ذاك المسكين الذي لا يجد ما يُطعم به أولاده؟ هل تتشابه الحالتان؟ أبدًا.

هذا المَعْلَم في المرحلة الثالثة واضح جدًّا، حصار ثلاث سنين، هم وأطفالهم ونسائهم، منعوا عنهم الماء والطعام، خوف، قتل، نعوذ بالله تبارك وتعالى.

فهل أدّى ذلك إلى أنّ يرجعوا عن إيمانهم؟ كلا، ما رجعوا عن إيمانهم، وإنّما ثبتوا، واستقبلوا الأمر الإلهي، صبرًا آل ياسر، وآل ياسر رضي الله تعالى عنهم رمز، سنعتبرهم رمزًا، وإلا فكلّهم صابرون، وضربوا أروع الأمثلة في التفاعل مع قول الله جلّت قدرته:

﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [سورة المعارج: ٥].

وقوله جلّ وعلا: ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [سورة المزمل: ١٠].

عندما هاجروا إلى الحبشة ما ذهبوا بالطيارات أو بالسيّارات المُكيّفة وإنّما ذهبوا على الدواب ومشيًا على الأقدام، وهذه الطرقات فيها من المخاطر ما فيها، ركبوا البحر، ولم يركبوها على متن باخرات مُتطورة تعمل بالطاقة الشمسية، بل في سفينة قوامها الخشب والحبال.

كيف تحمّلوا كلّ هذه المخاطر؟ ينبغي أنْ تسأل نفسك أيّها الداعي، كيف تحمّلوها؟ تحمّلوها لأنّهم مُحبّون، فإيمانهم انبثق من بوتقة الحُبّ، الحُبّ لله جلّ جلاله، الحُبّ لسيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه ومَنْ والاه.

نقرأ مثلًا عن سيّدنا أبا بكر رضي الله تعالى عنه، كيف أعلن إسلامه، وماذا فعلوا به، وكيف ضربوه بالنعال حتى كادوا يقتلوه، وفعلًا حملوه لا يشكون في موته، وبقي فاقدًا للوعي النّهار كلّه، ولمّا أفاق بالليل قدموا له ماءً وطعامًا، فقال: حرامٌ عليَّ أنّ أضع لقمة أو أشرب جرعة ماءً قبل أن أعرف ماذا فعل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، ما هذا الحُبّ؟ يعني يأخذوه مُغمًى عليه، ورجلاه تخطان الأرض، وعندما يُفيق يقول: لا أرتاح إلّا إذا رأيت الحبيب صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه.

إن الذين يقولون: إن أهل المنهاج الروحي يُؤسسون لكهنوتية، ويعنون بذلك تعظيم مشايخهم ورموزهم، ينبغي أن يفهموا بأن الدِّين الحنيف هو الذي يُؤسِّس لهذا، القرآن الكريم والسُنّة النبوية المُطهرة، السيرة النبوية، سيرة الصحب الكرام مع سيّدنا رسول الله عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه، كلّها تدلّ على تعظيم الرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، ومن بعد ذلك تعظيم وتقدير وبيان مكانة أهل الفضل، فلماذا فضّل أهل بدر على غيرهم؟ لماذا أخبر هؤلاء: أنتم مُبشرّون بالجنّة؟ يُريد أنْ يُبيّن المقامات، وينشأ كيانات مستقبلية ليعود إليها الناس، ويرتبطوا بأصلها، ويرتكزوا عليها، هذه ليست كهنوتية، بل هذا نظام وتأسيس، قال ربنا عزّ شأنه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [سورة الحجرات: ١ – ٢].

هل هذه كهنوتية أم بيان منازل ومقامات؟ حتى تنشأ المحبّة، فالذي لا يأتي عن طريق الحُبّ يأتي عن طريق الانضباط، يأتي عن طريق الحدود، فالموضوع ليس سهلًا، بل هو عظيم وخطير جدًّا، فبمُجرّد أنْ ترفع صوتك على الرمز، على هذا الرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، يُحبط عملك، ستون سنة صائم، تُصلّي، تحج وتعتمر، تُزكي، كلّها تنهدم وأنت لا تشعر عياذًا بالله عزَّ وجلَّ.

الصعاليك، المساكين، الجاقّون، الذين لا يفهمون الحياة، ولا يفهمون شرع الله عزَّ وجلَّ الفهم الصحيح يقولون عن سيّدنا أبي بكر رضي الله تعالى عنه عندما لم يقبل أنْ يأكل أو يشرب بأن فعله هذا انتحار! يا أخي ليكن انتحارًا فيمَنْ تُحبّ، لأجل مَنْ تُحبّ، أنت تعتبره انتحارًا، لكن الله تبارك اسمه يعتبره إكبارًا وإجلالًا، ربّ العالمين جلَّ ذكره يعتبره موقفًا سليمًا، وتفاعلًا جليلًا وعظيمًا لِمَا وجّه به سبحانه.

المعوّقات صورها كثيرة جدًّا في هذه المرحلة، وهذا من باب تمحيص الإيمان، هل إيمانك على محبّة؟ أما من كان إيمانه جافًا مُجردًا من الحُب فسرعان ما ينقلب على عقبيه نعوذ بالله تعالى، فتكون النتيجة كما قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ [سورة الحج: ١١].

الذي يعبد الله جلَّ ذكره على حرف، على طرف غير مُتحقق، غير مُدقق، ما دخلت بشاشة الإيمان في جذور قلبه حتى تنبت شجرة المحبّة، فتثمر طاعة وتفاعلًا مع شرع الله جلّ في علاه بصفة الحُبّ، لهذا قال الله عزّ شأنه:

﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [سورة الحج: ١١].

إذن لابُدّ من التمحيص، فلا تستغرب إن ذهبتَ لجماعة تدعوهم إلى الله جلّ وعلا فإذا بهم يؤذوك، يُسمعوك كلمة جارحة، لا تستغرب أن يقول لك أحدهم: يا مُرائي، يَحْتَمِلُ أنّ الله عزَّ وجلَّ سخّر لك هذا حتى يُمحّص إيمانك، فالناجحون يقولون له: شكرًا، جزاك الله خيرًا، نعم عندي مساوئ كثيرة جدًّا، والحمد لله فأنت ذكرتَ واحدة فقط، أما الذي لم يُحقق، ولم يُدقق، فستثور ثائرته، فيردّ الصاع صاعين وصوعًا ـ نعوذ بالله تعالى ـ فيفشل.

من الناس من أساء لله تعالى، كفروا به سبحانه، وخيره نازل إليهم، وهل الرسول الأعظم صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه وهو الصادق الأمين نجى من الذين يعرفونه قبل الذين لا يعرفونه؟ قد يكون مفهومًا لو تكلم من لا يعرفه ـ علمًا بأن المفروض أنْ يتثبت، لكن نقول إنه اجتهد، ورأى لنفسه حقًّا في أنْ يتكلّم على الرسول صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم ـ لكن تكلّم عليه أقرب الأقربين إليه، وأكثر النّاس معرفة به، فلا تستغرب أن الله تبارك اسمه يسوق لك من يدوس على رأسك فماذا تفعل؟ إنه تمحيص، فهذا مَعْلَم في هذه المرحلة، مَعْلَم عظيم، لماذا؟ لأنّه تكوين لشخصية الدعاة إلى الله عزَّ وجلَّ، هؤلاء هم الذين على قلوبهم وعلى كواهلهم ستقوم دار الإسلام، فإنْ كانوا مهزوزين، ضعفاء، انهدمت الدار مباشرة، لأنّ الأسس ضعيفة لا تتحمل أنْ ينشأ عليها طوابق وحجرات ومُنشآت.

فالمفروض أن نكون أعمدة، إنْ كان في نيّتنا تجديد هذا الدِّين أو المُشاركة في تجديد هذا الدِّين، وإنقاذ النّاس من الظلمات التي أصبحت كما قال ربنا جلّت قدرته:

﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ [سورة النور: ٤٠].

نعم لم يكد يراها فعلًا، وإلّا كيف تُفسّر بأن عالمًا جليلًا ناقش العشرات من رسائل الماجستير وأطاريح الدكتوراه ثم يضع يده بيد اليهود والنصارى؟ كيف تفهم مَنْ يقف على المنابر يخطب خطبًا رنّانة؟ يتلو قوله جلّ وعلا:

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [سورة المائدة: ٤٤].

﴿فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [سورة المائدة: ٤٥].

﴿فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [سورة المائدة: ٤٧].

يعلو بها صوته، وعندما يستلم حكمًا لا يحكم بما أنزل الله تعالى، كيف تفهم هذا؟ كيف تفهم مَنْ قضى حياته أربعين سنة يقول لك: عندنا تنظيم، عندنا حزب ونرتّب ونفعل، ماذا تُريدون أنْ تفعلوا؟ نُريد أنْ نقلب الحكم، نأخذ الحكم، لماذا تأخذون الحكم؟ حتى نحكم بالإسلام ـ هذا الكلام عليه تحفّظ ـ نحن الآن لا نُريد أنْ نُمحّص الأمور، ونقول هذا صح أو خطأ، دعنا ننزل معهم ونقول صحّ، وفعلًا أخذوا الحكم في أفغانستان والجزائر وبغداد، فأين الحكم بما أنزل الله تقدّست أسماؤه؟

قلت: أوّل ما حكمتم جلبتم أقربائكم وأهلكم ووضعتموهم في أحسن الوظائف، حتى لو لم يكن له أيّ علاقة بهذه الوظيفة، فصار منهم سفراء وهم لا يعرفون شيئًا عن قانون السفارات، وهناك أناس تبوؤا مناصب لا علاقة لهم بها نهائيًا، فشهادته ليست لها علاقة بالمكان الذي جلس فيه أبدًا، هذا إن لم تكن شهادته مُزورة أصلًا؛ أفلا تُؤمنون بقول سيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى وسلّم عليه وصحبه ومَنْ والاه:

(بَيْنَمَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ، جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَدِّثُ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: سَمِعَ مَا قَالَ فَكَرِهَ مَا قَالَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ لَمْ يَسْمَعْ، حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ: أَيْنَ ـ أُرَاهُ ـ السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ؟ قَالَ: هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَإِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ، قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ: إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ) الإمام البخاري رحمه الباري سبحانه.

كم مرّة خطبتم هذه الخطبة؟ كم مرّة رفعتم صوتكم بهذه المعاني الجليلة، والأحاديث الشريفة، وكنتم تلمزون بها الذين كانوا يحكمون قبلكم وتغمزوهم.

هؤلاء داسوا على خطوط حمراء واضحة جدًّا جدًّا، ما السبب؟ لأنّه لا تُوجد تربية شرعية برعاية مُرَبٍ موصول اليد بحضرة سيد الخلق صلى الله تعالى عليه واله وصحبه وسلم، قد تُفهم التربية فهمًا سطحيًّا، فمن يسبّ ويشتم فهو غير مُتربي، كلا، ليس هذا المقصود، وإن كانت من أسس الأخلاق الإسلامية، إنما المقصود لا تُوجد تربية إيمانية عميقة تتفاعل مع نصوص الشرع الشريف، لا يُوجد تذوّق، لا يُوجد حُبّ.

إن بناء شخصية الداعي، بناء شخصية المُسلم له أثره العظيم في إقامة دار الإسلام، فهؤلاء الذين على أكتافهم قامت دار الإسلام، بمُجرد أنْ يأتي أحدهم النبي صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم فيشهد ألا إله إلا الله، محمّد رسول الله تنساب لقلبه من قلب خير البرية صلوات ربي وسلامه وآله وصحبه شحنة إيمانية، فما يكتفى بالشهادتين، بل يقول للنبي عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام: ابسط يدك أبايعك على الإسلام، فالموضوع بيعة ليست كهنوتية، موضوع عهد، أكّد عليه الله تبارك وتعالى منذ أنْ خلق الأرواح:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٢٧].

إذن هذا مَعْلَم ظهر على أشدّه في هذه المرحلة، فجاءت الاقدار الإلهية، فعام الحزن من الأقدار الإلهية، زوجتك تتوفى في نفس السنة، عضدك من أهل بيتك يتوفى، إلى درجة أنك تُسمّي ذاك العام بعام الحزن.

يُريد ربّ العالمين ـ من خلال هذه المُعوقات والشدائد ـ أن يُبيّن لنا جميعًا، لهذه الأمّة، بأنّ الذي يُؤمن يجب أن يكون مُوحّدًا، مُتجردًا لله جلّ في علاه، لا يخطر على باله زوجة أو عشيرة؛ فما له إلا الله تعالى، لكي نتعلم هدايات: أشكو إليك ضعف قوّتي وقلّة حيلتي، وهواني على الناس.

ينبغي أنْ نتذوّق هذه النصوص، وأنْ نتفاعل معها، لا يصح أنْ نقرأ قراءة مُجردة، فالدِّين

ليس قراءة نصوص مُجردة؛ فالنصوص لها أعماق وأذواق وغذاء وشفاء وقوة واستعلاء.

بوجود صور التمحيص: شدّة، وأذى، وبلاء، هل توقف سير الدعوة؟ كلا بالعكس، يُحاول ويُحاول كالغيث النازل من السماء فيذهب إلى الوديان يملئها، ويطوف حول الجبال، يدور حولها، وشيئًا فشيئًا يرتفع منسوبه، فإذا بالقمة تجد نفسها مُطوقة.

الشخصية الإسلامية في هذه المرحلة ثبتت أمام كلّ هذه المُعوقات، وستأتي المعونات من الله جلّ وعلا، وسواء كان الأذى بقدر من الله عزّ شأنه، قدرًا إلهيًّا محضًا مثل الموت أو بفعل ظالم ـ كلّها من الله جلّ ذكره، وبإذن منه سبحانه، ليميز الخبيث من الطيب، لكن دائمًا الحوادث تنسب إلى أقرب الأسباب ـ كعشيرة ظالمة، حاكم ظالم، زوجة ظالمة، أليس بعض أزواج الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كنَّ لأزواجهنَّ أعداءً؟

هذا كلّه لم يُؤثر في سير الدعوة إلى الله عزّ وجلَّ لماذا؟ لأنّهم قاموا لله تقدّست أسماؤه حُبًّا فيه سبحانه، وحبًّا في سيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه ومَنْ والاه، وحُبًّا في التعاليم.

إذنْ لا يتوقف سير الدعوة، ولا يتوقف شق طريق الحياة، فعلى الرغم من مكانة السيدة خديجة رضي الله تعالى عنها، الزوجة العظيمة الجليلة الطاهرة المُطهرة التي أعطت ولم تأخذ شيئًا من متاع الحياة الدنيا، فلم ترَ دولةً أو مغنمًا، فقد صارت الأموال والكنوز العظيمة تأتي من هنا وهناك لتُوضعَ بين يدي زوجها عليه الصلاة والسلام الذي تزوج بعد فترة وجيزة من وفاتها، وهي حبيبة قلبه صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، لماذا؟ حتى يُعلّمنا بأن الداعي لن تتوقف حياته، فزواجه ليس انتقاصًا من أمّنا خديجة رضي الله تعالى عنها، حاشا لرسول الله صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه أنْ ينتقص منها، فحضرته كان يُثني عليها إلى آخر رمق من حياته الشريفة في هذه المرحلة الدنيوية، ويذكرها بكلّ صدق ومحبة وأمانة إلى درجة أنّ بعض نسائه يغارون من أمّنا خديجة وهي في قبرها رضي الله تعالى عنهنّ أجمعين، وهذه ليست منقصة أيضًا؛ فهي طبيعة بشرية، لكن ليست الغيرة التي تُؤدي إلى الطعن واللعن نعوذ بالله تعالى، فلتسمع نساؤنا وبناتنا، وليتعلمنّ كيف

هي الحياة في ظل الإسلام، فما قال صلى الله تعالى عليه وسلم: كيف أتزوّج بعد السيّدة خديجة؟ كلا، فهذه مرحلة من الدنيا، مرحلة من العمر، مرحلة مُجاهدة، مرحلة دعوة إلى الله عزَّ وجلَّ، والدعوة لا تقف عند وفاة زوجة أو عمّ، كلا، لابُدَّ أنْ تمضي، والحياة لا تتوقف، هكذا ينبغي أنْ نفهم، أمّا المسلسلات الشيطانية التي تُعلّم بناتنا ونسائنا أنّ الرجل الذي يتزوّج بعد وفاة زوجته ليس لديه حرمة لزوجته ولا يُحبها فهذا كلامٌ شيطاني نعوذ بالله تعالى منه.

الحياة لا تتوقف بنزول الأقدار، وإنّما تتألق ويزداد الإنسان حرصًا على السير في طريق الدعوة إلى الله تبارك اسمه، وتهيئة أسبابها، فالرجل الداعي إلى الله عزَّ وجلَّ يحتاج إلى مساندة، يحتاج إلى زوجة تمسح أحزانه عندما يعود إلى البيت، يحتاج إلى زوجة تسافر معه، تقوم على شؤونه أثناء السفر، فهذه كلّها من نبض الحياة في سير الدعاة إلى الله سبحانه، لابُدَّ أنْ تبقى الحياة تنبض، فما عندنا أمراض نفسية وكآبة وحزن مُفضي إلى الانتحار، نعوذ بالله تعالى، كلا، بل عندنا الأذى، العذاب، المُعوقات، تُذكّي أرواحنا وتجعلها تتوهج أكثر، وتتألق أكثر، وتترقى أكثر، لماذا؟ لأنّها تُمحّص وتُزيل الشوائب، فجاءت هذه المرحلة فيها هذه المعالم: الأذى على أشدّه لكن موكب الدعوة لم ولن يتوقف، بل بدأ يُسرع ويبحث هنا وهناك، ويتسع، فبعد أنْ كانت الدعوة فردية صارت جماعية، بعد أنْ كانت الدعوة محلية لأهل مكة فقط، صارت دولية شيئًا فشيئًا، ذهب إلى الطائف، وأرسل صحابته إلى الحبشة، فأحد الأهداف أنْ ينجو الداعية من الأذى والعذاب، لأنّه يُوقف سيره إلى الله عزَّ وجلَّ، فهاجروا لينشروا الدعوة، وفعلًا جاءوا بثمرة كبيرة عظيمة، لقد أتوا بالنجاشي ملك البلاد رضي الله تعالى عنه، وجعل كلّ إمكاناته في خدمة هذه الدعوة، وخدمة هؤلاء المُهاجرين.

إن الدعوة والداعية لا يتوقف بالأذى والاضطهاد، بل بالعكس يزداد قوة ونشاطًا، ونفعًا للعباد، فليسمع الآخرون هذا الكلام، وليفهموه وليتذوقوه، فإنْ آمنوا فمرحبًا بهم، وإنْ لم يُؤمنوا فلا نُعادي أحدًا، بل ندعو لهم: اللهمّ اهدِ قومي فإنّهم لا يعلمون.

ربّ العالمين سبحانه، رحمن رحيم، هو أدرى بعباده، فإذا وصل الأذى إلى مرحلة خطيرة قد تُؤدي إلى انتكاس ـ نعوذ بالله تبارك وتعالى ـ وارتداد البعض يبدأ الله جلّ وعلا بحمايتهم، يبدأ يُبيّن لهم، ثم يأتي الفرج، بل الفرج موجود مع الحلقات، والمفروض أن الأذى يزيدك تألقًا، فمَنْ قابلك بالأذية لا تنزل إلى مستواه وتضطرب، كلا، بل على الأقل استوعب أوّلًا، اصبر صبرًا جميلًا، اهجر هجرًا جميلًا، لا تفقد توازنك، تألق، قل: الله سبحانه يُريد أنْ يختبرني به، هكذا أفهم الأمور، تصرّف بالحكمة، وستأتيك بإذن الله تبارك وتعالى المعونة.

نتكلم بشكل عام عن الدعاة، أما سيّد الدعاة صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه، فهو الرمز، فمثلًا لماذا يسهو في الصلاة؟ لأنّه المُشرّع؛ فالرسول صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم لا يسهو في الصلاة لكن الله عزَّ وجلَّ يجعله يسهو حتى يُشرّع لنا، حتى يرحمنا، كيف نصنع إذا سهونا في صلاتنا، فالرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام ما ضعف بالأذى حتى يحتاج إلى مُقويات ومُؤيدات، كلا، ولكن الرسول الأعظم عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه يُشرّع للآخرين.

فلمّا اشتدت حلقات الأذى على الرسول الأعظم عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه حال خروجه من الطائف سخر الله سبحانه أعدائه له، فابنا ربيعة من ألدّ أعداء الرسول صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه، لكنهما مباشرة قالا للفلاح الذي يعمل في بستانهما ـ سيّدنا عدّاس رضي الله تعالى عنه ـ خذ قطفًا من العنب إلى هذا الرجل، وهم يعرفونه حقًّا، انظروا التسخير، وربما تقول: ما قطف العنب؟ كلا، لقد كان شيئًا كبيرًا في ذلك الزمان والحال.

إذنْ ربّ العالمين يُسخّر الكافر والقبيلة، ويُسخّر ما يُسخر لخدمة الدعاة الصادقين لتمضي الدعوة، ويأبى الله تعالى إلا أن تكون كلمته هي العليا، قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ

﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة التوبة: ٤٠].

وأن الأرض يرثها عباده الصالحين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [سورة الصافات: ١٧١-١٧٣].

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [سورة الانبياء عليهم الصلاة والسلام: ١٠٥].

من معالم المرحلة الثالثة تحقيق التفاعل مع النصوص الشريفة، وإن البلاء والأذى الذي يُبتلى به من آمن بالله تبارك وتعالى، وأراد أن يسير إلى الله عزَّ وجلّ أمرٌ طبيعي؛ فالسائر إلى الله تبارك وتعالى ستُوضع أمامه العقبات، فهل سيجتازها أم لا؟ هنا يثبت صدقه، هل تثبت محبته وإيمانه، قال الرسول الأعظم صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم:

(إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَعْتَادُ الْمَسَاجِدَ، فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ) الإمام ابن ماجة رحمه الله تعالى.

الاعتياد على المساجد صورة من صور التأكيد على التحقيق في التفاعل مع النص، فمع وجود مُعوّقِات لكنه اعتاد أنْ يحضر المساجد، لم يمنعه مانع ـ غالبًا ـ إلا الموانع والأعذار الشرعيّة التي تُبيحُ له عدم الحضور، أمَّا في غالب الأزمان والأوقات فهو من الحاضرين، وربَّما حتّى قبل النداء لوقت الصلاة، ومرّة سمعت أحد الصالحين ـ أحسبه كذلك ولا أزكي على الله عزَّ وجلَّ أحدًا ـ قال عبارة أثَّرتْ فيَّ، قال: "بئس العبد الذي لا يأتي إلا إذا دُعِي"، فقال: أنا أحاول أنْ أحضر إلى المسجد قبل النداء إلى الصلاة، لأنَّي أرى نفسي عبدًا لله تبارك وتعالى، والعبد الحقيقي هو الذي يكون في خدمة مولاه دون أنْ يصدر المولى له الأوامر أو يبعث إليه بالطلبات، فكان يُكرّر هذه الجملة: "بئس العبد الذي لا يأتي إلا إذا

دُعِيَ"، بمعنى أنه لا يحضر إلى بيت الله عزَّ وجلَّ إلا أن يُقال له: حيَّ على الصلاة، حيَّ على الفلاح!

فهم درجات عند الله تبارك وتعالى، هؤلاء هم أهل الذوق الرفيع، نسأل الله سبحانه وتعالى أنْ يُعلّمنا صفاتهم، ويجعلنا ممّن يقتدي بهم.

السائر إلى الله تبارك وتعالى يجدُ مُعوقاتٍ، شدائدَ، عقباتٍ، فإنْ هو صَمَدَ وثبت وتحمّل شدّة الأذى جاءته المُعونات الرّبَّانيّة من الله سبحانه وتعالى إمّا بقدرٍ كونيٍّ، وإمّا بتسخير من الله تبارك وتعالى، فلله تبارك وتعالى مخلوقاتٌ آتاهم الله سبحانه وتعالى بعض الخصائص، ومنحهم سبحانه وتعالى القوّة على بعض التصرُّفات، وهذه التصرفات تأتي مُوافقة لتسديد وتقويم وتثبيت هذا السائر إلى الله سبحانه وتعالى؛ قال سيّدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم:

(...وَإِنَّ اللَّهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ) الإمام البخاري رحمه الباري تعالى.

سبحان الله! ورأينا حقيقة هذه الصور في هذه المرحلة كما حصل مع ابني ربيعة اللذين أكرما سيدنا النبيّ صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم في بستانهما، ومُطْعِمُ بْنُ عَدِيّ يُجير النبي عليه الصلاة والسلام بعد عودته من الطائف بعد أن تحقق يقينًا أنّه لا يستطيع دخول مكة إلا تحت حماية وحراسة مُشدّدة وإلّا سيُقْتَل؛ لأنَّ القوم عزموا على قتله، فقد رحل من كان يردعهم ويحسبون له حسابًا، ومن كان يحمي النبي صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم في موازينهم البشرية، فمنهم من رحل إلى الدار الآخرة، ومنهم من بقي ولكن أصابه الضعف بسبب إصرار النبي صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم على موقفه، وعدم مُداهنته لأهل الشرك والكفر، فَضَعُفَتْ مواقفهم، بمعنى: يقولون له: نحن وقفنا معك مرة، مرتين، ثلاثة، فلا نقدر بعد الآن أنْ نُعارض القوم كلهم؛ فاذهب وتحمل جزاء ما تقوم به.

أيُّها الصّادق: إنَّ الله سبحانه وتعالى يُسخِّر لك كلَّ شيءٍ، يا من تحمّلت الأذى والاضطهاد، فمثلًا الأَرَضَةُ التي أكلت صحيفة المُقاطعة التي أصدرتها قُريش لمُقاطعة النبي صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم واتباعه وبعض من انضوى تحت لوائه، فالله عزَّ وجلَّ كان من المُمكن أنْ يبعث الأَرَضَةُ من أوَّل يومٍ لتأكل هذه الصحيفة، لكنه لم يفعل سبحانه، وهو قادر على كل شيء، والله عزَّ وجلّ قادر على أنْ يُنزل جائحة بقريش تمنعهم من مقاطعة النبي صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم لكنّ الله عزَّ وجلّ يُريدُ أنْ يُحقّقَ ويُبيّن للعالَمينَ أجمع بأنَّ هذه المرحلة من حياتهم - منذ التكليف إلى أنْ يأخذ الله عزَّ وجلَّ أمانته- هي مرحلة ابتلاء واختبار ونُضوج وإنضاج.

المُسلم يحتاج للنُضوج لأنّه سيتحمّل تكاليف ومسؤوليات إدارة دولة، والدولة فيها رغبات وشهوات، فيها أموال وزينة ومناصب، وكلها غير ممنوعة فهي من نِعَم الله عزَّ وجلَّ على الناس، ما لم تصدك عن سبيله سبحانه.

والله تبارك وتعالى يُريد أنْ يُبيِّنَ من خلال هذه المُعوّقات أمره سبحانه وتعالى وفعله وقدرته، ويُبيّن منزلة الصَّادقين، هؤلاء الذين قال عنهم الملائكة:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ. . . ﴾ [سورة البقرة: ٣٠].

الله تبارك وتعالى يُريد لهؤلاء الملائكة أن يعلموا كيف أنّ مِنْ هؤلاء الذين انتقدتموهم أو اعتقدتم أنّهم يُسفكون الدماء مُسبّحون، وفيهم أنبياء وأولياء ودُعاة صادقون مُخلصون، ومع كل ما يمُرونّ به من شدَّة وعذاب فهم يُحبونني ويعبدونني ويأتون إليَّ، ولا يتركون دّيني.

الله تبارك وتعالى يُريد أنْ ينضِجَ هؤلاء كي يتحملوا التكاليف الشرعية في قيام دار الإسلام، فأحبُ خَلق الله صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم مُحاصر لمدة ثلاث سنوات، يضطر ومن معه لأكل ورق الأشجار- إن وجدوا ورق الأشجار- أفلا يستطيع الله تعالى أن ينصر

حبيبه الرّسول الأعظم صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم؟ نعم، يستطيع، ولكن الله عزَّ وجلَّ يُريد أنْ يُبيّن بأنّ المُحبِّين ثابتون، صادقون في محبتهم مهما أصيبوا وأُوذوا، ومهما حصل لهم فركبهم سائر لا يتوقف.

فلذلك أجّلَ تسليط الأرضة، فلم تأكل كتاب المُقاطعة ثلاث سنوات، حتى أخبرهم النبي صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم بأن الأرضة قد جاءت على كتاب المُقاطعة فأكلته؛ لِيُثبِتَها الله تعالى مُعجزةً لحضرته عليه الصلاة والسلام؛ روى الإمام البيهقي رحمه الله تعالى: (...ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بِرَحْمَتِهِ أَرْسَلَ عَلَى صَحِيفَةِ قُرَيْشٍ الأَرَضَةَ فَلَمْ تَدَعْ فِيهَا اسْمًا لِلَّهِ إِلاَّ أَكَلَتْهُ وَبَقِيَ فِيهَا الظُّلْمُ وَالْقَطِيعَةُ وَالْبُهْتَانُ وَأُخْبِرَ بِذَلِكَ رَسُولُهُ وَأَخْبَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- أَبَا طَالِبٍ وَاسْتَنْصَرَ بِهِ أَبُو طَالِبٍ عَلَى قَوْمِه...).

فأوصلوا الخبر إلى مكة، وانظروا - سبحان الله - بدأ التأييد الرّباني، فبدأت العشائر والزعماء الذين أسهموا في كتابة المُقاطعة بالانقلاب عليها.

وفعلًا ذهب زعماء قريش ليجدوا أنّ الأرضة قد أكلت الصحيفة حقًا، ولم تترك منها سوى "باسمك اللهمَّ" كما كانوا يكتبون، فمنهم من أثّر فيه هذا الموقف؛ فآمن وصدّق بسيّدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم، ومنهم من ازداد جحودًا وكفرًا، وقال: هذا من سحر محمد! اللهمَّ صلّ وسلم وبارك على سيدنا رسول الله وآله وصحبه ومن والاه.

لقد أسهمت هذه الحشرة البسيطة في إظهار الحق، وكانت دعمًا للمُؤمن الصابر الذي صبر صبرًا جميلًا، المُؤمن الذي هجر هجرًا جميلًا، المُؤمن الذي وقف على قدميه حتّى تورّمت أقدامه الشريفة صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، ومع أنّها تورّمت في محراب العبوديّة لله عزَّ وجلَّ، فهي كذلك أُدْمِيتْ في مجال الدعوة إلى الله عزَّ وجلَّ في الطائف، فلا ضجر هنا من طول القيام، ولا هناك من كثرة سيلان الدماء.

المُؤمن لا يتزعزع، ولا يفقد توازنه، فإذا ثبتَ ونضج فسيُبشِر بفضل الله تعالى؛ فلابُدَّ أنْ يكون مع العسر اليسر: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦].

وفي الحديث الشريف: (...لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْن) الإمام مالك رحمه الله تعالى.

فالمؤمن طالما هو مع الله تبارك وتعالى فهو في يُسر، أما العسر فإنه يأتي لأجل إنضاجه أكثر وأكثر، وهذا لا يكون في حق رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم لأنه لا يحتاج إلى إنضاج فهو مَثَلٌ وقدوة وأسوة بأبي وأمّي ونفسي صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم، وصور اليُسر والمعونة في السيرة النبوية كثيرة، فالأرضة تأكل صحيفة المُقاطعة، والعنكبوت ينسج بيته على فمِ الغار، والحمامة تبيض على بابه.

"ظنّوا الحمام وظنّوا العنكبوت على *** خير البريــة لـم تنسج ولـم تَحُــمِ

وقايـة الله أغنـت عـن مضاعفـــــة *** من الدّروع وعن عال من الأطم

مولاي صـل وسلـم دائمـا أبـــــدًا *** على حبيبك خيـر الخلق كلهـمِ"

وهكذا فالله عزَّ وجلَّ يُؤيد المُؤمن الصابر التقي، الذي لا يتزعزع بما لا يخطر بباله أبدًا، فالله عزَّ وجلَّ على كلِّ شيء قدير:

﴿...وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ...﴾ [المُدثر عليه الصلاة والسلام: ٣١].

وكذلك الفَحل من الإبل الذي ظهر لمَنْ أراد أنْ يتعدّى على خير البشر صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم فنكص على عقبيه ورَجع، فالله عزَّ وجلَّ يُؤيد ويُحقّق ويُبيّن آياته سبحانه وتعالى.

إذن المدد الغيبي سواء أكان بقدرٍ كونيٍّ محضٍ أو بتسخير خَلقٍ من خَلق الله تبارك وتعالى، سواء أكان هذا المخلوق زعيمًا كسيّدنا النجاشي رضي الله تعالى عنه أو رئيسًا لقبيلة أو كان فردًا مثل: ابنَي ربيعة، سيّدنا عداس رضي الله تعالى عنه ومُطْعِمُ بْنُ عَدِيّ الذي أتى بأفراد من عشيرته أو بعض أبنائه، بمعنى: سواء أكان فردًا أو جماعة، بل أكثر من ذلك، فربَّما

تكون المعونات من قبل مخلوقات أقلّ شأنًا من الإنسان كالدّواب أجلكم الله تعالى والطيور والحشرات وغيرها.

كذلك من عالم الغيب مثلًا: إيمان الجنّ بسيّدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم، وكأنّ الله عزَّ وجلّ يُطيّبُ خاطره عليه الصلاة والتسليم وعلى آله وصحبه الكرام ويقول له: إنْ كذَّبَ بكَ هؤلاء ـ أهل الطائف ـ وهم بشر فإني سأرسل لك من يُصدّقك ويُؤمن بك ويكون داعيًا إلى الله تبارك وتعالى معك، وهم من عالم الغيب، وكان هذا الاسناد لخير العباد صلى الله تعالى عليه واله وصحبه وسلم بعد رحلة الطائف على أرجح الأقوال:

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾[سورة الأحقاف: ٢٩].

ما قالوا هذا ليس من شأننا، لا دخل لنا، فهذا خاص بالبشر، كلا، فهِموا جيدًا ومباشرة:

﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾[سورة الأحقاف: ٢٩].

لابُدّ للمُؤمن أنْ يكون داعيًا ولو بأبسط صورة، كما قال عليه الصلاة والتسليم:

(بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً) الإمام البخاري رحمه الباري عزَّ وجلَّ.

أمّا أنْ تجلس أيّها الدّاعي، وانت تُريد من الناس أن يأتوا لتقبيل يديك، والقيام لك باحترام، ودعوتك إلى ولائم وعزائم، فهذه تجارة نعوذ بالله تبارك وتعالى، كلا، لابُدَّ أنْ تبذل أكثر من غيرك، لابُدَّ أنْ تُضحّي بصحتك وعافيتك ومالك لله تبارك وتعالى حتّى يظهر معدنك النّقي الصافي، الذي يُمكن للناس أنْ يستفيدوا منه، وإلّا فالمعدن المغشوش مهما تفاقم وتعاظم فإنّه سرعان ما يزول، كحال الشيطان حين ينفخ نفسه ليصبح مثل البالون، وبمُجرد أنْ تقول: أعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم ينفجر البالون ويذهب خاسئًا.

﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [سورة الرعد: ١٧].

وتوالت المُعجزات الكبيرة العظيمة، تعال يا حبيبي يا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم لقد ضيّق عليك أهل الأرض، تفضل إذن هذا ملكوت السماوات، سكانها جميعًا يُرحبون بك، تفضل إلى بساط القُرب والأُنس والحُب والعطاء:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [سورة الإسراء: ١].

﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى*مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾[سورة النجم: ١٦].

الداعي لابُدَّ أنْ يكون له معراجه إلى الله عزَّ وجلَّ، ليس كمعراج الرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم، كلا، بل أنْ تقف بين يدي الله تبارك وتعالى، أنْ تكون لك أوقات محضة في القرب منه سبحانه، والأنس به ﷻ، هذا معراجك أيّها الداعي إلى الله عزَّ وجلَّ، وأسوتك وقدوتك سيّدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم.

هذه المرحلة فيها معالم أساسيّة كثيرة، منها ضرورة التفاعل وتقوية الإيمان، وترويض المُؤمن على معانِ الإيمان، ولابُدَّ من الابتلاء، فلا تستغرب أنَّ يُضيّق عليك بالوظيفة إلى أنْ يُخرِجوك منها أو بالعكس تأتيك عروض الترغيب بالمناصب والأموال؛ فينبغي عليك الثبات، وعدم التزعزُع، وسبحان الله العظيم فللداعي حظه من أكثر الظروف التي مرَّ بها خير البشر صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم، لكنْ بنسبٍ مُختلفة.

لابُدَّ من مرجعية، من نقطة ارتكاز ظاهرًا وباطنًا، ظاهرًا مثل الدار فهذه نقطة ارتكاز ظاهرية، والمرجعية فهي نقطة الارتكاز الروحية التي تُقابل الظاهر، فنحن أصحاب منهج

روحاني، هذا هو الجانب الخفيّ الذي ينبغي أن تُغذّيه بأسسه الشرعيّة الصحيحة، وليُقال عنك: تُريد أن تبني كهنوتية، كلا، أنتَ تبني بناءً نبويًّا شريفًا ربّانيًا عظيمًا، تتسلح في هذا البناء بالعلم الشرعيّ الصحيح، بالنّصوص والفهوم الذوقية العظيمة التي استنبطها سادة أكابر، وعلماء أجلاء روحانيون مُباركون.

المرجعية الظاهرة تُبيّن الصفحة الظاهرة للإنسان ـ جسم الإنسان ـ والخفيّة تُبيّن روحه، فالرّوح من عالم الغيب، ولذلك فالفارق بين المُسلم والكافر أنّ المُسلم أو المُؤمن يُؤمن بوجود هذا الغيب الذي هو الرّوح، والكافر يقول:

﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [سورة الصافات: ١٦].

لماذا؟ لأنّه لا يُؤمن بالصفحة الخفية، صفحةِ الغيب، ولكن نحن نُؤمن بصفحة الغيب، بل نعتقد أنّ صفحة الغيب هي الجوهر، والبقية كلها مُجرد عَرَض، مُجرّد ثياب، وقد سمعت ورأيت هذه الحقيقة، قال لي سيدي حضرة الشيخ عبد الله طيب الله روحه وثراه: يا ولدي سيأتي عليك يوم تنزع فيه هذا الجسد عن روحك كما تنزع ثوبك عن جسدك، فهذه مرحلة الموت، لأنّ هذا الثوب منْ هذه الدنيا، من تُرابها، من هذه المرحلة، فلابدّ أن تنزعه، هل تُريد الذهاب للمرحلة الأخرى؟ يجب أنْ تنزع ثوب البدن، وستجد حينما تنزع هذا الثوب كأنّه ثوب بالٍ مُلقًى على الأرض؛ فأين حقيقتك؟ حقيقتك في روحك، فعندما تتبدّل علاقة الرّوح بالجسد، فالجسد يُنزعُ فيكون كخرقة أو ثوبٍ بالٍ مُلقى على الأرض.

إذن الثبات وعدم التزعزع يُؤدّي إلى الإنبات، ويأتي بالثمرات؛ فالداعي إلى الله عزَّ وجلَّ لابُدَّ أنْ يُختبر، وأنْ تأتيه الهزّات، ليثبت فيقوى أو يتزعزع فيسقط نعوذ بالله تبارك وتعالى.

ينبغي أن ندرس هذه المراحل الثلاثة بعمق، ولا تكفي مُجرد الدراسة بل نتذوقها، ولا يكفي التذوّق، وإنّما لابُدَّ أنْ نتحقّق، وأنْ نُجاهد أنفسنا، ونُحاول أنْ نرقى إلى هذه المراتب، أنْ ندخل في رياض الصالحين والصالحات رضي الله تعالى عنهم أجمعين، ونقترب من ساحة

سيّد السادات صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، فجاءت مُعجزة الإسراء والمعراج، ومثلها كرامات الأولياء، وجاءت المقامات والأحوال، فكلّها ظهرت ببركة الثبات.

اللهم صلِ وسلم وبارك على سيدنا محمد عدد كمال الله، وكما ينبغي لكماله، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا، والحمد لله رب العالمين.

ملحق رقم (١)

جواب الأسئلة

سؤال رقم (١): هل صحيح أنَّ الإنسان المُسلم إذا لم يجد مُرشدًا فليتخذ الصلاة والسلام على حضرة خير الأنام سيّدنا محمّدٍ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم وسيلة بديلة لتزكية نفسه، وإذا كان هذا الأمر صحيحًا، فهل يحق له أنْ يستحضر روحانية الحبيب صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم؟

الجواب: هذا القول يُمكن أنْ يُحمل على محمل طيّب، ولكن لا يسدّ مسد وجود المربي (المرشد).

ما معنى يُحمل على محمل طيّب؟ فالمحمل الطيّب إنّ مسلمًا من المُسلمين لا يجد مُرشدًا، فيُكثر من الصلاة على الحبيب صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه فتناله بركة هذا العمل الصالح، وكأنَّه يُريد أنْ يتخذ الرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم مُرشدًا، فيُكثر من الصلاة والسلام عليه بهذه النيّة، فتناله هذه البركة، وربما تحصل صلة خير وبركة وروحانية بينه وبين الحبيب صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه، فالصلاة صلةٌ، يقول الحبيب المحبوب صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه:

(أَوْلَى النَّاسِ بِي يَوْمَ القِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ عَلَيَّ صَلَاةً) [الامام الترمذي رحمه الله تعالى]

(إنَّ أقرَبَكم منِّي يَوْمَ القِيامةِ في كُلِّ مَوْطِنٍ أكثَرُكم عليَّ صَلَاةً فِيْ الدّنْيَا) [الإمام البيهقي رحمه الله عزّ وجلّ].

ففضيلة الصلاة والسلام على سيّد السادات عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه عظيمة، لكن لا تسدُّ مسد وجود مُرشدٍ موصول اليد بحضرة خاتم النبيين عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه أجمعين؛ فالواجب على كل مُسلم أنْ يبحث عن ذلك المُرشد ويتصل بحضرته لأجل أنْ يزداد ويرتقي في مراتب اليقين فيصل إلى مرتبة الإحسان التي لا يُمكن بلوغها بدونه

رضي الله تعالى عنه وعن السادة المُرشدين جميعًا.

لماذا لا تسدّ؟

هذه الصلة التي يتحدثون عنها قائمة في أول دخول الإنسان في دين الإسلام، حينما يقول أشهد أنْ لا إله إلّا الله وأشهد أنّ سيّدنا محمدًا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، هذا الارتباط قائم، بل يُؤكّد عليه الإسلام في كلّ الأحكام، فعندما تُصلّي يجب أنْ تتذكّر: (صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي) الإمام البخاري رحمه الباري سبحانه.

عندما تحجّ يجب أنْ تتذكّر: (لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ) الإمام مسلم رحمه المنعم جلّ وعلا.

عندما تشرب الماء تقول: (بسم الله)؛ لأن حبيبي صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه، علّمني أنْ أقول (بسم الله)، عندما تقرأ القرآن الكريم تستذكر الحبيب صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، تقول: هذا القرآن الذي تلقّاه قلب الحبيب صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، يسّره الله تعالى لنا بلسانه الشريف عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه.

أمّا الصلة التي تكون بين سيّدنا رسول الله صلى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه ومَنْ والاه والمُرشد فهي صلة خاصة.

وأرى - والله تعالى أعلم- في هذا القول – أي اتخاذ الصلاة والسلام على النبي عليه الصلاة والتسليم – بدلا عن المرشد فيه خطورة، وهي أنَّه كلّما حدث عندنا نقص نُحاول أنْ نجد له جوابًا، نُحاول أنْ نجد له بديلًا ـ مع الأسف ـ والصحيح أنْ نرفع الهمم فنقول للنّاس: ابحثوا، فالدنيا صارت قرية صغيرة، ابحثوا ستجدون بإذنْ الله عزّ وجلّ، فالخير لا ينقطع بإذنْ الله جلّ في علاه، كما قال سيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم:

(مثَلُ أُمَّتي مثَلُ المطَرِ؛ لا يُدْرَى أوَّلُه خيرٌ أمْ آخِرُه) الإمام الترمذي رحمه الله سبحانه.

عليكم أنْ تبحثوا، لا أنْ نجد له مُتكأ عندما يقول: لم أجد مُرشدًا، فقد نظرت هنا وهنا، فلم أجد مُرشدًا أو رأيت أناسًا مُدعين، فكيف لي أنْ أجد المُرشد الحقيقي؟

نقول له: يبدو أنَّك لا تمتلك الهمّة الكافية، والصدق المطلوب، والتوجّه الحقيقي المُراد، فالذي عنده التوجّه الحقيقي سيجد المُرشد؛ فلقد رأينا مَنْ تمرض فسمع أن بألمانيا طبيبًا حاذقًا فسافر إليه مُباشرة، وإن لم يكن لديه مال أستدان، وربّما باع أفضل حاجاته وهو مُضطر لها، أما إذا سمع بمُرشدٍ في أمريكا أو ببغداد فهل سيأتي من الرمادي ليضع يده بيده؟

هناك أناس مُباركون طيّبون فعلوا ذلك، لكنهم قليل ـ مع الأسف ـ فغالبًا يبحث الإنسان عن السهولة والرُّخَص؛ فعندما يسمع بأن الذي لا يجد مُرشدًا يُمكن أن يكتفي بكثرة الصلاة على النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم يتخذ ذلك ذريعة لترك البحث عن المُرشد.

والحق أن من وجد مُرشدًا أو لم يجد فعليه أنْ يُكثر من الصلاة على النبيّ عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام، وهذا الرأي مُخالف حقيقة للقواعد الأساسية في السلوك، لكن طبعًا لا يخلو من خير، ونقول أَكْثِر من الصلاة على النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، ومع هذا الإكثار من الصلاة على حضرته أجتهد في البحث، شدّ الرحال لتسأل عنه، أسأل الله تعالى بصدق، جد صدقًا تَجَدَ مُرشدًا، وستجده بإذنه تعالى.

قد لا تجد مُرشدًا تثق به، فهذا من حقّك، فالثقة لابُدَّ منها، لابُدَّ من التثبّت؛ لأنّ المُتصدرين للمشيخة أكثر من أهل الحق، مع الأسف، والمُدّعون أكثر، فتتحقق لكن إلى أنْ تجد المُرشد الحق حاول أنْ تُكثر من الصلاة على النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، فببركة الصلاة عليه تقوى على طاعة الله عزَّ وجلّ، وعلى محبة سيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه، هذا هو التوجيه الذي ينبغي أنْ يكون، أمّا إلقاء القول على عواهنه: من لا يجد مُرشدًا فليُكثر من الصلاة على النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم فإنَّها تُغنيه! فهذا غير صحيح تمامًا؛ لأنك بذلك ألغيت مبدأ السلوك، وما يقتضيه ويتضمنه، ووجود المُرشد هو الأصل.

وهناك قصة سمعتها من سيّدي حضرة الشيخ عبد الله طيب الله تعالى روحه وذكره وثراه، قال: في زمن جدّي سيّدي غياث الدين طيّب الله تعالى روحه وذكره وثراه، جاء رجل من

أهل المغرب، كان مصاحبًا لشيخٍ هناك، وبعد فترة من المُصاحبة قال له شيخه بكلّ صدق: يا بُني لا أستطيع أنْ أعطيك شيئًا أكثر مما أعطيتك إياه فاذهب وابحث عن مُرشد، فبدأ الرجل يسأل النّاس، فقالوا له: اذهب إلى بغداد، فهناك مقام سيّدنا حضرة الشيخ عبد القادر الكيلاني قُدِّس سرّه، وستجد من يَدلُّك، فشدّ الرحال من المغرب إلى بغداد سيرًا على الجِمَال والدواب - أجلّكم الله- وأحيانًا على الأقدام، انظروا إلى الجهد، انظروا إلى الصدق، وأكيد صِدْقُهُ تَصَدَّقَ عليه - من المفروض أنْ نُربّي الأمّة على هذه المعاني، لا أنْ ندعوهم إلى التكاسل - وهكذا فالرجل وصل إلى مقام سيّدنا الشيخ عبد القادر قُدِّس سرّه، وبدأ يبحث ويسأل لكنه ما اهتدى لأحد، فصلّى صلاة الحاجة لله تبارك اسمه بعد صلاة العشاء وتوجّه إليه سبحانه بجاه سيّدنا الشيخ عبد القادر قُدِّس سرّه فقال: يا ربِّ دُلّني على مَنْ يدلّني عليك، فرأى تلك الليلة في المنام رجلًا صبيح الوجه فقال له: يا بُني مُرشدك الذي تطلب في أربيل، فلما استيقظ بدأ يسأل عن أربيل؟ فقالوا له: في شمال العراق، فجاء إلى أربيل وتشرّف بالخانقاه، تشرّف بلقاء سيّدي حضرة الشيخ غياث الدّين، وكان سيّدي حضرة الشيخ مصطفى كمال الدين قُدِّس سرّه في خدمة والده سيّدي غياث الدّين الذي قال له: اهتم بالضيف، وهيأ له مكانًا ليرتاح فيه، وهنا أخبر الضيف حضرة الشيخ مصطفى قدس سره عن حاله فقال: إنّي من بلاد المغرب العربي أريد أن يكون قلبي ذاكرًا لربي سبحانه، فقال له سيّدنا كمال الدين حيّاك الله تعالى، سأعرض أمرك على سيّدي حضرة الشيخ غياث الدّين، وذهب سيّدنا كمال الدين وعرض الأمر، فقال حضرة الشيخ غياث الدّين: وَجِّهْهُ ان يجلس في ختم المغرب عن يميني، ، فلما انتهى الختم الشريف وصلاة العشاء ذهب حضرة الشيخ مصطفى قدس سره: يتفقد الضيف ويدعوه للعَشاء، فجاء للغرفة فلم يجده، وبحث عنه في الجامع كله فلم يجده الا في حرم الصلاة يمشي طولًا وعرضًا، يروح ويَجيء، يروح ويَجيء، فجئت وسالته عن حاله، فقال: أنا بحال طيّبة فلا تقطعها لطفًا، قلت له: إنْ شاء الله تعالى لا تنقطع، فما حالك؟ قال جئت أبحث عن قلبٍ ذاكر، والآن كلّ خليةٍ وذرةٍ في جسدي تذكر الله عزَّ وجلّ، فدعني مُستأنسًا، يقول: فتركته وذهبت.

إذن: نحن نُربّي النّاس على علوِّ الهمّة، لا أن نُيَسِّرَ لهم سُبُلَ للتراخي والكسل، فقد يكون

بينه وبين المُرشد خطوات، ويقول ما وجدت مُرشدًا؛ ذاك لأنّ لديه نفسًا أمارة بالسوء لا تسمح له أنْ ينقاد لهذا الحقّ البيّن الواضح.

سؤال رقم (٢): عفوًا سيّدي ذكرتم بأنَّه قد عُرِض على حضرتكم منصب وزير الأوقاف لكنَّكم رفضتم، وذكرتم في مقطعٍ آخر بأنَّ سيّدي حضرة الشيخ عبد الله طيّب الله تعالى روحه وذكره وثراه، عُرِضت عليه الوزارة فقَبِلَها، فلماذا لم تقبلوا المنصب مع أنَّكم مجازون بالإرشاد المستقل؟

الجواب: ربّما يأخذ وقتًا طويلًا، ولكن قدر الإمكان أحاول الاختصار، لأنّي أراه سؤالًا مهمًّا للأسباب أدناه:

أوّلًا: لطمأنة قلوب السالكين والسالكات، رضي الله تعالى عنهم وعنكم.

ثانيًا: لتصحيح المفاهيم، وجعل النقاط على الحروف.

ثالثًا: لقطع الطريق على الغمّازين واللّمازّين من الحاقدين والحاسدين، الذين كما يُقال: يُحاولون الصيد في الماء العكر.

فأقول وبالله جلّ وعلا التوفيق:

في البدء لابد أن أوضّح مسألة قبول سيّدي حضرة الشيخ عبد الله طيّب الله تعالى روحه وذكره وثراه، لمنصب الوزارة بما سمعته منه ثمَّ أذكر ما في ذهني عن هذا الموضوع.

قال لي قُدِّسَ سرّه: يا ولدي! ربّما تسمع أنَّ بعض النّاس يقولون: كيفَ أنَّ عبدَ الله ـ أيْ سيّدي حضرة الشيخ عبد الله قُدِّسَ سرّه ـ عمل وزيرًا – لوزارة المالية ووزارة الاقتصاد –، ومفهوم النّاس عن الوزراء بشكل عام في هذا الزمان، حاشا المُخلصين، أنَّهم انتهازيون، يبحثون عن المنافع الشخصية، يبحثون عن الأموال والعقود، إلى غير ذلك.

فقال: أودّ أنْ أبيّن لك جزءًا ممّا يتعلّق بهذا الموضوع.

قلت: نعم سيّدي، وجزاكم الله تعالى خيرًا.

قال: اتصل عليَّ السيّد رئيس الجمهورية، وكان حينها السيد أحمد حسن البكر رحمه الله تعالى، وقال: دكتور، أريد أنْ أزورك.

فقلت له: سيادة الرئيس، أنت لا تحتاج إلى إذن، فأنت رئيس وأنا مُوظف.

انظروا أولادي وأبنائي، يُعلّمنا حضرة الشيخ قُدِّسَ سرّه كيف نُنزل النّاس منازلهم، وكيف يكون التخاطب بين المُوظف وبين مَنْ هو أعلى منه في الدرجة الوظيفية.

وقال قُدِّسَ سرّه: البروتوكول يقتضي أنَّه يقول: تعالَ عندي في الديوان؛ فكل مُوظف يتشرّف أن يذهب عند رئيس الدولة، لكنه أدب الرئيس أحمد حسن البكر رحمة الله تعالى عليه، وربّما كان عنده اطلاع مُعيّن على مكانة ومرتبة سيّدي حضرة الشيخ عبد الله، بحيث يأتي إليه ليزوره.

وفعلا جاءني، وقال لي بالحرف الواحد: يا دكتور لدينا مشكلة اقتصادية كبيرة ونحن نستطيع دفع رواتب المُوظفين لشهرين قادمين فقط، فأجبته، وقلت له: يا سيادة الرئيس! اختصاصي لا علاقة له بالاقتصاد.

فقال: يا دكتور أعرف ذلك، ولكني أعتقد بأنَّك لها.

فقلت له: خيرًا إنْ شاء الله تعالى، واستأذن رئيس الجمهورية وغادر.

يقول: مباشرة قدّمت إجازة لمدّة أسبوعين، وخرجت من دائرتي، وذهبت إلى سوق المتنبّي للكتب في بغداد، وأخذتُ كلَّ ما يتعلق بالاقتصاد من الكتب والمراجع باللّغتين العربية والإنجليزية، لأنّي وجدتُ نفسي من حيث الحُكم الشرعي مثل الذي يُجيد السباحة فرأى طفلًا ساقطاً في النهر، افلا يجب عليه القفز لإنقاذه؟

الجواب واضح، نعم يجب عليه ذلك.

قال: فأنا وجدتُّ أنَّ العراقيين بكل مذاهبهم ودياناتهم وتوجّهاتهم في خطر، فأمامنا شعبٌ كامل سيجوع، كما اخبر رئيس الدولة.

دخلت البيت، وما خرجت منه سوى للجمعة والجماعات، وقرأتُ هذه المصادر أجمعها، وفي النهاية أعددْتُ خطة لتأسيس ديوان الرَّقابة المالية، وبناء الأسس الاقتصادية التي بها نُحافظ على الدينار العراقي من أعدائه، نُحافظ على قيمته ونرفعها أكثر.

ثم قدّمت المشروع للسيّد رئيس الجمهورية، فوافق عليه وكان مُمتنا وشاكرا.

وفعلًا تم البدء بتطبيق الأسس التي وضعتُها، وأُنشِئ ديوان الرقابة المالية، ومنْ فضل الله تعالى، أعطينا رواتب الموظفين، بل تم رفع مُرَتَّبَاتِهِم، فازدهرت الماليّة العراقية، وانطلقت عجلة الاقتصاد العراقي انطلاقة راقية ومُفرحة ومُباركة.

إذنْ لماذا قَبِلَ حضرته التكليف؟ لأنّ الحكم الشرعي واضح، فمَنْ يجيد السباحة، ثم يرى طفلًا يكاد أن يغرق فيجب عليه انقاذه حتّى لو نُودِيَ لصلاة الجمعة؛ لأنها ستسقط في حقه، مع أن الله سبحانه قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [سورة الجمعة: ٩].

في أوّل أيّام الاحتلال عام (٢٠٠٣م)، جاءني أحد المُصلّين، فقال يُوجد رجل أمريكي لكن أصله عراقي، جاء مع الأمريكان، وسلّموه وزارة الصحة، ووزارة الأوقاف، يُريد أنْ يأتي لزيارتك، فقلت له: ماذا يُريد؟ قال: لا أعرف، فجاءني بين صلاة المغرب والعشاء، عرَّف عن نفسه، فقال: أنت من ديالى، وأنا كذلك من قضاء "مندلي"

قال: أنا طبيب، ومنذ زمن بعيد خرجت من العراق، وأعيش في أمريكا، وعندي هناك مُؤسّسة صحية، فسلّموني وزارة الصحة العراقية بعد التحرير – هكذا يصفون الاحتلال – كذا عندي جمعية إسلامية في أمريكا، تُعنى بالأرامل والأيتام.

والكثير من الجمعيات التي تعمل باسم الأرامل والأيتام انما يعملون لصالح اللِّئام، ولذلك

يجب التأكد والحذر من بعض تلك الجمعيات المنتشرة في عموم العالم.

فقال: وبما أنَّني رئيس جمعية لها خدمات مُجتمعية فقد تم تسليمي وزارة الأوقاف أيضًا.

قلت له: حسنًا ما المُطلوب؟ قال المُطلوب: أنْ تستلم منّي وزارة الأوقاف، وأبقى خلفك داعمًا، وأنت الوزير الفعلي، وسمع بعض المُصلّين الحوار الذي دار بيني وبينه وذلك في جامع سيّدنا الإمام مالك بن أنسٍ رضي الله تعالى عنه وعنكم، ببغداد في حيّ العدل، فقلت له: أحبّ أنْ أقول لك شيئًا أولًا، وبعد ذلك نتكلم فيما يتعلق بهذا العرض.

قال: ماذا تُريد أنْ تقول؟ قلت له: بما أنَّكَ عراقي فالله الله بالعراق والعراقيين، ولا أريد أنْ أقول لك رأيي، فرأيي مشهور ومعروف، وقد خطبتُ خطبًا قبل الاحتلال، وقلت: هؤلاء جاءوا مُحتلّين، وهناك من يعتقد أنّ بغداد أو العراق سيغدو ولاية أمريكية جديدة؛ سَيُعَبِّدُونَ الشوارع بالذهب والفضة، بينما كنت أقول: إذا جاء هؤلاء فسنرى القتلى في الطرقات، فلامني بعض الناس وقالوا: كلا، هذه أمريكا، وهذه الدول المتحالفة معها ذات مُؤسسات تعنى بحقوق الإنسان، وأنت غلطان، دعهم يُخلصوننا من صدام وحزب البعث، فقلت: أنا لا أدافع عن فلان أو فلان، بل أدافع عن بلدي؛ فهل يُعقل أن هذه الدول التي دقّت إسفينًا مسمومًا في قلب الأمة ـ الكيان الصهيوني ـ تأتي لتُؤسّس دولة إسلامية في العراق أو تحمي العراقيين!

قال: لا، انظر كيف سيكون الحال، قلت: ما رأينا إلى الآن إلا السيئ، قال: كيف؟ قلت له: هذه مدينة الحرية آهلةٌ بالسكان لكنكم قصفتموها بالقنابل العنقودية.

قال: هذا لأنّ فلانًا ـ ذكر اسم رئيس الدولة الراحل ـ جعل فيها قاعدة عسكريّة، فقصفناها، قلت له: أنتم قلتم سندخل بسلام، ولا نُؤذي أحدًا، على كلٍّ هذه نصيحتي لك: اللهَ اللهَ في العراق والعراقيين.

قال: حسنًا، العَرض هو ان تستلم وزارة الاوقاف، وتباشر غدًا فقد صدر أمر تعيينك، ونحن نعرفك، وعندنا كلّ المعلومات عنك، ونعرف كيف أوذيت، ونعرف مكانتك في المجتمع،

وإمكاناتك العلمية، لذلك قد رشّحتك، فتفضل غدًا للمباشرة.

قلت له: لا أستطيع أنْ أردّ عليك الآن، تعال غدًا إن شاء الله تعالى.

المُصلّون ـ بعد ما ذهب ـ كلّهم قولًا واحدًا: شيخ! خذها، هذه فرصة، أنت تُحيي المساجد، أنت كذا وكذا، فقلت لهم: الله تعالى كريم.

أوّل ما تكلّم الرجل كان قلبي رافضًا، لكن جلستُ بعدَ العشاء بيني وبين ربي عزّ وجلّ، تأملتُ في الموضوع، ها هي الدنيا تبرق، زينة وأضواء، هكذا تتزين أمامك، وزير أوقاف، أموال، حماية، حراسة، احترام وتقدير، النّفس الأمّارة تُوجّه، تُخطّط، وهذا الكلام مُتعلق بجواب سؤال آخر: هل المُرشد عنده نَفْسٌ تُوسوس أم لا؟ نعم، تُوجد نَفسٌ تُوسوس، فالمُرشد لا يزال في دائرة الاختبار.

ظهرتْ الدنيا، وجاءتْ وساوس الشيطان والنفس، الحمد لله أنت مُرشد، وأنت كذا وستفعل كذا...إلخ، وبعد التأمّل قلبي قطع الأمر بالرفض التام.

فجاء اليوم الثاني وجاء الرجل على الموعد، قال: ما تقول دكتور؟ قلت له: أنا لا أقبل هذا العرض، وأرفضه جملة وتفصيلًا، قال: لماذا؟ هل هذا معقول؟ تعالَ وانظر، إنهم يلهثون خلفي، فلان وفلان يركض ورائي، بل هناك جِهاتٌ قدَّمتْ لي عروضًا، قالت: دكتور، إذا سلّمتَ لنا وزارة الأوقاف نُعطيك كذا مليون كلّ شهر، فما بك يا دكتورنا؟ لا أريد أنْ أتجاوز عليك بكلام، لكن موقفك هذا خطأ ١٠٠%، قلت: أنا أتحمّل خطأي، وبقي يلحّ، قلت له: مستحيل، اقطع نفسك، فخرج مُنزعجًا غاضبًا.

لماذا رفضت؟

لأن البلد مُحتلّ، وصار تحت سيوف الأشرار، فأنظر كيف انقلب هذا الشرير عليَّ مباشرة، يقول لي: أنت مخطئٌ، وأنت كذا، فأين الاحترام؟ وتذكروا كيف كان احترام السيد أحمد حسن البكر لسيّدي حضرة الشيخ عبد الله رحمهما الله تعالى وأموات المسلمين؟ يأتي بنفسه

لمقر عمله ويعرض عليه الأمر، يستقبله بنفسه وهو رئيس جمهورية، أين هذا من هذا؟

لأنه بلد مُحتل، وبالضبط مثلما قال الأوائل رحمهم الله جلّ وعلا:

الْمُسْتَشَارُ هُوَ الّذِي شَرِبَ الطِلَا *** فَعَلَامَ يَا هَذَا الوَزِيْرُ تُعَرْبِدُ

أنت تعتبر نفسك وزيرًا؟ كلا، فمستشار الاحتلال هو الوزير الفعلي، وسيضع الكمّاشة على رأسك عندما تُصبح وزيرًا، ولا يُعطيك مجالًا لتعمل.

ومن ضمن ما قلتُ له: ما دُمتَ تلحّ، فأنا سأقبل بشرطين، قال: ما هما؟

قلت له: سمعتُ أنَّ الأشرار والمليشيات الذين أدخلتموهم إلى البلد بدأوا يسرقون الوزارات، وهو ينظر إليَّ فاتحًا فمه وعينيه.

قال: نحن أدخلنا أشرارًا للبلد؟

يَظنّ أنّه غير مكشوف عندي، يظنّ أنّني مثل بقية النّاس الذين يظنّون بأنّهم جاءوا لهم بولاية أمريكية جديدة.

قلتُ له: السرقات بدأت، وبلغني أنَّ بناية وزارة الأوقاف في منطقة باب المعظم ببغداد قد اعتدوا عليها، قال: هذا صحيح، قلتُ: إذن أتصل الآن، وأرسل قوّة لحماية البناية؛ فكيف سأكون وزيرًا، والبناية تُسْرق، والمليشيات تَهجم عليها، قال: والشرط الثاني؟ قلت له: سأضع منهجًا تمضي عليه إدارة الوزارة، ولا أريدك أنْ تتدخل فيه نهائيًّا.

بعدها عرف مَنْ يقف أمامه، كان في ذهنه أنّ من يُخاطبه كغيره من الذين يبحثون عن الدنيا، أولئك الذين يركضون وراءه، ويقدّمون له العروض، فلمّا رأى إن أمامه رجلًا يُريد فِعلًا بلدًا آمنًا، محميًّا، ووزارة فاعلة، ومنهجًا لا يتدخل به أحد، فغادر ممتعضاً.

فأينَ الاحترام حتى أقبل؟ أينَ الحكومة الوطنية حتّى اشتغل وزيرًا فيها؟ أينَ الصّدق بأنّهم يُريدون وزارة أوقاف؟ فهذا بعض الفرق بين ما عُرِضَ على سيدي حضرة الشيخ عبدالله

الهرشمي طيب الله تعالى روحه وذكره وثراه وبين ما عُرِضَ عليَّ.

مستحيل أن ينجح الإنسان في ظلّ خِراب المحتلين الأشرار، وفي ظلّ هذه الظروف التي صارت بعد ذلك.

ومما ينبغي التنبيه اليه أنَّ المُرشد محفوظٌ بإذن الله جلّ في علاه؛ فقد كانوا يمكرون لإسقاط المُرشد، يُنصّبوه وزيرًا للأوقاف، وبعد يومين أو ثلاثة يقولون انه سرق، ويرمونه في السجن، او يقتلوه، وحتّى إن لم يفعلوا ذلك فمَنْ ذا الذي سيأتي ويضع يده في يده ويتخذه مُرشدًا بعد ما قدّموه للناس لصًّا؟ فكانت النيّة إسقاط هذا العَلَم، حتّى لا يلتفّ حوله أحد، او يستفيد منه أحد، فهذا الذي كان في قلبي ـ واستفتِ قلبك وإنْ أفتوك وأفتوك ـ فصار الرّفض؛ وتبعه عتبٌ شديد من الأحبّة ومن المُصلّين، والحمد لله تحمّلتُه، وقلت لهم: أنا أعرف شيئًا ربّما أنتم غير مُنتبهين له، وجزاكم الله تعالى خيرًا، والله سبحانه يزيدكم حرصًا على وزارة الأوقاف والمساجد.

هناك ملاحظة بسيطة مع معلومة أزيّن بها الإجابة الأخيرة في موضوع عدم قبولي لمنصب وزير الاوقاف، بينما قَبِل سيّدي حضرة الشيخ قُدِّسَ سرّه، وبيّنت كيف أنَّ الظروف كانت مُختلفة جدًّا، وهذا يُعلّمنا أنَّ معرفة الواقع ضروري للمُفتي والباحث، فعندما تُريد أنْ تُفتي بأمرٍ ما ينبغي أنْ تلتفتَ للواقع الذي يُحيط بالسؤال والسائل وبزمانه، ومن هنا مثلًا نشأ مذهبان لسيّدنا الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه في المسألة الواحدة لاختلاف المكان والزمان، وهكذا نشأتْ لفقهاء الإسلام أقوال مُتعددة في المسألة الواحدة وفي قضايا كثيرة.

الأخبار التي أنقلها لكم حتى نعرف رجالنا، ونعرف الواقع، ونَعرف كيف نحكم، ولا نستعجل في إصدار الأحكام على النّاس من غير أنْ نعرفهم، وأنا لست الآن في موضع دفاعٍ عن أحد، ولكن فقط أروي لكم ما سَمِعْتُ من دون أيّ تعليق، ولكم أنْ تفهموا مقصدي، فمقصدي أنْ أصونكم وأحميكم بإذن الله تبارك اسمه من التسرّع في الأمور، وأدعوكم للتثبّت الذي دعتْ إليه الشريعة الغرّاء.

ومن تلك الأخبار أنّ سيّدي حضرة الشيخ عبد الله طيّب الله تعالى روحه وذكره وثراه قال: لمّا كنت في المنصب قدّر الله عزَّ وجلّ لي اللقاء مع رئيس الجمهورية، السيد أحمد حسن البكر رحمه الله تعالى، وفي اللقاء قال لي: يا دكتور أرجو أنْ تُشكّل لجنة تختار أعضاءها، اثنان معك على الأقل، وتضع منهجًا للتعليم، يبدأ من الروضة وينتهي بالدراسات العليا، وأرجو أنْ يُؤكِّد هذا المنهج على تربية المُسلم وتثقيفه بالعلم على مبادئ الدِّين.

كأنَّ المطلوب دراسات دِّينية ممزوجة بالعلوم الحياتية، وكلّ العلوم كما قال قُدِّسَ سرّه في كتاب معالم الطريق هي علوم إسلامية ما عدا علم السحر والشعوذة[1]، فلاحظوا ماذا يطلب رئيس الجمهورية! يعني عنده عناية بالدِّين، عنده عناية بأنْ ينشّأ جيلٌ قائِم على الإيمان بالله عزّ شأنه، وسلوك الطريق السليم والصحيح إلى الله عزَّ وجلّ، وأيضًا لا يغفل عن مُتطلّبات العصر، والبناء الحضاري؛ ثم قال: وأيّ حاجة أو معونة تحتاجها حضرتك واللجنة فهي مُيسرة طالما أنتم تجتمعون وتضعون مواد هذا التوجّه الإيماني العِلمي، فيقول قُدِّسَ سرّه: شكرته، وقلت له: إن شاء الله تعالى يكون ما أمرتم، وخرجْتُ مسرورًا جدًّا؛ لأنَّي وجدتُّ فرصةً عظيمةً لوضع حجَرِ الأساس لمنهج التعليم في العراق، والقائم على جناحين:

- جناح الرّوحانية.
- جناح العلم.

وهذان الجناحان هما أساس الحضارة الإسلامية، فهي حضارة روحية علمية.

ومباشرة اتصلت بالدكتور أحمد عبد الستار الجواري، ومحمد شفيق العاني، وقدّر الله جلّ وعلا، أنْ يكون أوّل لقاء لنا في بداية شهر رمضان، شهر نزول القرآن الكريم.

انظروا! فلنتعلّم الذّوق الرّفيع، نتعلّم كيف نربِط بين الأحداث، كيف نستفِيد من هدايات الأسماء، كيف نستفيد من بركات الأوقات، كيف نستفيد من نوْر النّصوص.

---

[1] انظر: كتاب معالم الطريق في عمل الروح الاسلامي، لحضرة الشيخ الدكتور عبدالله مصطفى الهرشمي طيب الله تعالى روحه وذكره وثراه، ص: ٩٦-٩٧.

فقالا: حسناً غداً ان شاء الله تعالى رمضان فلنلتقي في المسجد[1] لنصلي العشاء والتراويح ثم نذهب الى المكتب لدراسة الموضوع.

انظروا أيَّ وزراء كانوا؟ يا عيني عليهم! نُصلّي العشاء والتراويح، وبعد ذلك نذهب للمكتب في الوزارة، ونعقد اللقاء الأول بعد صلاة التراويح.

لكي تعرفوا رجالكم، ولتعرفوا لماذا يتكلّمون عن حضرة الشيخ عبد الله، وكيف أنه صار وزيرًا؟ قُدِّسَ سرّه، وروحي فداء لنعله الشريف.

يقول: ذهبنا للوزارة، وبدأنا بوضع المنهاج الذي يبدأ من الرَّوضة وينتهي بالدكتوراه، منهاج رصين مُختصر؛ ولكي نفهم معالم منهاجه فلننظر في مُؤلفاته، ماذا كتب عن الجامعات وعن المدارس وعن الدِّراسة؟ ماذا كتب عن العلم النافع في كتابه معالم الطريق[2]؟ ماذا كتب عن العلم؟ ماذا كتب عن ضياع الجامعات في كتابه الحريّة الجامعية[3]؟ حتّى نَفهم في ظلال ما كتب هؤلاء الأعلام من رجال العراق، بل من رجال الإسلام، بل من أعلام الحضارة الإسلامية في هذا الزمان، رضي الله تعالى عنهم ورحمهم وأعلى مقاماتهم في الجنان.

يقول: فلمّا أتممنا المنهاج، قدّمته لرئيس الجمهورية، فقال: أنا لا أقرأ ما كتبته يا دكتور، فتفضّل هذا توقيعي، الله، الله الله، الله! لقد صدر الأمر الرئاسي، ثم قال: تعرفون أنَّ هذا الأمر يتعلّق بالدِّين، ومنهاجي أنَّه يجب أنْ يطّلع عليه النّاس، فلابُدَّ أنْ يُنشر هذا التوجّه ـ مُختصر هذا المنهاج ـ في الصّحف الرّسمية، وفي وسائل الإعلام، فنُشِر، ولمّا نُشر هذا التوجّه المُبارك، ومفاده أنَّ الدراسات الدينية ستتضمن تعلّم اللغة الإنجليزية؛ لأنَّ الدّاعي إلى الله تعالى يحتاج إلى تعلم اللغات ـ الإنكليزية على الأقل ـ والذي يُريد أنْ يكون مُفتيًا

---

[1] كان اللقاء في مسجد عادلة خاتون رحمها الله تعالى ببغداد.

[2] انظر: كتاب معالم الطريق في عمل الروح الاسلامي، لحضرة الشيخ الدكتور عبدالله مصطفى الهرشمي طيب الله تعالى روحه وذكره وثراه، ص: ٨١-١٧٠.

[3] انظر: كتاب الحرية الجامعية، لحضرة الشيخ الدكتور عبدالله مصطفى الهرشمي طيب الله تعالى روحه وذكره وثراه، الفصل السابع – جامعات في ضياع، ص: ٢٩١-٣١٧.

يجب أنْ يعرف شيئًا عن الهندسة والرياضيات، وأصول ومبادئ علم الفلك والفضاء ... إلى آخره من العلوم، ولكن على نحو لا إملال فيه، ومدروس ويُؤسّس له، وإذا كنا قد أعطينا اللجنة الأسس والقواعد، فأنتم يا علماء العراق كلٌّ ضمن اختصاصه يجب أنْ يُقدّم مُقترحاته، ويجب أنْ يُجيب على كلّ ما يُطلب منه من مُداخلات وآراء، وستكون قبل تنفيذ المنهاج اجتماعات لذوي الاختصاص لأجل أنْ تُوضعَ المُؤلفات وتُطْبَع، إلى آخره ممّا له علاقة بمثل هذا العمل العملاق الذي يُؤسّسُ للتجديد في أمّة الإسلام وليس في العراق فقط.

يقول: فلما نُشِرَ الخبر في وسائل الإعلام بدأت المعارضة، ومع الأسف كانت المعارضة من بعض المُعمَّمِين قبل غيرهم، فقال قُدِّسَ سرّه: فقالوا عني: عبد الله يُريد أنْ يُغيّر دين الله سبحانه، يُريد أن يُحول طلبة العلم إلى فِرنْجة! فكيف لطالب العلم أن يتعلّم اللغة الإنجليزية؟ أليست هذه اللغة حرامًا؟ أليست لغة الأعداء؟ فبدأت المعارضة، وبدأ الكلام في المجالس، إلى آخره.

فقالوا: لِنذهب إلى والده، إلى حضرة الشيخ مصطفى طيّب الله تعالى روحه ذكره وثراه، وفعلًا شكّل المُعممون لجنة، وذهبوا إلى أربيل، والتقوا بالسيّد الوالد، ولمّا جَلَسَ معهم سيّدي حضرة الشيخ مصطفى، قالوا له: إنَّ ابنك يُريد أنْ يُغيّر الدِّين، فاستغرب سيّدي حضرة الشيخ طيّب الله تعالى روحه ذكره وثراه، فقال: أنا لستُ مُطلعًا بالضبط على ما يُريد، ولكن عهدي بولدي أنَّه من العلماء الصّالِحين، وأنا ما ربّيته حتّى يُغيّر الدِّين، أنا ربّيته حتّى يُجدّد الدِّين، فكيف يُريد أنْ يُغيّر الدِّين؟

قال أحدهم: يفرِض على طالب العلم أنْ يتعلّم اللغة الإنجليزية، ويتعلّم الرّياضيات! فكان ردّ سيّدِي حضرة الشيخ مصطفى طيّب الله تعالى روحه وذكره وثراه أنَّه قال: أعتقد أنّه تُوجد آية في القرآن الكريم بَيَّنَ الله تبارك اسمه فيها أنَّ اللّغات آية من آياته عزَّ وجلَّ، قال جلّ جلاله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ [سورة الروم: ٢٢].

فلا أدْري كيف يكون اختلاف اللغات كُفرًا، وتعلُّمها تغييرا للدين، مع أنَّ القرآن الكريم اعتبره آية من آيات الله عزَّ وجلّ؟ ثمَّ أعتقد أنّه يُوجد كلامٌ مشهور معناه صحيح: (مَنْ تعلَّمَ لُغَةَ قَومٍ أَمِنَ مَكْرَهُم)[1].

وهذا الكلام المشهور عند الناس مأخوذ من سُنّة الرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم الفعلية، فقد أمر بعض الصحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم بأنْ يتعلّموا السُّرْيَانِيَّةَ حتّى يأمنوا مكر اليهود الذين يعيشون معهم في المدينة المنورة.

وإذا تعتبرون الرياضيات كُفرًا! فما أدري كيف ستَحسِبون أنصبة المواريث؟ فقد ذُكر في القرآن الكريم السُدس والثُلث والنصف، وعندما تقرأ في القرآن الكريم ستجد قوله تعالى:

﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [سورة المعارج: ٤].

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [سورة الحاقة: ٧].

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [سورة المزمل: ٢٠].

١ـ رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه أَمَرَ سيدنا زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ رضي الله تعالى عنه أَنْ يَتَعَلَّمَ السُّرْيَانِيَّةَ، وقال له : " إِنِّي لَا آمَنُ يَهُودًا عَلَى كُتُبِي"، شرح مشكل الآثار للطحاوي(٥، ٢٨٠).

أليست هذه رياضيات؟ ألا ينبغي للمُسلم أن يتعلم هذه الأعداد، وهذا الحساب الذي مَنّ الله عزَّ وجلّ به على عباده، سواء كانوا مُسلمين أم كفار، قال عزّ شأنه:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾[سورة سيّدنا يونس عليه السلام: ٥].

أليس الحساب من علم الرياضيات؟!

قال حضرة الشيخ مصطفى رضي الله تعالى عنه لكبيرهم: إذا كنت لا تُريد أنْ تتعلّم الرياضيات فكيف ستكون مُفتيًا؟ فقال: ما علاقة الرياضيات بالإفتاء يا شيخ مصطفى؟

قال حضرته: : إذا تطلب عمل خرسانة في الجامع طولها (٨) متر، وعرضها (٤) متر، ٤×٨ كم يساوي؟ يقول: فلم يعرفوا الإجابة! ٤×٨ ، يعني أربع مرّات ثمانية يساوي ٣٢، يعني ٣٢ م٢، فقلتَ للعامل اعمل لي خرسانة مساحتها ٣٢ متر مربع، وتم الاتفاق على المبلغ، ولنقل ١٠٠٠ دينار، فالمقاول عمِلَ الخرسانة بمساحة ٢×٤ بدل ٤×٨، يعني في ظاهر الأرقام أنّه النصف، كأنّها نصف فبدلَ ٤×٨، عملها ٢×٤، فإذا قبِلت بهذا العمل فكَمْ ستكون أجرة العامل؟ قال: أُعطيه نِصفَ المبلغ! قال له: انظر كيف أخطأت؟! لأنَّك لا تعرف الرياضيات، كيف تُعطيه نصف المبلغ؟ ٢×٤ ليس نصف ٤×٨ لأن ٤×٨ = ٣٢، و٢×٤ = ٨، فهل العدد ٨ نصف ٣٢؟ انظر كيف أخطأتَ بالفتوى؛ لأنَّك لا تعرف الرّياضيات.

يقول: فلمّا خاب سعيهم عند سيّدي الوالد طيّب الله تعالى روحه وذكره وثراه، ما قالوا: نحن مُخطئون، بل مع الأسف بدأوا بثورة إنْ صحّ التعبير.

يقول: في يومٍ من الأيام دخل عليَّ السكرتير فقال: سعادة الوزير، جماعة من المُعمّمين جاءوا يُريدون مقابلتك، قلتُ له: ليتفضلوا، لا تُؤخّرهم، فهم أهل علم، قال: سيّدي كيف يتفضلون؟! فعددهم كثير لا يسعهم المكتب.

قلت له: افتح لهم قاعة الاجتماعات الرئيسة، وسأذهب إليهم؛ وفعلًا دخلتُ القاعة، وإذا بها قد امتلأت، جاءوا بكلّ مُؤذّن وخادم وضرير، فقام أحدهم فقال بكلّ صفاقة وجه: أنتَ تُريدُ أنْ تُغيّر دّين الله عزّ وجلّ، ونحن لا نقبل، نحن جِئنا لنقول لك: لا يجوز هذا الشيء.

يقول: فهدّأتهم واحترمتهم وقدَّرتهم، وهذا ليس فضلًا منّي فهذا واجبي، فيجب أنْ أُقدِّر مَنْ يُنسَبون إلى العلم، وبَيّنتُ لهم وجهة نظري، وقلتُ لهم: حَقّكُم، وأنا أشكر حِرْصكم على دّين سيّدنا النبيّ عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام، ولكن هذه وجهة نظري، أنا رجل رأيتُ الدنيا، وقرأت الحياة منْ كلّ جوانبها، ما قرأتُها من جهة المحراب والمنبر فقط، مع اعتزازي بهما وتقديسهما، واليكم بعض الأدلّة الشرعيّة على نحو مُختصر لأنّكم جئتموني من غير موعد سابق، وأنا رجلٌ مسؤول، عندي مُهمّات، يقول: فازدادوا صياحًا وتعدّيًا عليَّ، فرأيتُ نفسي مُضطرًا لتركهم والخروج من القاعة، فقلتُ لهم: شكرًا لكم، ولكن أريدُ أنْ أُسمِعَكم هذا البيت من الشعر قبل أنْ أودّعكم، فقلت:

وَلَكِنَّ دِيْنًا قَدْ أَرَدْتُ صَلَاحَهُ *** أُحَاذِرُ أَنْ تَقْضِي عَلَيهِ العَمَائِمُ

رأيتم الآن كيف أنّ بعض عمائمًا قضتْ على الدّين؟ فالآن حركة الإلحاد على قدمٍ وساق في العراق، بل في الأمّة الإسلامية كلّها، لماذا؟ بسبب بعض العمائم، عمائم الخِسّة والتبعية اللاهثة وراء زهرة الحياة الدنيا!

يقول: فتركْتهم وخرجتُ، وبعد ذلك جاءتني مكالمة من رئيس الدولة، قال: يا دكتور، ما هذا؟ الجماعة خرجوا علينا بثورة ؟ أجّلوا الموضوع لأشعارٍ آخر.

يقول: يا ولدي، لقد فوَّتوا على العراق وعلى الأمّة الإسلامية فُرصَة ذهبية لنْ تَتَكرر ابدا.

اقول:- فعلا فمِنْ أين نأتي برئيس دولة يقول لك: تعالَ وأسّس لي منهجًا، من أينَ تأتي بمثل حضرة الشيخ عبد الله يترأس اللّجنة، عِلْمًا وورَعًا وتقوًى وفضلًا وثقافة وتنوُّرًا، من أين تأتي بمثل الدكتور احمد عبد الستار الجواري رحمة الله تعالى عليه، وأكيد وزير التربية في ذلك الوقت شخصية علمية ممتازة، وإلّا فليس من المعقول أنّ رئيس البلاد أحمد حسن البكر

رحمه الله تعالى يختاره وزيرًا للتربية والتعليم إن لم يكن أهلًا لها.

فحتّى ننتبه من نفوسنا الأمّارة بالسوء، ولا نذهب لندخل مطبّات مُظلمة، نعوذ بالله تبارك وتعالى، ولكي نعرف علماء السوء الذين كتب عنهم حضرة الشيخ عبد الله مصطفى في كتابه معالم الطريق تحت عنوان: "علماء السوء واعمال التخريب"[1]، ولكي نفهم ونفقه ونتنوّر، فجزاه الله سبحانه خير الجزاء.

سؤال رقم (٣): عرفنا من خلال مفهوم العمل الروحي الإسلامي بأنّ المُرشد الكامل رضي الله تعالى عنه قد تزكّتْ نفسه الشريفة فأصبحت كاملة، ولكنّ حضرتكم ذكرتم في مقطعين:

الأوّل: عن سيّدنا حضرة الشيخ عبد الله طيّب الله تعالى روحه وذكره وثراه بأنّ أحد السالكين بلغ عنده مرتبة الإرشاد، فأصابه العُجب فرجع كأنه سالك في بداية طريقه الى الله تعالى.

والثاني: ذكرتم ما حصل لحضرتكم في صلاة الضحى[2]، فكيف نفهم الأمرين؟

الجواب: لا يبلغ المُسلم السالك السائر إلى الله سبحانه مرتبة الإرشاد إلّا بعد أنْ تتزكّى نفسه من شرورها وسمومها، لكن كلمة (تزكية كاملة) لا أظنَّها مُوفقة، ولا أدري فإنْ كنتُ قلتُها فأعتذر إليكم، وأتحفّظ منها، أي أنّ نفسه تزكّت تزكيةً كاملةً؛ لأنّ هذا يعني أنّه خرج من دائرة التكليف، ودخل إلى مستوى ملائكيّ، خرج من الإنسانية إلى الملائكية، ولا أظنّ أن أحدًا يقول بهذا القول، فإذا قلنا: إنّ هذا المُسلم الذي بلغ درجة الإرشاد تزكّتْ نفسه ١٠٠%، بمعنى أنّه لم يبقَ عنده أيَّ توجّه نفسي، ولا أيّ دوافع نفسية، فهذا مما أتحفّظ عليه، فالسائل الكريم يقول: إنّه فهِمَ أنّ المُرشد هو من تزكّتْ نفسه تزكية كاملة، لكنّنا نقول تزكت نفسه بمراتب عالية جدًّا، فإني لم أفهم هذا الفهم لوصف المُرشد، فالمُرشد مُسلمٌ موصول بالنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، بالإجازتين: الإجازة العلميّة والرّوحية، والله عزَّ

[1] انظر: كتاب معالم الطريق في عمل الروح الاسلامي، لحضرة الشيخ الدكتور عبدالله مصطفى الهرشمي طيب الله تعالى روحه وذكره وثراه، ص: ١٢٣-١٧٠.
[2] انظر: ص: ١٧٢

وجلّ جعل فيه بركةً، وجعل له تأثيرًا كبيرًا وكثيرًا، ووفّقه سبحانه بالقرب منه، ورقّاه جلّ جلاله بفضله وكرمه أوّلًا، ثمّ بتقواه هو ثانيا، فالله عزَّ وجلّ قرّبه حتّى نال هذا الشرف العظيم، وتحمّل هذه المسؤولية الكبيرة.

فإذا قلنا: إنّ المُرشد تزكّتْ نفسه بمعنى أنّه صار من الملائكة وما بقيت عنده نفس نهائيًّا، فهذا لا يقول به أحد، ولا أقول به، ومن قال بهذا القول فقد جانب الصواب وابتعد، نعم تتزكّى نفسه، وربّما يصل في بعض لحظات الأنس والقرب والتقوى لله جلّ وعلا بحيث لا تُحدّثه نفسه بأيّ شيء؛ ولكن طالما الإنسان في دار الابتلاء فمهما بلغ من المراتب العالية، وتدرّج في مراتب الإحسان الراقية؛ فالنفس تبقى لا محالة؛ فهي قوة من قوى الروح.

وخير أنيس في العلوم مثال: مُوظف في دائرة ما تم نقله إلى ديوان الرئاسة، وديوان الرئاسة ليس كبقية الدوائر، كما أن الموظفين في ديوان الرئاسة ليسوا بدرجة واحدة؟ فالفلّاح في ديوان الرئاسة يقول: أنا أعمل في ديوان الرئاسة، وهو صادق، وهناك مدير مكتب رئيس الدولة يقول أيْضًا: أنا أعمل في ديوان الرئاسة، أو في الديوان الملكي إذا كان الحكمُ ملكيًّا، فكلا الموظَّفَيْنِ في ديوان الرئاسة لم يخرجا عنها مع اختلاف درجتهما الوظيفية، كذلك المرشد والسالك البسيط فكلاهما لم يخرجا من دائرة التكليف وان اختلفا في مرتبتهما الروحية.

فمَنْ قال: إنّ المُرشد أصبح غيرَ مُكلّف باعتبار أن نفسه انمحت تمامًا، فهو غير مُكلّف بأوامر الشرع الشريف: (افعل، ولا تفعل) أو يقول: إنّ نفسه تزكّت ١٠٠%، وبقي في دائرة التكليف لكنّه معصوم، فهذا كلام غير صحيح، لأنّ العصمة لا تكون إلّا للأنبياء عليهم الصلاة والتسليم، والقرآن الكريم حينما تحدّث عن المتّقين وهم في أعلى درجات التقوى لم يُبرّئهم من أنْ يحدُث لهم من الابتلاء ما يحدث لغيرهم، ولكن بنسبٍ مُتفاوتة، وبأوصاف ونتائج مُتفاوتة، فلنقرأ في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾[سورة الأعراف: ٢٠١].

فواضح من الآية الكريمة أنّ الطائف يمسّهم، إذن ﴿مَسَّهُمْ﴾، أثبت أنّه مسّهم طائفٌ من الشيطان؛ لكن ما النتيجة؟ هل ساروا مع هذا المسّ؟ هل انساقوا معه؟ كلا، ﴿تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾، مُبصرون طريقهم في كيفية النجاة من آثار هذا المسّ، ومن تلك الكيفيّات: المُبادرة بالتوبة النصوح.

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[سورة آل عمران عليهم السلام: ١٣٣-١٣٤].

الآية الكريمة وصفتهم بالمُحسنين، فهم في درجة الإحسان، ومع هذا فالتقيّ الذي بلغ مرتبة الإحسان لا يكون معصومًا بل يحصل منه اللمم من الإثم، وهو ضئيل، سرعان ما يدفعه للوقوف في باب الجليل سبحانه، والاعتذار إليه والاستغفار والتذلل بين يديه سبحانه، لذلك ذكر بعدها: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾[سورة آل عمران عليهم السلام: ١٣٥].

أما الفرق بين الانبياء عليهم الصلاة والتسليم والسادة المرشدين رضي الله تعالى عنهم اجمعين اللذين بلغوا مقام الاحسان، فالأنبياء معصومون، لا يصدر منهم اللمم من الاثم بينما يحصل ذلك للمرشدين رضي الله تعالى عنهم وعنكم، ولكن الله عزَّ وجلّ يحفظهم غالبًا، بأنْ يُحيِي في قلوبهم معاني الحضور والخجل والنّدم منه سبحانه، وهذا من توفيق الله جلّ جلاله لهم.

كذا فالله سبحانه وتعالى يهيئ لهم من يذكرهم من توفيقه لهم ولحُسن نواياهم، وأنّهم ما كانوا يُخطِّطون للمعصية، ولا يُرتِّبون لها، نعوذ بالله تبارك وتعالى، وربّما وقعوا في المعصية بنيّةٍ صالحةٍ حسنةٍ، فالله تعالى أعلم بما في قلوبهم، فلذلك الله تبارك اسمه يَهَبُ لهم مَنْ يُسدّدهم، فسيّدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه وأرضاه عندما استلم الإمارة وأصبح أميرًا للمُؤمنين، وبدأ بردّ المظالم، تعب كثيرًا فأوى إلى فراشه لينام، فهيّأ الله عزَّ وجلّ له أحد أولاده ـ أكيد هو أصغر منه، وأقلّ منه فِقْهًا ـ فسأله: يا أبتِ! ماذا تفعل؟ قال: يا بني تعبتُ، وأريد أنْ أرتاح.

فقال له: يا أبتِ! كيف إذا جاءك الأجل، وللناس حقوق؟ فانتفض سيّدنا عمر بن عبد العزيز، وذهب لقضاء حوائج الناس.

الله تعالى هيّأ له ابنه، وقد يُهيئ للمُرشد تلميذًا من تلامذته، بل خادِمًا من خدّامه، يقول له: سيّدي، هذا الموضوع أرجو أنْ تنتبه له، فلربّما له آثار سلبيّة، أكيد إنّ نيّتك صافية ١٠٠% تبتغي شيئًا حَسَنًا من هذا التصرّف، لكنَّ ظاهره يُوحي بأنّه إثم أو خطأ أو انزلاق عن الطريق، فينتبه.

هذا هو الفرق بين المعصوم والمحفوظ، فالمُرشد محفوظٌ بإذن الله تبارك وتعالى، لأنَّ الله عزَّ وجلّ يُهيئ له، ولكن قطعًا لا يُقال إنّه صار معصومًا فلا تحصل منه معصيةٌ، ولا تحصل منه غفلةٌ؛ ولكن لأنّها قليلة جدًّا، وكما يقول علماء الأصول وأهل العلم إنّ الشيء القليل لا حكم له، والله تعالى أكرم مِنْ أنْ يُعذّب عبده بذنوب قليلة، حاشا لله سبحانه، لذلك إذا زادتْ كفّة الحسنات على كفّة السيئات، مُحيت السيئات، ولكنها كانت موجودة، وبمُجرّد تحسين الظنّ بالله عزَّ وجلّ تُمحى السيئات كأنها غير موجودة.

فالذي بلغ مرتبة الإرشاد عند سيّدي حضرة الشيخ عبد الله طيّب الله تعالى روحه وذكره وثراه ما صار مُرشدًا، لكنه وصل إلى عتبة مرتبة الإرشاد، ولما يجاز باجازة الارشاد المستقل على منهج السادة المرشدين رضي الله تعالى عنهم وعنكم اجمعين في منح هذه الاجازة المباركة، والإعلان عنها.

ربّما يكون كثير من الناس في ميزان الله عزَّ وجلّ في مقام الإرشاد، بتقواهم وصدقهم مع مُربّيهم، ولكن هل يجب على المُرشد أنْ يُجيزَهم؟ هذا موضوع آخر، هذا موضوع يتعلّق بالمُرشدين، نحن لا نتدخل فيه، فهذه وظائف المُرشدين وليس لنا الحقّ في التدخّل بها، وقد كنت في كثير من الأمور أرى حضرة الشيخ عبد الله قُدِّس سرّه يتصرَّف فأسكت ما أتكلم، ولا أتجرّأ أنْ أقول شيئًا، فالأدب والتوقير واجب، وكَثْرَة السؤال ـ نعوذ بالله تعالى ـ مدعاة للفتنة وعدم الفهم، فالأمور الأساسية التي تحتاجها موضحة لك؛ وسيدنا الرسول عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه تركك على المحجّة البيضاء، فليس من المفروض أنْ تعرف معنى كلّ كلمة في القرآن الكريم؛ فهذا سيّدنا عمر رضي الله تعالى عنه قرأ قوله تعالى:

﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ [سورة عبس: ٣١].

فقال: ما معنى أَبًّا؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: ما هذا التكلّف يا عمر! أيجب أنْ تعرف معنى كلّ كلمة في القرآن الكريم؟

وهكذا لا يجب أنّ تعرف كلّ وظيفة من وظائف المُرشدين، وكلّ تصرّف من حضرة خاتم النبيين عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه أجمعين.

أعتقد جازما أنّه لا أحد من الصحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم تجرّأ فسأل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم ما معنى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ [سورة عبس: ١].

لا أحد تجرَّأ وقال: يا سيّدي يا رسول الله ما معنى قولك:

(إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي) الإمام البيهقي رحمه الله عزّ شأنه.

فهذا موضوع يتعلّق بحضرة النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، فهل يجب أنْ نعرف كلّ شيء؟

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [سورة المائدة: ١٠١].

مُلخص القول: هل تزكّت نفسه تزكية كاملة؟ الجوب: كلا.

مَنْ بلغ مرتبة الإرشاد، لا يغدو مُرشدًا فورًا؛ لأن إجازته لم تصدر بعد؛ فمثلًا: طالبٌ في المرحلة الأخيرة في الكلية، أكمل الامتحانات، وأستلم النتيجة فكان ناجحًا، هل يحق له أن يقول قد تخرجت من الكلية؟ كلا، فالطالب لا يُوصف بأنه خريج فعلًا إلا بعد اجتماع مجلس الكلية وصدور الأمر الجامعي بتخرج الدُفعة، ثم مُصادقة الوزارة على وثائق التخرج.

فإنْ كان عالم الظاهر هكذا، فكيف بعالم الخفاء والروح، هناك - إذا صحّ التعبير- تصفية وتنقية، نعم قد بلغ مرتبة الإرشاد، ولكن لم يغدو مُرشدًا بعد، فلم تصدر إجازته، وما وصلنا إلى التنقية النهائية، فهو الآن على أعتاب باب الإرشاد، دخل مرتبة الإرشاد، لكنّه ما صار مُرشدًا بعدُ، وهذا هو التوضيح الأوّل.

أما التوضيح الثاني: هو الآن ما صار مُرشدًا بالمعنى الشرعي الدّقيق المعروف والمتبع بأنّ المُرشد ذاك الذي صدرت إجازته[١]، وأُعلن عنها، وتكون بخط الشيخ المُجيز لكنه بغير الإجازة يبقى في دائرة ما قبل الإرشاد، وربّما من باب المَجاز أن نقول وصل إلى الإرشاد.

فلمّا سمِعَ من هنا وهناك، سبحان الله، نهضتْ عنده النفس، انظروا كم النفس خطيرة! نعوذ بالله تعالى؛ لذلك سيّد الخَلق صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه علّمنا أن ندعو فنقول:

(اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي وَمِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) الإمام الطبراني رحمه الله سبحانه.

(...وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا...) الإمام الطبراني رحمه الله جلّ وعلا.

---

[١] انظر: كتاب معالم الطريق في عمل الروح الاسلامي، لحضرة الشيخ الدكتور عبدالله مصطفى الهرشمي طيب الله تعالى روحه وذكره وثراه، ص: ٣٠٣-٣٠٤.

إن المُرشد يبقى في دائرة التكليف ما دام على قيد الحياة، وقد تقوم النفس أحيانًا، ابتلاءً، فهذا عمل ربّ العالمين، الله عزَّ وجلّ يبتلينا، تزكّتْ النفس وتطهّرت، ولكن ما غادرت الكيان الإنساني، والإسلام ما جاء لأجل تشويه صورة الإنسان وتغييره إلى مَلَك، كلا، بل يبقى إنسانًا بكلّ مُواصفاته، مُكلّفًا ليكون مُنتبهًا، مُجاهدًا:

(وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ) الإمام البيهقي رحمه الله جلّ في علاه.

النفس تتحرك، لكن المُرشد ينتبه، إنْ لم ينتبه بنفسه فسيأتيه ابنه ليُنبّهه أو زوجته وهكذا، فالله عزَّ وجلّ يُسخّر له، والحمد لله ربّ العالمين.

فأرجو أنْ نُصحّح المفاهيم، فالمُرشد ليس معصومًا، ليس مَلَكًا، المُرشد في دائرة الابتلاء، نعم الحمد لله تعالى، وتحدّثًا بنعمته ﷻ وعمّ نواله، فأنّ ما يَعرض له من الوسوسة بسيطة وقليلة، وغالبًا ما يكون فيها نوع من الخير، سبحان الله، لأنّه كما قال سيّدنا ابن عطاء الله السكندري رحمه الله جلّ وعلا:

"مَعْصِيَةٌ أَورَثَتْ ذُلاً وافْتِقاراً خَيرٌ مِنْ طاعَةٍ أوْرَثَتْ عِزّاً وَاسْتِكْباراً"[1]

هكذا قد يُريد الله عزّ شأنه، أنْ يُرقّي حال هذا العبد أكثر، فيجعله يتذلل أكثر، ينكسر أكثر، فتحدث له الهنّة والهنّات، حتّى يتذكّرها، ويندم عليها، ويتضرّع، ويستغفر؛ فربّما تتجمّع الطاعات وتكثر فيقول: لا أحتاج استغفارًا، فأنا ما شاء الله، طاعاتي وخيراتي كثيرة، عملي كثير، قد نذرت نفسي لخدمة أمّة سيّد المُرسلين عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه، لستُ مُطالبًا بأُكثر من هذا، فلا يُكلّف الله نفسًا إلّا وسعها.

قد تأتي النفس أحيانا لتُعيق المُرشد عن عمله فيخالفها، ليكون مثالًا لغيره كيف أنّه انتصر على نفسه، كيف استطاع أنْ يُجاهدها، ولم ينصاع إليها، علمًا بأن من بين كلّ مائة وسوسة قد ينصاع إلى وسوسة واحدة، وهذا قليلٌ، والقليل لا حكم له، وإنّ الحسنات يُذهبن السيّئات

[1] راجع الحكم العطائية، لابن عطاء الله السكندري رحمه الله تعالى، الحكمة رقم: ٩٦.

بالاستغفار والطاعات، وبرحمة ربّ الأرض والسماوات، فنسأله سبحانه أنْ يعمّنا برحمته وفضله، إنَّ ربنا سميعٌ مُجيب.

سؤال رقم (٤): جنابكم ذكرتم أن المُرشد الذي انتقل إلى دار التشريف لا يُكلّف، ولا عودة للإنسان إلى دار الدنيا، ولكن قد يعود إليها بمواصفات أخرى؛ كيف نفهم ذلك؟

الجواب: سؤال لطيف، يرُدّني إلى ذكرياتٍ مع سيّدي حضرة الشيخ عبد الله قدّس سرّه ورضي الله تعالى عنه، فأروي القصّة والخبر الذي سمعته من شفتيه الشريفتين المُباركتين رضي الله تعالى عنه، قال:

يا ولدي، في إحدى الليالي بينما كنتُ جالسًا في داري، ظهر لي جدّي سيّدي غياث الدّين قدّس الله تعالى سرّه العزيز، تجسّد لي بشكلٍ نورانيّ، ليس لحمًا ودمًا، بمعنى إنّه جسم لكنّه نور، ظهر على هيئة انسان يلبَس لباس الصحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم، ملابس بسيطة جميلة ليس فيها تكلّفٌ ـ وكنتُ حينئذٍ ـ وزيرًا، فقال لي: يا بني غدًا سيأتيك شاب من الشمال فاعتنِ به، واقضِ حاجته، ثم ذهب.

غدًا صباحًا ذهبت لمقر الوزارة فاستقبلني السكرتير فقلتُ له: أيّ شخص يأتي من الشّمال أدخله عليّ فورًا ولا تؤخّره، يقول: وبينما أنا جالس أنظر في البريد إذ أدخل عليّ السكرتير شابًا، فرحّبتُ به، وأجلسته بجانبي، وقلت له: ما حاجتك يا بُنيّ؟ قال: أنا من أسرة فقيرة، وكان جدّي رحمة الله تعالى عليه صديقًا لجدّك، وقد قَدّمتُ على التعيين بوظيفة مُؤذن في جامع في أربيل، فلم يُوافقوا لأني لا أملك شهادة، وأنا بحاجة ماسة لراتب الوظيفة.

ولأنّي رأيت الشاب مُؤهلًا للوظيفة ـ كيف لا وقد جاء سيّدنا غيّاث الدِّين من الدار الآخرة يتشفع له ـ فمباشرةً رفعتُ الهاتف على سعادة وزير الأوقاف رحمة الله تعالى عليه، فقلت له بعد التحية والسلام: يا سعادة الوزير، عندي شاب يُريد أنْ يتعيّن بصفة مُؤذن في محافظة أربيل، فأرجو أنْ تبحث له عن جامع هناك وتُعيّنه، قال: تأمر دكتور، دعه يأتيني، فقلتُ له: بل الآن تُصدر له أمرًا، ليأتي فيأخذ الأمر ويتوكّل على الله تعالى، قال: تأمر، ليأتِ يأخذ

الأمر، يقول: فقمتُ مع الشاب، وأكرمته، وقلت له: اذهب يا بُني، وهذه أجرة السيارة، وهذه إكراميّة ـ نقود ـ ترجع بها إلى أربيل، وهذه نقود أخرى تنفقها في حاجتك وحاجة أهلك، وأنا أشكرك، وعندما تحتاج لأيِّ شيء تعال إليّ، وإذا ذهبت إلى وزارة الأوقاف ولم يُعطوك كتاب تعيينك فعُد إليّ مرة أخرى، فذهب ولم يعد، ويبدو أنّه أخذ الكتاب والحمد لله رب العالمين.

العودة إلى الحياة الدنيا لا تصح بالصفة البشرية، أيْ أنْ يُعود مُكلّفًا، يحتاج إلى طعام وشراب، فهذا ممنوع، لقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [سورة المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

فلا رجوع إلى الدنيا بوصف التكليف: ﴿أَعْمَلُ صَالِحًا﴾، يعني تُوجد واجبات ومُجاهدة؛ لذلك أرجو دائمًا أنّ نفهم النصّ الشرعيّ، نفهم مُتعلّق وعمق وظلال وإشارات النصّ الشرعيّ، ينبغي أن نفهم من النص عبارته وإشارته ودلالته ومُقتضاه، لابُدَّ أنْ نفهم هذا العمق كلّه، فلماذا قال: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾؟ كي يتدارك ما فاته من واجبات؛﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا﴾، لكن التكليف انتهى، فكيف ترجع وتعمل مرّة أخرى؟ كلا لا يُوجد تكليف، لا رجوع بهيئة إنسان مُهيّئ لمرحلة الحياة الدنيا، ولكن ترجِع روحًا، تنظر إلى الدنيا، وربّما تتصرّف فيها أيضًا، فهذا موجود وثابت، ربما ترجع لتدخل في منامي فترشدني، واقرأوا كتاب "الروح" للشيخ ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى، وانظروا الشواهد الكثيرة على عودة الإنسان إلى الحياة الدنيا بطبيعة غير الطبيعة البشرية المعتادة، واقرأوا في القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا

فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ* فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة البقرة: ٧٢-٧٣].

هنا عاد مُعجزةً لنبي عليه الصلاة والسلام، فمُمكن إن الله تبارك وتعالى يُرجعه مُعجزةً، يُرجعه تذكرة للإنسانية أجمع: أيها الناس انتبهوا فهناك بعث بعد الموت: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٩].

هذه الآيات المُباركات وغيرها ستُعطيكم الجواب وتُبين بأنّ الإنسان يُمكن أنْ يعود إلى الحياة الدنيا، ولكن يعود من باب الإعجاز، كما رجع صاحب القرية: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾، والمقصود هنا سيّدنا عزير عليه السلام، وهو نبيّ من أنبياء بني إسرائيل على قول أكثر المُفسرين رضي الله تعالى عنهم.

سيّدنا النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم في ليلة الإسراء والمعراج مرَّ بالكثيب الأحمر، ورأى سيّدنا موسى عليه السلام قائمًا يُصلّي في قبره، فقال:

(... لَوْ كُنْتُ ثَمَّ لَأَرَيْتُكُمْ قَبْرَهُ إِلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ تَحْتَ الْكَثِيبِ الْأَحْمَرِ...) الإمام البخاري رحمه الباري جلّ جلاله.

يعني: لو تُوجد فرصة سانحة لدللتكم على المكان الذي كان يُصلي فيه، فالقبر أوّل منزل من منازل الآخرة، وآخر منزل من منازل الدنيا.

إذن يُوجد تقارب في القبر بين الدنيا والآخرة، وقيامه عند الكثيب الأحمر هو مكان من الدنيا، فهل المُراد به داخل القبر أم فوق القبر؟ انظروا أدب الصحابة رضي الله تعالى عنهم لم يسألوا النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، ولكن الأمر يحتمل الوجهين.

إذن لا مانع ـ من الناحية الشرعيّة ـ من عودة الإنسان بعد انتقاله إلى الدار الآخرة لكن ليس بالصفة البشرية التي كانت في مرحلة الحياة الدنيا، بل بصفة روحانية، صفة شفافة، صفة قوى مُؤثرة، فلربّما تَحسّ بأنَّ روحًا فذّة فاعلة أثّرتْ عليك وأنت نائم فأيقظتك من النوم، وقد حدث هذا لي فعلًا عندما كنتُ في عُمُر (١٥ أو ١٦) سنة، في بداية التكليف، فأكثر من مرّة أحسّ وأنا نائم بأنّ شخصًا يُوقظني، يتهيأ لي أنّه والدي رحمه الله تعالى، فأسأل والدي فيضحك، ويقول: لا ما أيقظتك.

ومرّة أحسسْت أنّ جدّي الشيخ عارف أيقظني لصلاة التهجّد، فقمتُ وأنا أنظر له، فقلت لوالدي: جدّي هكذا أوصافه، ملامح وجهه ولحيته الشريفة وطوله وابتسامته؟ قال: سبحان الله، بالضبط، تصفه كأنّك تراه، وأنا ما رأيت جدّي الشيخ عارف رحمة الله تعالى عليه في الحقيقة، لأنّه تُوفِّي قبل ولادتي، بل لم أرَ حتّى صورته؛ لعدم وجود الكاميرات حينئذٍ، ولكن عندما وصفته لوالدي قال: يا ولدي، تصفه كأنَّك عِشْتَ معه.

سؤال رقم (٥): تفضلتم بأن المُرشد في الجنّة، فهل يحق لنا ان نقول ذلك؟

الجواب: نبرأ إلى الله تبارك اسمه أنْ نأتي بشيء لا دليل عليه، ولكي يكون الجواب واضحًا نسأل: ما المُؤمن؟ أي المُصدّق، المُصدّق بماذا؟ هل التصديق بما في عالم الشهادة؟ كلا فهذا سهل، ولكنّه المُصدّق بما في عالم الغيب، وقد ذكر الله جلّ وعلا صفات المُتقين، في ثاني سورة من سور القرآن الكريم، سورة البقرة:

﴿الم* ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ *الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾[سورة البقرة: ١-٣].

فذكر الصفة الأولى: يُؤمنون بالغيب، فالإيمان بالغيب من صفات المُتقين، وركن الغيب: أنْ تُؤمن بكلّ ما يُخبر به ربّ العالمين جلّ جلاله، من الأمور السمعية، فمثلًا حينما تقرأ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾[سورة الكهف: ١٠٧].

عليك أنْ تُؤمن وتعتقد بأنّ المُؤمن يدخل الجنّة، يجب أنْ تعتقد هذا الاعتقاد، وأنّ الله تبارك في علاه، لا يُخلف الميعاد، كما ينبغي أنْ تُحسن الظنّ بالله عزّ شأنه.

﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[سورة الصافات: ٨٧].

وفي الحديث القُدسي الشريف:

(أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ) الإمام أحمد رحمه الفرد الصمد جلّ وعلا.

في هذه الظلال نهتدي ونسير، ولكن المحذور أنْ تأتي وتَجزم، فتقول: فلانٌ في الجنّة، فلانٌ لا يدخل الجنّة، فهذا ممنوع شرعًا؛ لأنّه من التألّي على الله عزَّ وجلّ، وفي الحديث الشريف:

(أَنَّ رَجُلاً قَالَ وَاللَّهِ لاَ يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلاَنٍ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ ذَا الَّذِى يَتَأَلَّى عَلَىَّ أَنْ لاَ أَغْفِرَ لِفُلاَنٍ، فَإِنِّى قَدْ غَفَرْتُ لِفُلاَنٍ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ) الإمام مسلم رحمه المنعم عزّ وجل.

لنا الحق من باب الإيمان واليقين بوعد ربِّ العالمين جلّ جلاله أن نشهد للمُرشد بالجنة بعد أن رأينا وشهدنا مُجاهدته وخدمته لأمّة سيّدنا محمّد عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه؛ وقد جاء في السُنّة المُشرفة أن شهادة الناس للميت بالخير والصلاح تكون سببًا وعلامةً على أنه من أهل الجنّة، فقولهم: الخَلق أقلام الحقّ، يُصدقه الحديث الشريف:

(مَرُّوا بِجَنَازَةٍ فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا خَيْرًا فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَجَبَتْ، ثُمَّ مَرُّوا بِأُخْرَى فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا شَرًّا، فَقَالَ: وَجَبَتْ... أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ) الإمام البخاري رحمه الله جلّت قدرته.

ففي هذا المجال يصحّ أنْ نقول: نحن حسنًّا ظنّنا بالعظيم جلَّ جلاله، وصدقنا بوعد ربّ العالمين أنّ سيّدي حضرة الشيخ عبد الله طيّب الله تعالى روحه وذكره وثراه من أهل الجنّة، وكلامنا من باب تحسين الظنّ بالله تبارك في علاه، من باب الشهادة لما رأينا وما شاهدنا، فحضرة الشيخ عبد الله لم يعِشْ قبل (٢٠٠) سنة، وتروي الكتب وأهل السير صورًا من حياته، كلا، فلقد شاهدناها أمامنا، رأينا الصدق والوفاء والحرص والغَيْرَة، رأينا الحزن على هذه الأمّة، رأينا أشكالًا وأنواعًا من الخيرات والبركات، وأنّ الله عزَّ وجلّ لا يُخلِف الميعاد.

نحن نُؤمن ونعتقد بأنّ ربَّ العزة سبحانه، يُكرِم سيّدنا حضرة الشيخ عبد الله قُدِّس سرّه، ويجعله في جنّات النعيم، في مقام كريم، في مقعد صدقٍ عند ربّ العالمين عزّ شأنه، هذا إيماننا بوعد الله تبارك اسمه، وصدق خبرِ الله عزَّ وجلّ، وهذا حُسنُ ظنّنا بالله جلّ في علاه، ولا نتألّى على الله عزَّ وجلّ، فالتألّي ممنوع شرعًا، أما إحسان الظنّ فمندوب، والإيمان بالغيب وما أخبر الله عزَّ وجلّ به من أمور مُستقبلية حقٌ ومطلوبٌ، والله سبحانه أعلم.

ملحق رقم (٢)

الخطة العملية

ينبغي أن تكون لنا خطة عملية في إحياء وتجديد دّين خير البرية سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم، وقبل البدء بذلك نحتاج إلى فحص النيّة، فتحقيق النيّة في القلب أساس الانطلاق لله تعالى الخلّاق، فأوصي نفسي والجميع بالعودة إلى قلوبنا التي تُجسد صدق نوايانا لله ﷻ: **"اللهمّ أنت مطلوبي، ورضاك مقصودي"**

قال الله تعالى: ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ . . .﴾ [سورة الأحزاب: من الآية ٨].

محاور وهدايات الخطة العملية:

أوّلًا: إنَّ غايتنا العظمى هي رضوان الله سبحانه، فلا نعمل عملًا، ولا نقول قولًا، ولا نتوجّه توجّهًا، ولا نخطو خطوةً، إلّا ونُحن نُريد وجه الله تقدسّت أسماؤه، ونبتغي رضوانه جلَّ جلاله وعمَّ نواله.

ثانيًا: لا شيء عندنا مستور وغير مُعلن، فهدفنا الواضح البيّن هو الاجتهاد في إخراج أنفسنا والنّاس من الظلمات إلى النّور بإذن الله جلَّت قدرته الودود الغفور، والظلمات التي يُمكن أنْ نراها في طريقنا، إمّا أنْ تتعلّق بالعقيدة أو تتعلّق بالسلوك، وأعني بالسلوك الجانب العملي في الحياة، وأنواع الظلمات هي:

١ـ ظلمات الاعتقاد: وهي ظلمة الكفر والشرك، نعوذ بالله تبارك وتعالى، فإذا رأيت أيّها الداعي إنسانًا يُنكر وجود الله تقدسّت ذاته أو يعتقد بوجود آلهة ـ أي مُشرك ـ فهو في ظلمة الكفر والإلحاد أو في ظلمة الشرك، فينبغي عليك أنْ تجتهد لإخراجه من تلك الظلمات إلى نور الإيمان وتوحيد الرحمن جلّت صفاته.

كلّ فقرة ممّا سأذكر تحتها معلومات كثيرة، ووسائل كثيرة، فمثلًا كيف تُقْنِع الكافر بوجود الخالق جلَّ وعلا، وأرجو أنْ ننتبه إلى ضرورة تحديد مَنْ هو الكافر، ومَنْ هو المشرك، ثمّ بعد ذلك نعمل على إخراجه من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمات الشرك إلى نور توحيد الرحمن عزَّ شأنَّه، فليس كلّ مَنْ تسمع منه قولًا تستطيع أنْ تحكم عليه بأنَّه كافر أو مُشرك، لقد رأينا في الساحة أناسًا طغوا وتجبّروا، وتجاوزوا الحدود بسبب سوء فهمهم لمبادئ هذا التحديد.

٢ـ ظلمات السيئات: قد تجد إنسانًا مُؤمنًا بالله مُوحّدًا له ﷻ، قد تخلص من ظلمات الكفر والشرك، وصار في نور الإيمان، وتوحيد الرحمن جلّ جلاله، ولكنَّه مُقصّر في الطاعات، وهي بمفهومها العام: كلّ حركة نافعة أُريد بها وجه الله جلّ وعلا، فهي من الصالحات، وكلّ حركة خالف فيها الإنسان ربّ الأرض والسماوات فهي من السيئات.

صورة النوع الثاني من الظلمات: إنسان مُؤمن لكنَّه مُقصّر، قد لا يُصلّي، وقد يُصلّي ولا يُزكّي، قد يُصلّي ويُزكّي لكنّه لا يُؤدي فريضة الحجّ، هذه بالنسبة للفرائض التعبّدية المحضة، وقد يُصلّي ويصوم ويحجّ لكن عنده قصور كبير في الأخلاق، عنده قصور كبير في فهم أنَّ عقوق الوالدين من الكبائر أو إنَّ التقصير في حقّ الزوجة ظلم، نعوذ بالله تبارك اسمه.

٣ـ ظلمات الإضاعة والتبذير: قد نجده مُؤمنًا تجاوز ظلمات الكفر والشرك، وظلمات السيئات، ولا أقول أصبح معصومًا، لكن حسناته أكثر من سيئاته، وطاعاته ظاهرة بيّنة، والحمد لله عزّ شأنه، ولكن مع الأسف عنده تقصير في إدارة شؤونه الحياتية الدنيوية، وهو في ظلمات الإضاعة والتبذير، أتته أموال فبذّرها، وما أحسن التصرّف بها، جاءت إليه وظيفة ممتازة من خلالها يُمكن أنْ ينفع ويخترق دون أنْ يحترق، لكنه أضاع تلك الوظيفة، وفوّت تلك الفرصة، لا يُحسن التدبير، فكيف نُخرجه من ظلمات الإضاعة والتبذير إلى نور الحفظ والتدبير، فالله عزَّ وجلّ يُريد للعبد أنْ ينحو نحو الكمال في كلّ جوانبه، باعتقاده، في

صلته بربّه سبحانه، في صلته بمجتمعه، في فقهه للحياة، وما تتطلبها هذه الحياة من وسائل الخير والارتقاء.

إذن هدفنا واضح مُعلن، وهو اخراج الناس من الظلمات إلى النور، ولنضرب مثلًا من واقع حياتنا المُعاصرة: عبدٌ من عباد الله جلّ وعلا، نذر نفسه داعية إليه سبحانه، أُتُّهِمَ بأنّه أنشأ حزبًا يعمل على تقويض النظام السياسي في بلده واعتُقِل بهذه التهمة ـ المراد بالحزب: الجماعة، فالجماعة من الناحية اللغوية تسمّى حزبًا ـ فالضابط يُحقّق معه في دائرة الأمن، ولأنَّ الضابط ألحَّ عليه، أجاب هذا العبد قائلًا: لا بأس، أنا أعترف، ولكن أرجو أن ترفع العِصابة من عيني كي أرى النور قليلًا، وأتكلم مع جنابك، قال الضابط: هل تعترف؟ قال: نعم أعترف، فرفعوا العصابة عن عينيه، وبدأ الضابط يسأله، هل عندك حزب؟ قال: نعم، قال: مَنْ تدعو لهذا الحزب؟

فأراد الداعية أنْ ينزل إلى مستوى المُحقّق، ويُعطيه الإحساس بأنَّه صادق، وبأنَّه لا يُريد بدعوته شيئًا من متاع الحياة الدنيا.

مَنْ تدعو؟ قال: كلّ العباد، أيّ شخص أراه أدعوه إلى حزبي، قال كيف؟ ألا تخاف أنْ يُخْبر عنك؟ قال: كلا، لماذا أخاف؟ بل أنا الآن أدعوك للانضمام إلى حزبي، فقال الضابط: عجيب، ألستَ خائفًا؟ أنا في دائرة الأمن، تحت الأضواء، في ظلّ هذه المُؤسسة الأمنية الدقيقة التي ترتبط مُباشرة برئيس الدولة، وتطلب مني أن أنظم إلى حزبك!

فقال الداعية: أقول لك هذا من باب المُلاطفة فليس في المسألة حزبٌ أو تنظيم، فبدأ الضابط يستوعب ما يقول هذا العبد ـ هذه من الحكمة في الدعوة ـ قال: إنها محبّة في الله تعالى، وتوجّهٌ إليه سبحانه، تجمعنا هذه الروابط، فنعتقد أنَّ كلّ إنسان هو مادة للدعوة، نُشفق عليه وندعوه للتوبة والإنابة إلى ربه تعالى؛ تأثّر الضابط كثيرًا، وقال: سبحان الله العظيم، والله يا أخي لو أن كلّ شخص يأتينا بهذه الروحية، وبهذا التوجّه، ما كنّا لنسجن أحدًا، ولا كنّا لنتعب ونركض ليل نهار، خائفين على أمن الدولة، فهناك أناس عندما نتكلم معهم يبدئون بالتهجم علينا: أنتم ظلمة، كفرة.

أما هذا الداعي فقال للضابط: هنيئًا لك منصبك، دولتك، راتبك، لكن اسمع لقول الله جلّ في علاه: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [سورة الانفطار: ٦ - ٨].

هل فكّرت بيوم رحيلك عن الدنيا؟ هل تنفعك هذه الرُتب التي على كتفيك؟ فبكى الضابط وأطلق سراحه، وعقد صلة حسنة معه، وسار على هذه الصلة سيرًا طيّبًا مُباركًا، وكانت هذه الحادثة بابًا لكثير من اليُسر في مجال الدعوة إلى الله جلّ شأنه في حياة ذلك الداعي إلى الله تبارك في علاه، وصدق الله العظيم القائل جلَّ جلاله وعمَّ نواله: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل: ١٢٥].

هذه صورة من صور الحكمة في حياة الدعاة إلى الله جلّت صفاته، وهذه صورة من صور حياة الدعاة في العصر الحديث، هذه الحادثة في الثمانينات، وليست في القرون الماضية أو في خير القرون كما وصفها سيّد الخَلق صلّى الله تعالى وسلّم عليه واله وصحبه.

قد يعتقد بعض الناس بأنه لا يُوجد هكذا دعاة إلى الله عزَّ وجلَّ الآن، كلا، فالحمد لله تعالى لهم وجود، وأسأل الله جلّ جلاله ألا يُخلي الدنيا منهم، فكما يقول أهل الفطر السليمة، لو خُلِيَتْ قُلِبَتْ، وهذه المقولة اصلها نصوص شرعية، منها قول سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه واله وصحبه وسلم: (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ: اللهُ اللهُ) [الامام مسلم رحمه الله تعالى].

إذن: هذه أهدافنا، ليس عندنا شيء مستور، هذا هو الهدف الواضح البيّن: إخراج النّاس من الظلمات إلى النّور، أخبرتكم هذه القصّة؛ لأجل هذا الهدف وبيانه، هذا هو تعريف الدعوة

عندي، والداعي ذاك الذي يُخرج النّاس من الظلمات إلى النّور بإذن ربهم سبحانه، طبعًا إذا خرجوا من الظلمات إلى النّور فسيهتدون إلى صراط العزيز الحميد، قال الله تعالى:

﴿الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[سورة سيّدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ١].

ينبغي أن ننتبه إلى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾، أيّها الداعي أنت رباني، أنت مُتوكّل على الله سبحانه،

منهجك من الله عزَّ وجلَّ، وزادك من الله تبارك اسمه، وهاديك ورسولك سيّدنا محمَّد عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه أهل المجد، وجهتك أنْ تخرج النّاس من الظلمات إلى النّور، وتقودهم إلى صراط العزيز الحميد، الآية فيها هدايات، فيها بركات، وفيها حجج واضحات بيّنات، ينبغي على الدعاة أنْ ينظروا إليها ببصيرتهم قبل النظر إليها ببصرهم.

إذن: الخطة العملية أنّك تنحو نحو رضوان الله تبارك وتعالى، تُحاول أنْ تُخرج النّاس من الظلمات إلى النّور بإذن ربّهم جلَّت قدرته، والوسائل كثيرة، وتختلف من ظلمة إلى ظلمة، ومن زمان إلى زمان، ومن دولة إلى دولة، ولكن كلّها تعود إلى أصل واحد، وهو الاعتصام بالكتاب الكريم والسُنّة النبوية المُطهّرة، فبالاعتصام بالكتاب والسُنّة نكون قد حصلنا على الباقيات الصالحات، وتوجّهنا إلى مرضاة ربّ الأرض والسماوات عزّ شأنه، ومُجافاة الكتاب والسُنّة، نعوذ بالله تبارك وتعالى منبع كلّ المُوبقات، ومن هنا ينبغي الارتباط بالقرآن العظيم، لا أقول حفظًا فقط، فبعض النّاس جزاهم الله تعالى خيرًا، بعض المدارس في حياة المسلمين، بعض مراكز تحفيظ القرآن الكريم يُولون عناية كبيرة بحفظ القرآن الكريم، أقول: هذا توجّه مبارك، ولكن الداعي لا يكتفي بهذا فقط، بل يُقدّم عليه حفظ القرآن الكريم من حيث التطبيق، يعني حفظ القرآن الكريم ليس بحفظ الآيات عن ظهر قلب فقط، وإن كانت علامة عظيمة من علامات الفوز ـ طبعًا إنْ كان هذا الحفظ لوجه الله تبارك وتعالى ـ فمفهوم الحفظ عندي مفهوم قول النبيّ عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه الطيبين:

(احفَظِ اللهَ يحفَظْك) الإمام الترمذي رحمه الله جلّ وعلا.

افهم من هذا الحديث الشريف أن الحفظ المقصود والمطلوب هو حفظ الحدود وأداء الحقوق وتطبيق الشريعة بشمولية وصدق؛ فمثلا أحفظ كلمات قوله تعالى جلّت صفاته:

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [سورة النساء: ١٩].

ثمّ أدخل داري وأنا جبّار عنيد، نعوذ بالله تعالى، لا يستطيع أحد أنْ يتكلّم معي، كلا، وإنّما حفظ القرآن الكريم تطبيقه باعتقاد مُنبثق من ينبوع المحبة لله تبارك وتعالى، والمحبّة لسيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم.

أيّها الدعاة إلى الله عزّ وجلّ انتقلوا بأرواحكم إلى زمان حبيبكم سيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه ومَنْ والاه، الآن انظروا إليه بأبي وأمّي ونفسي وروحي هو، انظروا إليه يتجوّل في مضارب النّاس، ماذا يحمل؟ هل يحمل بيده رسالات الماجستير وأطاريح الدكتوراه؟ ماذا يعرض على النّاس؟ لا يعرض عليهم سوى الآيات والسور المُباركات التي كانت قد نزلت في الشهور الأولى من الإعلان عن نبوّته.

سيّدنا أبو بكر رضي الله سبحانه عنه عندما أخرج كثيرًا من أصدقائه من ظلمات الكفر والشرك إلى نور الإيمان، ماذا كان عنده؟ عنده الآيات الخمس الأولى نزولًا، لكنَّ هذه الآيات الخمس تنبثق من قلب مُتوجّه، صادق، مُخلص، يُريد الخير للنّاس، فالقلوب تستوعب هذه الآيات الخمس، وهي قصيرة جدًّا ، فالكثرة ليست غاية إنما المُراد هو العمق الروحي.

نحن دعاة إلى الله ـ نسأل الله سبحانه أنْ يجعلنا دعاة إليه- تقدسّت أسماؤه، نُحسن الظنّ به سبحانه بأنْ يرحمنا ويقبلنا في صفوف الداعين إليه، لأنَّ هذا شرف ما بعده شرف، كيف لا وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ [سورة سيّدنا يونس عليه السلام: ٢٥].

الله يدعو، وأنت أيّها العبد المسكين الضعيف تدعو، هذا شرفٌ ما بعده شرف، وهذا موكب الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والتسليم، وعلى هامتهم وفوق رؤوسهم سيّد المُرسلين عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه الطيبين، ماذا يعملون؟ يدعون إلى الله عزَّ وجلَّ:

﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [سورة النساء: ١٦٥].

فليعلم الناس؛ فهذا هو منهجنا الواضح، فيه غنى وبركة؛ لأجل أنْ تسير وأنت معروف، يعرفون بأنك رجل داعٍ إلى الله عزَّ وجلَّ، ماضٍ بطريق تبتغي فيها رضوان الله جلّ في علاه، يُريد أنْ يُعين النّاس على أنْ يتغلبوا على الظلمات، يُريد أنْ يرفعهم من الإثقال إلى الأرض وشهواتها ونزواتها وباطلها وشُبهاتها، يُريد لهم أنْ يطيروا في سماء الصفاء والنقاء، والتوجّه لربّ الأرض والسماء سبحانه، يُريد أنْ ينتشلهم من ظلمات الحقد والحسد والغيبة والنميمة إلى آفاق الطيبة والرحمة والمودّة والألفة والمحبّة والإيثار، قال الله جلّ ذكره:

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [سورة الحشر: ٩].

ما شاء الله جلّ وعلا، في هذا الوقت يُوجد هكذا شيء؟ في هذا الوقت الذي رأينا فيه هذا وذاك، وهؤلاء وأولئك الراكضين خلف لعاعة الدنيا، عندهم مخالب أشدّ فتكًا وقوّةً من مخالب الطيور الجارحة، يجرحون النّاس، يسرقون أموالهم، فهل يُوجد مثل ذلك العبد الداعي؟ نعم يُوجد، جرّب، جرّب وانظر، تذوّق، إذا كانوا مُنصفين فليتذوّقوا، فليس لدينا عداء، بل حتى الذين وصفناهم بأنهم يمتلكون مخالب الجوارح لا نُعاديهم، وإنّما نودّ لهم أنْ يخرجوا من الظلمات إلى النّور، وأنْ يهتدوا إلى صراط العزيز الحميد جلَّ جلاله وعمَّ نواله.

هذا وَصفك الذي ينبغي أنْ يُعرف عنك، وأنْ تكون مشهورًا به، لا في أقوالك فقط بل في سلوكك أيضًا، فالأقوال لا تُغني إذا لم يردفها سلوك، ولهذا اخترت حياة الرسول صلوات ربّي وسلامه عليه وآله وصحبه قبل النّبوة؛ لنُؤكّد على الجانب العملي للرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، فلو أنَّه جاء إليهم بهذه الآيات الخمس، وحاشاه، حاشاه، وقد سبقت سنوات من حياته وليس له علاقة بهذا الكلام، فمَنْ كان يُصدّق؟ كلا، فحتّى زوجته ما كانت تُصدّق، لكن حياته كانت ناصعة واضحة بيّنة مهدت لحضرته القبول، ولهذا كان الظن بمُستقبله الشريف: كلّا والله، لنْ يُخزيك الله أبدًا.

هذا القسم ضروري أنْ تحفظوه، بأفعالكم وأعمالكم ومُجاهداتكم بصدق ومحبة وإخلاص، وفي ظلال روحانية المُربّي رضي الله تعالى عنه تسيرون إلى الله سبحانه، فروحانيته مُستمدة من بركات وروحانية الحبيب عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه أجمعين، لا شكّ في ذلك، وهذا الذي نُؤمن به، ونعتقده، والحمد لله ربّ العالمين.

أما القسم الثاني، فهي نقاط أو محطّات أو معالم خمسة، وهي:

أولا: الفرد.

ثانيا: الأسرة.

ثالثا: المساجد.

رابعا: البلد، وأعني به المكان الذي تُقيم فيه.

خامسا: الأرض بمن عليها.

إن الاعتصام بالكتاب العظيم والسُنّة النبويّة المُطهّرة مُولد كلّ الخيرات والبركات في هذه النقاط الخمسة، ومُجافاة الكتاب والسُنّة تُولد كلّ المُوبقات والخُروقات، نعوذ بالله جلّ في علاه، التي يُمكن أنْ تُؤذي هذه المحطات الخمسة التي تستوعب العالمين، ورسالة الإسلام جاءت للعالمين، فلقد تشرفنا بالآية الكريمة آنفًا، قال جلَّت قدرته:

﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [سورة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ١].

رسالة الإسلام عامّة، ورسالة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام خاصّة، وهذا ما بيّنه الحبيب صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه أجمعين إذ قال: (كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً) الإمام البخاري رحمه الباري جلّ وعلا.

الفرد والأسرة: ذكرتُ الفرد والأسرة معًا لوجود التداخل بينهما، وإن كان الترابط بين المحطات الخمس قائمًا، لكنه بين الفرد والأسرة أكثر وضوحًا وقوة.

والفرد إمّا أنْ يكون طفلًا صغيرًا أو أنْ يكون شابًّا مُميزًا، وإمّا أنْ يكون رجلاً بلغ الرُشد، لكنّه غير متزوّج، وإمّا أنْ يكون رجلًا بلغ الرُشد وهو مُتزوّج، فهذه كلّها صور للفرد تجدها أمامك، ربّما يكون مُتزوّجًا، لكن لا ذرية عنده، وربّما يكون متزوّجًا وله ذرية.

هذه الأنواع من الأفراد، كلّهم يدخلون تحت مُسمّى الفرد، فإن كان صغيرًا، فالكلام يُوجّه إلى الأبوين، وسيكون عندنا ارتباط بالنقطة الثانية وهي الأسرة.

ينبغي أنْ نفهم الإسلام فهمًا شاملًا، منظومة كاملة، لا يجوز أنْ تتحدّث عن الظلم، وتنسى الكلام عن الرحمة، لا يجوز أنْ تتكلّم عن أسماء الله الحسنى، وتأخذ اسم المُنتقم، الجبار، المُتكبر، نعوذ بالله جلّت قدرته، وبهذا الشكل تُصعّد منسوب إثارة النفوس لأجل التعطّش للانتقام والظلم إلى آخره، وحاشا لله تبارك وتعالى أنْ تكون هذه مدلولات أسمائه، لكن هكذا يفهمون، فالجبّار من أسماء الله الحسنى، مُشتق من الجبر، يعني هناك مكسورٌ وأنت تجبره.

ينبغي إذنْ أنْ نفهم الإسلام منظومة كاملة، فلا يجوز أنْ تأخذ وتنظر بعين واحدة، فلماذا خلق الله سبحانه لنا عينين؟ من حيث الواقع على الأقل لترى نصف دائرة القطر أمامك، يعني ترى الجهة اليسرى واليمنى، تراها أمامك بوضوح، هذا جواب من الناحية المادية، أما من الناحية الروحية الذوقية فالله عزَّ وجلَّ جعل لنا عينين حتّى نُبصر القطبين في هذه

الحياة الدنيا، قطب الحقّ والباطل، قطب النّور والظلمات، فالحياة ثُنائية، وينبغي أنْ نفهم هذه الثنائية، بعدها نستطيع أنْ نُوحّد ربّ البرية جلّ جلاله؛ لأنّ ربّنا جلّت قدرته قال:

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الذاريات: ٤٩].

لماذا؟ لعلّكم تذكرون بأنّ الخالق واحد، لو لم يكن واحدًا، فهذه الزوجية ما كانت مُتعاضدة، ما كان يُكمل بعضها بعضًا، ما كانت تُحرّك الحياة في مُراد الله تبارك اسمه، فلولا وجود الضلال، فإنّ أهل الحقّ لا يتحرّكون، أين يتحرّكون، وعلى مَنْ يتحرّكون؟ ولولا الحقّ لَمَا كان أهل الباطل يبرزون؛ لأنّهم سيبرزون في مُعاداة الحقّ، ولولا الذَّكَر ما كان هناك حاجة للأنثى، ولولا الأنثى ما كان هناك حاجة للذَّكَرِ، فهذه الزوجية جعلها الله تبارك وتعالى قانونًا كونيًّا، لماذا؟ لعلّكم تذكّرون: بأنَّه واحدٌ أحدٌ، مُنعمٌ فردٌ صمدٌ، ينبغي أنْ يُحَب حُبًّا يجعلك تفر إليه فرارًا، فلذلك جاءت بعدها قول ربّنا جلَّت صفاته:

﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [سورة الذاريات: ٥٠].

انظروا فليس هناك سريّة، حتّى نفهم فهمًا بيّنًا واضحًا، أعظم وضوحًا من الشمس في رابعة النهار، ينبغي أن تكون واضحًا، ما عندك خبايا أو أشياء تُخفيها عن النّاس؛ فكن واضحًا جليًّا حتّى إذا أخطأت فأنت بشر، قل إنّي أخطأت، ما فيها عيب، فالاعتراف بالخطأ فضيلة، قال صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم:

(كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الخَطَّائِيْنَ التَّوَّابُوْنَ) الإمام الترمذي رحمه الله عزّ وجلّ.

أثبت صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه أجمعين الخيرية للخطائين الذين يُبادرون بالتوبة، فنحن لا نحكم على النّاس بأنّهم أشرارٌ، جبابرة، بالفهم الذي يفهمه ـ مع الأسف ـ الذين يتكبّرون فيرفضون السير تحت راية ورّاث الحبيب صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله

وصحبه أهل الطيب، لأنّ النفس تمنعهم، سبحان الله، نعوذ بالله عزَّ شأنّه من شرورها، فمثلًا أحدهم يقول: كيف أتخذ مُربيا كان طالبًا عندي!

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [سورة النساء: ٥٤].

ينبغي أنْ نفهم الإسلام منظومة كاملة، فلذلك نحن لا نُؤلف كتبًا، إنّما نُؤلفُ رجالًا، فكل واحد منهم قُرآنٌ يمشي على الأرض، وهذا ليس مُمكنًا إنْ لم نفهم الإسلام فهمًا مُتكاملًا مُتعاضدًا، كمنظومة واحدة.

نحن نتحدث عن الفرد، لكن ربطنا الفرد بالأسرة، والفرد يربطنا بالمساجد، والمساجد تربطنا بالمكان والبلد الذي نُقيم به، وهذا يقودنا إلى أنْ نتوجه إلى كلّ النّاس على الأرض.

لاحظوا كيف أن الخيط النوراني يربط بين هذه المحطّات الخمس، أقول للأب بكلّ حنان واحترام وتقدير وإكرام، يا عزيزي، هذا ولدك أمانة بيديك، الآن هو على الفطرة السليمة، حاول أنْ تُحافظ على فطرته، وانظر كم ينبغي أنْ تُدقّق وتُفكّر وتفهم الفطرة، وانظروا يا آباء يا مَنْ عندكم أبناء لا يزالون تحت سنّ التمييز فهؤلاء كلّهم لا زالوا على نقاء الفطرة، فحاول وجاهد نفسك أنْ تُحافظ على نقائه، كيف؟ بالمحافظة عليه، لا تضربه عندما تراه نظر إلى الحرام، كلا، بل امسك بيده واخرج معه، تمشّى بالحدائق، وقف عند وردة، دعه يشمّها، هذه آية من آيات الله تعالى، دغدغ مشاعره، كذا ابنتك، قل لها: يا ابنتي انظري إلى الوردة، أنتِ مثل هذه الوردة، فكما أشمّ هذه الوردة أشمّكِ أنتِ، دع الرابطة، المودّة والمحبّة والأبوّة تقوى في البيت، هذه وسيلة من وسائل المحافظة على الفطرة، خذه إلى مكان فيه رائحة كريهة، وقل له: هذه رائحة غير طيّبة، انظر بُني كم تأذّينا، نُحاول أنْ نبتعد، كذلك لا ننظر إلى ما حرّم الله سبحانه، حاول أنْ تُحافظ على فطرته، لأنّ هذا فرد مُستهدف بالتجديد، وفي هذا الزمان قلّما الآباء يقومون بهذه الوظيفة، أيّها الآباء، أيّتها الأمّهات، انتبهوا لوظيفتكم المهمة.

قد تكون الزوجة مُنشغلة بوظيفتها في الدائرة عن وظيفتها الأصلية في البيت، ولا أدري هل خروجها للعمل ضرورة أم لا، فإذا كان ثمة ضرورة فلا بأس، أما إذا كانت اتباعًا لثقافة معوجّة فقط فهذا انحراف عن الشرع الشريف، كما تقول كثير من النساء: هل أنا قطعة أثاث لأقعد بالبيت؟ قال ربّنا جلّ وعلا: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [سورة الأحزاب: ٣٣].

تخرج المرأة مُتعطرة مُتزينة، فهل هذا من الدِّين؟ تقول لك: أنا أصلّي والحمد لله، أنا أفضل من المُحجبات، سبحان الله، كيف فهمت الدِّين يا بنتي، يا أختي؟ تتحاور معهم بهذا الأسلوب، وليس قصدي بهذا الشكل بالضبط، إنّما أريد أنْ أبيّن بعض معايب وضلال وسوء فهم المجتمع لشرع الله عزَّ وجلَّ، ألم تقرأ بناتنا قول ربّنا سبحانه وتعالى:

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [سورة القصص: ٢٣].

اقرئي يا بنتي ويا أختي القصّة، فإذا لم تفهمي فحاولي أنْ تسمعيها من أهل العلم، انظري الاستنباطات، فالمرأة لا تخرج إلّا بعذر شرعي: (وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ)، أي نحن مُضطرون للخروج، لأنّ أبانا شيخ كبير، لا يقوى على المشي.

تخرجين للوظيفة مُتزينة، ولما ترجعين للبيت تنسين الزينة تمامًا؛ وهي من بعض هدايات حُسن التبعل للزوج، ثم تقولين أنا أفضل من كثير من المُحجبات، أنا أصوم وأصلّي، فهل الإسلام صيام وصلاة فقط؟

أيها الآباء، أيّتها الأمهات، انتبهوا للوظيفة الأساسية، فإذا رزقكم الله تقدّست أسماؤه الذرية، فالخطوة الأولى هي المحافظة على فطرة الأولاد، فمثلما تُحافظين على ابنكِ وبنتكِ من كلّ أذى جسدي كالأمراض والأوبئة، البَرْد والحَرّ، الجوع والعطش، الجهل؛ فعدم الذهاب

للمدرسة مرضٌ أيضًا، فنحن مُسلمون، وينبغي للطفل عندنا أن يقرأ، لأنَّ الله جلّ وعلا قال: ﴿اقْرَأْ﴾ [سورة العلق: ١].

هل وظيفتكِ مُتابعة كل ما هو جديد من الملابس والعطور لك ولأولادك؟ لا باس بهذا ان كان في حدود الاعتدال والوسطية، مع عدم نسيان الواجب الاساسي.

هناك أناس يقولون لك: نحن عملنا كلّ الذي قلته، وما تربى الأولاد مثلما نُريد، نقول: لا بأس عليكم إنْ شاء الله تعالى، فقد أدّيتم واجبكم، والله عزّ شأنه يقضي ما يشاء، وحتى تطمئنّ، فالله عزَّ وجلّ ذكر لنا قصصًا في القرآن الكريم، فهذا سيّدنا نوح عليه السلام، بقي (٩٥٠) سنة داعيًا إلى الله عزَّ وجلَّ، نبيّ مُرسل يُوحى إليه من الله جلّ جلاله، ولده مات كافرًا، يا الله، فهل سيّدنا نوح عليه السلام قصّر في تربية ولده؟ كلا، أبدًا، ولكن:

﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [سورة الأنفال: ٤٤].

لا يُوجد إجبار، فحتى النبيّ المُرسل ما أجبر ولده، قال ربّنا جلّ وعلا:

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن﴾ [سورة الكهف: ٢٩].

فقط قال له: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا﴾ [سورة سيّدنا هود عليه السلام: ٤٢].

دعاه، ولكن كم مرة دعاه؟ كان داعية للنّاس ليلًا ونهارًا، قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيلاً وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلاَّ فِرَارًا* وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ

وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً﴾ [سورة سيّدنا نوح عليه السلام: ٥ - ٩].

ثمّ فتح لهم أبواب رحمة الله عزَّ وجلَّ، فقال ربنا تعالى على لسان سيّدنا نوح عليه السلام:

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [سورة سيّدنا نوح عليه السلام: ١٠].

ثمّ أمنهم بمتع الحياة الدنيا، فقال ربّنا جلّ وعلا على لسان سيّدنا نوح عليه السلام:

﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [سورة نوح عليه السلام: ١٢،١١].

كل هذا الترغيب والتشويق، ولم يستجيبوا، فجاء دور الترهيب، قال الله تعالى على لسان سيّدنا نوح عليه السلام: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [سورة سيّدنا نوح عليه السلام: ١٣- ١٤].

إذنْ هذه وسائل الدعوة إلى الله سبحانه، فينبغي عليك أنْ تفهم الإسلام فهمًا كاملًا، نعم فهمًا كاملًا، لا يجوز أنْ تفهمه فهمًا منقوصًا -عياذًا بالله تبارك وتعالى- فالفرد إنْ كان صغيرًا تُحاول المحافظة على فطرته وتُنميها، وينبغي أنْ تجتهدوا أيّها الأحبّة، فالكليّة هنا أنَّ هذا الفرد الصغير إلى سنّ التمييز هو على الفطرة السليمة، قال ربّنا جلّت قدرته:

﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [سورة الروم: ٣٠].

فإذا حافظنا على الفطرة ينشأ مُوحّدًا مُؤمنًا بالله تعالى، مُحبًّا لله عزَّ وجلّ مُتوجّهًا إليه، لكن نحن في دار الأسباب، وجاءنا دِيْنٌ أتمّه الله عزَّ شأنه علينا، وكمّله وشرّفنا به، فينبغي أنْ نأخذ بالأسباب، أوّلًا بالمحافظة عليه، ثمَّ بعد ذلك شيئًا فشيئًا باستثماره، استثمار هذا الطيب، هذا التوحيد الفطري في الانسان، هذه الفطرة السليمة، استثمارها بأخذ كل وسائل الاستثمار.

نُوجه بضرورة العناية بالدعوة إلى الله جلّ في علاه، والجانب التطبيقي في حياة المسلم، ولا نوجّه كثيرًا في موضوع الدراسات والأبحاث، وقد يفهم بعض النّاس فهمًا غير سليم؛ فالمقصود ألّا نجعل هذه الدراسات هي الأساس لأجل أنْ ننطلق للدعوة إلى دّين سيّد السادات عليه أتمّ السلام وأفضل الصلوات وآله وصحبه ذوي الفضائل والمكرمات، وأعلم في هذا الزمان أنّ هذه الدراسات أصبحت سببًا من أسباب الرزق، لا بأس، الله تبارك اسمه يُعدّد أسباب الرزق، ولكنّ الذي أخشاه أنَّ بعض الناس يتلكؤون في مجال الدّعوة إلى الله عزَّ وجلّ، بدعوى أنَّه لا يحمل شهادة، وكأنَّ الشهادة لابُدَّ منها، وكأنَّها وقود الدعوة إلى الله عزَّ وجلّ، كلا، فهي من الأمور التي تُساعد؛ أما انشغالك بها عن الدعوة إلى الله تبارك وتعالى فأمر لا أحبّذه، إذ يكون سببًا لترك الأهم والأنفع، فمثلًا يقضي أحدهم خمسة أعوام من عمره كي يُحقق كتابًا، والنتيجة هي: أن النسخة الفلانية تُوجد فيها فارزة، وفي النسخة الفلانية الكلمة (فتثبّتوا)، كلا، هي: (فتبيّنوا)، وليست فتثبتوا... إلخ، من هذه الأمور التي غالبًا ما تُستخدم في تحقيق الكتب، كذا تراه يتحدّث (٤٠) صفحة عن شهادات ودراسات وإجازات وزمان المُؤلّف؛ وأنا في هذا العصر الذي يشبه العصر المكّي؛ لا أرى نفعًا كبيرًا في هذا التوجّه، بل أراه في بعض الأحيان مُثبّطًا ومُؤثّرًا على سير الدعوة إلى الله سبحانه، فعندنا الآن عدد هائل من حملة الدكتوراه في الشريعة، بحيث أنّ الطالب إذا أراد أنْ يجد عنوانًا جديدًا ليبحث في مضمونه فلا يجد ذلك بسهولة؛ لأنَّ الموضوع قد بُحِثَ وقُتل بحثًا.

نُريد للمسلم أن يفقه الواقع الذي هو فيه، فإذا كنت واقفًا على نهر أو ساقية، فما الخطوة التي ينبغي أنْ تخطوها، ينبغي إمّا أنْ تقفِزَ فوق الساقية، إذا كان عندك القوّة لتخطيها أو أنْ تنصب عليها شيئًا لتعبر عليه؛ وتصل إلى مُرادك، وإذا كان نهرًا كبيرًا فتحتاج إلى سفينة، أو وسائل أخرى لتُعينك على العبور.

لقد أكرَمنا الله عزَّ وجلّ بالإسلام، والحمد لله ربّ العالمين، فينبغي أنْ نعلم الموضع الذي نحن فيه؛ حتى نخطو الخطوة الصحيحة، فعندما قلتُ مثلًا أن سيّدنا أبا بكر رضي الله تعالى عنه ذهب إلى أصدقائه وهو يحمل خمسَ آيات، ما كان يحمل شهادة الدكتوراه؛ ولا يعني هذا التقليل من مرات حملة الشهادات أو التقليل من الشهادة نفسها، كلا، ولكن أريد أنْ أوصل رسالة إلى المُسلمين جميعًا ذكورًا وإناثًا، بأنّ الواجب عليهم هو الدعوة إلى الله تعالى، أنْ ينطِلقوا لإخراج النّاس الظلمات إلى النّور، بل إخراج أنفسهم من الظلمات إلى النّور، أنْ يُجاهدوا لينطلقوا، ولا يجعلوا هذه شروطًا للدعوة، فهل أحدنا لا يغدو داعية إلّا إذا كان حاملًا لشهادة الدكتوراه؟ كلا، إنْ كان حاملًا لشهادة الدكتوراه فهذا أفضل، ولكنّ لا يعني هذا أنّه لا يكون داعيًا إلى الله عزّ وجلّ، ولماذا أقول أفضل؟ حقيقةً أحاول أنْ أقتدي بسيّدي وقرّة عيني ومُرشدي، سيّدي حضرة الشيخ عبد الله طيّب الله تعالى روحه وذكره وثراه، فعندما كنت أدرس عند حضرته ـ كنت وقتئذٍ حاملًا لشهادة البكالوريوس، وعندي الإجازة العلمية ـ سألته: سيّدي، إذا تيسرت فرصة التقديم لنيل شهادة الماجستير، فبم تنصحني؟ قال: يا ولدي، أنت تقف على منبر سيّدنا النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، فلئن تقف وأنت تحمل شهادة ماجستير أفضل منْ حيث المكانة الاجتماعية؛ فالنّاس ينظرون إلى هذه الأمور، وهكذا لئن تقف على المنبر وأنتَ تحمل شهادة الدكتوراه أفضل من أنْ تقف على المنبر وأنت تحمل شهادة الماجستير.

شابٌ أعطاه الله سبحانه علمًا وفهمًا، عنده فقه في الدعوة إلى الله عزَّ وجلّ، إمكانية لنشر هذا الخير نشرًا عظيمًا، همة في مُتابعة السالكين والسالكات، يُوصِل لهم هذه الدُّرر والتوجيهات، يترك دعوته ويذهب لينشغل عنها بنيل درجة الماجستير أو الدكتوراه، فهل هذا من الحكمة؟ أيّهما أفضل له وللأمّة؟ الانشغال بالدراسة؟ أم السير بالدعوة إلى الله جلّ وعلا؟

الجواب: إن كان بالإمكان أنْ يجمع بين الحسنيين فليتوكل الله سبحانه، فما أجمل وأحلى وأكمل وأتمّ أنْ تجمع بين الحسنيين! أمّا إنْ رأيت أنَّ الدراسة تُعيقك وتُؤخرك ثلاث سنوات عن السير إلى الله تعالى، والدعوة إليه سبحانه، وإخراج النّاس من الظلمات إلى النّور في

وقتٍ مُناسبٍ لظرفك وحالك، فالجواب: كلا، انشغلْ بالدعوة إليه سبحانه، وستأتيك الشهادة إنْ شاء الله تعالى، إنْ لم تأتِك بصورتها فستأتيك بثوابها، طالما تبتغي رضوان الله تعالى.

فهذا تنبيه أرجو أن يُفْهم، أنَا لا أشجّع أحبابي على كثرة الانشغال بالأبحاث، التي لا يحتاجها النّاس، فمَنْ يقرأ الآن رأيَ الفلاسفة، والردّ عليهم، حتّى أوجّه ابني، وأقول له: اعمل دراسة في هذا المجال؟

إذن الفرد قد يكون في فترة الطفولة، (٧) سنين تقريبًا، سنّ التمييز، الحكماء يقولون: لَاعِبْهُ سبعًا، وربّ العالمين قال: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [سورة الكهف: ٤٦].

وفي آيةٍ: ﴿وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ [سورة السيّدة مريم عليها السلام: ٧٦].

الله تبارك وتعالى أثبت بأنّ المال والأولاد والذرية من زينة الحياة الدنيا، وأجمل زينة الأبناء في فترة الطفولة، فهذه الفترة تمتد سبع سنين تقريبًا، فنقول: لَاعِبْ وَلَدَك، ولكن لا تغفل أنْ تُوجّهه إلى بعض ما ينفعه في أمور دّينه ودنياه بحسب استيعابه.

نتبارك ونستهدي بالآية الكريمة، ونعلم بأنّ البنين هم من زينة الحياة الدنيا، وليسوا لعنة نعوذ بالله تبارك وتعالى، وليسوا مسؤولية سلبيّة، إنْ كنّا نتبّع هدي خير البرية صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، فدائمًا نتشرّف بهذه الآية، ونجعلها نصب أعيننا، نتغنّى بها، نعم، نتبارك ونتغنّى، نعيش حياة المودّة والمحبّة، مُتفاعلين مع كلام ربّنا جلّ جلاله، فالابن والبنت من زينة الحياة الدّنيا، ينبغي أنْ نلتفت إليهم، ونحرِصَ عليهم، لماذا؟ لأنّ الفطرة عندهم جلية سليمة واضحة، فمن المُحافظة على الأمانة أنْ نُحافظ على الفطرة قدر المستطاع، نحفظها من المُؤثرات الخارجية، ورُبّ سائل يسأل: ما الفطرة؟ ما أهميتها؟ الحقيقة أنا أفهم أنّ هذه الفطرة هي صورة من صور تجسيد العهد الذي أُخِذَ على بني آدم:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٧٢].

هذه الفطرة هي تجسيد لهذا العهد، فتنبغي المُحافظة عليه، وهنا نقطة مهمة جدًّا جدًّا، ينبغي أنْ ينتبه لها المُسلمون، هذه النقطة هي: قضيّة العهد، فمن البداية عندك عهد أيّها المُسلم، فينبغي عليك أنْ تُحافظ عليه، وتستثمره، وتُجدِّدَه كلّما رأيت أنَّك بحاجة إلى هذا التجديد، وبمعنى أدقّ: أنْ تُنمّيه.

أما أساليب التربية والتنمية فهنالك كثيرون ممن كتبوا في تربية الأولاد والأطفال، من المُعاصرين ومن السابقين رضي الله تعالى عنهم، ولكن لا نحتاج إلى فلسفة كثيرة جدًّا، وكتب ومُطوّلات ومُجلّدات في هذا المجال، إنّما ننساق مع الفطرة، فحبِّب إليك ولدك، فليس أنجح ولا أنجع من المحبّة في التأثر والتربية والاقتداء، أَشْعِرْهُ بأنَّك تُحبّه، وهذه محبّة فطرية، محبّة الآباء لأبنائهم، وارتباط الأبناء بآبائهم، ولكن تحتاج إلى مُداراة، تحتاج إلى استثمار، تحتاج إلى عِناية، فحاول أنْ تُحافِظ على هذه الفطرة، بما يُمكّنك ربّ العالمين جلّ ذكره، حاول أنْ تُحبّب إليه ما يستطيع فهمه من شعائر الدّين، فغالبًا يُصلي الآباء أمام أولادهم، فيأتي الطفل ليقف بجانب والديه، يُحاول أنْ يقتدي بهما، فعندما تراه بهذا الشكل ضُمَّه إلى صدرك، قبّله، أكرمه بقطعة حلويات، فالهديّة أسلوب تُشعر به ولدك بأنّك تُحبّه، وأنّك تعتَنِي به، ومِنْ ثَمَّ تدخل إلى زرع المبادئ والخُلق في المحلّ الخصب من فطرته، والفطرة كلّها خصبة، كلّها أرض طيّبة صالحة للزراعة، طالما أنها ما فسدت، وما انتكست، نعوذ بالله تبارك وتعالى.

هذا بالنسبة إلى القسم الأول في الفرد: وهم الأطفال إلى سنّ التمييز، بعد ذلك مُراقبة ما يُحِبّون، على الأقل من فرائض: (مُرُوا صِبْيَانَكُمْ بِالصَّلَاةِ فِي سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا فِي عَشْرٍ) الإمام البيهقي رحمه الله تعالى.

ثمّ تنتبه لموضوع خطير جدًّا وهو موضوع الاختلاط، لأنَّه بعدما يتكامل سنّ التمييز ستبدأ جذور الشهوة الجنسية تقوى في كيان الإنسان، وتبرُز شيئًا فشيئًا، فتكون على أشدّها حين يبلغ الطفل مبلغَ الرجال، وتبلغ الطفلة مبلغ النّساء؛ لذلك:

(وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ) الإمام الدار قطني رحمه الله تعالى.

فالانتباه هنا، وخاصّة في هذا العصر الذي ابتلينا به بالإنترنت، والقنوات الفضائية، إلى آخره، نسأل الله العافية، نحن نتحدّث عن التجديد، فلابُدَّ من الانتباه إلى الأصول، إنْ لم تُصحّح الأصل والأساس فسينهار البناء، نعوذ بالله تبارك وتعالى، وهذا كلام مُوجّه لكلّ الآباء والأمّهات، وأخصّ السالكين والسالكات.

إذنْ مع الطفل نسير، لا نتركه وحده، بعض الأعراف رُبَّما تُعِيق هذه المسيرة، فلابُدَّ أنْ نُجاهد لأجل أنْ نتغلّب على هذه الأعراف الفاسدة، والمُعوّقات الباطلة المُثبطة، التي تقف أمام الدعوة إلى الله سبحانه، أمام إخراج النّاس من الظلمات إلى النّور، فتُحبّب إليه القرآن الكريم، تُحبّب إليه سُنّة حضرة خاتم النبيين عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه أجمعين، تجعله شابًّا ـ نجعلها شابّة ـ له مقاصد سامِية عالية رفيعة في المجتمع، ما نتركهم عُرضة لمَنْ هبَّ ودبَّ، العمّ قال كذا، والخالة قالت كذا، والجدّة قالت كذا، والعمّة قالت كذا، لابُدَّ أنْ نُؤدّي مسؤوليتنا بتمامها وكمالها بإذن الله تبارك وتعالى، فهذه من أعظم صور الوفاء بعهدنا الذي عاهدنا به ربّنا جلّ وعلا، من خلال مُرشدينا ومُربّينا رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

الفرد هنا كُبَر، وبلغ مبلغَ الرِّجَال، وهنا تأتي الحاجة الفطرية للزواج، ولكن إذا لم تتخرّج البنت لا تتزوّج، وإذا ما تخرّج الولد وما توظّف لا يتزوّج، وهذه من الأعراف التي أفْسدتْ سيْر النّاس، فالطفل الآن عندما تظهر أسنانه نُعطيه الطعام بدل الحليب، ولكن نبْدأ نُعطيه الطعام المُلائم لهذه المرحلة، فخروج الأسنان إشارة إلى أنَّ الحالة الجسمانية تغيّرت، الحاجة لابُدَّ أنْ تَتغيَّر، الغذاء ينبغي أنْ يتغير، وإلّا ما ينشأ نشأة سوية، رأيت في حياتي ولدًا يرضع من أمّه وهو في سنّ الخامسة، فقلت لها: أنتِ تقتلين هذا الولد، قالت: هو يُريد، وأنا حنونة، فقلتُ لها: هذا ليس حنانًا، وفعلًا ما نشأ الولد نشأة سوية، فقد أخطأت الأمّ بحَقّه؛ لأنَّ

الحنان خَرَج عن الميزان، خرج عن الوسطية، فعندما يبلغ ولدك مبلغ الرجال وكان هناك مجال لتزويجه زوِّجه، دعه يتعلّم غضّ البصر، دعه يتعلّم حِفْظَ الفرج، دعه يتعلّم حفظ النفس، دعه يتعلّم أنْ يتوجّه إلى الله تبارك اسمه، دعه يتحمّل المسؤولية، إلى متى نبقى نقول لمَن عمره (١٧) سنة ما زلتَ طفلًا، ولمن عمره (١٩)، أنت مُراهق؟ فكلّ هذه المفاهيم خاطئة، أمَا رأينا انجازات سيّدنا الأرقم رضي الله تعالى عنه، وهو ابن ستة عشر عامًا؟ فلا ينبغي أن نترك الأعراف الفاسدة مُقيّدات لنا، تمنعنا من إخراج النّاس من الظلمات إلى النّور.

حافظتُ على فطرته وهو صغير، والآن بلغ مبلغ الرجال، ويحتاج إلى زواج، وعندي إمكانية، والمفروض أن يكون عندك إمكانية أيّها الأب، حاولوا أنْ تنشطوا في مجالكم المادِّي إلى حدّ الضرورة على الأقلّ، وقد يقول قائل: كيف نُزوّجه؟ وكيف يتحمّل المسؤولية؟ المُشكلة أنّنا ما تعلمنا كيف نُحمّل الآخرين المسؤولية، فالجهل والظلمات تقودُنا إلى هذه النتائج، بينما إذا فهمنا وتعلّمنا وبدأنا نضرب الأمثلة للنّاس، فسيُقال لك: هذا هو الصحيح.

كثير من البنات مسكينات بقين عوانس في البيوت؛ بسبب أنّها ما قَبِلَتْ القِسمة الطيّبة المُباركة لأنّها كانت تدرس في الجامعة، تقول: إلى أنْ أُنهي الدراسة، وبعدئذٍ لا أحد يدقّ بابها، فتقَلّ الفرص لها لأنهم يعتبرونها كبيرة، وآخر يقول: ما عندي شهادة فكيف أعيش مع بنت عندها شهادة، ستتكبر عليَّ، فهذه كلّها أخطاء، فالمفروض أنّها ما تتكبّر، بل تشكر الله عزَّ وجلّ، فنحن نتحدّث عن أمّة سارت بأنوار سيّد السادات صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، ينبغي ألّا تكون فيها هذه المظاهر السلبية المُعوجّة، لكنْ نحن نعاني من أعراف فاسدة، فمَنْ يُحاول أنْ يُعيد حركة التجديد ينبغي عليه أن يُضحّي، ينبغي عليه أنْ يتعالى على هذه الأعراف الفاسدة، كثيرٌ من الشباب في البداية أراد أنْ يتزوَّج وأهله قالوا له: أنت صغير، وعندما كبُر، سبحان الله، لا يُريد أنْ يتزوّج، لأنَّ المرحلة التي أراد بها أنْ يتزوّج كانت مرحلة فطرية سليمة شرعية صحيحة، فعندما يُمنع فيها رُبّما يسلك سُبلًا مُعوجّة؛ فالنفس تُزيّن هذه السُبل المُعوجّة، والشيطان زيّن لهم ما كانوا يعملون، يقول: أبقى

بهذا السبيل أحسن من تحمل مسؤولية امرأة، يوميًّا مريضة، يوميًّا غاضبة، تبدأ مع الأسف هذه المظاهر السلبيّة التي تُؤثّر على هذا الأمر الرَّبَّانيّ، هذه الشعيرة الرّبانية، فكلّ الأنبياء عليهم الصلاة والتسليم ـ سوى نفر قليل منهم ـ كانت لهم أزواج وذريّة، قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ [سورة الرعد: ٣٨].

فهذه الشعيرة سُنّة كونية بدأت تقل في حياة المسلمين، بسبب هذه الأخطاء الكبيرة، قال تعالى:

﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة الذاريات: ٤٩].

فيا أيّتها الأمّ، يا أيّها الأب، يا أيّتها البنت، إذا جاءكم النصيب المُبارك، مَنْ ترضون دّينه وخُلقه، فقوموا بأداء هذه الشعيرة العظيمة الإسلامية، وستجدون البركة والخير والنور.

الآن دعنا نقول: الفرد مُتزوّج، وبدأ يَفقه الحياة، هنا أيضًا تُوجد طامات كبرى بسبب الجهل بالدِّين، بسبب عدم التفاعل مع الدِّين، بسبب النظرة القاصرة لمشروع الزواج؛ فبالتالي الفرد المُتزوّج أيضًا ينبغي عليه أنْ يُراجع نفسه، فإذا كان ممّنْ قد أسرف على نفسه، فالشرع الشريف ـ وأنا ناقل للشرع الشريف ـ يُوجّهه بأنْ يتوب إلى الله تبارك وتعالى، توبَة نصوحًا، وأنْ يأتي ويُعاهِدَ المُربّي، وإنْ كان مُعاهدًا، فليتبْ أيضًا، وليُصحِّح مسيره، وليتعرّفْ على مسؤولياته، أنت مسؤول أيّها السالك، أنتِ مسؤولة أيّتها السالكة، لستم فقط مسؤولون على أداء الورد اليومي، فهذا واجب عليكما، لكن أنتم مسئولون عن المُجاهدة في تطبيق شرع الله تبارك اسمه، أوّلًا في حياتكم الزوجية، فأنتَ أيّها الزوج كيف تنظر إلى زوجتك؟ هل تنظر إليها على أنّها عبء، على أنّها ثقل على رقبتك أمْ تنظر إليها على أنّها سَكَن ومودة ورحمة وتعاون؟ تعاون على ماذا؟ انظروا هنا، لابُدَّ أنْ يكون الهدف واضحًا

أمامنا، التعاون على إخراج النّاس من الظلمات إلى النّور، وهذا ما نجده حال دراسة حياة وسيرة الحبيب صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه، دراسة مُتفحصة، فانظروا: كيف حقّقَ هذه الشعيرة الفطريّة الكونيّة قبل الإعلان عن نبوّته.

ينبغي أنْ ننظر إلى الأعراف الفاسدة على أنّها أشواك في الطريق، ولابُدَّ أنْ ننظر إلى الأحكام الشرعية بشمولية، لا يجوز لنا أنْ ننظر إلى هذا الحكم بمعزلٍ عن غيره، لابُدَّ أنْ نفهم الإسلام منظومة كاملة، لا تفهم الإسلام على أنَّه أداء أوراد، فأداؤك لوردك جزء من وفائك لبيعتك لربّك سبحانه، على يد المُرشد رضي الله تعالى عنه، لكن هذا ليس كلّ شيء، وإنّما ينبغي عليك عندما تُعاهد وتُبايع على الالتزام بالشريعة الغرّاء، شريعة سيّد الأنبياء عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الأتقياء، ظاهرًا وباطنًا قدر استطاعتك، وهذا الكلام ينبغي أنْ يُراجع، أيّها السالكون المُباركون، أيّتها السالكات المُباركات، ينبغي أنْ تفهم البيعة؛ فمن مفهومها أنَّك بِعتَ نفسك لله عزَّ وجلّ، ولشرعه الشريف، بعت نفسك لأجل أنْ تنال مرضات الله جلّ ذكره، ومرضات الرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم.

إذنْ الأعراف الفاسدة مُعوّقات، مُثبّطات، أشواك، ألغام في طريق من يسيرون إلى العليم العلّام عزّ شأنه، فلذلك يَجب أنْ نبدأ بقلعها، أنْ ننظّف طريق سيرنا إلى الله تبارك وتعالى، الأمر ليس سهلًا، لكنّه يسير على مَنْ يسّره الله عزّ وجلّ عليه، فالموضوع مُجاهدة، والمُجاهدة هي بذل الجهد، فإذا كبُر الولد أو كبُرت البنت، وتيسّر زواج البنت ـ مثلًا ـ فدعها تمضي لسبيلها، لكن فهِّمها قبل ذلك، لابُدَّ أنْ تفهم ما المرحلة التي أقبلت عليها، كذلك الولد عندما يكبر، وعنده توجّه لأنْ يتزوَّج، فلا تقل له: أنت صغير، كلا، بيّن له مسؤوليات الزواج على نحو لا تجعل من الزواج معْلَمًا مُظلمًا أو نفقًا مسدودًا، كلا، ولكن بيّن مسؤولياته، فهناك نفقات، يُوجد كذا وكذا إلى آخره؛ فحاولْ أنْ تَفهم بأنّك ستُقْبِل على مرحلة فيها مسؤوليات، وأنتَ إنْ شاء الله تعالى، على قدرها، وأنا يا بُنَيّ معكَ، فلا تثبّط عزيمته وتقول له: اسكت، أنت ما زلت صغيرًا، أنت كذا، كلا، سيذهب عن طريق وسائل التواصل، ويدخل في الأنفاق المُظلمة الشيطانية النفسانية ـ نعوذ بالله تعالى- فالشيطان

يُزيّنها له، النفس الأمّارة تُزيّنها له، وبالتالي تخسر ولدَك، وتخسر الدنيا والآخرة على الأقلّ في هذا الجانب.

يجب أنْ نُؤكّد على المحبة بدايةً، ثمَّ بعد ذلك نُحاول أنْ نُكمل المنظومة، نحتاج إلى عِلْم، نحتاج إلى مَنْ يُبيّن لنا عن عِلْم لا عن جهل، نحتاج إلى منْ يستنبط لنا من نصوص الشرع الشريف، لكن على فهم أهل الذوق من العلماء الربانيين رضي الله تعالى عنهم.

نحتاج إلى الجانب المادي، نحتاج إلى التعاون، فإذا الله سبحانه مكّنَ لسعد الله، وأنا عندي ولد يُريد أنْ يتزوّج، أقول: يا سعد اللّه تعال عاونِّي، أنا أريد أنْ أزوّج ابني.

سعد الله يقول: على عيني ورأسي، ينبغي أنْ يكون هنالك تفانٍ، ينبغي أنْ يكون هنالك تآزر، ينبغي أنْ يكون هنالك تفاهم، بإذنه تعالى تنهض، وترفع شراعها وتُبْحِرُ، وقودها المحبّة، وتوجُّهُها رضوان الله جلّ وعلا، ومَنْ سار بوقود المحبّة وصل بإذن الله سبحانه.

نحتاج إذنْ إلى أنْ نفهم منهاجنا فهمًا شاملًا، وعلى أساس هذا الفهم الشامل نضع الخطط. فإذا قال أحدهم: أنا مُتزوج، وأولادي كبار مُتزوجون، وأنا الآن جدٌّ لدي أحفاد، وقد قَصّرتُ في هذه الأمور كُلّها، فماذا أصنع؟

أوّلًا: تُبْ إلى الله عزَّ وجلّ توبة نصوحًا؛ لأنَّك قَصَّرْتَ؛ ولأنّك أسأت، والله أعلم بحالك، رُبّما كنتَ جاهلًا، وهل الجاهل يُعذر أم لا يُعذر؟ فهذه مسألة أخرى، فيها أقوال لأهل العلم وأحوال، وهذه الأحوال لا يدري بها إلّا الله جلّ في علاه، لكن الشيء الواضح الذي ينبغي أنْ نقوم به هو أنْ نتوب إلى الله عزَّ وجلَّ توبة نصوحًا، قال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

﴿قَدِيرٌ﴾ [سورة التحريم: ٨].

ثانيًا: أنْ نستدرك ما يُمكن استدراكه، ففي موضوع الزواج مثلًا: عندك بنت، عندك أخت، عندك أخ، عندك ابن، وطبعًا الأقربون أولى بالمعروف، وهم درجات في القُربى، تعتني بهذا قبل هذا، إذا صارت عناية بالكلّ، وعندك قابلية للكلّ مرّة واحدة فتوكّل على الله عزَّ وجلَّ، تفقه في الدِّين على ما فهمه السلف الصالح رضي الله تعالى عنهم.

فهذا سيّدنا عمر رضي الله تعالى عنه، قدّم ابنته لسيّدنا أبي بكر ولسيّدنا عثمان، وما قال: هذا عيب، والقصّة مشهورة، رضي الله تعالى عنهم أجمعين،

الزواج حاجة فطرية قبل أنْ يكون أمرًا شرعيًّا، شيء فطري في النفس، الله تعالى جعل الزوجيّة سُنّة كونية: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الذاريات: ٤٩].

فإذا كان عندك أخت تأخّر زواجها، ليس فيها شيء، في رياض المحبّة والألفة والتعاون والشعور بإحساس الآخر أنْ تذهب إلى أخيك المُسلم، وتعرضها عليه، بكلّ أدب وصدق، فأنت تُريد أنْ تُحيي شعيرة إسلامية، وأنْ ترتقي نوعًا ما؛ فتقترب من ساحة السلف الصالح رضي الله تعالى عنهم، وإن استطعت فادخلها، ادخلْ ساحتهم رضي الله تعالى عنهم، وبالمُقابل الأخ الذي ذهبتَ إليه ـ نحن نتحدّث عن السالكين الآن، نتحدّث عن منظومة جديدة في حياتنا ـ أنت أيها سالك، اذا قال لك أخوك: عندي أخت تأخَّرَ زواجها، وأنتَ قد تفضّل الله سبحانه وتعالى عليك، وأعطاك قوّة وقابلية وإمكانية، فقل له دعنا نستر على هذه البنت، ونستثمر ما فيها من خيرات وبركات.

وهذا الأخ إمّا أنْ يكون مُتزوّجًا أو غير مُتزوج، فهذه كلّها لها أحكامها الخاصّة؛ وطبعًا إذا كان مُتزوّجًا فهذه كارثة في المجتمع الإسلامي، مع الأسف، لماذا كارثة؟ لأنَّ التعدّد في الإسلام ليس مفهومًا في أذهان النّاس، صحيح للنساء غَيْرَة، لكن ينبغي ألا تتجاوز حدودها؛ فتضرب المرأة بسبب غَيْرَتها الأحكام الشرعية عرض الحائط؛ فهي بذلك على خطر، فيا

بنتي، يا أختي الكريمة، يا عمّتي، يا خالتي، يا أمّي، يا جدّتي، كلَّ النساء، لا تسمحي للغَيْرَة أن تتجاوز على الشريعة الغراء، إنْ تجاوزت على الشريعة فتذكري أنّ أمامك قبرًا، أمامك سؤالًا، أمامك بعثًا ونُشورًا، فأين الخوف من مقام الله عزّ وجلّ؟ أينَ الخوف من القيام بين يدي الله تبارك في علاه؟ أين الاستعداد لأوّل ليلة في القبر؟ فهل أسمح لهذه الغَيْرَة أنْ تطغى على كلّ الحدود والخطوط الحمراء في الشريعة الإسلامية؟! ثمّ أرجع بعدها وأقول أنا سالكة، وأنا مُتديّنة، وأنا تقيّة والحمد لله، أين تقواك؟ أينَ صِدقُكِ في سلوكك؟ تقولين: إذا تزوّج سيُقصر معي! كلا، فسيف الشرع قائم على رقبته أيضًا، فإذا خالف فهو ناسٍ أيضًا لأوّل ليلة في قبره، وناسٍ للقيام بين يدي ربّه سبحانه، نحن نُريد منظومة كاملة، نُريد من كلَّ شخص أن يُؤدّي واجبه، فالله سبحانه يَعِدُ المؤمنين الذين يعملون الصالحات بأنَّه جلّ جلاله يُحييهم حياة طيّبة؟ أين إيماننا بالرجوع لله عزَّ وجلَّ؟ فنحن بحاجة إلى مُراجعة، نحن بحاجة إلى تسديد وتقويم وتجديد معاني الشَرْع الشريف في قلوبنا، ما ننظر فقط لمصالحنا الضيّقة الشخصية، فإذا نظرنا إليها نكون عُبّاد نفوس، ولسنا عبّاد الحيّ القدوس عزّ شأنه؛ قال تعالى:﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [سورة الأحزاب: ٣٦].

لابد أن نُقيم دار الإسلام في نفوسنا وأسرنا حتى تقوم في بلداننا، فأقيموا دار الإسلام في نفوسكم تقم في أسركم، أقيموها في أسركم تقم على المعمورة، بإذن الله تعالى، أمّا أن نسير بالعكس! نُريد إصلاح القمّة، والقاع فاسد فهذا مُناقض لشرع الله سبحانه، مُناقض للفطرة، ولقوانين وسُنن الله جل وعلا، وليس المقصود بهذا أني أشجّع على التعدد في هذا العصر، فلكل زمان أحواله الخاصة، وإنّما أطمح أنْ نتربّى التربية الشرعية الصحيحة.

شابٌ غير مُتزوّج، عمره بين (٢٥) سنة إلى (٣٠) سنة ـ مثلًا ـ تقول له: أنت في عصرك الذهبي، تعال حبيبي، أنت بهذا العمر، وبهذا الفقه، أكرمك الله عزَّ وجلّ بمُربٍّ، فبايعته، بعتَ نفسك لله تعالى، فتعال لأجل أنْ آخذ بيدك، فأمامك مرحلة الزواج.

شباب اليوم عندهم خيارات، ما شاء الله! فقط تنقصهم النيّة الصحيحة، والفقه الدّقيق، وهذه كلّها لا تأتي بالتحقيق إلّا من خلال الارتباط بالمُربّي المُرشد، فأكثر السوءات دخلت إلى الأمّة الإسلامية بسبب عدم وجود المُرشد، بسبب عدم وجود المُربّي، العالم الربّاني الحقّ، أي إنَّهم لم يذهبوا إليه! وهو موجود والحمد لله تعالى، والله، ثمَّ والله، ثمّ والله، وأعتقد، إنْ شاء الله لا أكون حانثًا بهذا اليمين، إن المشاكل التي حدثت في العراق، لو أنَّ أولي الأمر ذهبوا فوقفوا في باب المُرشد المُربّي بصدقٍ وإخلاص، وقالوا له: نحن في مصائب ومشاكل وفتن، بماذا تُوجهوننا؟ لو أنَّهم قلّلوا الغطرسة والاستكبار، وأدّبوا أنفسهم بالتواضع، لكانت الحياة غير ما نرى، نعم، تبقى هناك نسبة من الفتن؛ لأنَّها دار ابتلاء، فهي ليست جنّة، ليست دار العطاء والتشريف، بل هي دار التكليف، ولكن تُخفّف، تُخفَّف، إلى أنْ تكون طبيعية جدًّا يتحمّلها الإنسان، مثلما تخرج والجوّ حار، لكنه ليس حارًّا جدًّا بحيث تحترق، فانت تتحمّل هذه النسبة من الحرارة، ثمّ تتحايل عليها، تُحاول أنْ تصنع لك مُكيّفًا، تُحاول أنْ تصنع لك مُبرّدة، تُحاول أنْ تصنع لك ملابس ذات قماش بارد نوعًا ما، أي لا يمص الحرارة... إلى آخره، فربّ العالمين أعطانا عقلًا، فهذه النسبة يُمكن التغلب عليها، وتوجّيهها، ولكن مُصيبة المصائب حينما نغفل عن حاجتنا للمُربّي، فهنا ستحدث حروب لا نهاية لها؛ لأنَّها حروب بين الباطل والباطل، ومثل هذه الحرب لا تنتهي، وانظروا الآن حواليكم لماذا لا يهتدون؟ لأنَّهم بلا مُرشد حق موصول اليد بسيّد الخَلق صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه.

فنقول للشاب: يا حبيبي، أنت الآن في العصر الذهبي، عندك خيارات، تستطيع أنْ تتزوّج غنيّة، تتزوّج فقيرة، تتزوّج خرّيجة أو غير خريجة، والجمال أمرٌ نسبيٌّ، أصدق النيّة لله تبارك وتعالى، واجعل هدفك أنْ تُنشئ أسرة إسلامية.

فما تقدم حالتان: الفرد بكلّ صوره، والأسرة ببعض صورها، وحتّى ننهض بحركة التَجديد؛ ينبغي علينا أنْ نفقه هذه الأحوال على هذا النحو.

أقول مرة أخرى: بالمحبّة انطلقوا، انطلق الآن وأنت تُحبّ، تُحبّ الله عزّ وجلّ، وتُحبّ

سيّدنا النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، وتُحبّ الدِّين، انطلق وأنت نشوان، فرحان، مُتوجّه إلى العليم العلام جلّ جلاله، إلى الرحمن الرحيم عزّ شأنه، بمحبّة واعتزاز بما هداك الله تبارك اسمه إليه، ستجد يد الله عزَّ وجلَّ تكلؤك وتحميك وتحرسك، وعين الله سبحانه ترعاك، وبركات الحبيب صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه أهل الطيب، من خلال مُرشدك تصلك، اصدُق يُتصدّق عليك.

ليس الأصل أن يكون الحديث عن الأسرة من باب التعدّد، وإنّما الحديث عن الأسرة من باب الزواج، فالأصل فيه عدم التعدّد، والتعدّد حالة استثنائية لها ظروفها وأحكامها الخاصّة، وفيها مداخل ومخارج كثيرة، تحتاج إلى استخارة واستشارة، وعدم التسرّع، بل ينبغي دراسة المُقدّمات بتأني، والانتباه إلى النتائج.

المحطات كلّها ضرورية وينبغي علينا أنْ نعتني بها، لأنَّنا بحاجة إلى تجديد من حيث الفهم والتطبيق؛ فبالنسبة للفرد إذا كان متزوّجًا، فالأصل أنَّه يُحافظ على بيت الزوجية، ويجلس من الآن مع زوجته، ويُبيّن لها الغايات الواضحة التي نعمل على تحقيقها، فلابُدَّ من البيان والشرح في جوّ عائلي إيماني مُعطّر بعطر الصدق والإخلاص، والمحبّة لله تعالى وللأهل وللنّاس، فتُبيّن للجميع بأنّك صاحب رسالة، وأنّ لك مُرشدًا، وأنّك تعمل تحت جناحه، لأجل أنْ تصلوا إلى هذا الهدف الواضح البيّن المُعلن، الذي لا يجوز ستره قطعًا قولًا واحدًا.

قد يقول قائل: صرتُ في العقد الخامس أو السادس من عمري، وهذه المُقدّمات ما كنتُ أعرفها، وما طبّقتها، فماذا أصنع؟ نقول له: الرجوع إلى الحقّ أولى من التمادي بالباطل، ولنُخفّف اللهجة قليلًا فدعنا لا نُسميه باطلًا، فنقول: الرجوع إلى الحق أولى من التمادي في السهو، فاذا سهوت عن هذه الأصول، فالآن قد هيّأ الله تعالى لك مَنْ يُذكّرك بها، ويُبيّن لك ما يُضرّك، فارجع، فالعودة إلى الحق أولى من التمادي في السهو، فلا تتمادى بعد أنْ نُبّهت ونُوّرت وجاءتك الإضاءات، فانطلق في آفاق المحبّة؛ فالمُحبّ: يبذل، ويُضحّي.

اجلس مع زوجتك، وقل لها: يا بنت الحلال، أنا كنت ساهيًا عن هذه الأمور كلّها، والآن الله سبحانه بصّرَني، فتعالي يا حبيبتي، يا أمّ أولادي، يا تاج رأسي لنتعاون ونُصحّح المسير،

وهكذا الحال مع الأولاد، كبروا، تزوّجوا، أم لم يتزوجوا، المهم أن نجلس معهم، فهذه الجلسات ضرورية لأنها جلسات مودة وتصويب ونماء.

إذنْ راجع ملف سيرك إلى الله عزّ وجلّ، فبارك الله تعالى فيك فيما تستدرك، وما فاتك تضرّع إليه سبحانه ألّا يؤاخذك: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [سورة البقرة: ٢٨٦].

إن إحياء هذه المعالم والأسس في الأسرة ضروري جدًّا، فهذا من إحياء الدِّين وتجديده، وهذا هو الأصل.

إحدى الأخوات تبعث لي رسالة، وتقول: إنّ زوجها كان يرغب في الزواج من ثانية، ويلحّ في هذا المجال، وفعلًا تزوّج، فإذا به لا يُنفق علينا، ولا يهتم بنا نهائيًّا، نَسِيَنَا، وبدأت المشاكل، بالطبع تبدأ المشاكل، فمَنْ غفلَ عمّا ذكّر به ستكون أحواله سلبية حتمًا، قال تعالى:

﴿فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ [سورة المائدة: ١٤].

هل أقول لهذا الإنسان، يا أخي الكريم، زواجك هذا غير شرعي؟! كلا، ينبغي أنْ أسمع منه، وأسمع منها، وأنظر ما الذي حدث؟ وفي ذلك الوقت أستطيع أنْ أقرّر، ولكن بشكل عام، من يُريد أنْ يُعدّد ينبغي عليه أنْ يتلطّف، ينبغي عليه أنْ ينتبه؛ لأنّها زَلق لا تثبت فيه كثير من أقدام الرجال والنساء.

لذلك فالأصل في بناء الأسرة هو الزوجة الواحدة، أما التعدّد فهو الاستثناء، وهذا التعدّد لأسباب وأغراض وحِكَم كثيرة، وهذا سيّد السادات عليه أتمّ السلام وأفضل الصلوات وآله وصحبه ذوي الفضائل والمُكرمات حافظ على هذا الأصل إلى أنْ رحلت السيّدة العظيمة خديجة رضي الله تعالى عنها، ومع أنّ الرسول الأعظم عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه أجمعين له من دواعي التعدّد الشيء الكثير، لكنه ما عدّد؛ لأنّه يُريد أنْ يُؤكّد على هذا الأصل.

هذا الموضوع جزئية من الأسرة، الأصل أنَّ الأسرة مُؤسسة، وينبغي على هذه المُؤسسة أنْ تتعانق وتتجانس مفاصلها وأقسامها في ظلال محبّة الله جلّ جلاله، ومحبة سيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله صحبه وسلّم، ومحبّة دين الله عزّ وجلّ، وشرعه الشريف جملة وتفصيلًا، فلا ينبغي أن تُحبّ آيات الذكر، وآية الصلاة والسلام على سيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، كونها بدون مؤونة، ولمّا تسمع آيات الإنفاق أو تلك التي تأمر بحُسن العشرة، والقوامة بالمعروف ـ والقوامة أنَّ تشعر بأنك مسؤول عن هذه الضعيفة التي استحللت فرجها بكلمة الله عزّ وجلّ ـ كأنك لم تسمعها؛ فهذه النصوص لا تُحبّها ولا تُريدها، لماذا؟ لأنها تُطالبك بمخالفة النفس والقيام بمقتضيات مسؤولياتك:

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [سورة البقرة: ٨٥].

إذن الأسرة مُؤسسة مُتكاملة يجب أنْ نُحييها على هذه الأسس المُضيئة، ولابُدَّ مرّة أخرى، ومرّة أخرى، وأبقى أقولها إلى أنْ ألفظ آخر نفس إنْ شاء الله تعالى: لابُدَّ أنْ تنبني هذه الصور والأعمال على ساق المحبة، وتُغذّى بماء المحبّة، فالحُبّ، الحُبّ، وبدون الحُبّ ـ أعوذ بالله تعالى ـ تسقط في الجُبّ.

المساجد: وهي المحطة الثالثة، فالمساجد في فهمي من القرآن الكريم هي الجذور الفطرية التي استودعها الله جلّ في علاه في الأرض بصورة مادية، فالأرض مادّة، فيها جذر، فيها بذرة، هذه البذرة هي التي أسّست للجذور والقواعد لبناء بيوت الله سبحانه، باعتبار أنَّ الإنسان يحتاج إلى مثال مادي؛ لأنَّه يعيش على أرض فيها روحانية، وفيها أسباب مادية.

والفطرة بذرة الصورة الجسمانية، الصورة الظاهرة في توحيد الله عزَّ وجلَّ، والإيمان به سبحانه، هذه البذرة كائنة في الكرة الأرضية في موقع اختاره الله عزّ شأنه في مكّة المكرّمة، في وادٍ غير ذي زرع، وأراد الله جلّ جلاله لقواعدها أنْ تُؤسّس قبل سيّدنا إبراهيم عليه السلام، ولا أتدخل بالروايات التي تقول بأنّ الملائكة بنوا البيت الحرام أو سيّدنا آدم عليه السلام؛ لأنّنا لا نحتاج لهذا، ولأنّه تُوجد ضبابية قبل ذلك، يُوجد ضعف في بعض

الروايات، فعندنا القرآن الكريم والسُنّة النبوية، ومنهجنا الاعتصام بهما، وينبغي أنْ أذكر ملاحظة هنا حتّى لا يتصيّد المتصيّدون في المناطق الضبابية من كلامي، فأنا لا أنكر الروايات، كلا، أنا أقول: ما كلّفت نفسي بدراستها دراسة دقيقة؛ لأنّي رجل عملي، يغلب عليّ العمل، وربّ العالمين سبحانه أمرني بالاعتصام بالكتاب والسُنّة، وهذه السُنّة الصحيحة كافية، فالعلم اليقيني من القرآن الكريم والسُنّة النبوية أنَّ القواعد كانت موجودة في الأرض.

إذن هذه البذرة بدأت تدفع، فصارت القواعد، مَن الذي أسّس القواعد؟ نحن، لا يعنينا كثيرًا، لكنَّ الله عزَّ وجلَّ قال: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[سورة البقرة: ١٢٧].

فقواعد البيت العتيق موجودة، فلما جاء وقت التكليف، قام سيدنا إبراهيم عليه السلام برفع القواعد.

إذنْ هذه الصورة الظاهرة المادية؛ لأنّ الإنسان جسم وروح، وكذلك المساجد جسد وروح، فهذه الصورة المادية، هذه البذرة التي كانت في الأرض تدفع، فتكون فيها قواعد، ويأتي سيّدنا إبراهيم عليه الصلاة والتسليم ليرفعها، لأنّ الرفع من باب الأخذ بالأسباب والتكليف، وداخل الأرض من عالم الغيب، وفوق الأرض من عالم الشهادة.

المُكلّف عمله التطبيقي مع عالم الشهادة، وقد يقول قائل: نحن فتحنا القبر ما رأينا احدًا مُنعّمًا في قبره، وما رأينا احدًا مُعذّبًا في قبره، فكيف تقولون: القبر إمّا روضة من رياض الجنّة، وإمّا حفرة من حفر النيران؟ نقول له: الشرع الشريف ما كلّفك بهذا، كلّفك أنْ تُؤمن، وما كلّفك أنْ تُنقّب، لأنّك حينما نقّبت، وفتحت القبر، انتقلت من عالم الشهادة إلى عالم الغيب؛ وعالم الغيب له نظامه وقانونه، وأنت في عالم الشهادة ما عندك الوسائل التي تكتشف بها، فليس لك إلّا الوحي والخبر الصادق، فجاءك الوحي والخبر الصادق وأنقذك، فصدِّق وآمِن

حتى تكون مقبولًا عند الله جلّ في علاه، فالأصل في الأديان الإيمان بالغيب، وعالم الغيب له قانونه، كما أن عالم الشهادة له قانونه.

إذن هذه بذرة الفطرة الجسمانية لدين ربّ البرية جلّ جلاله، فإذا تمثلنا الدِّين شخصًا، فلابُدَّ أنْ تكون له صورة ظاهرة، وصورة باطنة، الصورة الباطنة: هي الفطرة الإيمانية، قال جل جلاله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [سورة الروم: ٣٠].

والفطرة الروحانية كامنة فيك أيّها الإنسان:

﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [سورة الروم: ٣٠].

إن العناية بالمسجد الحرام في شريعة خير الأنام عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام فائقة لدرجة التعظيم والتبجيل، وهي علامة التقوى للجليل ﷻ القائل:

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [سورة الحج: الآية ٣٢].

ولقد رأيتم صور التعظيم والعناية في حياة سيّد السادات صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه ذوي المكرمات، فكلّما تسنح له الفرصة تلقاه في المسجد الحرام، مع أنَّه لم يُعلن عن نبوّته صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، ولم تنزل التشريعات حتى يُبيّن لنا ربّ العالمين أهمّية وعظمة المساجد.

يُمكن أنَّ نُربّي النّاس، لا نستسلم لجهلهم، فنقول: ما دام النّاس غير مُتفقهين، إذن نغلق المساجد زمن الوباء، كلا يا أخي، بل نُفقّه النّاس، يقول بعضهم: الزيارات للأضرحة تُؤدي إلى الشرك، لماذا؟ لأنّ النّاس جهلة، إذن أغلقوا المقامات الخاصة بالأضرحة فهي حرام، ومظاهر للشرك! كلا يا أخي فهي أضرحة مُباركة طيّبة معروفة ومشهورة، أجمع عليها

السلف الصالح من بدايات مواكب الأنبياء عليهم الصلاة والتسليم إلى يومنا هذا، ولكن دعونا نقول: فلنُعلّم النّاس آداب الزيارة؟ ألسنا أمّة اقرأ؟ ألسنا أمّة العلم؟

كثير من الحجّاج لا يعرفون آداب وأركان الحجّ، فهل يصح أن نقول: لا يُوجد حجّ؛ لأنَّ النّاس لا يعرفون تلك الآداب والأركان، والحال نفسه في الصلاة؟ كلا، فهذا طريق مُعوج، أعوذ بالله تبارك وتعالى.

إنَّ المساجد رمز الدِّين، رمز الإيمان، المساجد مهبط الرحمات، ونزول المدد الربّاني، ولذلك ما ترك الحبيب صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم المسجد الحرام حتى قبل الإعلان عن نبوّته، وبعد الإعلان عنها مع أنّه أوذي كثيرًا، ومع ذلك تعلّق بالمسجد، ولما هاجر صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه مباشرة بنى مسجد قباء، ثم في بني حنيفة بنى مسجد الجمعة، وإلى المدينة المنورة صلّى الله تعالى على ساكنها وسلّم بنى مسجده الشريف، لذا لا يمكن انتزاع المساجد من حياة النّاس، ومن حياة المؤمنين من باب اولى.

هذه نقطة ضرورية جدًّا، العمق الروحي للمساجد، لا ننظر إلى المساجد على أنّها أبنية، لماذا؟ لأنَّ امتزاج الروحانية بالجسمانية ضروري جدًّا في تجسيد دّين ربّ البرية جلّ جلاله، فلا يُوجد في الإسلام روحانية مُنقطعة عن الجسم، فهذه رهبانية، ولا رهبانية في الإسلام، لا يُوجد في الإسلام جسمانية مُنقطعة عن الروحانية، فهذه ـ نعوذ بالله سبحانه ـ منحى بعض اليهود: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [سورة الأعراف: ١٣٨].

لأنَّهم لا يعرفون الروحانية، لا يعرفون الإيمان بالغيب، سبحان الله حتّى في الأطعمة فقد أكرمهم الله تعالى بالمنّ والسلوى، ولكنهم لا يُريدون ذلك لأنه طعام قادم من عالم الغيب، قال الله عزَّ وجلّ: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا

سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [سورة البقرة: ٦١].

يا سلام: أعطاهم السلوى، ومع ذلك فهم غير مُطمئنين بهذا الرزق، لأنّه كان رزقًا غيبيًّا، لا يعرفون من أين يأتيهم، يستيقظون صباحًا فيرون المنَّ على الأشجار، والسلوى ذاك الطائر الجميل في مُتناول أيديهم، لكن من أين جاء؟ لا يعرفون، يُريدون شيئًا ماديًّا، يحرثون الأرض، ويضعون البذرة، ثمّ تُثمر فيأكلوها، كالثوم والبصل وبقيّة الأشياء التي طلبوها.

ليس عندنا انفصال بين المادية والروحانية، فصورة المساجد المادية هي القواعد وقد رُفعت، وروحها أنّها تُمثّل الإيمان بالله تبارك في علاه، لذلك الرسول عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه العدول قال في الحديث الشريف:

(إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَعْتَادُ الْمَسَاجِدَ، فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ) الإمام ابن ماجه رحمه الله تعالى.

فاشهدوا له بالإيمان، ما قال: إذا رأيتم الرجل يعتاد المستشفيات أو المزارع فاشهدوا له بالإيمان؛ لابُدَّ أنْ نفهم الدِّين فهمًا صحيحًا، نُجدّد فهم الدِّين في أذهان العالمين، وخصوصًا لمَنْ ينتسبون للعلم، فلنتواضع قليلًا، نتعلّم من الربّانيين، ندوس على نفوسنا الأمّارة بالسوء، ونعترف بأنَّ فوق كلّ ذي علم عليم.

اقترح بعضهم أنه يجب على شيخ الجامع أن يُنظف محلات الوضوء، وقد حزنَتُ وتعجّبتُ لمثل هذا الطرح، أهكذا تنظرون إلى السادة المشايخ رضي الله تعالى عنهم، تُريدون منهم تنظيف الحمّامات، فأين العاملون والمُتطوّعون؟ أين المُصلّون؟ مشايخنا نضعهم تيجان على رؤوسنا، نجعلهم أوسمة الخير والبركة على قلوبنا وصدورنا.

الحقيقة هذا شيء مُؤلم، مُؤلم جدًّا، فأسأل الله عزَّ وجلَّ أنْ يهدي إخواننا وأحبّتنا إلى معرفة مقام العلماء، فالعلماء ورثة الأنبياء عليهم الصلاة والتسليم، وأقول: إذا كانت الملائكة تضع

أجنحتها لطالب العلم تواضعًا وتقديرًا واحترامًا، فكيف بالعالم الذي ينشر العلم، كيف بالعالم الذي يبذل العلم، ولا عجب ففي مثل هذه الاضطرابات الفكرية تظهر أقوال بعيدة ومُجافية عن هدي الكتاب والسُنّة، فالتواضع له ميدانه، لكن لا يجوز أنْ يُساق التواضع إلى مُنحدرات القضاء على العلم ومكانة العلماء.

المساجد محطّة عظيمة، تحتاج دائمًا إلى رعاية وعناية، ونحتاج إلى تجديد مفهومنا عنها، ولا شكّ في ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [سورة التوبة: ١٨].

المُؤمن بالله واليوم الآخر ليس عنده غير تعمير المساجد، فـ (إنّما) تحمل معنى الحصر، فلذلك أرجو من الإخوة حين يتحدّثون عن المساجد، ويُوقعون على قرارات تتعلّق بها، أنْ يضعوا هذه الحقائق أمام قلوبهم وعقولهم.

المسجد الحرام بذرة تُعبِّر عن تجسيد توحيد الله جلّ في علاه والإيمان به، وهذه البذرة نشأت قواعدها في الأرض، ثمَّ تشرفتْ هذه القواعد بأنْ رفعها سيّدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والتسليم مع سيّدنا إسماعيل عليه السلام، ثمَّ رأينا هذه القواعد في عالم المعاني، وجدناها ارتقتْ وسمَتْ وتفرَّعتْ غُصونها في بقاع الأرض، ففي شريعة الإسلام لا احترام للمساجد إنْ لم تكن قِبْلَتُها إلى المسجد الحرام، فهذا الارتباط الذي أذكّر نفسي والمُسلمين والمُسلمات بضرورة الالتفات إليه دائمًا.

لا أريد أنْ أدخل في الروايات والغيبيات، ولكن من حيث التذوّق، هذه البذرة للبيت الحرام هل نزلت مع سيّدنا آدم عليه الصلاة والتسليم ووُضِعتْ واستقرت في الأرض؟ فيمكن لأهل الذوق أنْ يتذوّقوا هذه المسألة، ويقولوا: نعم، وهنا يأتي الرّبط بين الروايات بأنّ الحجر الأسود من حجر الجنّة، نزل مع سيّدنا آدم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم.

ففي عالم المعاني الربط بين معالم الروح ضروريّ جدًّا، والالتفات إلى هذا الرّبط دون إلزام النّاس بالإيمان به، ولكن تثقيف النّاس عليه أمر ضروريّ، وهو صفحة من صفحات العمل الرّوحي الإسلامي، ونحن دائمًا نبحث عن الجذور الطيّبة المُباركة التي نستنِد إليها، ننبع منها ـ إذا صحّ التعبير- فحتى الجانب المادي في حضارتنا الإسلامية مُستندٌ إلى الجانب الروحاني، فالحجر من الجنّة، وسيّدنا آدم من الجنّة، وذِكْرُ الله تبارك اسمه من الجنّة؛ فلاحظوا الرّبط الرّوحاني الجميل لهذه المعاني الرّاقية، التي يجب على العقلاء وعلى أهل الذوق وعلى مَنْ يسيرون إلى الله جلّ وعلا بصدق وإخلاص أنْ يَتَلَمّسوها ويقتربوا منها ويتفهموها ويتفاعلوا معها.

المسجد الذي تبنيه في بغداد وآخر في الصين، وثالث يُبنى في روسيا، في أيّ بقعة من بقاع الأرض إنْ لم يرتبط بالمسجد الحرام فلا حُرمة له في الإسلام، ولا يُعدّ مسجدًا، فلذلك نرى أنَّ الذين يبنون المساجد ـ من أوّل يوم إلى يومنا هذا ـ يُدقِّقُون ويُحقِّقُون في اتجاه القبلة، ولولا فضل الله تبارك وتعالى علينا لوَقَعْنا في حرج، فالله عزَّ وجلَّ أمرنا أنْ نُولّي وجوهنا شطرَ المسجد الحرام، وليس إلى عَيْن المسجد الحرام لمَنْ كانوا على مَبْعَدَةٍ من المسجد الحرام، فهذه رحمة من الله عزَّ وجلَّ، فدرجات الانحراف القليلة مسموح بها، ولكن إنْ تتعمّد وتقلِب الوجهة، وتنصب المحراب إلى غير المسجد الحرام فالصلاة في هذا المسجد باطلة قولًا واحدًا، وهذا المسجد لا حُرمة له، ولا ترتبط الأحكام المُتعلّقة بالمساجد بهذه البناية، ولا يُمكن أنّ نُسمّيها مسجدًا، لماذا؟ لأنَّه بدون ارتباط، وهذا الارتباط عميق، تصِل جذوره إلى الجنّة، فيرتبط بالمسجد الحرام، والمسجد الحرام فيه الحجر الأسعد، والحجر الأسعد من الجنّة، وهكذا عندما يَستقبل المسجد الحرام يتمثّل ويتصوّر هذه المعاني، فيزداد خشوعًا، ويفتح قناة روحانية على قلبه يتغذّى بإذن الله تبارك وتعالى من خلالها ببركات ربّ الأرض والسماء ﷻ وعمّ نواله.

حسنًا، سيّدنا آدم من الجنّة، إذن أصل البشرية من الجنّة، فيا أيّها البشر! اعرِفوا أصلكم، اعرفوا داركم، دار المقرّ، فإنَّ الدنيا دار ممرّ، وإنَّ الآخرة هي دار المقرّ، فخذوا من دار ممرّكم إلى دار مقرّكم، ولا تهتكوا أستاركم عند مَنْ لا تخفى عليه أسراركم عزّ شأنه.

إذنْ: هذا الارتباط من الثقافة الروحية، وينبغي أنْ نبحث عنه ونتفهّمه، والأهمّ هو التفاعل معه، وتطبيق هذا التفاعل، وهذا من الإيمان بالغيب طبعًا، لأنّي آمنتُ بالغيب عندما اعتقدْتُ أنَّ الحجر الأسود من الجنّة، فالجنّة غيب، ودائمًا جانب الخفاء في الأمور الغيبية واضح، وإلّا فلا يُسمّى غيبًا.

في قصّة الملأ من بني إسرائيل ـ الذين اقترحوا على نبيّ لهم أنْ يبعثَ لهم ملِكًا ليقاتلوا في سبيل الله عزَّ وجلَّ ـ جوانب غيبية، قال الله جلّ وعلا: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٨].

لاحظوا إلى تذييل الآية: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، لماذا؟ لأنها صفحة فيها جوانب غيبية كثيرة، ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾، هذا المَلك الذي اصطفاه الله عزَّ وجلَّ لكم وأنتم مُعترضون ـ أو بعضكم مُعترض عليه ـ مع أنّكم مَنْ طلب هذا، فهذا المَلْكُ عنده علامة التابوت، أين التابوت؟ في ذلك الوقت كان من الغيب، لأنّهم ضيّعوه، والتابوت هو الصندوق الذي وضَعتْ أمّ موسى سيّدنا موسى ـ عليهما السلام ـ فيه عندما أوحى الله عزَّ وجلَّ لها بأنْ تقذفه في اليمّ، فبقي هذا التابوت، وكتب الله تعالى له الخلود؛ لأنّه آية من آيات الله عزَّ شأنه؛ وكان بنو إسرائيل يستنصرون به على أعدائهم، ولابُدَّ أنْ تبقى صورة من صور الخلود في آيات الله جلّ وعلا ولو كان رمزًا بسيطًا، وانظروا الآن فنحن نقرأ ذلك في القرآن الكريم.

وهنا توجيه لإخواننا المُسلمين والمُسلمات الذين لا تستطيع عقولهم أنْ تستوعب موضوع البركة والتبرّك بآثار الصَّالحين، فنرجو لهم أنْ يهتدوا بهدايات هذه الآية الكريمة.

ربُّ العالمين سبحانه يذكر أن في التابوت بقيّة ممّا ترك آل موسى وآل هارون، وهي عصا وعِمامة سيّدنا موسى، وسيّدنا هارون، ولأنّ العصا مُعجزة أيضًا، فلابُدَّ أنْ ينالها الخلود أو ذكرى خالدة؛ ولذا فالقرآن الكريم يُخلد هذه الآثار، ويعدّها آية من آيات الله عزَّ وجلَّ، فكيف لك أنْ تُنكر هذه الأمور؟!.

انظر إلى آخر الآية، الله عزَّ وجلَّ يقول لكم: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، فاحذر وانتبه على إيمانك

عندما تأتي وتُنكر بغير علم، إنما بشيء تُزيّنه النفس الأمّارة بالسوء نعوذ بالله تبارك وتعالى أو بما يُوحي الشياطين بعضهم إلى بعض، شياطين الجنّ والإنس نعوذ بالله تبارك وتعالى، وأنْ تستهويك على أساس أنك تُحافظ على جناب التوحيد، تخاف أنْ تصير مُشركًا، كيف يكون في التابوت بركة وسكينة؟ كلا، ربُّك يقول: فيه سكينة: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾،

والسكينة قاعدة كليّة لكلّ الجزئيات التي فيها بركة، فعندما تسمع "سَكِيْنَة" فأطلق العنان لمُخيّلتك، السكينة تعني البركةَ، تعني قبولَ الدعاء، تعني نصرا من الله جلّ في علاه، تعني زوالَ الرّعب من قلبك، تعني أنَّ الطمأنينة تنزل في قلبك فتستقر أمام أعدائك، ومنهم نفسك الأمّارة بالسوء.

فلاحظوا الخطّين المُتوازيين، الله تبارك وتعالى ذكرهما في التابوت: السَّكينة، والآثار المادّيّة: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾.

فعندما نتحدّث عن المسجد الحرام، وعن المساجد المُتوجّهة إلى المسجد الحرام، إنّما نُؤكِّد على هذين المسارين الواضحين، والرّكنين الجليَّين، ركن المادّة وركن الرّوح، فبناية المسجد صورة مادّية، ولكنها تُجسّد الجانب المادّي الخالد الذي أثرُه الروح.

فلذلك أقول لا يُوجد في الإسلام ما يُسمّى بالجانب الروحاني والجانب الآخر، فالكلّ هو رُوحاني، الشّريعة عقيدة وأحكامًا دينٌ روحانيٌ، حتّى الوضوء: تأخذ الماء، الماء مادة،

والأعضاء مادّية مخلوقة من تُراب الأرض إلى آخره، ولكن لولا النيّة، هل لهذا الوضوء قيمة عند ربّ البرية جلّ جلاله؟ هل هناك قيمة لأي عمل ماديّ تقوم به لولا النيّة؟ الزكاة: تُخرج نقودًا وتُعطيها الفقراء، وهي مادة، مادّة في مادة، فإذا خلت من النيّة فلا تُقبل عند الله عزَّ وجلَّ؛ والنصوص واضحة في موضوع النيّة ووجوب الإخلاص فيها.

إذنْ الله تبارك اسمه بيّنَ إنّ اصطفاء هذا المَلِك يحتاج إلى علامة، والعلامة هي أنْ يأتيهم التابوت، لأنّ التابوت إلى الآن غيب، لا يدرون أين ضيّعوه، وسيأتي التابوت بصورة غيبيّة، اسمع إلى قوله تعالى: ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾، والملائكة غيب أيضًا، فهم لا يستطيعون رؤية الملائكة، فتخيّلوا، هم جالسون، وإذا بالتابوت يأتي طائرًا في الهواء! سبحان الله، الملائكة تحمل التابوت، وهم لا يرون الملائكة، ولكن يرون التابوت، فستكون هذه آية الاصطفاء.

يجب على الدعاة الذين يُريدون أنْ يتشرّفوا بمسيرة التجديد أنْ يُؤمنوا بهذا الجانب، وأنْ يتفاعلوا معه، ثمّ يدعوا النّاس إليه؛ فإذا كنتَ لا تُؤمن بهذه القيم الروحية القرآنية النبويّة الشريفة المُباركة فكيف تجعل الآخرين يُؤمنون بها؟ ففاقد الشيء لا يُعطيه؛ لذلك كانوا حاملين لخمس آيات من القرآن الكريم، آيات قصيرة جدًّا، النّاس ينظرون لها كلمات بسيطة، أستغفر الله العظيم، ربما هكذا يتصوَّرونها، ولكن هذه الآيات فيها روح، فيها قيمة روحية عظيمة، فيها تفاعل عجيب، فيها ارتباط، فيها خيْرَات وبركات، فلذلك كانوا بهذه الآيات يُخرجون النّاس من الظلمات إلى النّور بإذن ربّهم العزيز الغفور جلَّ جلاله وعمَّ نواله.

إذنْ لابُدَّ أنْ نُركّز دائمًا في البحث عن الخيط الرّوحاني؛ حتّى في الأبنية، حتى في الأمور الجسمانية، حتى في الجسد، بأيِّ شيء تُعبّر عنها عبِّرْ، فبذلك الأشياء تُقيَّم، حتى في ثقافات النّاس العاديّين تُقيّم بمعانيها وليس بمبانيها، وروحي فداك يا سيّدي حضرة الشيخ عبد الله طيّب الله تعالى روحك وذكرك وثراك، إذ أتيت لنا بهذه القاعدة الجميلة: وَخَيْرُ أَنِيْسٍ فِي العُلُوْمِ مِثَالُ؛ فماذا يعني أنّ أصول التعامل بين النّاس تُؤكّد على معانيها وليس على مبانيها

دائمًا؟ فمثلا الهدية: تعبيرٌ عن احترامك للمُقابل، فلو تأخذ وردة من حديقة الشارع أو من حديقة الجامع، مُجرد وردة! وتُقدّمها لزوجتك، ما قيمة الوردة؟ ليس لها قيمة مادية، حتى لو كان لها قيمة مادية فبكم ستكون؟ شيء زهيد؛ تذهب لزوجتك وبكلّ محبّة واحترام تُقدَّم لها الوردة، فكم ستُكبِر وتُقدّر ذلك، والوردة بحد ذاتها ما لها قيمة مادية، لكن قيمتها في معناها.

وشخص آخر أشترى ذهبًا ودخل على زوجته فقال لها: خذي أحضرت لك ذهبًا، بجمود ومِنة وغلظة، لا أتصوّر أنّها ستتأثّر بهذه الهدية أو بهذا العطاء كما تأثرتْ الأولى بالوردة، أينَ المَبنى بين الذهب والوردة؟! لا يُوجد قياس أو نسبة نهائيًّا.

إذنْ ينبغي أنْ تبحث عن المعاني لا عن المباني، مع عدم الإغفال عن المباني؛ لأنّ حضارة الإسلام حضارة مُتكاملة، فلذلك جاءت قضيّة طهارة المساجد وترتيبها، وسارتْ الأمّة في الحفاظ عليها والعناية بها، من غير إسراف وتبذير.

يجب على المُسلم والمُسلمة أنْ يُكمّلا شخصيتهما، فأصل الشخصية الرّوحانية، والمظاهر تتساق مع ما يُيسّر الله تبارك اسمه من مظاهر حضارية، ولذلك ترون أنَّ الله عزَّ وجلَّ أمر بالأصول، وترك الكيفيّات، لأنّها رسالة خالدة إلى قيام الساعة، والله تعالى أعلم بعِلْم الساعة، كم حضارة ستقوم وتسقط؟ كم تطوّر سيحدث؟ مَنْ كان يعتقِد قبل مائتي سنة بأنْ الإنسان سيطير في السماء؟ لا أحد، ولو تحدَّث أحد بذلك قيل عنه: مجنون!

لمْ يُكلِّفكَ الإسلام بأنْ تبقى على نمطٍ واحد، فهذا خير الأنام عليه الصلاة السلام وآله وصحبه الكرام كان يخطب إلى جذع نخلة، أي يقِف على الأرض وجذع النخلة بجانبه، فقيلَ له عليه الصلاة والتسليم: هناك نجّار وافد من إحدى القبائل، فلِمَ لا يصنع لك شيئًا ترقى عليه للخطبة؟ فهل قال لهم: لا أريد؟ كلا، بل علّمهم استثمار الطاقات، فقال: نعم، فصُنِعَ المنبر لسيّد البشر صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، وحصل ما حصل من حنين الجذع لفراقه، ومع أنّه رحمة مُهداة لكنّه ما أوقف سيْر الموكب الحضاري، فما قال لهم: ارفعوا المنبر وسأبقى عند هذا الجذع المُحب، كلا، بل احتضنه، وأعطاه حقّه صلَّى الله

تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، بأبي وأمّي ونفسي يا حبيبي يا رسول الله، وترك مسار الحضارة يسير ماشيًا، فصار المنبر، وصارت المنابر.

إذنْ يجب أنْ ننظر إلى الجانب الغيبي في كلِّ شيء، أنتَ الآن جَسَد، هذا جانب مادي، لكن هل هذا الجسد هو حقيقتكَ؟ كلا، حقيقتُكَ هي روحك، فهذا الجسد ثوب، ستراه يومًا فعلًا كأنّه ثوب بالٍ مُلقًى على الأرض، وهذه كرامة لسيّدِيْ حَضْرَة الشيخ عبد الله طيّب الله تعالى روحه وذكره وثراه، لأنّه قال لي: ستراه يومًا، فرأيته فعلًا، و١٠٠% أعلم أنّه كان يَعِظُني، ويذكّرُني بيوم الموت، كأنّه يقول: يوم تموت ستراه ثوبًا باليًا مُلقى على الأرض، ولكن الله تبارك وتعالى أراد أنْ يُكْرِم هذا الوليّ الكبير والعالمَ الجليل بهذه الكرامة؛ ماذا نقول بحقك يا سيّدي يا حضرة الشيخ عبد الله فنحن مُقصِّرُون، فسامحنا يا سيّدي، نُقبّل أقدامكم الشريفة.

المحطّات الخمسة مُتداخلة، يُؤثِّر بعضها في بعض، فالفرد هو الأصل، هو البذرة، وهو لَبِنَة في الأسرة، والمفروض أنَّ الأسرة يكون لهم ارتباط في المساجد، المساجد في كلّ موطن تحلّ فيه، والأُسر هي التي تُعمِّر بيوت الله سبحانه.

بعد قيام دار الإسلام كانت المساجد السبعة، فما المساجد السبْعة؟ السلف يُريدون أنْ يُعلِّمونا وبموافقة الحبيب صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه، أيْنَما جلسوا أنشأوا مسجدًا ـ هذه المساجد السبعة ترتبط بغزوة الأحزاب ـ بل أكثر من هذا، فالإسلام وجّه من خلال خلجات القلوب المُؤمنة الطيّبة المُباركة الموصولة بالله تبارك جلّ في علاه من خلال سيّدنا رسول الله صلَّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه ومَنْ والاه، أنّ بيت الشخص، وبيت الأسرة يُسْتَحَبْ أنْ يكون فيه مُصلّى ـ موضع خاصّ للصلاة ـ فلذلك (جاء سيدنا عِتْبَانَ بْنَ مَالِكٍ رضي الله تعالى عنه وَهُوَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنَ الأَنْصَارِ أَنَّهُ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ أَنْكَرْتُ بَصَرِي، وَأَنَا أُصَلِّي لِقَوْمِي فَإِذَا كَانَتِ الأَمْطَارُ سَالَ الوَادِي الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ آتِيَ مَسْجِدَهُمْ فَأُصَلِّيَ بِهِمْ، وَوَدِدْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَّكَ تَأْتِينِي فَتُصَلِّيَ فِي بَيْتِي، فَأَتَّخِذَهُ مُصَلًّى، قَالَ: فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سَأَفْعَلُ إِنْ [ص:٩٣] شَاءَ اللَّهُ» قَالَ عِتْبَانُ: فَغَدَا رَسُولُ اللَّهِ

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ حِينَ ارْتَفَعَ النَّهَارُ، فَاسْتَأْذَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَذِنْتُ لَهُ، فَلَمْ يَجْلِسْ حَتَّى دَخَلَ البَيْتَ، ثُمَّ قَالَ: «أَيْنَ تُحِبُّ أَنْ أُصَلِّيَ مِنْ بَيْتِكَ» قَالَ: فَأَشَرْتُ لَهُ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنَ البَيْتِ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَبَّرَ، فَقُمْنَا فَصَفَّنَا فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ...) [الامام البخاري رضي الله تعالى عنه].

يا الله! لأنّ المسجد أصل في حياة الأمّة، أنظر حتى داخل البيوت، المسجد داخل بيوتنا، فليهتدِ الذي يتعامل مع المساجد، فلتهتدِ المُؤسسات التي تُعنى بالمساجد، فليهتدِ أصحاب القرار، فلينتبهوا لهذا الفقه الذي لا يُوجد إلّا عند الرَّبَّانيين الموصولين بحضرة سيّد المرسلين عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه أجمعين.

البلد: أيْ المكان الذي تُقيم فيه أيُّها الدَّاعي، وهو المحطة الرابعة: ينبغي أنْ تكون قمَرًا مُنيرًا في البلد الذي تُقيم فيه، إنْ لم تستطع أنْ تكون شمسًا مُشرقة فلتكن على الأقل قمرًا مُضيئًا مُنيرًا أو نجمًا ساطعًا.

فهنا ماذا يُراد منك؟ يُراد منك أنْ ترجع إلى المرحلة الأولى في حياة الحبيب صلَّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم: (وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ ... وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ) الإمام البخاري رحمه الباري سبحانه.

في البلد الذي تُقيم فيه، إمكانات، وقابليات، وشخصيات، فحاول أنْ تستثمر الإمكانات الموجودة، حاول أنْ تقترِب من الشخصيّات، ولكن من دون احتراق، احذر، لا تتركهم، ولكن لا تدخل معهم بشكل تحترق فيه نعوذ بالله تعالى، اعمل لله عزَّ وجلَّ والتزم بكلّ الآداب، وأنْزِل النّاس منازلهم، ونيّتُكَ خالصة لله جلّ وعلا وليتحدَّثِ المُتحدّثون، فلا أحدَ يسلم أبدًا، هذا أصل قائم واضح؛ فلا تلتفت أو تقعد فأنت صاحب رسالة عليك أنْ تُؤدِّيها.

فمثلًا شيخ عشيرة -لا قدَّرَ الله تعالى- مُسرف على نفسه، مشهور في المنطقة بالفسق والفجور، ويُوجد هكذا شخصيّات، فتقول: إذا ذهبت إليه وتعاملت معه سأحترق! نعم، إنْ كنت تحترق فإيّاك، إيّاك أنْ تقترب، ولكن إن وجدْتَ فرصة تنجو فيها فاقترب، وانظروا

لهذا الرجل الصالح في التاريخ الإسلامي، ولا أريد أنْ أسند هذه القصص لأصحابها أو لأزمانها؛ لأنّ المصادر مُختلفة، والقرآن الكريم يُؤدّبنا في القِصّة بأنْ نأخذ فحواها ومعناها، أمَّا الأمور الأخرى التي تتعلَّق بمبنى القصّة فهي غير ضرورية جدًّا في كلّ الحالات، فهذا رجل صالح في موطنه ثريٌّ مُسرف على نفسه، فيوميًّا في قصره حفلة حمراء، غناء ورقص، فماذا صنع الرجل الصالح؟ أتى القصر، طرق الباب فخرَجَتْ خادمة جميلة فسلّم عليها، لم يُمازحها أو ينساق معها في الكلام؛ فهو صاحب رسالة، ولكن بكلّ أدب وحضور قلب سألها سؤالًا: صاحب القصر حرٌّ أم عبدٌ؟ فضحكت عليه، وربّما تعدَّت عليه بالكلام! ألا تعرف مَنْ صاحب القصر؟! ألستَ من هذا البلد؟! هذا سيّد الأحرار، فقال: نعم صحيح، لو كان عبدًا ما فعل ما يفعل، ثم تركها وذهب، وهذا أنموذجٌ للاختراق دون احتراق.

نروي القصّة من ناحية ذوقية وروحية، ولنا أن نتخيل حاله الروحي وقد ربط قلبه بمُرشده ذاكرًا ربّه جلّ وعلا، وكأنّي به يدعو في قلبه، فيقول: يا ربِّي كما أفرحته في الدُّنيا وأعطيته هذا المُلك، الطُفْ به، يا ربّي تبْ عليه، يا رَبِّي وجِّهه إليك.

هل هو حرٌّ أم عبدٌ؟ انظروا عمق الكلمات، إنها كافية لأنّها روح، كلمات قليلة بسيطة لكنها قوية مُنورة صافية بقوة ونور وصفاء الروح، دخلت الجارية وهي تضحك، أما الرجل فذهب في حال سبيله مُتلذّذًا بذكر ربّه، شاكرًا فضله إذ ثبَّتَه فأدَّى رسالته داعيًا إليه سبحانه.

سأل سيد القصر الغافل: من الطارق؟ فقالت الجارية: رجلٌ مجنون.

انظر: يُمكن أنْ يُقال عنك: مجنون، وهذه لها أصل، فقد قيلت للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [سورة الحجر: ٦].

فلا تغضب إذا قالوا لك مجنون، كلا، تشرَّف بها، اشكُر الله عزَّ وجلَّ عليها؛ لأنّها تربطك بحبيبك عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام، الذي ما غضب ولا تنكّر لهم، ولا جيّش الجيوش لمقاتلتهم على هذه الكلمة، كلا، بل لطف بهم، وقال:

(اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُون) الإمام الطبراني رحمه الله عزّ وجلّ.

فقال صاحب القصر: وماذا قال المجنون؟ قالت: سألني عنكَ: هل أنتَ حرٌّ أم عبدٌ؟ يا الله! انظر: كلمات فيها روح لامست شغاف قلبه، فانتفض، وقام وخرج حافيًا، نسيَّ أنْ يلبس حذاءً - أكرمكم الله- وطار يبحث عن الرجل، ثم تاب إلى الله عزَّ وجلَّ وبقِي طوال حياته حافيًا وصار من الصالحين، واشتهر بالحافي رضي الله تعالى عنه.

فإذا كنت في بلدٍ فيه طاقات، فيه أشخاص، توجه إليهم بصدق وإخلاص وبصحبة روحانية مُرشدك، وبإذنه تعالى تستطيع الدخول إلى قلوبهم فتزرع فيها بذور النور التي لديك.

أيّها الدعاة إلى الله عزَّ وجلَّ استثمروا أحوال النّاس، فإذا كان هناك شيخ عشيرة مُسرف على نفسه فلا تقل هذا ما فيه بقعة خير! كلا، استثمر بعض الأحوال التي تأتي عليه، كن دائمًا مُتطلّعًا مُستمعًا، اجعل البلد مُضاءً أمامك، تعرف على ما فيه، مداخله ومخارجه، انتبه، لكن إيّاك أنْ تعدَّ نفسك أفضل الموجودين، وأنّك أقرب إلى الله عزَّ وجلَّ، إيّاك وإياك، فهذه مزلقة، وقد سمعت سيّدي حضرة الشيخ عبد الله طيّب الله تعالى روحه وذكره وثراه يقول:

يا بني! إنّي أعِظُ صاحب الكبيرة ولا أظنُّ أنّي خيرٌ منه.

إذنْ: استثمار الطاقات، والتفاعل مع البلد، المكان الذي أنْتَ فيه، جامعك لابدَّ أنْ يكون من أفضل المحطّات التي يأوي إليها النّاس، من كلّ الجوانب، من الرّوحانية أوّلًا، التي هي الأصل، من الصدق والإخلاص ثم الطهارة والنظافة والتألّق داخل المسجد، وفي باحته بل حتى في محيطه الخارجي، والشارع المُؤدي إليه.

الأرض وما عليها: رسالتنا عالمية والحمد لله، ورسولنا صلَّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم أُرسل للعالم أجمع، فينبغي عليك أنْ تستَثمِر كلَّ ما يُمكن استثماره لإيصال هذا النّور، لطرد الظلمات أينَما كانت، وعن طريق كل الوسائل المشروعة المُتاحة، مثل وسائل التواصل الاجتماعي أو المواصلة بالسفر واللقاء، عندك مجموعة من الأصدقاء، تواصل

معهم بكلِّ صدق وإخلاص، وبكلّ لطف مع فقه وعلم مُبارك مُختصر، تستطيع التأثير بهم، واخراجهم من الظلمات إلى النور، لا تُضيّع على النّاس أعمارهم بخلافات ومسائل عقديّة، لا، لا، فقط زبدة مُمتازة مُختصرة واضحة بيّنة، ومن هنا مرَّة أخرى أؤكد وأقول: ليس لدينا غير الكتاب الكريم والسُنّة النبوية المُشرَّفة، فاقرأ عليهم القرآن الكريم:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [سورة النبأ: ٦ - ٧].

واشرح لهم عن الجبال فيما عندك من ثقافة عامّة حول الجبال: يا بني، يا أخي، يا أختي، يا بنتي، يا أمّي، ما رأيكم بهذا المخلوق، الجبل: انظروا كيف صار، دغدغوا عقولهم وفِطَرهم، سيقولون الله - سبحانه وتعالى- فقل: لقد مَنّ الله عزّ شأنه علينا بهذه النعم، أفلَا نشكره؟ لو أعطانا أحد قلمًا نقول له: شكرًا جزيلًا، وربّما إذا رأيناه بعد عشر سنوات نقول: هذا الإنسان في يوم ما أعطاني قلمًا.

فلأجل هذه النّعم ألَا يستحق سبحانه أنْ نشكره؟ كيف لا يستحق؟

نقول للمخاطب: إنْ شاء الله تعالى عقلك نيّرٌ مُبارك، فمثل هذه الدّنيا المنظورة توجد هناك حياة أخرى غير منظورة، فيها جنّة، فيها نار، وكذا، كذا، ونُحاول أنْ نُركّز على الرحمة:

(يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا) الإمام البخاري عليه رحمة الباري جلّ وعلا.

(بُعِثْتُ رَحْمَةً مُهْدَاةً) الإمام الطبراني رحمه الله عزّ شأنه.

(إنمَّا أَنا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ) الإمام الحاكم رحمه الله جلّ جلاله.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء عليهم الصلاة والتسليم: ١٠٧].

وهكذا يكون الارتباط بين المنظومات الخمسة؛ فكلّها تصير منظومة واحدة: فرد، أسرة، مسجد، بلدك، الأرض وما عليها.

ولا يمكن أبدًا، أبدًا، أبدًا، أنْ تُؤثّر من دون ارتباطك بالمُؤثِّر سبحانه وتعالى، بالخالق المُبدع المُدبّر جلَّ جلاله وعمَّ نواله، ارتباطك وحضورك ذِكرًا وفِكرًا وشكرًا معه جلّ جلاله، وهذا لا يكون إلّا حين تكون في معيّة:

﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [سورة النساء: ٦٩].

في كلّ ركعة نقرأ الفاتحة، نقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [سورة الفاتحة: ٦].

لكن يأبى الله عزَّ وجلَّ أنْ يجعل الصراط المستقيم نافعًا باستقامته فقط، بل لا بد ان يتنوّر ويتعطّر وتكون فيه نكهة التقوى للمولى جلّ وعلا بتشرّفه بالصّالحين، فلذلك قال بعد ذلك: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [سورة الفاتحة: ٦-٧].

لا تتركني يا ربي وحدي على الصراط المستقيم، بل اجعلني في معيَّتهم، وتحت أجنحتهم، ونظرهم: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [سورة الكهف: ٢٨].

هذه كلّها مُرتبطة بـ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ . . .﴾، وخير ما يُفسّر القرآن هو القرآن نفسه، ففسَّره قول الرحمن جلّت صفاته:

﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [سورة النساء: ٦٩].

الخلاصة التي يمكن أنْ نخرج بها: هناك خَطٌّ بيانيّ في حياة المُسلم الرّباني المُؤمن الداعية، خَطٌّ بيانيّ ينبغِيْ أنْ يُحافِظ عليه، وينبغي أنْ يُنمّى ويُستثمر، ذاك هو الخط الرّوحاني، وهذا

في كلّ المراحل، في المرحلة الأولى عندما ربّ العالمين حافظ على فطرة سيّدنا النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله و صحبه وسلّم، وبعد ذلك قوّاها فجعل لها زيادات شَرْح الصّدر، حفاظًا عليها، وقبل الإعلان عن النبوّة، كانت الخلوة؛ لأنّها تزيد مَنسُوب هذا الخط البياني، وسيتألّق أكثر، وهذا الخَطّ البياني يبقى معك مُتألّقًا مُترقّيًا إنْ كنتَ صادقًا مُخلصًا حتّى في الجنّة، نعم سيصعد هذا الخط البياني بما تركْتَ خلفك من آثار.

هذا الخط البياني يُوازيه خطّ آخر في حضارة الإسلام، وهو الخطّ الجسماني، الخطّ الجسماني بالأحكام الشرعية، يجب أيضًا أنْ نُحافظ عليه ونُنمّيه ونُرقّيه، ولكنَّ هذا الخَطّ من صفته أنَّه يتردّد ابتلاءً واختبارًا، فأنْتَ اليوم غنيّ، غدًا تغدو فقيرًا، فهل تتعلّق بالخط الجسماني بحيثُ يُؤثِرُ على الخط الرّوحاني؟ كلا، إيّاك وإيّاك، احذر أنْ تترك الخطّ المادي الجسماني يُؤثر على خطّك الروحاني، مهما كان، فالخط الروحاني لا ينبغي أنْ ينقطع في التوجّه إلى الله عزَّ وجلَّ، وخيرُ أنيس في العلوم مثال: الصلاة في الإسلام عمود الدِّين، كلّ الأحكام الشرعيّة فيها فُسحة مُمكن أنّها لا تنطبق عليك، فإذا كنت أعزبًا فأنت غير مُطالب بأحكام الزّوجية؛ وآخر مُتزوّج وليس عنده ذرّيّة، فهو غير مُطالبٍ بأحكام الذريّة؛ وآخر مُسلم مُؤمن يُصلّي ويصوم، ولكن ليس لديه أموال فهذا غير مُطالب بالزّكاة، غير مطالب بالحجّ، إلى آخره، إلّا الصلاة، لماذا الصلاة؟ لأنّ الصلاة تُعدّ الرُّوح في الدِّين؛ لذلك فلا فُسحة فيها، إلّا اللّهمَّ إذا فقدَ وعيه، فلا صلاة عليه، وإذا مات فلا حساب عليه، أما إذا أفاق فهناك أحكام شرعيّة تتعلّق بصلاته، ينبغي أنْ يُراجعها، ولا يقولُ: كنتُ فاقدًا للوعي فلا أصلي، كلا، فهناك أقوال للفقهاء رضي الله تعالى عنهم في هذه المسألة.

لا أستطيع أنْ أتوضأ! تيمَّم، لا أستطيع أنْ أتيمَّم! صلِّ بلا وضوء ولا تيمّم، أعجز عن الوقوف؟ على العَينِ والرأس، اجلسْ وصلِّ، لا أقوى على الجلوس، صلِّ وأنت مُضطجعٌ، يا جماعة لا أستطيع أنْ أحرّك رأسي ـ نسأل الله تعالى العافية لجميع مرضى العالمين ـ تقول له: صلِّ بقلبك، لكن لا تقل له: اترك الصلاة أو يجوز لك أنْ تترك الصلاة.

هذا الخط الروحاني، ينبغي أنْ يبقى، انظر لقد ذهبتْ الجسمانية كلّها، لا يستطيع أنْ يتوضأ، لا يستطيع أنْ يقف، لا يستطيع أنْ يجلس، لا يستطيع حتّى أنْ يُحرِّك رأسه ليُومئ بالرّكوع والسجود، فهذه كلّها ظواهر تُبيّنُ الخطَّ البياني الجِسْمَاني.

فيُمْكِن أنْ يتردّد خفضًا ورَفْعًا، يُمكن للخطّ الجسماني أنْ يَرتَفِعَ أو ينخفض، هذا مُمكن، ولكن الخط الرّوحاني يجب أنْ يبقَى، لا يموت، إذا مات فاحذر، فأنْتَ في خطر عظيم جدًّا، قدْ تكون في عداد المُنافقين، قدْ تَكوْن في عداد الكافرين - نعوذ بالله تعالى- لابُدَّ أنْ تبقى مُتمسِّكًا بالخطّ البَيانِي الرُّوحاني، وتُجاهد نفسَكَ لأجل أنْ ترفَع هذا الخطّ البياني، ليبقى دائِمًا مُرتفعًا، فإذا توقَّف راجع نفسك، انظر ما أسباب التوقّف، احذر لا تجعله يتراجَع، أمَّا انعدام الخطّ الروحاني، وبذرته ـ لا قدّر الله تعالى ـ فهذا حال الكافرين والمنافقين:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [سورة المنافقون: ٣].

إذنْ هذه هي الخلاصة التي نخرج بها: لديك خطّان: رّوحاني وجسمي، فما أحلاهما وأجملهما إنْ تعانقتْا وتعاونتا في نشر الخير: (الْمُؤْمِنُ الْقَوِىُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ) الإمام مسلم رحمه المنعم جلّ وعلا.

مُؤمن قويّ في الخطّ الرّوحاني، وقويّ في الخطّ الجسماني، ومن هنا أدعو كلَّ المسلمين أنْ يعتنوا بدنياهم، واستثمار أموالهم، وألا يكونوا فقراء مُحتاجين أذلّاء، بعضهم يمدُّ يدَه لِمَن لا قيْمة له، كلا، لكن إذا تأثر الخطّ الجسماني فاعلم أنَّ الله عزَّ وجلَّ أراد لك الخير إنْ ثبَّتك في الخطّ الرّوحاني، أمَّا إذا تأرجح الخَطّ الرّوحاني بسبب اضطراب الخط الجسماني، فلا، بل يجب عليك أنْ تنتبه، فلو أنَّ أحدًا هُجِّرَ من بلده فأصابته الكآبة، وترك كلّ شيء، فقد خسر الخسران المُبين - نعوذ بالله تبارك وتعالى- أما إذا قال: الحمد لله والشّكر، ليكن ذلك فسيّدنا آدم عليه السلام أُخرج من الجنّة، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام هُجّروا، فالهجرة سُنّة كونيّة، الطيور تُهاجر، المياه تُهاجر، الهواء يُهاجر، كلّ شيء يُهاجر، وخذ الأمور بسلاسة، وأنظر فأنَّ أمر المُؤمن طالما خطَّه الرّوحاني في علوٍّ وارتقاء، فهو على خير، وكلّ أموره

إلى خير، المهم أنَّ الخطَّ الرّوحاني لا يتأثّر، كذا إذا مرضت فاشكر الله عزَّ وجلَّ، قل الحمد لله، فالمرض جيّد للإنسان، صحيح أننا مُطالبون بسؤال الله العافية، لكن المَرضَ يُذكّرُنا بأنّنا ضِعاف، ليس كما كنا نحسب أنفسنا أقوياء وأشدّاء، نتعالى على النّاس أو نتجاوز حتى على ربِّ النّاس - عياذًا بالله تبارك وتعالى- كلا، وإنّما يقول: هذا خير، ربُّ العالمين أعطانا التنبيه، فعندي ذنوب كثيرة، وكلنا يا إخوتي، بأيّ شكل من الأشكال، وكلٌّ بحسب حاله لدينا ذنوب ـ نسأل الله العفو والعافية ـ فبالمرض تُخفِّف ذنوبنا، وإنْ شاء الله تمحوها، تحرقها حرقًا، يا الله! ما أعظمه من خير!

إنْ شاء الله تعالى نأمل بأنّ الذنوب احترقت، ونحن نتفاءل بفضله وعفوه ورحمته سبحانه، فإن احترقت الذنوب، وبقي المرض، فهو بشارة برُقي الدرجات، ما شاء الله، الحمد لله والشكر، ولربّما صارت عندك قناعة بأنّ درجاتك عالية، وما زال البلاء، فهنا الله سبحانه اختارني لأكون قدوة، فالبلاء ليس فقط لتكفير الذنوب، ولا لتكثير الحسنات والدرجات فقط، وإنّما أرادك الله عزَّ وجلَّ أنْ تكون في مقام القدوات، يا سلام فانظروا أين رقّاك.

إذنْ أمر المُؤمن كلّه له خير، انظروا أمرُ مَنْ؟ المُؤمن، ماذا يعني؟ يعني أنّ الخط الروحاني عنده مُستقر، بلْ مُتألّق، وهذا له أسبابه، وأسبابه تفعيل منهج التزكية النبويّة الشريفة، والعمل الروحي الإسلامي.

اللهمّ صلِّ وسلّم وبارك على حضرة خاتم النبيّين، وسيّد المُرسلين، سيّدنا وحبيبنا مُحمَّد، وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

الخاتمة

الحمد لله تعالى الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على إمام الدعاة والأنبياء، سيدنا محمد وآله وصحبه الأصفياء، ومن أهتدى بهديه إلى يوم الدين واللقاء.

لقد حوى القرآن العظيم، وسيرة خاتم النبيين عليه والصلاة والتسليم مقومات سلامة الإنسان والأمم، وسُبل تنميتها وسعادتها بما يحقق غاية هذا الوجود، ومن ذلك قواعد إعداد الإنسان الصالح على نحو عام، والداعية على نحو خاص، فلقد عاش النبي صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم أغلب الأطوار والمراحل التي يمر بها الإنسان، وكان لكل طور منها طابعة الأمثل الذي يستقي منه الداعية المسلم معالم سيره في دعوته إلى الله جل شأنه، فحياته الشريفة كاملة مُكملة من جانب الفطرة والعقل والروح.

إن دراسة هذه المراحل ليست للفلسفة والترف الفكري، بل من باب تحفيز العقول والقلوب لإثراء الجانب التطبيقي في الدعوة إلى الله تعالى؛ فالأمة بحاجة إلى صدقِ وهمةِ الدعاة إليه سبحانه؛ فكلنا في سفينة الحياة التي تنجو بوجود أصحاب الحكمة والنصيحة والموعظة الحسنة، وإلا فإنها ستغرق بكل من فيها لا قدر الله تعالى.

لابد للخطاب الدعوي أن يصدرَ من قلوب ذاكرة زاهدة، ومن عقول نيرة بالعلم الشرعي الصحيح، والحكمة اللطيفة الموجهة لاستثمار الفرص والأوقات والإمكانات، محصنة بخبرة وفهم وعلوم السادة العلماء العاملين، والسادة الأولياء المرشدين لتأتي الثمرات يانعة راسخة مباركة نوعًا وكمًا، لعلنا نُشكل لبنة في منهج الالتفات إلى نفوسنا، ولانطلاقة جادة للتغيير في مجتمعاتنا، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبة ومن أهتدى بهديه إلى يوم الدين.